

كُتُب تحتَرق

تاريخ تدمير المكتبات

لوسيان بولاسترون

ترجمة: هاشم صالح ومحمد مخلوف
مراجعة: عبد الودود العمراني



كُتب تحترق

تاريخ تدمير المكتبات

العنوان الأصلي للكتاب

Livres en feu. Histoire de la destruction sans fin des bibliothèques

Lucien X. Polastron

كلمات مفاتيح:

الكتاب - الكتاب المقدّس - الجدل - الأسطورة - الفقه - بيت الحكمة - التّرجمة - الفلسفة - المعتزلة - الإسماعيليّة - الحداثة - لوسيان بولاسترون - هاشم صالح - محمد مخلوف - حمادي بن جاء بالله

الدوحة 2010 عاصمة الثقافة العربية

كُتُب تحترق

تاريخ تدمير المكتبات

لوسيان بولاسترون

ترجمة: هاشم صالح ومحمد مخلوف
مراجعة: عبد الودود العمراني

العنوان: "كتب تحترق. تاريخ تدمير المكتبات"
تأليف: لوسيان بولاسترون
ترجمة: هاشم صالح ومحمد مخلوف



الناشر: وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر©
قسم الترجمة، إدارة البحوث والدراسات الثقافية
الدوحة ص.ب. 23700 قطر
هاتف: +974.4670696
فاكس: +974.4653925
رقم الإيداع: دار الكتب القطرية، 88-2009
الترقيم الدولي (ردمك): 6-46-82-99921
الطبعة العربية: الأولى/2010

الناشر/الموزع: دار محمد علي للنشر
صفاقس /تونس
هاتف: 00216/74407440
فاكس: 00216/74407441
الموقع: www.edition-medali.com
البريد الإلكتروني: edition.medali@tunet.tn
رقم الناشر: 387-10/113
الترقيم الدولي: 2-288-33-9973-978
يوزع أيضاً في نيل وفرات.كوم www.nwf.com

التقديم

يسرّ إدارة البحوث والدراسات الثقافية بوزارة الثقافة والفنون والتراث أن تقدّم للقارئ العربي هذه الترجمة العربية لمؤلّف لوسيان بولاسترون **Livres en Feu** **(كتُب تحترق)**. ويجوز اعتبار هذا الكتاب موسوعة شاملة لتاريخ المكتبات منذ الأزمان الغابرة إلى تاريخ اليوم في عصرنا الرقمي.

ثمّ تتّضح شمولية هذا العمل لأنّ الكاتب خصّص فصولاً متعددة لجميع الحضارات من مختلف القارات، كما حَبا مكتبة الإسكندرية بنصيب الأسد. ويجدر التذكير بأنّ لوسيان بولاسترون الفرنسي الأصل باحث متخصص في تاريخ الورق والمكتبات علاوة على حذقه اللغتين الصينية والعربية.

في برنامج الترجمات التي تُنجزها إدارة البحوث والدراسات الثقافية، نسعى لما يمكن أن نطلق عليه "الترجمة النقدية". فمع التزامنا الصارم بالأمانة في ترجمة محتويات الكتب التي ننتقيها، فإنّنا نعمل على إبداء وجهة نظر ثقافتنا وحضارتنا في المسائل التي يتطرّق إليها الكتاب

الأصلي، كي لا نكون مستهلكين غافلين... ويتّضح هذا التوجّه ضمن الكتاب الراهن في المقدّمة التي طلبنا من الأستاذ الدكتور محمد بن جاء بالله تحريرها ردًّا على ادعاء الكاتب بأنّ عمرو بن العاص دمّر مكتبة الإسكندرية.

وقد حرّر أ. د. جاء بالله ردًّا يتّسم بالروح العلمية الموضوعية بعيدًا عن التحزّب لحضارة أو معتقد. وسيجد القارئ هذا الردّ الموثّق والمحكَم في صدر الكتاب حيث يُثبت الناقد والأكاديمي أ. د. جاء بالله أنّ ادّعاء أنّ عمرو دمّر أو أمر بتدمير مكتبة الإسكندرية ليس إلاّ افتراء لا يستقيم أمام البحث العلمي والوثائق التاريخية...

ولا بدّ أن نشكر المترجمَين هاشم صالح ومحمد مخلوف على جهودهما المضنية في ترجمة هذا الكتاب الضخم عن الفرنسية، وإثراء المكتبة العربية بهذه الوثيقة المهمة للباحثين والدارسين في مجالات التاريخ وعلم الآثار والحضارات. وسعيًا منّا إلى إصدار المؤلف في حلة متقنة قدر المستطاع، كلّفنا المترجم الخبير عبد الودود العمراني بمراجعة الترجمة.

وإذ نضع هذا الكتاب بين أيدي القراء العرب آملين أن ينال استحسانهم، فإننا نرحّب بقراءاتهم النقدية وردودهم البناءة، والله من وراء القصد.

الدوحة مارس 2010

د. مرزوق بشير مرزوق

مدير إدارة البحوث والدراسات الثقافية

فهرس المحتويات

هل حرق عمرو مكتبة الإسكندرية ؟[1]

أ.د. حماذي بن جاءبالله

ما على الشعوب رأي أضر من ذهابها إلى أنّ "كُتُب أعدائِنا أعداؤُنا"!

وفي ثنايا هذا الكتاب الذي تضعه وزارة الثقافة والفنون والتراث بدولة قطر بتدبير حكيم بين يدي القارئ العربي ما يدلّ على أنّ مشاكل الفكر لا علاج لها إلا بمزيد تعميق التفكير ونشره بين الناس، وأنّ العنف – كانت أشكاله ما كانت وكانت مقاصد مقترفيه ما كانت– ليس الأداة الملائمة سواء لمواجهة الأفكار في كنف الالتزام بما توجبه الحقيقة وتحريرِ العقول في مجرى سنن الزمان أو لحماية الهُويّات وتنمية الأوطان .

فالأغراض النبيلة إنما يُتوسّل إليها دائما بالسّبل النبيلة.

ولا ريب أنّ الأمم لا تركن إلى رفض الآخر ثقافة وفكرًا إلا في

---

1 صاحب هذه السطور مدين بها إلى مركز الترجمة بوزارة الثقافة والفنون والتراث بدولة قطر الذي سمح بأن تكون تعليقاً على هامش ما جاء في هذا الكتاب بشأن مكتبة الإسكندرية أيام دخول العرب المسلمين إلى مصر في العهد العمري.

لحظات الوهن في تاريخها. ولنا مثلاً في فهارس ابن النديم والطوسي والإشبيلي فضلاً عن طبقات ابن أبي أصيبعة ما يشير في جلاء إلى أنّ العربي عرف – يوم كان عالماً عاملاً– كيف يأخذ عن الدنيا في غير وجل وكيف يجزل لها العطاء في غير منّ... أمّا يوم عظمت في عينه الصغائر فإنّه ابتدع عقيدة الانطواء على الذات وفضيلة الاكتفاء بالمتاح. ثمّ أوجد في تاريخه ما يبرر به قعود همته مثل أسطورة حرق مكتبة الإسكندرية. وكأنه يريد لأمسه الزاهر أن يشهد ليومه البائس..

والحق إنّ مما يوجـــب إعادة النظر في مسألة إتلاف مكتبة الإسكندرية على يدي عمرو بـــن العاص، بإذن من أمير المؤمنين عمر ابن الخطـــاب، أنّ روايتها أتت من المؤرخين العرب المتأخرين بحوالي ستة قرون عن فتح مصر سنة 642م، مثلما هو شأن ابن القفطي[1]

---

1 جاء في ***كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء*** للوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفى سنة 646 هجرية طبعة مصر 1326 هجرية ص222 أنّ عمرو بن العاص لما فتح مصر تعرف على يحي النحوي وعرف موضعه من العلم وفتن به لما كانت له من حجج منطقية تنفي التثليث ولما له من ألفاظ فلسفية لم تألفها العرب فلازمه و كاد لا يفارقه حتى قال له يحي يوما."إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه وأما ما لا نفع لكم به فنحن أولى به فأمر بالإفراج عنه. فقال له عمرو وما الذي تحتاج إليه قال كتب الحكمة في الخزائن الملوكية وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون إليها ولا نفع لكم بها...." فقال عمرو "لا يمكنني أن آمر فيها بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكتب إلى عمر وعرفه قول يحي الذي ذكرناه واستأذنه ما الذي يصنعه فيها فورد عليه كتاب عمر يقول فيه وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها. فشرع عمرو بن العاص في تفرقتها على حمامات الإسكندرية وأحرقها في مواقدها.."

والملطي[1] والبغدادي[2] والمقريزي[3] وكلهم من القرن الثالث عشر ميلادي. نقل بعضهم عن بعض دون مساءلة أو تحقيق وتبعهم في ذلك بعض المفكرين المحدثين مثل دالامبار **D'Alembert** وديدرو **Diderot** المشرفين على تأليف الموسوعة الفرنسية في القرن الثامن عشر[4] ثم هيغل **Hegel**[5] وتوينبي **A. J. Toynbee** وإن بكثير من التحفظ. فهيغل يورد "المسألة" على أنها "إشاعة"[6] مشيراً إلى ما تلتئم عليه من تناقض مع ما تأكّد من عناية المسلمين "بالفنون والعلوم ونشرها في كل مكان"[7]. أما توينببي فهو لم يتوقف عندها طويلا واعتبرها مجرد "أسطورة"[8] على معنى الخبر الزائف في عرف المؤرّخين.

---

1 د.ت ص175/176 حيث نجد ذات الإشاعة بـالـت العبارة انظر كتابه ***تاريخ مختصر الدول.***

2 عبد اللطيف البغدادي كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بارد مصر القاهرة 1869 ص 28 حيث تقرأ ما يلي "ورأيت أيضاً حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة.. وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس فيه أرسطاطاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم التي بناها الإسكندر... وفيها كانت خزانة الكتب التي حرقها عمر ابن العاص بإذن من عمر"

3 انظر كتابه ***المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار*** طبعة بولاق 1272 هجرية ص 159 فصل ذكر عمود السواري الذي كان "دار علم وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص بإشارة عمر بن الخطاب..."

4 أنظر في ذلك الموسوعة الفرنسية فصل Bibliothèque .

5 Hegel. *Leçon sur la philosophie de l'histoire.* Traduction par J. Gibelin. Paris. Vrin. 1970. p. 277.

6 هيغل، المرجع المذكور، ص277 سطر 36.

7 المرجع السابق نفسه.

8 A. J. Toynbee. *Histoire. Un Essai d'interprétation.* Paris. Gallimard. 1951 (2ème édition). p. 566.

ولعلّ غوستاف لوبون Gustave le Bon كان أحسم موقفاً وأقرب إلى الحقيقة حين اعتبر المسألة مجرد "خرافة"[1] دحضها البحث العلمي "دحضاً تاماً"[2] بحيث ليس ثمّة اليوم ما يدعو إلى إثارتها من جديد "وليس ثمّة أيسر من قيام الدليل بشواهد غاية في الوضوح على أنّ المسيحيين كانوا – قبل مجيء العرب بكثير – قد أتلفوا كتب وثنيّي الإسكندرية بعناية لا تقل عن عنايتهم بتحطيم الأصنام، وبالتّالي فإنهم لم يبقوا على شيء يمكن إحراقه"[3].

وممّا يحض على الأخذ بما ذهب إليه هذا المفكر الفرنسي أنّ المؤرّخين العرب أنفسهم لم يتورطوا جميعا في هذه "الخرافة".

فلا أثر لها في ما كتب ابن الأثير عن فتح مصر[4] ولا في ما كتب عن تمرّد أهل الإسكندرية بعد الفتح[5] ولا أثر لها في تاريخ ابن العماد[6] ولا في تاريخ الطبري[7].

بل أنّ الأخطر من ذلك كله أنّ أنتيشيوس Entychius شيخ المؤرّخين كما يقول جيبون Gibbon لم يعرض لتلك المسألة لا من قريب

---

1 Gustave Le Bon, *la Civilisation des arabes*, Paris, Edition Le Sycomore, 1980, p. 150.

2 المرجع نفسه.

3 المرجع نفسه.

4 ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار إحياء الكتاب العربي، بيروت 1989. المجلد الثاني، ص 175-177.

5 المصدر نفسه، ص 230.

6 شهاب الدين بن العماد، شذرات الذهب، دار القلم بيروت (د. ت) المجلد الأول، ص 51.

7 الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد الثاني، ص 512-516.

ولا من بعيد، وهو الذي وصف غزوة الإسكندرية وصفاً دقيقاً[1] بحيث ما كان له أن يغفل عن أمر جلل لو إنّه وقع.

أمّا ابن خلدون فإنه لم يتحدث عن تلك "الواقعة" أصلاً في ما اصطفاه من قول في فتح مصر[2] وكذلك كان شأن ابن كثير في "البداية والنهاية"[3] على الرغم مما بدا على الرجلين من علامات تجعلهما أميل إلى تصديقها.

---

1 نستأذن القارئ الكريم عند هذا الموضع في أن نورد فقرة مطولة مما كتبه هذا المؤرّخ الإنكليزي في مسألة حرق مكتبة الإسكندرية. فبعد أن بيّن أنّ الفكر الأوروبي استقى هذا الخبر من الترجمة اللاتينية لمؤرّخ مسلم اسمه أبو الفرج Abulpharage يقول ما يلي **"لقد أعيد سرد هذه الرواية ألف مرّة وما من عالم لم يأسف في غيظ مشروع لما لحق المعرفة والفنون وعبقرية العصر القديم من تلف لا تدارك له. أمّا أنا فإنّي أميل إلى إنكار الواقعة وإنكار نتائجها. فلأمّا الواقعة فهي غريبة لا محالة حتى أن المؤرّخ الذي ساقها نفسه يقول فيها: "اسمعوا واعجبوا لما تسمعون!" ثمّ إن خبرا منقطعاً يصدر عن رجل غريب يكتب بعد مضيّ ستة قرون وهو على مشارف همذان لهو خبر يلغيه صمت مؤرخين قريبين من العصر وكلاهما من مصر. وقد قدم لنا الشيخ الجليل أوتيشيوس Eutychius وصفاً دقيقاً لغزو الإسكندرية. ثمّ إن ما ينسب إلى عمر من قرار لا يتلاءم البتة مع أشد التعاليم الفقهية ثباتاً وأرسخها في السنة الإسلامية..."**. أمّا المؤرّخ الثاني الذي تحدّث عنه جيبون Gibbon فهو الماسن Elmacin الذي وضع كتابا في تاريخ العرب ولا أثر فيه **"لهذه الطرفة العجيبة"** "Cette anecdote curieuse" أنظر: E. Gibbon <u>*Histoire de la décadence et de la chute de l'Empire Romain*</u>, Nouvelle édition. Traduction par F. Guizot, Paris, 1828, Tome X, p 263-264.

2 ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، منشورات مؤسّسة الأعلى للمطبوعات بيروت، 1971. ص 114-115 من تتمة الجزء الثاني.

3 الحافظ ابن كثير، <u>البداية والنهاية</u> (المصدر المذكور).

فقد أطنب ابن كثير في رواية الأخبار المتعلّقة بما نسب إلى الرسول العربي (ص) من مواقف تنكر على المسلم الاطلاع على "أسفار الأولين" و"قصصهم" لا سيما وأنّ بين يديه "أحسن القصص" وصحيح "أنباء الغيب". وجاء عمر إلى النبي (ص) بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه (...) فغضب وقال "أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذّبون أو بباطل فتصدّقونه. والذي نفسي بيده لو أنّ موسى كان حيّا ما وسعه إلاّ أن يتبعني". فلكل أمّة[1] كتاب "وإنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين"[2].

وفي رواية أخرى أنّ الرّسول العربي (ص) رأى في يد عمر كتابا فسأله عنه فقال: "يا رسول الله كتاب نسخته لنزداد به علما إلى علمنا" فغضب رسول الله (ص) حتى احمرت وجنتاه ثمّ نودي بالصلاة جامعة فقالت الأنصار أغضب نبيكم (ص)؟ السلاح، السلاح! فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله (ص) فقال : "يا أيّها النّاس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لي اختصاراً ولقد أتيت لكم بها بيضاء نقية فلا تهوّكوا ولا يغرنكم المتهوّكون". قال عمر "فقمت فقلت رضيت بالله ربّا وبالإسلام دينا وبك رسولا"[3].

---

1 الحافظ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار مكتبة الهلال، بيروت 1990، الجزء الثالث. ص 274 (تفسير الآيات الثلاث الأولى من سورة يوسف).

2 المصدر نفسه.

3 المصدر نفسه.

وإلى مثل تلك "الأخبار" ذهب ابن خلدون في المقدّمة حيث حكى[1] أنّ "رسول الله (ص) رأى في يد عمر رضي الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتّى تبين الغضب في وجهه ثمّ قال : ألم آتكم بها بيضاء نقية؟ والله لو كان موسى حيّا ما وسعه إلاّ اتباعي"[2].

فلو كان الأمر كذلك لأدركنا ما ينسب إلى عمر من سيرة تجاه "أسفار الأولين" وما يمكن تبعا لذلك أن يصدر عنه من مواقف لو استشاره عمر ابن العاص في أمر مكتبة الإسكندرية. إلاّ أنّ دواعي الشك في هذه المسألة أقوى من عوامل تصديقها.

وممّا يجعل الشكوك على تلك المقالة مشروعة قوية:

1)- أنّ ابن كثير وابن خلدون – على ما ذهبا إليه من أخبار – لم يتحدثا عن إتلاف مكتبة الإسكندرية غداة الفتح العربي الإسلامي.

2)- وأنّ ابن كثير نفسه يعتبر ما نسب إلى الرسول العربي (ص) من موقف من عمر إذ اطلع على "التوراة" أو على جزء منها من الأخبار "الضعيفة" والأحاديث "الغريبة" التي ردها البخاري[3]. وإذا ضعف الأصل تهافت الفرع.

---

1 أورد ابن كثير (المصدر نفسه ص 274 و275) أن عمر بلغه أن أحدهم نسخ كتاب دانيال فضربه ثلاثاً وتلا عليه "ثلاثاً" قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ إلى ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ فقال الرجل: "مرني بأمرك أتبعه. قال: انطلق فامحه بالجميع والصوف الأبيض ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس. فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من النّاس لأنهكنّك عقوبة...".

2 ابن خلدون، المقدمة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت 1961 ص 781.

3 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم المجلد الثالث ص 275.

3)- أمّا ما لم يحقق فيه المؤرخان -على جلالة قدرهما- فأنهما سلّما ضمنيا بأنه كان بإمكان عمر أن يقرأ التوراة. وإذا كان ذلك فبأية لغة؟

أ- هل بالعبرية[1] وليس لنا في سيرة عمر ما يفيد أنه كان يعرفها؟

ب- هل بالعربية وليس ثمّة ما يشير إلى ترجمة التوراة إلى العربيّة قبل القرن العاشر ميلادي على يدي سعدية الفيومي[2].

ج- هل قرأ عمر التوراة باليونانية وليس ثمّة ما يشير إلى أنه كان يعرف تلك اللّغة أو أنّها كانت متداولة بين أهل مكّة[3].

---

1 أنظر: Le Bible, Traduction œcuménique, Paris, Les Editions du Cerf et Société Biblique Française, 1994. p 25-26 de l'introduction.

2 هـو سـعيد بـن يوسـف صاحب كتاب الأمانات والاعتقادات حققه S. Landauer من جامعة ستراسبورغ ونشره في لايدن Leiden سنة 1880 في لغته الأصلية أي العربية. أنظر في شأنه الفصل 40 من كتاب.

- *History of Islamic Phylosophy*, Paris, Edited by S. H. Nasr and O. Leaman, Routledge, London an New York, 1996, p 696-711.
- E. Renan, (1857) *Etudes d'histoire religieuse*, Paris, Gallimard, p 1992, p 423-432.
- Chaim Cohen, "Jewish Medieval Commentary on the Book of Genesis and Modern Biblical Philology", *in The Jewish Quarterly Review, Vol 81, n° 12, 1990, p 1-11.*
- Daniel J. Lasker, "The Jewish Critique of Christianity under islam in the Middle Ages, in, *Proceedings of the American Academy of Jewish Researches*, Vol 57, 1990 p 121-153.
- J. Derenbourg, Version d'Isaïe de R. Saadia, in Zeikschrift für du alttestamentliche Wissenschaft, 9, 1989 p 1-64.

3 ترجمت التوراة إلى اليونانية بالإسكندرية في عهد بطليموس سوتار Ptoléméa Sôter (322-283 ق. م.)

وإذا كان الأمر على ما ذهبنا إليه فكيف لعمر أن يقرأ ما في صحف اليهود، حتى ينهاه الرسول عن ذلك ويغضب فيجتمع إليه الأنصار بسلاحهم حتى لكأنها نذر الحرب؟

ألا يكون الدافع إلى الانسياق إلى تصديق "خرافة" حرق مكتبة الإسكندرية حرص المسلم على تأمين إيمانه من مداخل الشك أو الشرك التي يمكن أن تؤدي إليها قراءة "صحف" اعتبرها "محرّقة" أو الاستماع إلى "قصص" قوم ذهب بهم العناد إلى أخذ القرآن مأخذ "أساطير الأولين" ودفعهم العجب إلى إدعاء القدرة عل أن يأتوا بأحسن منه؟[1]. ألا يكون الدافع إلى ذلك التساهل في قبول "الخرافة" تسليم إجمالي بمقالة أنّ "الإسلام يجبّ ما قبله" وأنّ الله لم يفرّط في الكتاب من شيء بحيث يغني عن كتب العالمين. بل في النصرانية، كان القديس بولس يمتحن إيمان أتباعه بأن يطلب إليهم حرق ما بين أيديهم من الكتب؟[2].

ولكن يبدو حقا أنّ "طريق الجحيم معبد بالنوايا الحسنة".

---

1 أنظر في ذلك الزمخشري، الكشاف، دار الكتاب العربي (د.ت.)، الجزء الثاني، ص 440-441
ابن كثير، التفسير، ص 274.
وأنظـر كـذلك جـلال الدين السيوطي، باب النقول في أسباب النزول الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 ص 158.

2 Lucien X. Polastron, Livres en feu. Histoire de la destruction sans fin des livres, Paris, Denoel, 2004, p 56.

لا ننـسى أن ابن خلدون ذكر ما ذكر من شأن عمر مع الرسول (ص) في مجرى حديثه عن الشريعة الإسلامية باعتبارها "مباينة لجميع الملل لأنها ناسخة لها. وكل ما قبلها من علوم الملل فمهجورة والنظر فيها محظور" (المقدمة، ص 781).

4)- والشك الرابع الذي لنا على "خرافة" حرق مكتبة الإسكندرية على يدي عمر بن العاص بإذن من عمر ابن الخطاب أنّ ابن خلدون ينسب ما نسب إلى عمر لا بمناسبة فتح مصر بل عند فتح بلاد فارس على يدي سعد ابن أبي وقاص: فهو يقول في هذا السياق "إلاّ أنّ المسلمين لما افتتحوا بلاد فارس وأصابوا من كتبهم وصحائف علومهم ما لا يأخذه الحصر كتب سعد ابن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء فإن يكن فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالا فقد كفاناه الله. فطرحوها في الماء أو في النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا"[1] وتلك في تقديري إجابة ساذجة متسرعة عن سؤال تاريخي على غاية من الأهمية طرحه ابن خلدون نفسه دون أن يعنى عناية المؤرخ المدقق بالإجابة عنه: "أين علوم الفرس التي أمّر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح؟ وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل (...) وأين علوم القبط ومن قبلهم؟"[2] فهل أفنى عمر ذلك كله؟ أم أنّ الأمر يدعو إلى البحث في تاريخ الكتاب من كل وجوهه بما في ذلك إتلافه بطرق لا تكاد تضبط كما فعل صاحب هذا الكتاب الذي وضعه بين يدي القارئ العربي أو كما فعل ألكسندر ستبتشفيتس مثلاً[3].

---

1 ابن خلدون المقدمة، ص 891.

2 المصدر السابق نفسه، ص 63.

3 ألكسندر ستيبتشفيتش تاريخ الكتاب، ترجمة محمد الأرناؤوط، سلسلة عالم المعرفة، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1993.

5)- وأما الشك الخامس الذي لنا على "خرافة" حرق مكتبة الإسكندرية على يدي عمر ابن العاص بإذن من عمر ما تناقله بعض المؤرخين العرب – في غير روية- من أمر لقاء عمر ابن العاص بيحي النحوي الذي يفترض أنه كان مؤتمنا على مكتبة الإسكندرية.

ويحي النحوي عالم جليل أخذ عنه العرب الكثير لا سيما في نقد الفلسفة الأرسطية كما يشهد بذلك "شفاء" ابن سينا أو "تهافت" الغزالي[1]. "وليحي النحوي هذا لقب آخر بالرومي يقال له فيلوبينوس أي "المجتهد" كما يذكر ذلك ابن أبي أصيبعة[2].

وإذا قدّرنا أنّ سقوط الإسكندرية في يد العرب تم سنة **642** م، كان ذلك اللّقاء محالا إذ يجمع المؤرخـــون على أن يحي النحوي عاش فيما

---

1 يــذهب البيهقي في تتمة صوان الحكمة إلى أن أغلب ما في "تهافت الفلاسفة" مأخوذ عن يحي النحوي. وللتوسيع في هذا المعنى يمكن الرجوع إلى:

-Herbert A. Davidson, *John Philoponus as a Source of Medieval Islamic and Jewish Proofs of Creation*, in Journal of the American Oriental Society, Vol 89, N° 2, 1969 p357-391.

-G. Lemn E. Groodmann, *Ghazali's Aregrement from Creation in International Journal of Middle East Studies, Vol 2 N°1, 1971 p 67-85.*

- P. Duhem, *Etude sur Leonard de Vinci, 3 volumes, Paris, Hermann. 1905-1913.*

-*A.C. Crombic, Augustine to Galileo. London*, Penguin Books, 1924, Vol II, p 65-67.

-S. Pines, un précurseur Bagdadies de la théorie de l'impetus, in ISIS, Vol 44, N°3 1953 p247-251.

2 ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998 ص138.
وهو فعلاً Johanus Philoponus.

بين 490 و566 م[1]. وحتى لو سلمنا بأنّ شخصاً آخر التقى عمرو فما كان له أن يلتمس منه حفظ مكتبة الإسكندرية من التلف، ذلك أنّ "العهدة العمرية" أمّنت أقباط مصر "على أنفسهم وملّتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرّهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص"[2] وإذا كان الأمر كذلك فلم تمّ استثناء المكتبة لتجعل وقودا للحمامات؟

لذلك كله كان الأقرب إلى الحق أنّ مدرسة الإسكندرية قد أصبحت يوم دخل العرب المدينة أثرا بعد عين وأنّ مكتبتها "قد تلاشت رويداً رويداً"[3] فهي مجرد ذكرى باهتة لا تقبل الاحتراق.

وحتى لو سلمنا جدلاً بإمكان ذلك للموازنة بين "تخريف" و"تخريف" لرجحت كفة النفي بحكم عقيدة المسلم ذاتها. فحرام عليه العبث بالكتب السماوية حتى وإن حرّقها الآخذون بها، فمجرد إمكان أن تحتوي على اسم الجلالة أو أسماء الأنبياء يقيها جميع وجوه العبث...

فكم ترك الأول للآخر !

---

1 ومن المؤرخين من يذهب إلى أنّه توفي سنة551 م أي قبل فجر الإسلام بكثير. أنظر في ذلك:
P. Burnet, la Science dans l'Atiquité et le Moyen-âge, *in Histoire de la Science*, P. Dumas (sous la direction de P. Dumas, Paris, Pleiade, 1957 p 303.

2 أنظر نص العهدة العمرية في تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، المجلد الثاني ص 514-515.

3 أنظر **M. Dumas, Esquisse d'une histoire de la vie scientifique, *in Histoire de la Science*, Op. Cit, p 18.**

الفصل الأول

لم يكن للعصا الأولى إلاّ طرف واحد

بيير بريسِّيه

يشترك أسياد العالم مع الذين يبحثون عن كشف أسراره في غريزة واحدة: إغناء مكتباهم على الدوام بالكتب الجديدة. إنهم يشتركون على الأقل في تلك الرغبة العميقة المتمثلة في حفظ الكتب، وصفّها إلى جانب بعضها بعضًا، وتجميعها أكثر فأكثر إلى ما لا نهاية. إنهم يحبون أن يجمعوا "بشكل متواز"، كما يقول الشاعر، خلاصة أو مجمل ما قيل سابقاً أو دُرس أو رُوي. وهم يفعلون ذلك على الأقل لمعرفة الحجم الذي توصلوا إليه في بناء مكتباهم.

ولكننا نعلم أن حجم المكتبة ليس هو المهم في نهاية المطاف.

فالمكتبة، أي مكتبة، يمكن أن تكون مهمة إذا ما احتوت على حفنة من المخطوطات الخاصة بطائفة ما. وقد لا تصبح مهمة إلا إذا احتوت على ملايين العناوين من مكتبات وأزمنة أخرى. والدليل على ذلك أن رهبان باتموس Patmos كانوا فخورين في القرن الثالث عشر بمكتبتهم رغم أنها لا تحتوي على أكثر من 330 (ثلاثمئة وثلاثين) كتاباً تتحدث عن عقيدهم فقط. أما الأمريكان

فيفتخرون بمكتبة الكونغرس لأنها تجاوزت في أواخر القرن العشرين مئة مليون كتاب من كل الأصناف والأنواع! بل وُجدت في التاريخ مكتبات لم تكن تحتوي إلا على كتاب واحد. وإتلافه أو حرقه أصعب كما سنرى.

لقد أصبح اقتناء المكتبات عادة إجبارية لملوك العالم، حتى الأغبياء أو البلهاء منهم. وقد حافظت الدول على هذه العادة بكل أبهة وبذخ. وهو ما فعله كذلك على حسابه الخاص جمهور من الهواة بصمت وهدوء تامّين. وعلى غرار بروميثيوس الذي كان يصنع تشكيلة أنغامه من خلال تعذيب سيزيف، يبدو أن هذه المأثرة، أي مأثرة تشكيل المكتبات، كانت تحمل في طياتها عوامل تدميرها أو إدانتها. نقصد بذلك أنه كلما كبرت المكتبات وتضخمت نتيجة لصرف المبالغ الطائلة للأجيال المتلاحقة عليها، زادت صعوبة تصنيف كتبها وحفظها. ثم إنّ ذلك يزيد من صعوبة الوصول إلى الكتاب وقراءته، لأنه يختبئ فيها كما تختبئ الشجرة في أعماق الغابة فلا نتمكّن من أن نراها أو نستطيع تمييزها عن غيرها. هذا دون أن نتحدث عن المخاطر التي تتهدد سلاسل الكتب في المكتبات، كأن يصل إليها الماء أو النار أو الدود أو الحروب أو الزلازل فتدمرها. وهناك خطر آخر لا يخطر على البال ولكنه أكثر فداحة مما نظن. ونقصد به تلك الرغبة الصريحة في تدمير المكتبات دون إبقاء أيّ أثر لها.

لماذا؟ لأنه لا يمكن الهيمنة على الشعب المتعلم المثقف. وهو ما قرّره فقهاء القانون في الصين القديمة، وكذلك النازيون في تشيكوسلوفاكيا...؛ ولأنّ الفاتحين يرغبون عادة في تغيير تاريخ البلاد المفتوحة أو عقيدتها كما حصل للأزتيكيين؛ ولأنّ عرّافي كل العصور يعتقدون أن الأميين هم وحدهم القادرون على إنقاذ العالم؛ ولأنّ طبيعة أو نوعية بعض الكتب قد تشكل خطراً على السلطة الجديدة، وهذه نظرة المغول إلى كتب الديانة الطاوية، أو كتب المذهب الشيعي، أو كتب الإصلاح الديني البروتستانتي. ونضيف إلى كل هذه الحالات

حالة أخرى هي: إقدام الناس على إتلاف كتبهم بأنفسهم تلافيًا للمشاكل والمضايقات. وهذا ما فعله الكثيرون في عهد الصين الإمبراطورية، أو في عهد الصين الشيوعية أثناء الثورة الثقافية. ولكن هناك سبب آخر لإتلاف الكتب نادراً ما يفكر فيه أحد لأنه أعمق من جميع الأسباب التي ذكرناها وكثيراً ما يقبع خلفها ألا وهو: أن الكتاب هو شَبَه الإنسان أو البديل الذي ينوب عنه. وحرقه يعني القتل، بل إنّ أحدهما لا يحصل دون أن يحصل الآخر. ولم تحظ هذه الظاهرة بالبحث العلمي الذي تستحقه حتى الآن. فما عدا دراسات الباحث جيرار حداد في فرنسا بالنسبة للكتاب اليهودي، فإن المفكر الوحيد الذي اهتم بها هو عالم الاجتماع ليو لوينتال في جامعة بيركلي بالولايات المتحدة الأمريكية. فهذان الباحثان هما الوحيدان اللذان درسا هذه الظاهرة عن كثب: أي ظاهرة التماثل بين الكتاب ومؤلفه ومآسيهما المتراكمة. فعالم الاجتماع المذكور نشر كتاباً بعنوان "إرث كالبان". ويعدد فيه بعض المكتبات المأساوية التي أحصيت عام 1983. ويشرع عندئذ في تحليل نفساني للبشرية من خلال أعمال الحرق هذه، أو بالأحرى من خلال تكرارها على مدار التاريخ، الأمر الذي جعل التحليل المشار إليه أمرًا استعجاليًّا وضروريًّا حسب رأيه. وهو يقول بأننا إذا لم نفعل ذلك فإن "استمرارية معنى التاريخ تسقط في العدم" على حد تعبيره. ولكنه لم يشهد مجريات التاريخ اللاحق، وبالتالي فهناك حاجة لإكمال عمله.

لكن من بين آلاف المكتبات الكبيرة والصغيرة التي يذكرها ذلك البحث أو يسمح بزيارتها، فالعديد منها لم تحرق ولم تتلف ولم تُرم في الأنهار. فهي تتعرض أيضاً للمصادرة أو التبعثر في الأمصار والتشتت. فقد تختفي المكتبة كلها عن بكرة أبيها، أو قد تختفي بالمفرق، أي كتاباً وراء كتاب بسبب الغباء، أو الضرورة، أو ابتغاء منفعة ما. وعندئذ يؤدي ذلك إلى نهاية كيان وهمي أو يجعل

شعباً كاملاً من القراء يتامى لأنه لم يعد لديهم أي كتاب لكي يقرأوه. أو كما يصفهم بعض الشعراء "دون آفاق روحية" ودون نهاية قاسية ومجيدة تخلّد ذكراهم هذه المرة.

على العكس من ذلك نلاحظ أنه كلما كانت المكتبة كبيرة كلما أخفت وراءها مصاص دماء لا يشبع أو تاجر مسروقات يعمل بمهارة في تبذير الممتلكات المنسية. فالمكتبة الغنية هنا تعني المكتبة الميتة. وأحياناً ينبغي أن ندعوها متحف الغنائم الاستعمارية والسرقات القذرة. لنأخذ مثلاً ما على سبيل الصدفة المحضة. لنتحدث عن فرنسا وما فعلته في المستعمرات عندما نهبت الكتب الفخمة والغالية من هوي **Hué**، أو دونهوانغ **Dunhuang**، أو لوفان **Louvain**، أو مصر وإسبانيا وإيطاليا في عهد نابليون، ومن شمال إفريقيا، بل حتّى من باريس نفسها سنة **1940**. ونمرّ مرور الكرام على عدة سرقات قذرة أخرى. ويبدو أن هذه العمليات اللاشرعية هدأت بعض الشيء مؤخراً. ولكن ينبغي علينا أن نعيد هذه الكنوز إلى أصحابها يوماً ما.

وحيثما سقط معلم علمي ومعرفي نلاحظ أن قطعه المتناثرة تكشف عن هويته. نضرب على ذلك مثلاً ذلك النقش الذي وجدوه على حجر مهشّم أو مثلّم في تيمغاد. ونذكر أيضاً تلك الدساتير الأربعة الناقصة التي تحتوي على كل أقوال ومعارف شعب "مايا". كما ونذكر نصفي عبارتين عثروا عليهما في آثار قرطاج. وأحياناً يقعون على سطر مشبوه لأحد الناس المجهولين أو على العكس من ذلك فقد يعثرون على عدد كبير من التعليقات المؤثرة والمحزنة وأحياناً الماكرة التي تموه علينا ما حصل بالفعل في تلك الأزمنة السحيقة بدلاً من أن تكشف عنه.

إنّ مفهوم التراكم الراديكالي للأفكار هو عبارة عن أسطورة كبيرة، أسطورة قادرة على أن تأخذ محل هذه الآلهة أو تلك. فمثلاً يقول لنا التلمود

بأنه وجدت مكتبة ضخمة قبل خلق العالم. والقرآن يؤكد على وجودها ويقول بأنها موجودة منذ الأزل وإلى الأبد. وأما كتاب الهنود "فيداس" فيذهب إلى أبعد من ذلك ويقول بأن هذه المكتبة وجدت حتى قبل أن يخلق الخالق نفسه.

إن المكتبة ترتعش في خيال البشر وأحلامهم وهلوساتهم حتى قبل وجود الكتاب. نضرب على ذلك مثلاً مكتبة "براهما" ومكتبة "أودان". وقد ذكروهما لنا على هيئة كأسين من الحليب. وقالوا لنا بأنه إذا ما شربهما الإنسان تحول من شخص عادي "إلى شاعر وفيلسوف". وقد وصل الأمر بأهل بابل إلى حد الاعتقاد بأن السماء كتاب مفتوح ينبغي أن نعرف كيف نقرؤه. وإذ يقدّم فلك البروج كتب الوحي، فإنّ النجوم الثابتة هي تفاسيره الموجودة على هوامشه، هذا إن لم يكن العكس... وأما "بيروز"، الكاهن أو العراف الذي اخترع الساعة الشمسية، والذي يُقال أنه كتب في ظل الإسكندر المقدوني تاريخ الحضارة "طبقاً" للمصادر القديمة"، فهو يقول لنا بأن عاصمة العالم قبل الطوفان ما كان اسمها إلاّ: جميع الكتب!

ثم يقولون بأن نوح دفن كل الكتب التي كان يمتلكها في الأسابيع القليلة التي سبقت هذا الحدث الخطير: الطوفان. لقد دفن الكتب "الأكثر قدماً، والقديمة، والحديثة" لأنه أعتقد بأن وزنها الثقيل سوف يغرق السفينة. وبالتالي فلا داعي لها. فهل نبشوها بعدئذ واستخدموها لتأسيس المكتبات البابلية الأولى يا ترى؟ هذا ما تمتم به بعضهم عشية السهرة التي تلت الطوفان. ولكن الكهنة المصريين يؤكدون العكس ويقولون بأن الطوفان أذاب تلك الكتب وأتلفها إلى غير رجعة وذلك لأنها كانت مصنوعة من التراب غير المطبوخ أو المشوي. وهكذا نُسيت الكتب التي كان آدم كتبها بعد الهبوط من الجنة. ونذكر منها على وجه الخصوص كتاب: أسماء الأحياء. وهو عبارة عن إحصاء لكل ما يتحرك في جنة عدن من حيوانات وكائنات. وهو أيضاً بمثابة قصيدة شعرية

جذابة عن خلق حواء وبدائع أخرى عديدة. وكل ذلك عزته قرون متطاولة من البحث والتبحّر الأكاديمي المتواصل لهذا المؤلف الواعد[1]. كما وضاعت كذلك النصوص الأساسية لقابيل، وشيث، وإينوخ، وماهموسالم... نقول ذلك ونحن نعلم أنه بعد هذه الكارثة الرهيبة (أي كارثة الطوفان) فإن ذرية نوح راحت تبني برجاً شاهقاً من أجل تشكيل هذه المكتبة الكبرى. ولعله كان يجدر بمالكها أن يخزّنها أسفل السفينة بدلاً من الاهتمام بذلك الكمّ من الحيوانات الغبية.

إن الخلق هنا يعني الحرق أو بالأحرى تحريق الأموات. في هذه الأسطورة المؤسِّسة للمكتبة الكونية التي تجعل من الإنسان معادلاً للسماء، فإنّ ما يترسخ في الذاكرة هو مأساة انهيارها أكثر من العلو الذي وصلت إليه أو التقلبات العديدة والطويلة لإغنائها بالكتب الجديدة.

وهكذا انتقلت البشرية من الشرّ الخالص إلى الغفلة المنظمة مروراً بأبشع أنواع القذارات فيما يخص التعامل مع الكتب والمكتبات. ومن خلال هذا المسار الطويل سوف نلاحظ قرناً بعد قرن ذلك الوجه المتقلب والمتنوع الذي تتخذه البربرية. وقد نخاطر بالعثور عليه في النهاية وكأنه قريب جداً من وجوهنا. قريب أكثر من اللزوم، وشبيه أكثر من اللزوم.

الفصل الثاني

في مهد المكتبات

كان زمن الصباحات الشمالية اللامرئية
في قاعات انتظار القاموس

بنيامين بيري

عندما كان للأرض حق الكلام

يبدو أن المكتبة الكبيرة المفترض أنها أقدم مكتبة في العالم كانت أكثر مقاومة للزمن من أخواتها الحديثات. وذلك لأنه يمكننا اليوم أن نراها ونلمسها باليد ونقرأ كتبها العديدة بكميات كبيرة. وكل ذلك بفضل متانة نصوصها التي كتبت على مواد صلبة. فأولى النصوص التي سجلت قبل أن تظهر الرغبة في حفظها وجمعها في مكتبات حوالي عام 2500 قبل الميلاد كانت قد استخدمت من قبل بنّاء "أوروك" من أجل إقامة جدرانه بمهارة أفضل[2].

فعلى الفخار الذي التقطوه بين دجلة والفرات كتبوا اللغة السومرية- الأكادية المدعوة باللغة "المسمارية". وهي تسمية عمومية مبتذلة. وهذا الفخار أو الصلصال استخدم كوسيلة لتسجيل حوالي عشر لغات مختلفة.

وكانوا يشتغلون على النحو التالي: تجفيف اللوحة الصغيرة التي يريدون

الكتابة عليها في الشمس لإعطائها الهشاشة المطلوبة. وأحياناً كانوا يجففونها في فرن ساخن على هيئة مدخنة ملائمة كي لا ينكسر الفخار ويتفتت. وعندئذ تصبح اللوحة متينة ومقاومة، إلا إذا كسرت بالعنف كما حصل لاحقاً بالطبع. ولكن كان يحصل أيضاً أن تتراكم رفوف عديدة من الكتب المنقوشة على هذا النحو، وذلك قبل أن تتهاوى بفعل الزمن. وعندئذ لا يبقى على خشبها المتعفن إلا الوثائق المكتوبة عليها. ثم يجيء عالم الآثار كي يكتشفها ويرتبها طبقاً لتصنيفها الأصلي. ولكن الحرائق تظل هي السبب الرئيسي لتدمير معظم المكتبات القديمة التي شهدتها البشرية عبر تاريخها الطويل. وتؤدي الحرائق فيما يتعلّق بلوحات الفخار إلى تجميد الصفحة المكتوبة لتبقى على حالها إلى الأبد.

وكان السومريون يرتبون نصوصهم وسجلات محفوظاتهم (الأراشيف) داخل سلال مصنوعة من ورق الصفصاف، أو داخل أكياس من الجلد، أو علب خشبية؛ ثمّ يفهرسونها بواسطة بطاقات مصنوعة من الفخار أيضاً. هناك متحف في فيلاديلفيا يحتوي على صفيحة تاريخية فخارية من هذا النوع. وقد كتبت عليها لائحة باسم الأعمال الأدبية التي كانت معروفة قبل ألفي عام من ميلاد المسيح. وتضم اللائحة عناوين اثنين وستين كتاباً. ونلاحظ فيما بعد أن سلالة حمورابي كانت شغوفة باقتناء مؤلفات المدن أو الدول الأخرى وحفظها وجمعها في مكتبات. وهذا شيء محتوم أو طبيعي بمعنى من المعاني. فأول مكتبة كبرى وموسوعية ما كان بالإمكان أن تظهر إلا في منطقة وادي الرافدين. وهذا ما حصل بالفعل. ولكننا لم نعرف ذلك إلا منذ وقت قريب.

في عام 1850 عثر الباحث الشاب والأنيق هنري أوستين لايارد على موقع نينوي الأثري بالصدفة في ركام "الحَمَل الصغير" المدعو باسم كوينجيك في مواجهة مدينة الموصل. ومعلوم أن القنصل الفرنسي بول إميل بوتا كان قد كسر أسنانه وأظافره هناك كما يقال على سبيل المجاز دون أن يصل إلى نتيجة.

ولهذا السبب فإن لايارد سخر منه في مذكراته. وقد سخر بالأخص من طريقته الحذرة جداً في البحث عن الآثار. فقد كان يتخذ احتياطات زائدة عن اللزوم تعرقل فعالية البحث. كان المتحف البريطاني هو الذي موَّل هذا المغامر الذي اقتحم ذلك الموقع الأثري في نينوى فكسر بدون تردد نصف قاعات "القصر الذي لا منافس له" والمدعو سناشيريب. ومعلوم أنها تبلغ واحداً وسبعين قاعة. ثم استولى على التحف البرونزية والمزهريات والأسلحة والعاجيات بالآلاف. كما استولى بشكل خاص على البلاطات الجدارية وتماثيل الثيران ذات الرؤوس البشرية. ثم يقول لنا بأنه رأى علاوة على ذلك العديد من "الألواح الصغيرة المستطيلة الشكل والمصنوعة من الفخار غير المشوي، وهي ذات ألوان قاتمة وموضوعة على بلاط الغرف". وفي بعض الأماكن كانت قدماي تغوصان إلى عمق ثلاثين أو خمسين سنتيمتراً داخل ما أعتقد أنه كسر أو فتات القطرميزات الصينية. وحتى الخبراء المختصين بالحضارة الآشورية لا يزالون يعتقدون بأن هذه الثقوب الموجودة في الفخار "لم تصنع على هوى رغبات الفنانين إلا من أجل وضع زخرفة غريبة الشكل على جدران القصر"[3]. وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ اكتشف فريق التنقيب الأثري جنوب غرب التل "الغرفة المخصصة لصيد الأسد". ووجدوا أنها مزينة بنقوش رائعة ذاعت شهرتها الآن في كل مكان. وقد شعر الإنكليز بقيمتها الثمينة فوراً. وعرفوا أنها أهم بكثير من أكوام الصلصال المتفتتة التي راحوا يدرسونها. وعندئذ راحت تتكسر تحت أقدامهم بنوع من القرقعة العصبية. ولاحظوا هذه المرة وجود قاعتين مليئتين بالكنوز الثمينة في قصر حفيد سيناشريب. المدعو: آشور بانيبال. وكان هذا الشخص مجهولاً تماماً آنذاك وذلك لأن اسمه لا يرد في كتب الحضارات القديمة. ولكنه الآن أصبح مشهوراً بفضل مكتبته المليئة بالكتب السومرية والمدعوة: جيركيناغو.

تُوِّج آشور بانيبال ملكاً بدءاً من شهر ديسمبر عام 669 قبل الميلاد. وقد

أنشأ في نينوي أكبر مكتبة شهدها التاريخ حتى زمانه. ولأجل ذلك أرسل الكتّاب إلى كل مناطق الإمبراطورية لجمع المخطوطات القديمة التي ما تزال متوافرة. لقد أرسلهم إلى آشور، وينبور، وأكاد، وبابل. وهكذا جمعوا المخطوطات واختاروا أهمها، وراجعوها، ونقحوها، وأعادوا كتابتها من جديد. وأحياناً كان الملك نفسه يقوم بنسخ المخطوطات وتصنيفها في قصره. وفي إحدى المرات تنفس الصعداء وقال: "أنا، آشوربانيبال، لقد توصلت إلى حكمة "تابو" وتعلمت كيفية الكتابة على الألواح الصغيرة... وقد حللت السر العتيق للطرح والضرب والقسمة والحساب، ولم تكن واضحة للناس سابقاً... وقد قرأت النصوص الأنيقة لسومر والكلمات الغامضة لأكاديين. كما وفككت أسرار النقوش المكتوبة على الحجر في زمن ما قبل الطوفان". ثم يقول عن علم قراءة النصوص القديمة للغة المسمارية هذه العبارة الجميلة: "الكلمات مغلقة، خرساء، ومتراكمة على بعضها دون ترتيب"...

إن اللوحات المليئة بألف ومائتي نص متمايزة عن بعضها وتكشف لنا عن نوعية المكتبة الملكية قبل ألفين وخمسمئة سنة. وهي الآن تبدو لنا بعد مرور كل هذه القرون وكأنما شعر محض أكثر من تشريعات وعلم قانون. إنما نصوص مليئة بالتضرع والابتهالات والطقوس الشعائرية وفن العرافة أو الكهانة والمفردات السومرية والحكايات الملحمية ومن أشهرها ملحمة غلغاميش. هذا بالإضافة إلى قصة الخلق والتكوين وأسطورة الإنسان الأول الذي ظهر على سطح الأرض "أدابا". وربما كنا سنجهل وجوده واسمه لولا هذه النصوص. كما أن هذه النصوص تحتوي على الكتب المدرسية العلمية والحكايات الشعبية كحكاية "الرجل المسكين في نيبور". وهي التي أرهصت بألف ليلة وليلة ومهدت لها الطريق. وكانت النتيجة المباشرة لموت آشوربانيبال وجمود إرثه الثقافي أن توقفت المصادر التاريخية عن ذكره بدءاً من عام 621 قبل الميلاد. فلم

تعد تقول لنا شيئاً عن هذا المغرم الكبير بالكتب ولا عن موته واندثار ميراثه الثقافي والفكري. كل ما نعرفه هو أن نينوى مسحت عن سطح الأرض من قبل تحالف معاد ضم البابليين والسكيثيين والميديزيين عام 612 قبل الميلاد: أي بعد موته بأربعة عشر عاماً تقريباً. ويعتقد الخبراء أن الألواح التي عثر عليها من قبل البعثة الأثرية البريطانية كانت قد سقطت من رف أعلى مع السقف أثناء احتراق القصر. ويصلون بعد اطلاعهم على ثراء هذه الآثار إلى القناعة التالية: وهي أن ما حصلوا عليه ليس إلا حفنة صغيرة من تلك المكتبة الملكية الضخمة التي بناها هذا الملك العظيم. ومعلوم أن سلاسل كتبها كانت قد وُزِّعت على قاعات مختلفة حيث تحتوي كل قاعة على كتب تتناول موضوعاً خاصاً ومختلفاً عما هو موجود في القاعات الأخرى. ولكن في الموقع الأثري المدعو بـ "الحمل الصغير" راحت الاكتشافات الأثرية تتوالى بسرعة شديدة. فقد عثروا على ثلاثين ألف لوحة أثرية صغيرة بين عاميّ 1849-1854. وقد شكلت كومة كبيرة بحجم مئة متر مكعب: أي ما يعادل خمسمئة مجلد من كتبنا الحالية بقَطْع الرُّبع (كورقة مطبوعة تطوى إلى أربع ورقات وثماني صفحات، وهي ما يدعى في مجال النشر بالملزمة). وقد رماها الإنكليز كما هي في الصناديق والسلال ثم نقلوها إلى البصرة ومن هناك إلى لندن. وهناك استلمها عالم الآثار هنري رادلينسون الذي فك أحجيتها وألغازها. وأدت الاكتشافات التي توصل إليها إلى ترفيعه في المراتب الرسمية فأصبح مسؤولاً عن البحوث الأثرية في نينوى كلها. وهذا ما أزعج "لايارد" ودفعه إلى أن يدير ظهره لمهنة علم الآثار والتنقيبات الأثرية. ولكن الأمة الإنكليزية لم تنس أفضاله ودوره الكبير في اكتشاف هذا الكنز الأثري الذي ملأ متاحفها وزاد من أهميتها فعينته وزيراً ثم سفيراً ثم رفعته إلى مرتبة النبلاء*.

كان آشارهادون، والد آشوربانيبال، قد كتب في شهر يوليو من عام 672

قبل تقويمنا الميلادي يقول: "هذا القصر سوف يشيخ، وسوف يتهاوى ويتحول إلى أنقاض. ولذلك أطلب منك يا ولدي أن تعيد بناءه من جديد. وبما أنني وضعت اسمي إلى جانب اسم الرجل الذي أنجبني، فإني أطالبك، أنت الذي ستخلفني على الحكم، أن تحافظ على اسمي وذكراه، وأن تعيد النقوش المكتوبة إلى سابق عهدها، وأن تعيد بناء المذبح والهيكل، وأن تكتب اسمي إلى جانب اسمك". كان الباحث جواشيم مينسانت الذي ذكره في كتبه قد أضاف يقول عام 1880 بخصوص هذه الاكتشافات الأثرية الهائلة ما يلي: "لا نستطيع أن نتنبأ منذ الآن بما يخبئه لنا المستقبل بخصوص هذا الموضوع".

ولكن النبوءة كانت سهلة في الواقع. فالشيء الذي حصل لاحقاً هو المزيد من النهب والسلب، والمزيد من القصف بالقنابل والتدمير الغبي كما سنرى لاحقاً.

ويعتقد بعض الباحثين أن مكتبة "ملك الكل، أو ملك آشور" كانت تحتوي على نصف مليون من اللوحات الصغيرة المكتوبة وحوالي خمسة آلاف كتاب. وبما أن هذا النوع من الآثار يتمتع بمقاومة فائقة ضد الزمن والحتّ فإننا نستطيع أن نتخيل حجم اللوحات العديدة التي لا تزال مطمورة تحت الأرض في منطقة "تيون جيك". وهي الآن عرضة للنهب المباشر بعد كل ما جرّته حروب الخليج على المنطقة من فوضى ودمار وتسيُّب. والواقع أن أمناء المتاحف الغربية يشعرون بالحزن والألم بسبب هذه الحالة. فقد صدرت قوانين تمنعهم منذ الآن فصاعداً من شراء الآثار المسروقة بأي شكل. وهذا ما سيحرمهم من اقتناء آثار عديدة ضرورية لفهم الآثار التي يمتلكونها منذ زمن طويل أو قصير. فما معنى اللوحة الأثرية المقطوعة عن سياقها أو المفصولة عن النصوص الأخرى التي تنتمي إلى نفس الكتاب؟ ما معناها بعد أن أصبحت مفرغة من المعطيات التاريخية والعلمية التي يمكن أن ترافق اكتشافها من قبل عالم الآثار؟ لقد تحولت إلى عش

للغبار بعد أن عرضت في واجهة أحد هواة جمع الآثار في مدينة تكساس أو أي مكان آخر ربما؟...

على مبعدة ألف كيلومتر من تلك المنطقة وبعد ثلاثة قرون من ذلك التاريخ لم يعد الناس يستخدمون الصلصال المجفف من أجل الكتابة عليه. نقول ذلك ونحن نتحدث عن داريوس الأول ملك الفرس وكذلك عن كزيركيس في مدينة بيرسوبوليس Persépolis. فمقتنيات مكتبة أخرى حرقت هذه المرة فعلاً وتحولت إلى دخان كانت لا تزال آثاره تحوم فوق شرفات قصري هذين الملكين في بعض العشيات أو الأمسيات. ويقال إنهم دعوا إحدى القاعات المعتمة للقصر "بقلعة الكتب". وقيل إنهم كانوا يحفظون فيها سجلات محفوظات الملوك الأرخميديين المكتوبة على الرصاص أو على القصدير. ثم اكتشف علماء الآثار في القاعة رقم 33 للبناية المدعوة بناية الخزينة وتحت الأرض بعمق متر طبقة سميكة تتراوح ثخانتها بين 45–75 سنتيمتر كُرات خشنة تحمل أختاماً ورسوماً. لقد وجدوا ذلك تحت ركام من خشب الأرز لسقف هابط ومتكسر. وكانت تلك الأختام والرسوم عبارة عن إيتيكيت أو بطاقات. ولكي يصنعوها فإنهم كانوا يضغطون على حفنة من الفخار في باطن اليد وذلك على حبل رفيع كانوا قد عقدوه حول شيء ثمين. ثم يبصمون على الفخار بخاتم الملك. ولكن الحريق الهائل الذي نشب آنذاك واكتسح المكان طبخ كل ذلك ومحا الأشياء التي كانت تدل عليها. وهذه الأشياء كانت عبارة عن شرائط نصوص طبقاً لأقوال جورج كاميرون. والشيء الخطير والمهم في هذه القصة هو أنه كانت توجد هناك المخطوطتان الوحيدتان للكاهن زرادشت. وهي مخطوطتا "كتاب كتب الفرس". ثم تضخم الأسطورة الأشياء أكثر وتقول بأن المخطوطة كانت تحتوي عشرين مرة على مئة ألف سطر مكتوب بالذهب على خمسة آلاف ومئتي جلد بقرة! ثم تقول الأسطورة بأن هذه المخطوطة نجت من الحريق. ولكنها احترقت

في الإسكندرية بعد ثلاثة قرون من ذلك التاريخ. ولكن إرجاء كهذا تكون له انعكاسات وآثار بشكل حتمي. فكما حصل في طيبة في منطقة بيوسي، وكذلك في صور فإن الإسكندر الكبير هو الذي أمر بارتكاب هذه الكارثة المرعبة سنة 330 قبل الميلاد. ولكن شبحه يقول لنا بأن ذلك كان مجرد حادث غير مقصود. هذا في حين أن جميع المؤرخين منذ عهد أريان يتهمونه بارتكاب هذه المحرقة عن سابق قصد وتصميم. والواقع أن اتخاذ قرار بتدمير قصر بيرسوبوليس بكل محتوياته لا يتناسب مع صورة الفاتح الكبير، ولهذا السبب فإن بعضهم شك في كونه وراء هذه الفعلة. ويزداد الشك بالطبع لدى المعجبين به إلى حد العبادة. فهؤلاء لا يمكن أن يصدقوا أن شخصاً عظيماً مثله يمكن أن يحرق مكتبته.

التعازيم، والرقى، والأحلام، والحسابات، والحكايات الخاصة بالبشرية لا يمكن فصلها عن المواد التي كتبت عليها. نقول ذلك ونحن نعلم أن هذه المادة راحت ترق وتدق وتصبح خفيفة أكثر كلما تقدمت الأزمان والقرون. وعبر كل متغير يحصل فإن هذه المادة تصبح أكثر هشاشة وأقل مقاومة للأذى وتقلبات الزمان.

الفصل الثالث

عصر ورق البردي

"لو أننا سألنا هوميروس في أي سماء ذهبت روح ساربيدون وأين هي روح هرقل لأصبح شاعرنا الكبير في حرج كبير ولأجاب بأبيات شعرية متناغمة".

فولتير

مصــــر

طلب أحد الموظفين الذين عاشوا في عهد نيفيركارا (2462–2426 قبل الميلاد) أن تنقش على قبره الكلمات التالية: "كان ناسخاً أو كاتباً في بيت الكتب". ولو لم يعثر علماء الآثار على هذا النقش لشكّوا بوجود المكتبات في العصر الفرعوني القديم.

ونحن نعلم أن الفلاسفة اليونانيين الذين زاروا مصر بعد ذلك التاريخ بوقت طويل بدءاً من القرن السادس قبل الميلاد لم يقولوا أي شيء عن وجود هذه المكتبات. نقول ذلك على الرغم من أنهم استفادوا منها كثيراً. هذا الكلام ينطبق على فيثاغورس كما على أفلاطون. وقد حصل ذلك إلى درجة أن إشاعة

خبيثة راحت تنتشر وتقول: شخص إغريقي مجهول الهوية وجد في مصر مخطوطة الإلياذة والأوديسة حتى قبل أن تكتب بالإغريقية بزمن طويل!..

وفي إيسنيه بمنطقة دنديراح وبالضبط في معبد إيزيس الفيلاي نبشوا بعض الآثار. وتبين أنها أطلال مكتبات قديمة كانت قد انهارت. بل ووجدوا أحياناً فهارس هذه المكتبات محفورة على الجدران. ولكنها كانت مكتبات لاهوتية ذات أهمية فكرية أو معرفية محدودة. وقد وجدوا هذا الابتهال مكتوباً على مسلة مصرية أو نصب تذكاري في موقع نيفيرهوتيب: "لتدخل جلالتكم إلى المكتبات ولتشاهد جلالتكم كل هذا الكلام المقدس"[4]. وإذا كانت هناك "قاعة للكتب" في معبد هورروس بمنطقة إدفو، فإن هذا المعبد تم ترميمه في عهد بطليموس، أي بالأمس القريب لنا قياساً إلى العهود المغرقة في القدم. وأما فيما يخص "المكان الذي توجد فيه وثائق الفرعون" في عمارنة فإنهم لم يعثروا فيه إلا على قطع من الفخار. وهي المادة أو الدعامة التي كتبت عليها النصوص القصيرة: كنصوص الرسائل وبخاصة الرسائل الديبلوماسية. وهذا يعني أن كلمات علماء مصر لا تُسجَّل على الصلصال أو الفخار. فهذا أقل مستوى من أن تُكتب عليه.

ثم اكتشف علماء الآثار ركاماً من الأنقاض. وقد بدا لهم أكثر غموضاً ومدعاة للدهشة والتساؤل من سواه، حتى ولو كان أكثر صمتاً، بل ربما بسبب ذلك. إنه الموقع الأثري "للمكتبة المقدسة" التي تحدث عنها ديودوروس في القرن الأول الميلادي والتي كانوا يعتقدون بأنها معلّقة في "رامسيوم دوطيبة". والمدخل يحمل تحذيراً وعبارة تدل على اعتقاد إيماني. وهو يتلخص بالعبارة التالية: "بيت علاج الروح". وفي هذا الضريح لرمسيس الثاني (1279–1213 قبل الميلاد)، كانت هذه المؤسسة تتطابق مع الخطة الأصلية والطموحة التي أمر بها الملك. وكانت هذه الخطة تتمثل فيما يلي: جمع عدد كبير من الكتب يصل إلى حد

عشرين ألف لفيفة أو مخطوطة بحسب أقوال ايامليبكوس السوري عام 325 للميلاد[5]. وكان ذلك لتحقيق هدف ديني: أي إقامة احتفال من أجل تعليم المريد الجديد أسرار الديانة والعقيدة. وكانت هذه الكتب توزع داخل الفضاء المخصص لها في إطار معماري رمزي جداً. وهناك تجد توخ برأس إيبيس: أي برأس طائر مائي طويل القائمتين والمنقار. وإيبيس هو مخترع الحروف في الحضارة المصرية القديمة. كما وتوجد ساف "أم المخطوطات" و"رئيسة قاعة الكتب". ولا نمتلك حتى هذا اليوم أية شهادة على كيفية تشغيل سجل المحفوظات هذا ولا المصير الذي آل إليه. ولكن يعتقد بأنه أُتلف بعد غزو الفرس للبلاد. ويرى العالم الفرنسي شامبوليون أنه لا يوجد في مصر "أنبل ولا أطهر" من هذه البناية التي كانت تضم المكتبة المقدسة لفراعنة مصر. ومعلوم أنه قام باستكشاف دهاليز تلك البناية وتعرف بدقة على المكان الذي يعتقد بأن الكتب وضعت فيها. وذلك لأنه كان يبحث عنها هو الآخر وبنوع من الحماسة والانفعال العنيد. ولكنه سجل في مذكراته أن كل شيء تم تقويضه "ومسحه" من على سطح الأرض. بالطبع ما كان بالإمكان أن تبقى ورقة بردي وحيدة على قيد الحياة في هذه الكومة المتراكمة من الأنقاض. ولكن لم يخف على الباحثين أن يلحظوا الكمية الضخمة من الوثائق ذات القيمة الكبرى التي كانت قد نبشت في مكان آخر في طيبة. وعلى هذا النحو فإن المكتبة الضائعة "راسيوم" وجبهتها المزنَّرة بنقش لاذع استطاعت أن تهيّج خيال الكتاب على مدار ثلاثة وثلاثين قرناً. وهذه الفترة الطويلة جداً ليست إلا طرفة عين بالنسبة لهذا المكان الذي لقبه الفرعون "بقصر ملايين السنوات".

أوشك هيرودوت أن يقول إنّ ورق البردي هبة النيل. فأقدم ورقة منه يبلغ عمرها خمسين قرناً ولا تزال عذراء طرية حتى الآن!

أما أول قطعة أثرية تحمل الكتابة الهيروغليفية على سطحها فتعود إلى

2400 سنة قبل الميلاد. وبفضل هذه المادة استطاعوا أن يكتبوا عليها الوثائق الإدارية، والمراسيم الملكية، والمراسلات، والعقود الأخرى. وقد كتبوها بنوع من الهوس المنكّد بالدقة والتفاصيل. ثم تكاثرت النصوص الدينية والوصايا الجنائزية الملازمة للميت في قبره، هذا بالإضافة إلى المؤلفات العلمية والطبية. إن *الحكم والأمثال السائرة لبتاهوتيب* التي وجدوها مكتوبة على أوراق البردي (بريس) تدل على احترام المصريين القدماء للكتاب والمطالعة. تقول إحدى هذه الحكم: "لم نشهد حتى الآن أي شخص يكون ذكياً بالولادة... معنى ذلك أنه يصبح ذكياً لاحقاً وليس في لحظة ولادته". ومنها أيضاً: "وثيقة مكتوبة أفضل من بيت مصنوع من الحجر". لماذا؟ لأن الوثيقة تدوم أكثر من البيت حتى ولو كان مبنياً بواسطة الحجر الصلب. وحتى في حقبة الإمبراطورية القديمة، ولكن بالأخص في عهد الإمبراطورية الفرعونية الوسطى، فإن الأدب الشعبي أو الخيالي كان غزيراً وافراً. وكان يحظى بالكتابة الدقيقة والصارمة. وكانوا يحبون الحكاية الشعبية والرواية في ذلك الزمان. كانوا معجبين جداً بحكاية "سيناوهي" بالطبع. ولكنهم كانوا معجبين أيضاً برواية "الفرقان"، و"الأخوين"، و"الفلاح الفصيح"، أو بتلك الرواية غير اللائقة كثيراً "حكاية نيفيركاري". وفي هذه الأخيرة نرى مخبراً سرياً هاوياً يلاحق الفرعون الذي يتسلق ليلاً سلماً مهتزاً لكي يصل إلى غرفة أحد جنرالاته[6]. ويبدو أن هذه النصوص كانت محفوظة في "مدرسة كتب" موجودة داخل المعبد. ولكن "بيت الحياة" يمكن أن يستخدم أيضاً كمكتبة. فهناك كانوا يدربون الشبيبة على المهن الفنية والتواصلية (كمهنة الرسم، والنحت) بالإضافة إلى ممارسة الشعائر والطقوس الهادفة إلى حماية العاهل أو الفرعون. مهما يكن من أمر فلا ينبغي علينا أن نتخيل المكتبة آنذاك على هيأة مكتباتنا الحديثة برفوفها العالية وخزاناتها المنضدة. على العكس. لقد كانت لفائف المخطوطات موضوعة في كوى مسدودة في الحائط. وأحياناً كانت توضع في صناديق من الخشب ذات أربع دعائم ولها غطاء مقبَّب أو منتفخ في

جزئه الأمامي كما نرى ذلك على الرسوم الجدارية للإمبراطورية الجديدة.

وهناك ثلاثون وثيقة مكتوبة بالخط الديموطي، أب خط المصريين القدامى الذي كانوا يستخدمونه في حياتهم اليومية. وقد عثروا عليها في جرتين من الفخار كانتا موجودتين تحت أنقاض أحد البيوت في طيبة. كما وجدوا حوالي عشرين كتاباً من كتب العبادة والطقوس الدينية في أحد الصناديق المزينة برسم جقل (ابن آوى). وكلها تعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد عثروا عليها في قبر تحت راميسيوم[7]. ولكن ما وجدوه ليس إلا غيضاً من فيض. فكم من مئات الآلاف من المخطوطات التي ضاعت أو تركت عرضة للتلف والهلاك بسبب الجهل المحض! نضرب على ذلك مثلاً تلك السلسلة من الأعمال الأدبية القديمة التابعة لأحد معاصري رمسيس الثاني. فقد حافظ عليها الورثة الخمسة الأوائل بشكل جيد بعد أن انتقلت من يد إلى يد. ولكن عندما وصلت إلى يد الوريث السادس، وكان نجاراً، لم يهتم بها ولم يعرف قيمتها. ولذلك فإنه راح يفصل أوراقها عن بعضها البعض، وبخاصة أوراق الكتاب الثمين "كتاب الأحلام" لكي يستخدمها في مراسلاته التجارية مع زبائنه. فقد كان يكتب على قفاها الأبيض غير عابئ بما هو موجود على الجهة الأخرى[8]. وهناك مثل آخر أشد إيلاماً. ففي عام 1778 نبش الفلاحون عن طريق الصدفة أربعين أو خمسين كتاباً أو وثيقة إغريقية في الجيزة. وبما أنهم لم يعرفوا قيمتها بطبيعة الحال فإنهم حرقوها لكي يستمتعوا برائحتها المدوخة أو المسكرة. ولكن لحسن الحظ فإن علماء الآثار استطاعوا أن يخلّصوا من أيديهم آخر لفيفة من المخطوطات مقابل ثمن بخس. ثم أرسلوها إلى الكاردينال بورجيا في روما. وقد ظن العلماء لفترة طويلة أن هذه اللفيفة التي أنقذوها في آخر لحظة هي مخطوطة البردي الوحيدة التي تعود إلى العصر الهليني في مصر. ولكنهم كانوا مخطئين. فهي تضم لائحة بأسماء عمال الأرصفة أو أحواض السفن الذين عاشوا في سنوات 192 أو 193 قبل الميلاد.

وإذا لم تستطع أية مكتبة فرعونية أن تقاوم الزمن بشكل أفضل وتصل إلينا، فذلك لأنه لم يعد هناك من مبرر لوجودها بعد أن مات الأسياد الذين أوصوا بتشكيلها. يضاف إلى ذلك أنها تعرضت أثناء تغير الأنظمة والعهود لذلك الطقس الشعائري للتدمير. وهي طقوس أمر بها أمينحوتب الرابع وطبقها على مجمل الكتب التي كان كهنة عمون يمتلكونها عندما تحول إلى أخناتون واستقر في عمارنة. نقول ذلك ونحن نعلم أن كهنة طيبة ردوا عليه الصاع صاعين بعد موته فأتلفوا جميع اللفائف والمخطوطات التي كانت محفوظة في معابده وقصوره. وربما فعلوا ذلك مع جسده أيضاً. وينطبق على ذلك المثل السائر: كتب أعدائي هي أعدائي!

ربما كانت بعض سلاسل كتب مصر القديمة قد سلمت من الحروب الأهلية التي جرت. ولكن الفتح الفارسي الذي قام به كامبيز نظفها عن بكرة أبيها عام 525 قبل الميلاد في الوقت الذي لم يكن أحد ينتظر ذلك. يقول المؤرخ الشهير هيرودوت "فجأة أصيب كامبيز بجنون هائج وعنيف" فراح يأمر بجلد الكهنة، وتحطيم التماثيل، وهدم المعابد، وحرق كل أثر لثقافة هذه البلاد. ولم يحتفظ لنفسه إلا بالذهب الذي لا يزعج ذاكرة أحد.

وبالتالي فإن وادي الكتب الذي كانت تشكّله مصر الأسطورية شهد ولادة مكتبات نخبوية ومغفلة الهوية، أي لا اسم لها أو لأصحابها. كما وشهد في ذات الوقت فن تدميرها وإزالتها من الوجود إما عن طريق التعفن العام، وإما عن طريق الدفن المهيب. وقد جرت العادة عند قدماء المصريين أن يدفن المرء نفسه مع الكنز الذي حصله في حياته. وبما أن الكنز المقصود هنا هو الكتب فإن هذا يعني أن كبار القوم دفنوا مكتباتهم في قبورهم وحرموا القراء من الاطلاع عليها. وقد أصبحت هذه العادة متكررة أكثر فأكثر في التاريخ. بل وحتى الصينيين كانوا يلجؤون إليها. وأشهر مثال على ذلك قصة الإمبراطور الصيني

"تايزونغ" الذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد. فقد أمضى معظم حياته في شراء الكتب والمخطوطات أو التوصل إليها عن طريق الحيلة. لقد جمع أجملها في مكتبته. وكان من بينها مخطوطة بعنوان: مقدمة إلى جناح السحلبيات (أي نوع من النباتات). وهي المخطوطة التي كتبها الخطاط الشهير وانغ كيسزهي. لقد جمع هذا الإمبراطور كل ذلك لكي يحمله معه إلى قبره! وسوف يفعل الكثيرون الشيء نفسه بعده. نضرب على ذلك مثلاً أول مؤرخ للمغول ويدعى رشيد الدين. فقبل إعدامه في تبريز عام 1318 اقتنى المخطوطات بالمئات ووضعها في ضريحه. وكانت تشتمل على أكثر من ألف مخطوطة مكتوبة من قبل أحسن الخطاطين. ونذكر من بينها مخطوطات ياقوت المستعصمي بل وحتى مخطوطات ابن مقلة. وهما اللذان دشّنا أجمل الكتابة العربية[9].

ولكن ضمن مقياس أن هذه التحف يمكن نبشها أحياناً وتظل قابلة للقراءة، فإن هذه العادة الأنانية التي تمحو الكتب من على سطح الأرض تبدو أفضل وسيلة لحفظها وحمايتها! وبالتالي فدفنها تحت الأرض كان وسيلة مجدية لحفظها.

فيما يخص بنايات الإسكندرية

تستحق الإسكندرية أن نعرّج عليها. ولا ينبغي على السائح أن ينسى زيارة منارتها، ولا زيارة قبر الإسكندر أو القصور الملكية التي تحتل ربع مساحة المدينة على الأقل (التي لا تزار). ولا ينبغي أن ينسى زيارة السيرابيوم، والمتحف مع مكتبته الشهيرة. وهذا ما كان سيكتبه الدليل السياحي اليوم لمدينة الإسكندرية بشرط أن نعود في الزمن اثنين وعشرين قرناً إلى الوراء. للأسف فإنه لم يبق شيء الآن من منارة الإسكندرية. فحجارتها التي كانت تبلغ ما بين خمسين إلى سبعين طن والتي كانت قاعدة ارتفاعها الذي يصل إلى مئة وعشرين

متراً أصبحت الآن مطمورة تحت الماء أو غارقة أكثر في أسوار القلعة الصغيرة المملوكية التي حلت محلها. وهي شديدة النظافة. و لم يبق من قصور بطلموس، وبالتالي من غرف كيلوباترة، إلا آثار قليلة. وهي على أي حال أقل مما بقي من المعبد المُهدى إلى سيرابيس الذي كان شديد الروعة كما يقولون. وماذا يمكن أن نقول عن "السوما" حيث يرقد جثمان الإسكندر في تابوت شفاف ولكن بدون أنفه؟ ربما كان كل ذلك موجوداً هنا، أو ربما هناك تحت هذا المسجد المتواضع جداً. ولكنهم سيمنعونك حتماً من النبش تحته ما دام الإسلام حياً. أما فيما يخص المكتبة الشهيرة، مكتبة الإسكندرية، فحدث ولا حرج!...

فلم يحصل في التاريخ أن حظيت مكتبة لا نعرف موضعها ولا شكلها بمثل هذا الاهتمام. لم يحصل أن أهرق حبر العلماء على الورق من أجل التحدث على شيء وهمي، شيء مضى وانقضى، مثلما تحدثوا عنها وأسالوا من الحبر أنهاراً... لم يحصل أن استثير خيال الناس الجادين عن أثر من آثار الماضي مثلما أثاروه بخصوص هذه المكتبة الأسطورية. ولكي نضرب أحد الأمثلة على ذلك من جملة مئات الأمثلة يكفي أن نستشهد بما كتبه شخص غير مختص بالموضوع كشاتوبريان. ففي كتابه "الشهداء"، الجزء الحادي عشر، نلاحظ أنه يسرق المنقوشة الكتابية لراسيوم من أجل وضعها في كتابه بعد تحويرها وتعديلها لكي تتلاءم مع ذوقه الأدبي وأهدافه. يقول: "في أحد الأمسيات بقيت وحيداً تقريباً في مستودع أدوية الروح وعقاقيرها. ومن أعلى قمة مقصورة من الرخام رحت أراقب الإسكندرية المضاءة من قبل آخر أشعة النهار...". ثم يضيف نبيلنا الكبير في آخر كتابه هذه الملاحظة الدعائية لإيقاظ قارئه في حال أنه نعس ونام: "أليس هذا المستودع أكثر عدالة بالنسبة لنا بعد أن أضفت إليه هذه الكلمة؟".

هذا ما كتبه شاتوبريان في عز العصر الرومنسي. ولكن في العصور الأقل رومنسية يحق لنا أن نتساءل فيما إذا كانت المكتبة الكبرى للإسكندرية قد

وجدت حقاً يوماً ما! نعم يحق لنا أن نتساءل فيما إذا كانت قد وجدت كبناية ومعلم عمراني على وجه الخصوص.

ينبغي العلم بأن الفاتح المقدوني الذي لا يقاوم كان قد أسس أول المدن التي تدعى باسمه (أي الإسكندرية) وأكثرها ديمومة وخلوداً عام 331 قبل الميلاد. ثم ذهب لكي يموت بعيداً من هناك. وقد ورث ابن حارسه الشخصي السابق إقليم مصر لكي يحكمه. وعندئذ سرق الجثمان المتنازع عليه ودفنه في وسط المدينة الجديدة وكأنه بذرة مقدسة. وهكذا راحت الأسطورة تتشكل على الفور. وبعد أن نال المشروعية على هذا النحو نصَّب نفسه ملكاً على البلاد باسم بطليموس. وسوف يكون أول بطليموس يقرر ما سيصبح لاحقاً آخر عجائب الدنيا السبع: أي منارة الإسكندرية. كما وأنشأ في ذات الوقت جنة المعرفة: وهو المتحف أو معبد ربات الفن حيث ستكون المكتبة.

ثم خلفه على عرش مصر ابنه بطليموس الثاني فيلاديلف. واستدعى إلى مكتبة الإسكندرية كبار علماء ذلك الزمان لكي يكتبوا أو يبدعوا في جنباتها. وكانوا يحظون بكل أنواع العناية آكلين، نائمين، شاربين، لابسين على حساب الملك. هذا بالإضافة إلى الرواتب العالية. والواقع أن هذا العاهل هو الذي أكمل بناء المكتبة. وكان عالم الهندسة الشهير اقليدس عضواً في حلقة البحوث بالإضافة إلى الطبيب هيروفيليس. وكان العالم ايراستينوس يحاول قياس محيط الأرض. وأما زينودوت فكان يشتغل على الطبعة النقدية لأعمال هوميروس. وقد اخترعوا عندئذ القلم والتنقيط. وفي ذات الوقت كان ارخميلس يرسل إلى الآخرين مسائل حسابية لكي يبرهنوا عليها. وكان النجاح كبيراً والشهرة عريضة لكل هؤلاء العلماء ولمكتبة الإسكندرية أيضاً. لقد كانا عظيمين إلى درجة أنه أصبح لهم حساداً في شتى أنحاء الأرض. فقد كتب تيمون دو فيلونت يقول: "إن مصر المزدحمة بالسكان تغذي كتّاب ورق البردي الذين يتنافسون

إلى ما لانهاية في مطيرة ربات الفن". إن من كتب هذا الكلام كان يتحسّر لأنه لم يكن من عداد علماء الإسكندرية، أو هذا ما نفترضه على الأقل.

ولكن روما سوف تكون منافسة أكثر خطورة من هذا المتشكك المنسيّ. أقصد سوف تكون غيورة من تألق الإسكندرية وعظمتها. ينبغي ألا ننسى أن الإسكندرية كانت مدينة النهضة الأثينية أو اليونانية. وكانت شوارعها مضاءة ليلاً وشعبها مزوداً بالماء نهاراً بواسطة مئة صهريج. كانت الإسكندرية تلمع بألف بريق وبريق وتنال إعجاب العالم كله. وكانت المكتبة الكبرى جوهرتها الأكثر جدة وابتكاراً. ولكن هل كان يمكن لكل ذلك أن يدوم إلى الأبد؟ يقول العالم الجغرافي سترابون عام 24 أو 26 أو 27 قبل الميلاد حسب لمختلف الاختصاصيين ما يلي:

"كانت كل العمارات الرسمية الأساسية متواصلة مع بعضها البعض بأبواب داخلية. وكانت كلها متواصلة مع الميناء. وكان المتحف يشكل أيضاً جزءاً من المجمع الملكي. كان يوجد هناك منتزه مسقوف. وكانت توجد أيضاً مصطبة (أي محراب مزود بمقاعد) وبناية كبيرة تحتوي على قاعة يجتمع فيها علماء التاريخ واللغة التابعين للمتحف للعشاء معاً. وكانوا يمتلكون ميزانية مشتركة خاصة بهم. وكان يقف على رأسهم الكاهن المسؤول عن المؤسسة. وكان يتلقى راتبه سابقاً من الملوك وأما اليوم فيتلقاه من القيصر". وكان القيصر آنذاك هو أوغست.

هكذا نلاحظ أنه قال لنا كل شيء عن المكان من الناحية الجغرافية، ولن نعرف أكثر من ذلك عنه. ولكنه لن يقول أي شيء عن الكتب ولا عن طريقة ترتيبها في المكتبة، ولا عن تدمير القيصر لها قبل ذلك التاريخ ببضع سنوات. وبما أن المعاصرين الآخرين سكتوا على الموضوع أيضاً، وبما أن الوثيقة الوحيدة الدقيقة التي تتحدث عن "رسالة اريستي" غير موثوقة فإن الساحة أصبحت

مفتوحة على كافة الاحتمالات والظنون. وبالتالي فقد أصبحت مفتوحة على المماحكات الجدالية.

أما المتحف (وكان يُقال له موزيون Mouseion) كما يدل عليه اسمه قد كان حرم ربات الفن والجمال اللواتي يسهرهن على هذه المؤسسة الدينية ويضمنّ، مبدئياً عبقريته الأدبية والفلسفية، بل وحتى العلمية. كان المتحف عبارة عن جامعة بدون طلاب. كان عبارة عن مركز بحوث منظّم من قبل ديمتيريوس الغاليري: أي ذلك الطاغية الإغريقي المخلوع ولكن المشهود له بالفلسفة والمتأبّه الذي تعلّق به الملك الجديد. كان المتحف عبارة عن مكان فاخر مترف مبني على غرار المدارس الأثينية اليونانية وبخاصة المعهد Lycée. وكان مزوداً بقاعات للاجتماعات ورواق للاستراحة وتبادل الأفكار طوال المشي. وكان أيضاً مزوداً بالحدائق، وأروقة الأديرة، وقاعة للطعام، وربما غرف للسكن. وأما الكتب، والوثائق، وسجلات المحفوظات التي وضعت في خدمة الساكنين فكانت منتشرة "في كل مكان وتحت نظر الجميع". أو قل هذا ما استنتجه الآخرون لأنه لم يخصص لها أي مكان محدود. ولذلك اعتقدوا أن المكتبة هي هذا ولا شيء غيره.

هناك نوع من الانتهازية في كل هذا. فالملك كان يحب أيضاً الحيوانات الأسطورية عالية الثمن. وكان يحب المظاهر والأبهة والفخامة. ولذلك أنشأ كل هذه المعاهد العلمية والمكتبات ليتفاخر بها. ولكن لم يحصل أبداً في التاريخ أن صرف أحد الملوك كل هذه الأموال على علماء كبار، من هذا النوع والمستوى. وكل الوسائل أصبحت مشروعة من أجل تغذية هذه المخصصات بأموال إضافية. فقد أرسل الملك الأوامر إلى السفراء لكي يجمعوا الأموال، وطلب رسمياً من الملوك الآخرين أن يرسلوا له "كتباً من كل الأنواع" (كان بطليموس مثلاً يتواصل مع الملك الهندي الكبير آزوكا). ولكنه كان أيضاً يشتري الكتب

الأجنبية بأسعار خيالية. ثم تحصل حيل ماكرة من أجل الحصول على الكتب أو المخطوطات. فالملك يعطي أمراً للجمارك بأن تفتش كل المراكب التي تصل إلى الميناء بحثاً عن أي مخطوطة من أجل مصادرتها. وعندئذ يستولون عليها ويتفحصونها وينسخون عنها نسخة طبق الأصل. من أعماق الأحواض تنبثق "كنوز السفن": أي لفائف المخطوطات الأصلية لسوفوكل، واسخيلوس، وأوريبيدس، وذلك مقابل مبلغ كبير من المال كضمان لإعادتها بعد الانتهاء من استشارتها. ثم أعاد النسخ المنقولة عنها إلى أصحابها قائلاً شكراً لكم، بإمكانكم أن تحتفظوا بالمال. وقد علق جالينوس على ذلك بشكل ذكي عندما قال: "وحتى لو لم يرسل إليهم نسخاً منقولة عنها فإن سكان أثينا ما كانوا قادرين على أن يفعلوا شيئاً لأنهم قبلوا بالمال بشرط واحد: هو أن يحتفظوا به إذا لم تعد إليهم الكتب المذكورة أو المخطوطات". وكان الهدف المعلن لبطليموس الثالث هو أن يحصل على كل العلوم والآداب الإغريقية وأن يتوج كل ذلك بقسم كبير من مكتبة أرسطو. والفرضية السائدة حالياً حول هذه النقطة والتي لا تخلو من إثارة هي أن بطليموس الفيلادلفي اشترى "كتب أرسطو" بدون شك ولكن ليس بالضرورة التي ألفها الفيلسوف بنفسه[10]. يضاف إلى كل هذه الكتب التي حصل عليها بطليموس الثالث تلك المخطوطات التي حصل عليها من مصر: أي من المناطق التي بقيت فيها كتب كمنطقة طيبة أو ممفيس. وأخيراً نضيف إلى كل ذلك تلك المخطوطات التي جلبها علماء المتحف معهم في حقائبهم عندما قدموا إلى الإسكندرية والتي لا يمكن الاستهانة بها.

ولكن كل هذه الكمية من الكتب تظل قليلة بالقياس إلى الكتب المنتجة محلياً عن طريق العمل الضخم للترجمات والطباعة والتحقيقات النقدية والنساخة التي اشتهرت بها مكتبة الإسكندرية. وكما قال فيتروف فإنهم "زرعوا آنئذ بذور عدد لانهائي من الكتب إذا جاز التعبير". والواقع أن مكتبة الإسكندرية الكبرى

كانت أضخم بيت للطباعة والنشر في العصور القديمة اليونانية-الرومانية. وكانت المتاجرة بالمخطوطات قد بلغت ذروتها في ميناء الإسكندرية بل وفي داخلها أثناء تلك الفترة. وهكذا أصبحت تلك المدينة هونغ كونغ العصور القديمة. لقد أصبحت عبارة عن وكالة تجارية كونية. إن علم الفيلولوجيا الإسكندراني "حوَّل الأدبيات القديمة إلى كتب. ونقصد بذلك أن هذه الأدبيات أثناء ولادتها لم تكن موجهة لأن تُثبَّت على هيئة كتب"[11]. وعلى هذا النحو ظهرت كتب بوذا على رفوف مكتبة الإسكندرية ومؤلفات تحتوي على مليوني سطر عن الزرادشتية، وتاريخ بابل من قبل كاهن كلداني. كما ظهرت ترجمة الكتاب المقدس من قبل السبعين: أي الترجمة السبعينية. وهي الترجمة التي أنجزها اثنان وسبعون عالم "هلّيني": أي مختص بالدراسات اليونانية. ولكن المقصود بالكلمة هنا المعنى الأولي لها: أي اليهود الذين يعرفون اللغة اليونانية والذين ترجموا الكتاب المقدس من العبرية إليها. وتقول لنا الأسطورة بأنهم كانوا معزولين في جزيرة المنارة مدة اثنين وسبعين يوماً وذلك في غرف منفصلة عن بعضها البعض من أجل ترجمة أسفار موسى الخمسة: أي التوراة. وبالتالي فقد كان متوقعاً من الناحية المنطقية أن تختفي مخطوطات أصلية لانهائية دفعة واحدة عندما احترقت مكتبة الإسكندرية. ونذكر منها على وجه الخصوص كل المخطوطات المتنوعة لنصوص هوميروس والتي كان زينودوث قد نبذها أو استبعدها. ونذكر أيضاً نصوص أبوقراط التي درسها جالينوس وشهد على وجودها، والمسرحيات التراجيدية الكبرى لأثينا، والنص الأصلي للتوراة والذي كانوا قد جلبوه من القدس (القدس)، الخ...

في أحد الأيام طرح بطليموس هذا السؤال: "كم يبلغ عدد الكتب من الآلاف؟" فأجابه ديمتريوس بسرعة قائلاً: "لقد وصلنا الآن يا جلالة الملك إلى عشرين ألف كتاب. ولكني سوف أهتم بسرعة بما يلزم لكي يصل عددها إلى

خمسمئة ألف كتاب". ولكن ينبغي أن ننتبه هنا إلى معاني الكلمات، فكلمة كتاب هنا مستخدمة بمعنى اللفيفة أو المجلد. وكان يعني في الأزمان السابقة فصلاً من كتاب بالمعنى الحالي وليس كتاباً كاملاً. وكانت كتب هوميروس تبلغ ثمانية وأربعين لفيفة أو شريط، وأما كتب بوليبوس فكانت تبلغ الأربعين لفيفة، وأما جمهورية أفلاطون فكانت تبلغ حوالي العشرة لفائف في مجملها. وإذا ما اعتبرنا أن كل كتاب يحتاج إلى أربعة وعشرين لفيفة من ورق البردي في المتوسط كما هو عليه الحال فيما يخص الأوديسة فإننا نستخلص من ذلك ما يلي" إن خمسمئة ألف كتاب عندهم تمثل عشرين ألف كتاب عندنا في الوقت الحالي، أو أقل أو أكثر قليلاً.

وبعد أن وصلوا إلى هذا الرقم الكبير كلّفوا معلماً شاباً من الضواحي بفرز وتصنيف المؤلفات. وكانت له ميزة إنجاز هذا العمل الشاق والطاقة على إنجازه. فقد استطاع فرزها إلى عشرة أنواع تقريباً. كما استطاع تصنيف المؤلفين طبقاً لترتيب الحروف الأبجدية وذلك داخل كل نوع من الأنواع المفروزة. وهذا النحات كان أيضاً شاعرًا كبيرًا. وبالتالي فبعد أن قام بعمله هذا أصبح أول مصنف كبير للكتب والمكتبات، هذا إن لم يكن أول أمين أو حافظ لمكتبة في التاريخ. وبما أنه كان مسؤولاً عن دقة النصوص الناتجة فإنه كان يتنهّد أو يتنفّس الصعداء ويقول: "كل كتاب كبير يعني الهمّ الكبير!". وكان فهرسه يشمل مئة وعشرين كتاباً ويحمل العنوان التالي: "جداول المؤلفين الذين برعوا في كل أنواع المعرفة وجداول الكتب التي ألفوها". وهذا الفهرس الكبير ينضاف إلى التسعين ألف لفيفة المختصة بالكتب الفردية وإلى الأربعمئة وعشرة آلاف "كتب مختلطة". وعندما ضاق المكان بهذا العدد الكبير من المؤلفات أضافوا ملحقاً للمكتبة في السيرابيوم. وهكذا راحت المكتبة الصغيرة تضم 42.800 لفيفة منذ بداياتها.

وبالتالي فالسؤال المطروح هو التالي: لماذا لا يتحدث سترابون بالتفصيل عن مكتبة بهذا الحجم وهذه الضخامة؟

كان الأكاديمي الإيطالي لوسيانوكانفورا قد ناقض كل الأكاديميين الآخرين بجرأة تصل حد الوقاحة[12]. وكان ذلك في كتاب سديمي، غامض، مختلط تمثل قراءته متعة حقيقية. وقد وصف فيه الكتب المرتبة في الجدران وليس في مكان معزول، وبخاصة الكتب المعروضة في الرواق المسقوف. وكتابه هذا يذكرنا من بعيد بمغامرات بليك ومورتيمير. ويقول بأن البرهان على ذلك هو وجود كوّتين محفورتين في الحائط في معبد "هوروس" في منطقة "إيدفو". وكان قد أعيد بناؤه في نفس الفترة. وقد وجدوا في هاتين الكوّتين لائحة بعناوين سبعة وثلاثين كتاباً. وهذه اللائحة كانت مرسومة على الجدار. وينبغي علينا أن نتخيل المكتبة الكبرى المصفوفة أو المنشورة على طول الرواق. وهو عبارة عن "منتزه مسقوف كبير. وربما كانت كل كوة مخصصة لنوع معين من أنواع الكتب والمؤلفين". والفرضية هنا أكثر من جريئة، أقصد الفرضية المتمثلة فيما يلي: بما أن المدينة كانت محصورة بين البحر وبحيرة ماريويتس فإنها كانت ذات رطوبة عالية. وبالتالي فإن لفائف المخطوطات ما كانت قادرة على الصمود أكثر من سنتين في مثل هذه الظروف. والواقع أن علم الحفريات والآثار كشف لنا أن جدران الغرف الموضوعة فيها الكتب كانت أكثر سماكة من غيرها بمرتين من أجل الحفاظ على الكتب ومنع الرطوبة والتعفن من الوصول إليها. هذا ما لاحظه علماء الآثار عندما تفحصوا مبنى سيرابيوم الذي شكل ملحقاً للمكتبة الكبرى كما ذكرنا سابقاً. ولاحظوا الشيء نفسه في مبنى الكتب الموجود في بيرغام دايفيس. وكانت مواقد الجمر ترسل الهواء الساخن في مسالك تحت الأرض مصنوعة من الفخار من أجل مكافحة الرطوبة والتعفن. هذا من جهة. وأما من جهة أخرى فيكفي أن نعرف العدّ والحساب لكي نفهم الوضع بشكل عام. ينبغي العلم أن اللفيفة الواحدة من ورق البردي المتوسط يبلغ قطرها 35،6

سم، وبالتالي فإن نصف مليون من الكتب يعني 32 كيلومتر من الورق. ولكن إذا ما أخذنا بعين الاعتبار احتمالية وجود كوى ذات رفوف متقاطعة على هيئة المعينات الهندسية، وإذا ما اعتبرنا أن كل كوة بعرض المترين تحتوي على 500 مخطوطة فإننا نتوصل إلى قاعة ضخمة تبلغ الكيلومترين طولاً! وهذا مستحيل. ولهذا السبب فإننا نعتقد بوجود قاعات عديدة ذات جدران مليئة بورق البردي. وربما كانت كل قاعة مخصصة لنوع معين من أنواع الكتب. وهذه الأنواع كانت تبلغ العشرة. وبالتالي فهذا يشبه التقسيمات التي اتبعها "كاليماك" في ترتيبه لكتبه. وهي تقسيمات تتواصل فيما بينها وليست مفصولة عن بعضها البعض. وعندما أسس "بيرغام" مكتبة منافسة لمكتبة الإسكندرية بعد بضعة عقود من ذلك التاريخ فإنه قلدها ونسخ شكلها المعماري. وهذا شيء منطقي. ولحسن الحظ فإننا نعرف اليوم المخطط المعماري لمكتبة بيرغام هذه. فقد كانت مبنية على هيئة قاعات متوالية وراء بعضها البعض ومفتوحة على صف أعمدة معرض للضوء والنور. ويمكن استخدامه كرواق مسقوف من أجل المطالعة أو قراءة الكتب.

ولكن هذه الطريقة المعمارية في ترتيب القاعات والبناء تساعد على دخول تيار الهواء بقوة، الشيء الذي ساعد للأسف الشديد على حرق المكتبة وتدميرها.

عن تدميرات الإسكندرية

على الرغم من أن كليوباترة كانت تزورها بانتظام وبشكل مهيب ومتعة حقيقية إلا أن الأيام المجيدة لمكتبة الإسكندرية (الموسيون) كانت قد أصبحت وراء ظهرها. وربما كانت المكتبة الأم أو المكتبة الأساسية قد ضعفت أهميتها بل وانطفأت كلياً؟ وقد نتج عن عودة الملك بطليموس الثامن (ايفرجيت الثاني

الملقب بالفيسكون أي "صاحب الكرش الكبير") من منفاه إخلاء الإسكندرية حوالي عام 127 قبل الميلاد من سكانها اليونانيين وبخاصة من أجراء أو موظفي المتحف. وبالتالي فإن الرومان سطوا على مصر في نهاية القرن الأول قبل الميلاد عندما حسموا الحرب الأهلية بين الملكة وأخيها الصغير، أي بطليموس الثالث عشر. وكان يوليوس قيصر كما هو معلوم قد حسم الأمور لصالح الأخت. ولكن عندما رأى أنه وقع في مطب بعيداً عن روما بقواته الخفيفة فإنه قرر أن يدمر الأسطول المعادي المتواجد في الميناء. وهو أسطول تلقى المدد من خمسين باخرة أخرى وصلت على عجل لمساعدة أعدائه. ويقول لنا المؤرخ لوكين بأن "الحريق الكبير، اشتعل وانتشر في أجزاء أخرى من المدينة (...). وعندئذ انتقلت النار إلى قطع الأسطول القريبة من الشاطئ. وزادت الريح التي هبت بقوة من ضخامة الكارثة ونشر النيران إلى أبعد مكان (...) وراحت سياط النيران تنتقل بسرعة البرق فوق السطوح والجدران"، الخ. وعلى هذا النحو تم تدمير مكتبة الإسكندرية الكبرى عام 48 قبل الميلاد.

وقد كتب يوليوس قيصر نفسه قصة هذه المعركة. ولكنه جانب الصواب فيما يخص هذه النقطة عندما ألح على وصف حالته الحرجة أثناء القتال لكي يبرر حرق المدينة أو المكتبة. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار اللهجة الدفاعية لنصه فإننا نستنتج أنه اعترف بذنبه بشكل غير مباشر[13]. ونلاحظ فيما يخص هذه الفرضية أنه إذا كان سترابون يتحاشى بعناية الحديث عن المكتبة التي دمرت فذلك لأنه يمارس الرقابة الذاتية على نفسه بكل بساطة. والواقع أن المسألة ظلت حرجة وشائكة بعد أقل من عشرين سنة على حصول الكارثة. وذلك لأن يوليوس قيصر ميتاً كان لا يزال حياً ويحكم العالم من قبره. بالمقابل نلاحظ أن سينيكا وبلوتارك وأولو-جيل وآخرون راحوا يحملون عشيق كليوباترة مسؤولية هذه الكارثة. و لم يختلفوا فيما بينهم إلا على عدد الكتب المحروقة. فالبعض يقول 40.000، والبعض الآخر 500.000، والغير 700.000 إن لم يكن المليون...

ولكن الروايات التاريخية الأقرب إلى الحدث لا تتحدث إلا عن حرق مستودعات الكتب القريبة من الميناء وليس عن مبنى المتحف. والواقع أن الكتب الواصلة إلى الإسكندرية كانت توضع، طبقاً لأقوال جالينوس، في مبان خاصة تدعى (*Apothecae*) سواء أكانت كتباً مصادرة على ظهر السفن أم طروداً من اللفائف المستوردة بناء على طلب ملكي. كلها كانت توضع في مستودعات خاصة قريبة من الميناء لبعض الوقت حتّى يتمّ فرزها وتصنيفها وتوزيعها على المكتبة الأم أو المكتبة الثانوية الملحقة بها. ويمكن القول بأن النسخ العديدة المطلوبة من قبل مركز إعادة النسخ الموجود في الإسكندرية كانت أيضاً في هذه المستودعات القريبة من الميناء بانتظار التصدير إلى الخارج. فكم كان عدد كل هذه الكتب يا ترى؟ هل بلغ الأربعين ألفاً؟

هناك ثلاث روايات أخرى تلفت الانتباه. الأولى تذكرنا بأن الديكتاتور كان قد عبّر بوضوح عن رغبته في تأسيس مكتبة عامة كبيرة في روما. ولكن اغتياله المفاجئ منعه من تحقيق هذا المشروع. ومع ذلك فإن المكتبة الرومانية دشنت بعد تسع سنوات فقط من معركة الإسكندرية. فهل كانوا قد ابتدؤوا بنقل الكتب الموجودة في مكتبة الإسكندرية (الموسيون) إلى المكتبة الجديدة في روما؟ ربما. وعلى أية حال فإن كليوباترة لم تكن تحلم إلا بالسيطرة على كلتي جهتي البحر الأبيض المتوسط. فهل دمرت مجموعة الكتب هذه التي كانت جاهزة للتحميل على ظهر الباخرة؟ هل دمرت من قبل الحريق الذي أصاب الميناء؟ وإذا كان ذلك صحيحاً فإنه يفسر لنا سبب اقتضاب الرواية التي تتحدث عن هذه المعارك. وهو اقتضاب مشوب بالندم. أما الرأي الآخر فيقول العكس: وهو أن كل الكتب تقريباً نجت بعد معركة الإسكندرية، ولكنها دمرت على مدار الأحداث العنيفة جداً التي حصلت لاحقاً. أما الاحتمالية الثالثة فتقول لنا بأن التهويلات الهلوسية والتقريظات المبالغ فيها قد أدت إلى إثارة الأدبيات أو

الروايات الغزيرة عن الموضوع. وبالتالي فقد دفع بالمؤرخين إلى المبالغة في تقدير ثروة سجلات المحفوظات الذي كان قد ابتدأ يميل إلى الشيخوخة في تلك الفترة. وهذا ما حصل مرات عديدة لاحقاً. فعندما تحدث افتونيوس عن ملكة الملوك وهي تزور المكتبة في ثياب إيزيس، فإنهم يقصدون بذلك السيرابيوم. فهل يمكن القول بأن حجم كتب الإسكندرية عام 48 قبل الميلاد كان قد هبط إلى حوالي أربعين ألف لفيفة من ورق البردي كما يقول سينيكا؟ في الواقع إن هذا الرقم يدخل كل الفرضيات في ساحة ما هو معقول أو مقبول منطقياً. وهذا الحجم يمثل كمية أسهل بكثير على الإتلاف والحرق. ويشكل كمية يسهل لاحقاً إعادة تركيبها من جديد كما سنرى.

يقول الباحث الفرنسي المعاصر كريستيان جاكوب: "إن دراسة تاريخ الإسكندرية اليوم يتطلب منا أن نصبح إسكندرانيين". بمعنى آخر ينبغي أن نزور المدينة ونتعرف عليها ونسكن فيها لكي نستطيع فهم تاريخها السابق والكتابة عنه بجدية. وهذا صحيح. فالواقع أنه يكفي أن تقف على إحدى الشرفات المشمسة لحي الأزاريطة وتطل على المنظر الذي أمامك لكي تكتشف مدى ضيق الميناء في المنطقة الواقعة أمام القصر. وفجأة يمكنك أن تتخيل أو ترى، حرفياً، الشاطئ المليء بالأسطول المصري وقد اشتعلت فيه النيران، هناك على اليمين. أما تلك الحفنة من السفن الشراعية الحربية الرومانية فتراها قد تجمعت بعيداً بالقرب من المنارة. وعندئذ يكتمل المنظر أمامك، أقصد منظر معركة الإسكندرية. وتستطيع بسهولة أن ترى موجة النار وقد اتجهت نحوك واكتسحت في طريقها الورشات البحرية والمستودعات الملكية وما يقع "بعدها مباشرة".

عندما تتصادم المحاجات الذكية مع بعضها بعض أكثر مما يجب حول تفاصيل التفاصيل فإن الحقيقة ينتهي بها الأمر إلى الضجر والتثاؤب والاختفاء في

جحرها. وبالتالي فكثرة الفرضيات والتركيز على التفاصيل الثانوية يبعدنا عن الحقيقة. وهذا ما ينطبق على التاريخ القديم بشكل عام. فلعبة الورق الخاصة بالتاريخ القديم يمكن توزيعها وإعادة توزيعها أحياناً إلى ما لانهاية. نقول ذلك وبخاصة إذا كانت مليئة بـــ"الجوكرات" التي يمكن تفسيرها وفق الأهواء: نضرب على ذلك مثلاً ذلك الصمت الغريب لشيشرون عن الأحداث، أو فقدان الكتاب المئة والثاني عشر للفيلسوف "تيت ليف" والذي يتحدث بالضبط عن إقامة يوليوس قيصر في مصر. وعلاوة على كل ذلك يمكن أن نضيف رواية سترابون الذي كان يرى بالضبط ما حصل، ولكن دون أن يقول شيئاً. ولكن ها هو أنطوان ينهب مكتبة "بيرغام" ويضع على قدم كليوباترة مائتي ألف كتاب دفعة واحدة. وكانت مصنوعة من الرق. والواقع أنه في تلك المدينة من آسيا الصغرى كانت قد استقرت تلك السلالة العابرة والمؤقتة، أقصد سلالة الأتاليديين. وكانوا يزينون أصلهم المتواضع أو يحاولون إخفاءه عن طريق التبجح برعاية الفنون والآداب والاهتمام بها. ولذلك فإن الملك يومينيس الثاني 197-160 قبل الميلاد أسس في وقت قصير مكتبة ضخمة. ولأجل ذلك استشرس في البحث عن الكتب في كل مكان إلى درجة أن الناس خافوا على كتبهم الخاصة فراحوا يخفونها لكيلا يأخذها منهم ويضمها إلى مكتبته العامة. ويقال بأن بطليموس غار من هذا العمل. ولذلك أصدر قراراً بالحظر على ورق البردي لكي يعرقل تشكيل مكتبة منافسه أو يكبحها. وهذا ما أدى إلى ظهور ورق الرق المدعو ***pergamene charta***. وقد نقل لنا هذه الرواية المؤرخ "فارون" الذي قال لنا في نفس العبارة التبسيطية بأن ورق البردي كان قد اخترع في الإسكندرية. وهذا ما يجعلنا نشك في مجمل الروايات السابقة.

ربما التحقت كتب "بيرغام" بعشرات الآلاف من اللفائف أو المخطوطات في المكتبة الملحقة (السرابيوم) والتي تقول كل الفرضيات بأنها ظلت كما هي

ولم تتعرض للحرق أو الإتلاف. ورغم أن فعاليات البحث فيها ظلت متواضعة أو محدودة ويقوم بها بحاثة أقل شأناً مما كان عليه الحال في المكتبة الأم إلا أنها لم تنقطع. على العكس. فنحن نلاحظ أن شهرة الإسكندرية في العصر الهلنستي استطاعت أن تثير حسد روما وغيظها مرة أخرى. ولذلك فإن "أوكتاف" وضع حداً نهائياً لهذه الأغنية العاطفية.

ثم راحت اختلاجات الإمبراطورية الرومانية المحتضرة تهز بعنف مستعمرتها المصرية. والدليل على ذلك هو أن كاراكالا أمر بذبح شباب المدينة لأنهم استهزؤوا به. كما استباح المتحف وألغى موارده وطرد منه كل البحاثة الأجانب. وبعد ستين سنة من ذلك التاريخ هاجم أوريليان المدينة التي كانت زنوبيا ملكة تدمر قد احتلتها. وقد احتدمت المعارك بين الطرفين في الفناء الملكي وأدت إلى حصول دمار كبير للمتحف. (ونلاحظ هنا أن المؤرخين الذين يريدون إعفاء يوليوس قيصر من المسؤولية يقولون إنّ حرق المكتبة الكبرى حصل أثناء هذه الأحداث. وإذا لم يلقوا المسؤولية على هذه الأحداث فإنهم يتهمون الرطوبة والعفونة، أو قد يتهمون العرب إذا كانوا مسيحيين...). ثم ازداد التدمير ضراوة في عهد ديوكليسيان: ففي عام 296 ميلادية أصبحت المدينة حطاماً وأنقاضاً بسبب ضربها بالحديد والنار بعد حصار استمر ثمانية أشهر. وحصدت المجزرة معظم سكانها. وبعد سنة أو سنتين من ذلك التاريخ كان الدم لا يزال يسيل بسبب الانتقام من العلماء الذين كتبوا الخيمياء، أي ذلك العلم الذي يهدف إلى تحويل المعادن إلى ذهب. وقد حرقت هذه الكتب "خوفاً من أن تنجح هذه العملية وتؤدي إلى غنى المصريين وبالتالي تجرؤهم على التمرد على الإمبراطورية الرومانية" كما يقول يوحنا الأنطاكي نقلاً عن إدوارد جيبون. ثم يضيف هذا الأخير بنوع من المزاح الذي يبرع فيه قائلاً: "الاحتمالية الأكثر رجاحة هو أن هذا الملك الحكيم كان يعرف سخافة هذه الكتب

ومزاعمها في تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب. وبالتالي فقد أراد الحفاظ على عقل مواطنيه وثرواتهم عن طريق منعهم من الاهتمام بعلوم سحرية أو خرافية كعلم الخيمياء". ولكن هذه الاضطرابات التي تلتها مجازر ضد المسيحيين حيث أمر غاليروس بحرق جميع كتب الأنبياء لم تستطع أن تقضي نهائياً على المؤسسة العريقة. فالعديد من المفكرين المسيحيين كانوا يقيمون فيها من أجل البحث أو يتخرجون منها. نذكر من بينهم: كليمان في الإسكندرية ذاتها، وأوجين وبامغليوس في قيسارية، وهناك إسكندر آخر في القدس. وكلهم سوف يؤسسون أو يطورون مكتبة كبيرة. وكل هؤلاء الأربعة الكبار تعلموا في ظل ربات الفن والجمال في (السيرانيوم). وفي عام 315 ميلادية كتب عالم البيان والبلاغة السوري افتونيوس قائلاً بأن "المكتبة العامة للإسكندرية كانت موجودة في منطقة الأكروبول إلى جانب غرف الآلهة في الزمن القديم وكان هناك أيضاً علماء يترددون على هذه المكتبة. وكانت لا تزال تقدم خدمات كبرى للعلم والعلماء". ثم أردف يقول بأنها كانت مليئة بالحجرات الصغيرة المنفصلة عن بعضها بعض والتي تحتوي على الكتب. وكانت مفتوحة لأولئك الذين يريدون المطالعة والعمل من أجل اكتساب الفلسفة. كما كانت تقدم لكل المدينة وسيلة سهلة لاكتساب الحكمة". ولكن هذا الكلام، ولنقلها بكل صراحة، مبالغ فيه. ولكن يبقى صحيحاً القول بأن المكتبة الملحقة أو الثانوية كانت مهمة وتبهر كل من يراها. فقد كتب أميان مارسيلان في نهاية القرن الرابع الميلادي يقول إن "غنى أروقتها كان عظيماً. وأما سقفها فكان محلّى بالذهب، وأما تيجان الأعمدة فكانت مصنوعة من البرونز المذهب"[14]. وبالتالي ففي نهاية القرن الرابع الميلادي أصبح أميان مارسيلان قادراً على أن يشهد ويقول: "بل وحتى الآن فإن مختلف أنواع المعرفة والاختصاصات لا تزال موجودة في هذه المدينة. وذلك لأن أساتذة الفنون والعلوم والصناعات لا يزالون أحياء...".

ولكن ليس لأمد طويل. لماذا؟ لأنه بعد أن أصبحت المسيحية دين الدولة فإنه جاء دور الوثنية لكي تُضطهد مثلما حصل للمسيحية سابقاً. ومعلوم أن الإمبراطور المسيحي تيودوزوس أمر بهدم كل التماثيل والنصب التذكارية الخاصة بالدين الوثني القديم. ومعلوم أن المطران الأسكندراني تيوفيلوس كان متحمساً جداً له. "وكانت يداه ملوثتين بالدم بقدر ما هما ملوثتان بالذهب". ولهذا السبب فإنه هاجم السيرابيوم على رأس مجموعة من المتعصبين. والواقع أن المناقشات الفكرية الجارية في "القلعة الأسكندرانية" كانت تبدو مشبوهة لهؤلاء. وقد قال أحدهم: "هناك أشياء كثيرة لقيت لها ملاذاً في هذا المعبد البطليموسي القديم: كالفلسفة، والسحر، والمعرفة، والفسق والفجور"[15]. وهكذا هجمت عليها الغوغاء ودمرتها و لم تبق فيها حجراً على حجر، و لم يسلم منها أي تمثال أو نصب تذكاري. كل ذلك هُدم ودمّر. وأما المكتبة فقد لحق بها ما لحق بغيرها و لم تسلم من الدمار. وقد تحدث عن ذلك الكاهن الإسباني بول أوروز الذي ألف كتاباً بعنوان: قصص ضد الوثنيين. وهو الكتاب الذي طالما قرؤوه في القرون الوسطى واستخدموه من أجل الدعاية للمسيحية ضد كل ما سبقها. وقد وصل هذا الكاهن إلى الإسكندرية بعد عشرين سنة من حصول الأحداث. وكتب يقول: "لا تزال توجد معابد وثنية في أيامنا هذه. وقد رأيناها بأم أعيننا، ورأينا أن أناس زماننا قد سلبوها ونهبوا كتبها". ونلاحظ أن المؤرخين الذين نقلوا هذا الكلام يعقبون عليه دائماً قائلين بأنهم يشعرون "بالمرارة والاستنكار" تجاه هذا العمل الشنيع. ولكننا نشك في صدق نواياهم ونعتقد أنهم كانوا يشعرون "بالرضى والسرور". والدليل على ذلك أنه في تلك السنة 415م راح البطريرك سيريلوس ابن أخ تيوفيلوس يحرض عامة الشعب وميليشياته العسكرية ضد كل من يعتبرهم أعداء للمسيحية. وقد هيَّج الناس بشكل عنيف على اليهود على الرغم من أنهم كانوا أسكندرانيين منذ سبعة قرون على الأقل. وكذلك أمر سيريلوس هذا برجم الفيلسوفة وعالمة الجبر هيباتي في أحد الأيام

عندما كانت راجعة من المتحف بعد أن ألقت محاضرة فيه. ومعلوم أنها كانت المرأة الوحيدة في تاريخ الرياضيات الإغريقية. وكانت أيضاً ذات جمال رائع ومع ذلك فلم تكن متهورة وإنما حكيمة. كما وكانت ذات شعبية واسعة ولكنها لم تكن مسيحية. ولذلك فإنها تعرضت لهجوم جمهور العامة عليها. وقد عرُّوها من ثيابها وسحبوها إلى داخل الكنيسة لكي يقدموها إلى بطرس القارئ. ثم قطعوا لحمها قطعة، قطعة، وهي حية بواسطة صدف المحار وألقوها طعمة للنيران هي وجميع كتبها. ومعلوم أن هيباتي هذه كانت ابنة شخص يدعى تيون. وهو عالم رياضيات وفلك مات عام 380م. وكان آخر العلماء من أعضاء الموسيون. أما سيريلوس الذي ارتكب كل هذه الجرائم والحماقات فقد رفعته الكنيسة إلى مرتبة القديسين بعد موته.

ولكن مدينة الإسكندرية سرعان ما انبعثت من رمادها كطائر العنقاء. وكان ذلك في القرن الخامس الميلادي عندما أسس فيها ماروقس الإنجيلي جامعة كبيرة. ثم أصبحت مصر عام 640م تحت حكم الإسلام في خلافة عمر بن الخطاب بعد أن احتلها القائد العسكري الشهير عمرو بن العاص. وكان هذا الأخير من صحابة النبي وأحد أفراد قبيلة قريش. وهو الذي أسس الفسطاط ثم عاد إلى مصر مرة أخرى لكي يحكمها في ظل الأمويين. وفيها مات عام 663م. وكان يتردد على حكيم عجوز يدعى يوحنا النحوي. وفي أحد الأيام قال له هذا الأخير: لقد وضعت خاتمك على كل ما له قيمة في المدينة. أنا لا أطالبك بما هو غال عليك ويفيدك، وإنما فقط بأشياء لا تحتاجها ويمكن أن تخدمنا. وعندئذ سأله عمرو بن العاص: ماذا تقصد؟ بأي شيء تفكر؟ فأجابه يوحنا النحوي: بكتب الحكمة الموجودة في الكنوز الملكية.

ثم طلب منه عمرو بن العاص أن يروي له القصة الطويلة للمكتبة الكبرى. وبعد أن سمعها سحر بها ولكنه أجاب الحكيم العجوز قائلاً: لا أستطيع أن

أتصرف بهذه الكتب بدون استشارة الخليفة وإذنه. وبالتالي فسوف أكتب له رسالة وأشرح له فيها كل ما رويته لي الآن. وهكذا دبج عمرو بن العاص تقريره وأرسله إلى الخليفة عمر بن الخطاب. وفي أثناء انتظار الجواب الذي دام خمسة أو ستة أسابيع راح القائد العربي والحكيم الأسكندراني يتناقشان في مسائل دينية ولاهوتية. ثم وصل أخيراً جواب عمر بن الخطاب. وفيه يقول: فيما يخص الكتب التي حدثتنا عنها أقول لك ما يلي: إذا كان محتواها يتوافق مع كتاب الله فلا داعي لها لأنه يغنينا عنها. وإذا كان مخالفاً فإنه لا يجوز وبالتالي فإني آمرك بتدميرها". وعندئذ اضطر عمرو بن العاص إلى تنفيذ أمر الخليفة وهو في حالة يرثى لها من الألم. وأمر بتوزيع الكتب على حمامات المدينة لكي تستخدم كوقود للنيران. وكان فيها أربعة آلاف حمام. وقد استلزم الأمر ستة أشهر حتى تنفد الكتب أو تحترق في الحمامات! ثم يختتم ابن القفطي روايته قائلاً: اسمعوا هذه القصة وأعجبوا بها. هذا ما قاله في كتاب "تاريخ العلماء" الصادر عام 1227. وقد رأينا في عصرنا باحثين جادين يحسبون الأمور على النحو التالي: إذا ما حرقوا عشرين كتاباً في اليوم وفي كل حمام فإنه يلزمهم أربعة عشر مليوناً من اللفائف. ولكن زميلاً آخر رد قائلاً: أبداً لا. فبعض الحمامات كانت تحافظ على درجة حرارتها بمستوى ستين درجة. وهذا يتطلب حرق مئة كتاب في اليوم: أي بمعدل اثنين وسبعين مليون نسخة في الشهر!

هذا الاستملاك المتأخر، بلا حشمة أو حياء، لأسطورة الإسكندرية من قبل المخيلة العربية يعتقد بأنه عبارة عن حكاية رمزية معوجة قليلاً وهادفة إلى تبرير أفعال صلاح الدين الأيوبي[16]. ومعلوم أنه باع المكتبة الفاطمية الشهيرة في القاهرة من أجل أن يدفع الرواتب لجنوده كما سنرى لاحقاً. ولكن هذه القصة التي رواها ابن القفطي ليست بلا أساس بالضرورة. فالخليفة الثاني في الإسلام عمر بن الخطاب كان أول من لقب نفسه بأمير المؤمنين، وأول من دمر الآثار

والكتب في الإسلام. وبالتالي فقد احتل قصب السبق في هذا المجال.

هكذا نلاحظ إذن أن مكتبة الإسكندرية الكبرى تمثل بدون منازع الرمز الأكبر على المكتبات في التاريخ. ولذلك دعاها العرب بأم المكتبات. وإذا كانت قد أصبحت كذلك وفرضت نفسها على هذا النحو فذلك لأنه لا توجد أي براهين ملموسة على صحة هذه الأسطورة أو عدم صحتها. لا توجد براهين محسوسة تؤكد تلك الصورة الحماسية الرائعة التي تثيرها في مخيلة الناس على مدار العصور. ولكنها أصبحت أيضاً أسطورة ورمزاً على المكتبات كلها لسبب آخر: هو أنها تمثل الحدود الفكرية الفاصلة بين العصور القديمة الأسطورية وعالمنا المعاصر المظلم. وذلك لأنها تفصل بين عهدين أو تصل بينهما، لا فرق. وبالتالي فسواء أصدّقنا أن التاريخ كان يمكن أن يسير في اتجاه آخر أم لا، فإن أعمال هذه المكتبة كانت تفتح الآفاق العلمية التي تدوخ العقول لمستقبل إغريقي وليس لمستقبل روماني. وإذا ما أردنا كتابة التاريخ على طريقة لو أن، أو لعل، لقلنا ما يلي: لو أن هذه المكتبة العظيمة بقيت على قيد الحياة لشكلت حاجزاً فلسفياً يقينا من طوفان الأديان التوحيدية وظلاميتها الفكرية المعادية للعلم والفلسفة. بل ويرى البعض أن مكتبة الإسكندرية لو ظلت حية لقفزنا فوق سطح القرون الوسطى التي امتدت ألف سنة في الغرب ولما مررنا بها على الإطلاق! ويرى أحد الباحثين أن "هذه المكتبة لو بقيت لكانت العصور الوسطى الظلامية أكثر استنارة على الرغم من هيمنة المسيحية"[17].

على هذا النحو تحولت مكتبة الإسكندرية إلى حلم رائع. وهذا الحلم تحول إلى أسطورة تأسيسية تعمر أذهان الناس على مدار القرون. ولكن أما كان ينبغي أن تحصل ستة حرائق حقيقية أو متخيلة لكي تقضي على أسطورة ضخمة كهذه؟

يقول المؤرخ سترابون بأن أرسطو كان أكبر جامع للكتب في التاريخ وأنه "علّم ملوك مصر كيف ينظمون مكتبة في بلادهم". وقد فعل ذلك بشكل غير مباشر تماماً كما رأينا سابقاً لأن تلميذ خلفه تيوفراتوس هو الذي نظم أول مكتبة في الإسكندرية. وكانت بالطبع على غرار "الليسيه" الإغريقي (أي المعاهد التعليمية التي كانت سائدة في اليونان).

ولد أرسطو عام 384 قبل الميلاد ومات عام 322 عن عمر يناهز الثانية والستين. وكانت والدته تنتمي إلى عائلة إقطاعية كبيرة وغنية. وأما والده فكان طبيباً. وبالتالي فقد عاش حياة مرفهة. وكان مغنجاً مدللاً متأنقاً تمتلئ يداه بالخواتم والجواهر. وكان أول من أدرك السلطة أو الأهمية التي يمتلكها الكتاب. وكان أستاذه أفلاطون يدعوه بـــ"القارئ" احتقاراً! لماذا؟ لأن تجميع الكتب آنذاك كان يبدو شيئاً غريباً وشاذاً. ولم يدرك أفلاطون أن تلميذه هذا سوف ينافسه على المجد والخلود ولن يكتفي بجمع الكتب أو قراءتها. وإنما سيصبح مؤلفاً بدوره، بل ومؤلفاً غزير الإنتاج. فقد ألف مئات من لفائف ورق البردي. ولكن لم يبق منها إلا ثلاثين كتاباً تقابل ألفي صفحة من صفحات ورقنا الحالي. وقد وصلتنا بطريقة عشوائية مضطربة. والواقع أن مكتبة أرسطو التي أورثها لتلميذه تيوفراستوس انتهى بها الأمر إلى الوقوع في يد نيلي دو سيبسيس. وقد قام بعضهم بحساب حجم مؤلفات كلا الفيلسوفين فوجد أنها تصل إلى 676.078 سطراً[18]. وقد حاولت ذرية "نيلي" الجاهلة أن تحمي هذه الكتب من سطو مكتبة بيرغام عليها فدفنوها في مخبأ تحت الأرض، أو في بئر: أي في نوع من "الخندق العميق" المليء بالحشرات القارضة كما يقول سترابون. ثم باعوا إلى أبيليكون دو تيوس الكتب الأصلية لأرسطو والتي كانت قد أفلتت من يد بطليموس[19]. ويقال بأن أبيليكون هذا كان عالم لغة وتاريخ. ويقال بأنه كان

مجرد تاجر بالمتاع يشتغل لحساب الآخرين. ثم أعاد هذه الكتب إلى أثينا حيث نهبها "سيلاّ" عام 86 قبل الميلاد. ثم انتهى بها الأمر أخيراً في روما لدى تيرانيون النحوي أولاً. وبعدئذ انتقلت من يد إلى يد غير ذات اعتناء دائماً حتى وصلت إلى يد أندرونيكوس الذي حاول القيام بأول طبعة لأعمال المفكر الشهير. نقصد بأول طبعة أول نسخة محققة لأن آلة الطباعة لم تكن قد اخترعت آنذاك. ولكنه بنى نسخته على نسخ منقولة عن النسخة الأصلية لأرسطو وليس على هذه الأخيرة مباشرة. وكانت نسخة ناقصة لأن الفئران والحشرات والديدان قرضت من صفحاتها ما شاء الله لها أن تقرض وتركت ثقوباً في كل صفحة. ولذلك فإن النُسّاخ عندما قاموا بنسخ أعمال أرسطو كلها اجتهدوا من عندهم لتعبئة هذه الثقوب أو ملء الكلمات الناقصة في النص. بل هناك ما هو أنكى من ذلك. فالباحثون يعتقدون اليوم أن النصوص الوحيدة التي وصلتنا ليست هي الصحيحة بل إنّ تلامذة أرسطو الذين كلفهم بتسجيلها قد شوهوها. وقد نقل ذلك أيضاً جان فيلوبون من جملة آخرين في القرن السادس الميلادي حيث قال: "هناك أربعون كتاباً من كتب "الأنالوطيقا" لأرسطو من تلك التي كانت المكتبات القديمة قد حفظتها. ولكن كلها مزيفة ما عدا أربعة، ولا يوجد أي شك فيما يخص هذه النقطة". وكان المؤرخ سترابون قد اشتبه أيضاً بهذه المخطوطات عندما قال: "بعض أصحاب المكتبات كانوا نساخين رديئين لا يفهمون المخطوطات التي ينسخونها. وهذا ما يحصل عندما تنسخ الكتب لغايات تجارية محضة هنا أو في الإسكندرية!*" لقد حصل ذلك إلى درجة أننا نتساءل اليوم فيما إذا كنا نعرف فعلاً المنطق الحقيقي لأعمال أرسطو، إن لم يكن لفكره. والواقع أن الأعمال العلمية المنسوبة إليه والتي هي متأخرة حتى بالنسبة لوقته تبدو لنا الآن مهزلة: أي خاطئة تماماً. وبما أنه كان يقول أيضاً بأن المرأة هي عبارة عن رجل ناقص التكوين فإن الكنيسة المسيحية تبنّت بسهولة فلسفته، وكذلك فعل الجامع في الناحية الإسلامية. لقد تبنوا فكره في الشرق والغرب

وذلك على حساب فلسفات أخرى. وهذا ما جعل نصف البشرية تغطس في نوع من الفلسفة الأرسطوطاليسية الإجبارية لعدة قرون متطاولة: أي حتى ظهور الأفلاطونية الجديدة في فلورنسا في القرن الخامس عشر الميلادي.

قبل ظهور مكتبة الليسيه في اليونان تقول لنا الأسطورة بأن الطاغية بيسيستراتوس[20] أمر بجمع الكتب في مكان واحد لأول مرة لأن أسلافه كانوا مذكورين فيها. فقد جمع الكتب العائدة إلى فترة هوميروس وسجل لأول مرة النص المكتوب للملحمة الإلياذة. وربما لولا ذلك لما وصلت إلينا ولما سمعنا إلا باسمها أو بأصدائها. لقد جمع كل هذه الكتب فيما شكل لاحقاً أول مكتبة عامة في العالم. ويقال بأن كزيريكيس، أي الرجل الذي كان يجلد البحر عندما تكون الريح معاكسة له، قد نهب هذه المكتبة في 21 سبتمبر من عام 480 قبل الميلاد. ثم نقلها إلى قصره في بيرسيبوليس حيث سطا عليها أخيراً سيليوكوس النيكاتوري مع بقية الإمبراطورية الأخمينية. ويبدو أن مقصده كان إعادتها إلى أثينا[21]. ولكننا فقدنا آثارها لاحقاً.

وما دمنا في عالم الأساطير، فقد نُفضّل أسطورة نهب أثينا من قبل القوطيين عام 260 ميلادية. وعندئذ فرَّغ المهاجمون المكتبات من محتوياتها وجمعوا الكتب في كومة ضخمة جداً. وعندما حانت لحظة حرقها تدخل أحد القادة وقال: "ما دام الإغريقيون عبيداً للقراءة فإنهم سيظلون عاجزين عن استخدام السلاح". وبالتالي فلا مصلحة لنا في حرمانهم من هذه الكتب ومطالعتها والانشغال بها. والواقع أن التراث العلمي العريق لأثينا والذي يقارب الألف سنة من حيث الطول لم يلغ إلا عام 529 ميلادية من قبل فلاح بلغاري أصبح فيما بعد إمبراطور بيزنطة تحت اسم: جوستينيان. لقد حصل ذلك بدون أن يراعي أي بربري حرمة أثينا في ذلك اليوم. ومعلوم أن هذا الإمبراطور فرض الصمت المطلق على كل مدارس أثينا لكي يقطع الطريق على "البحوث

الفلسفية التي لا تتلاءم مع العقيدة المسيحية أو على الأقل مع الطابع المتواضع للمؤمن "البسيط" كما يقول جيبون. وكان ينبغي عليهم أن يستعجلوا لكي يستأصلوا الخطر من جذوره وقبل فوات الأوان. والواقع أن بروكلوس، الذي توفّي عام 485، وهو آخر مدير لأكاديمية أفلاطون، كان قد بلور ثمانية عشرة حجة تعارض النظرية المسيحية عن خلق العالم، بل وتنقضها.

كانت اليونان الكلاسيكية تحتوي على ألف كاتب على الأقل. ولكننا لا نعرف إلا عشر إنتاجهم، أما الباقي فقد ضاع ولم يصل إلينا. ينبغي العلم بأن ورق البردي هش وسريع العطب. وهنا يكمن السبب الأساسي للضياع المبكر لمؤلفات الأدب القديم. فقد تعفنت وتلفت في مدينة الإسكندرية ذات الرطوبة العالية، كما في أماكن أخرى. ولكن بالمقابل نلاحظ أن الكتابات القديمة تظل حية إذا ما كانت مطمورة تحت الرمل الناشف. نضرب على ذلك مثلاً مئات الأجزاء المتقطعة من لفائف المؤلفات المكتوبة على ورق البردي أو على ورق الرق، وكذلك مئات الرسائل الشخصية، أو الخاصة بالتجارة والأعمال، أو مقاطع مأخوذة من العهد الجديد والشعراء القدامى كسافو وسوفوكل. وقد اكتشفوا لهذا الأخير مسرحية غير معروفة سابقاً، وكان ذلك على مسافة ساعتين من القاهرة في منطقة أوكسرينكوس. فهل كمية الوثائق هذه كانت محفوظة بكل خشوع في سجل محفوظات المستعمرة الإغريقية-الرومانية القديمة، أي مصر؟ أبداً لا. لقد كانت ملقاة في مزبلة عن طريق الصدفة المحضة. ولكن من الذي ألقاها؟

رومـــــا

عندما تحدى بوليوس إيميليوس غريمه بيرسي عام 168 قبل الميلاد سطا جنوده على كل ما له قيمة في قصر ملك مقدونيا ونهبوه وسلبوه. ولكنهم

تقيدوا بأوامر قائدهم فلم يمسوا الكتب بأذى. وقد احتفظ بها لابنه قائلاً هذه العبارة الرائعة: "سوف تكون له خيراً أكثر من الذهب"! والواقع أن أولى المكتبات الرومانية تشكلت على ظهر الأعداء المنهوبين والمغلوبين الذين ينتمون إلى حضارات أكثر قدماً. وهذا ما حصل مع "سيلاّ" كما مع لوكولوس الذي سلب ميتراداتس أملاكه. وكان هذا الأخير ملكاً على بونتوس. وقد اشتهر لوكولوس آنذاك بفضل قراءاته الغنية والمتعددة ومكتبته المليئة بالكتب أكثر مما اشتهر بسخائه الرائع. وكان سخياً حقيقياً إلى درجة أن بلوتارك قال عنه: "كانت رواقات قصره وردهاته وقاعاته مفتوحة لكل الزائرين". وقال أيضاً بأن عباقرة اليونان كانوا يتمتعون بزيارة هذا المكان الجميل أثناء العطلة من أجل الانخراط في المناظرات والمناقشات الفكرية التي كان سيد البيت يساهم أحياناً فيها.

أما سيبيون إيميليان في قرطاج فكان أكثر ثقلاً وغلاظة. فبما أن كتب المكتبات كانت مكتوبة باللغات الأجنبية، وبما أنه كان مولهاً باللغة الإغريقية، فإنه أمر بإتلافها أو حرقها باستثناء كتاب واحد يعود إلى ماغون. لماذا استثناؤه؟ لأنهم قالوا له أنه يتعلق بفن الزراعة وأن كل الكتب المدرسية المؤلفة باللاتينية كتبت على منواله واستفادت منه. وبما أن الزراعة ضرورية جداً للبلاد فإن الكتاب كان ذا أهمية منفعية أو عملية مباشرة. ومن سخرية القدر أن والد سيبيون هذا كان هو بالضبط بوليوس إيميليوس.

ولكن "طبقاً لأقوال أناس عالمين جداً، فقد كانت توجد أشياء جيدة في كتب القرطاجنيين"[22] كما يقول المؤرخ بلين. بل ويزعم هذا الأخير بأن جميع الكتب لم تحرق. ثم يردف قائلاً: "بعد فتح قرطاج وزع مجلس الشيوخ المكتبات على ملوك إفريقيا الصغار". ولكن العكس هو الأكثر صحة واحتمالاً. فالواقع أنه لم يبق شيء من قرطاج وبالأخص تلك "الكتب البونية أو القرطاجية" (وربما

كانت بقاياها هي تلك التي عثر عليها علماء الآثار مؤخراً كما حصل في بيرسيبوليس وذلك على هيئة أقراص من التراب المطبوخ بالحريق والخاص بصناعة الختوم). كان يمكن للعالم سالوست أن يحسم هذه المسألة الخلافية ولكنه اكتفى بالقول: "بالنسبة لقرطاج أفضل ألا أقول شيئاً على أن أقول قليلاً جداً". والواقع أنه فعل ما فعله سترابون في الإسكندرية واتخذ الموقف نفسه. وينبغي الاعتراف بأن عشرات الباحثين رفعوا أيديهم إلى السماء وأعلنوا عجزهم عن حسم هذه المسائل الشائكة.

كان فارون قد مات عام 27 قبل الميلاد بعد عمر طويل. وقد خلّف وراءه أربعة وسبعين كتاباً تمثل أكثر من ستمئة مجلد حول شتى الموضوعات من النحو، إلى الزراعة، إلى علم الآثار. وكانت تلك الفترة هي فترة الطباعة المحدودة إن لم تكن فترة النسخة الواحدة للكتاب. وبما أن مارك أنطوان حرقها لسبب نجهله فإنه لم يبق منها إلا قطع متفرقة. ثم بشكل أخص لم يبق من كتابه عن "المكتبات" أي شيء. وقد شكل ذلك خسارة كبيرة. فالواقع أن قراءة هذا الكتاب هي التي أتاحت لبلين، وسويتون، وأولو جيلي أن يتحدثوا بالتفصيل عن السلاسل الكبرى للكتب التي اختفت ولم تصلنا، وبخاصة الكتب الإغريقية. وبالتالي فقد بقينا على عطشنا وجوعنا فيما يخص هذه النقطة. وكانت كفاءته عالية في هذا المجال إلى درجة أن يوليوس قيصر كلفه بمهمة تشكيل مكتبة عامة في روما. وقد ابتدأ بالتخطيط لها في الوقت الذي راح يجمع الكتب الإغريقية لوضعها فيها. ثم أضاف إليها الكتب المكتوبة باللغة اللاتينية، وكان ذلك شيئاً جديداً بالنسبة لذلك الزمان. وهذا التجميع الأولي للكتب أتاح بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ تحقيق رغبة يوليوس قيصر في تشكيل مكتبة ضخمة تقع في مواجهة الإدارة البابوية: هي المكتبة العامة. ومن بين كل التماثيل أو النصب التذكارية التي تزين المكان والتي تجسد مشاهير الكتاب كان فارون

نفسه هو الكاتب الحي الوحيد الذي حظي بهذا التشريف. وكانوا قد ابتدؤوا للتو بتدشين هذه العادة الجديدة التي استمرت بعدئذ في أوروبا حتى يومنا هذا. فكثيراً ما نرى في المكتبة الوطنية في باريس تماثيل راسين، أو كورني، أو ديكارت، أو باسكال، أو فكتور هيغو، الخ... وبعد أن انتصر القنصل أسينيوس بوليو بشكل دام ضد أحد شعوب إيليريا فإن ذلك أتاح له أن يحصل على غنيمة حرب كبيرة. وهذا ما مكّنه من تمويل المكتبة والاستيلاء على الوجاهة والشهرة في نظر معاصريه. ومعلوم أنه هو أيضاً كان يتعاطى الكتابة من وقت لآخر. وقد قال عنه بلين هذه العبارة الشهيرة: من عبقرية البشر صنع المصلحة العامة.

ولكن هذه العبارة تنطبق بشكل أقل على أوغسطوس. والدليل على ذلك ما قاله سويتوس عنه: "لقد أصبح أوغسطوس الحبر الأعظم بعد أن جمع كل كتب النبوة سواء أكانت مكتوبة باللغة الإغريقية أم باللغة اللاتينية. وعلى الرغم من أنها لم تكن تتمتع بأي هيبة علمية أو بأية هيبة كافية إلا أنها كانت منتشرة وشائعة في مختلف أرجاء الإمبراطورية. وقد بلغت أكثر من ألفي كتاب. ولكنه بعد أن جمعها راح يحرقها ولم يحتفظ منها إلا بكتب العرافة. بل وحتى هذه الأخيرة لم يحتفظ بها كلها وإنما اختار بعضها ورمى البعض الآخر. ثم جمع الكتب المختارة في خزانتين من الذهب ووضعهما تحت تمثال أبولون البالاتيني". وتقول الأسطورة بأن عرّافة كيوميس قدمت هذه الكتب إلى الملك تاركوان بريسكوس مقابل ثلاثمئة قطعة من الذهب للمجلدات التسعة. وعندما ضحك الملك من هذا العرض سحبت العرافة ثلاثة كتب منها وحرقتها وطالبت بنفس المبلغ للمجلدات الستة المتبقية. وعندئذ قال الملك: هذه العجوز مجنونة. ولكن عندما رآها تدمر كتباً أخرى فإن وجهه اصفرّ وأصابه الهلع. وعندئذ قرر أن يدفع لها ثلاثمئة قطعة ذهب مقابل الكتب الثلاثة الأخرى المتبقية الخاصة بسير الأنبياء. وهذا ما أرضى روما على الرغم من كل شيء[23].

في الواقع إن الرقابة كانت قد أصبحت عادة متبعة كما تدل على ذلك قضية مكتبة "نوما" المزيفة. ونوما هو الذي خلف رومولوس على سدة الحكم. وقد اكتشفت هذه المكتبة عام 181 قبل الميلاد في صندوق مطمور تحت الأرض. والكتب الأربعة عشرة التي وجدوها في الصندوق والمكتوبة باليونانية كانت تعكس فلسفة فيثاغورث. ومعلوم أنه ولد بعد قرنين تقريباً من ولادة "نوما". وقد أمر مجلس الشيوخ القاضي الروماني بإتلاف هذه الكتب أو تدميرها. تقول كلارانس فورييس بهذا الصدد ما يلي: "هذه الكتب مزيفة أو مزورة. ولكن يبدو أنها كانت مكتوبة جيداً من قبل أحدهم. وقد حرقت بالفعل. وهكذا فشلت أول محاولة لإدخال الفلسفة الإغريقية إلى روما حتى عن طريق الحيلة". ويضيف سويتون قائلاً بأن الإمبراطور أوغسطوس أمر بسحب مؤلفات يوليوس قيصر الأولى من رفوف المكتبات لأنها كانت تتناقض مع الصورة الرسمية التي شكلها عنها أو عن مؤلفها. وبالتالي ففي الوقت الذي كان يراقبها عن كثب وبصراحة راح يؤسس مكتبتين اثنتين: مكتبة البالاتينا، ومكتبة أوكتافيا. وقد سار على نهجه هذا خلفاؤه العديدون، ومن بينهم تيبيروس وكاليغولا. هذا بالإضافة إلى فيسباسيان وتراجان اللذان أسس كل واحد منهما مكتبة واحدة على الأقل.

وكان من المعهود في ذلك الزمان أن تشكّل المكتبة من بنايتين لا بناية واحدة، الأولى مخصصة لاحتواء المخطوطات اليونانية، والثانية للنصوص المكتوبة باللاتينية. وكانتا متقابلتان في القصر الفخم للإمبراطور تراجان والمدعو: أولمبيا. ولا يزال عمودها شامخاً بشكل عمودي مستقيم حتى الآن. لا يزال منتصباً وسط العمارة كذراع الميزان أو كالأصابع التي ترفع شارة النصر بكل تبجح وخيلاء.

كانت هناك مكتبات قريبة من الآلهة، ومكتبات قريبة من البشر. من

المعلوم أن الأباطرة، بدءاً من نيرون، راحوا يقدمون لسكان روما حمامات عامة جميلة أكثر فأكثر لكي يستمتعوا بها ويشكروا ملوكهم على هذه الهدية. ولم تكن الحمامات من أجل الاغتسال فقط وإنما كانت أيضاً عبارة عن ملتقيات للنقاش ومراكز ثقافية وأماكن للرياضة الجسدية والعقلية في آن معاً. وكان يمكن للمرء أن يستعير منها الكتب من أجل المطالعة، أو من أجل التسلية والترويح عن النفس والتثقيف. وكان بإمكانهم استعارة الكتب الكلاسيكية المكرسة آنذاك أو الكتب المستجدة الصادرة حديثاً. وإذا ما صدقنا شهادة تعود إلى سنة 350 ميلادية فإن المدينة كانت تعد حتى تسع وعشرين مكتبة عامة. بل وانتشرت المكتبات في شتى أقاليم إيطاليا. ولم تكن موجودة في مدينتي "كوم" و"تيبور" وحسب، وإنما أيضاً في "ديرقونا"، و"فولسينيا"، و"تيمغاد" أو ليون. وكان هدف المكتبات نشر الثقافة الرومانية في شتى أنحاء البلاد.

وقد لعبت الغزوات الإمبراطورية والرغبة في الشهرة دوراً كبيراً في إنشاء المكتبات والاهتمام بها. (وشيشرون نفسه كان يمتلك مكتبة في كل واحد من قصوره مع جيش من الأمناء يحافظون عليها ويديرون شؤونها). وبالتالي فكيف يمكن لنزعة التعاظم والتفاخم الرومانية الفارغة التي ظهرت مع القرن الأول الميلادي (أي قرن السلام) ألا تقلّد هذه النزعة لاقتناء الكتب وإنشاء المكتبات؟ في الواقع إن فيتروف المعاصر لبوليون هو الذي حدد معايير الفن المعماري والزخرفة الخاصة بمسكن كل غني يحترم نفسه. يقول بهذا الصدد ما يلي: "ينبغي على الحجرات والمكتبات عموماً أن تكون مستديرة نحو شروق الشمس لأن استخدامها يتطلب نور الصباح. يضاف إلى ذلك أن الكتب لا تخرب في هذا النوع من المكتبات كما تخرب في تلك المستديرة نحو الظهيرة أو غروب الشمس لأن هذه الأخيرة معرضة لكثرة الدود والرطوبة. ومعلوم أن نفس رطوبة الرياح هي التي تؤدي إلى ولادة الدود وتغذيتها كما تؤدي إلى تعفن الكتب".

وكانت المكتبة تمثل بالنسبة لأناس ذلك الزمان زينة لبيوتهم تماماً كالحمامات والنافورات. وكانت رفوفها المصنوعة من "خشب الصنوبر والعاج" تزين غرف الاستقبال والطعام وتزيدها نبلاً ورقياً. وكان حديث النعمة من الانتهازيين يمتلك ثلاثة أنواع من الرفوف: رف للكتب الإغريقية، ورف للكتب اللاتينية، ورف ثالث نجهل الغرض منه[24]. ولكن سينيكا ولوسيان كانا يوبخان الناس على هذه الحماسة الجنونية لاقتناء الكتب والمكتبات. وكانا يقولان: لماذا كل هذه الكتب التي لن تقرؤوا منها إلا مستهلها: أي عناوينها في الواقع! ويمكن أن نضيف إليهما قائلين: لماذا كل هذه النصوص الكثيرة إذا كانت الفلسفة أو الحكمة قليلة في وقت تحدق الأخطار بالناس من كل جانب؟

كانت الحرائق إحدى هدايا روما المفضلة. في كل يوم تقريباً كان يحصل حريق وترتفع سياط اللهب والقلق ورائحة الأشياء المحروقة. كان كل ذلك يطبع الحياة اليومية بطابعه. وما كانوا يسيطرون على النار بسهولة في ذلك الزمان لأن وسائل الإطفاء كانت بدائية على عكس ما هو سائد اليوم. ولذلك فإن جحيمًا حقيقيًا كان ينهار على المدينة.

وقد قام بعضهم بجرد عدد الحرائق[25] التي اكتسحت المدينة كلها أو جزءاً منها. ولم تكن أقل من ثمانية وثمانين حريقاً بين عهد روميلوس وانحطاط العاصمة السياسية. والروماني، أي قاطن روما، إذا ما نجا من هذه الحرائق الكبرى كان له الحظ في أن يشهد ستة حرائق كبرى في حياته. وسواء اعترف الناس بأصل الحرائق أم لا فإن أسبابها كانت عديدة ومتكررة: كالصاعقة مثلاً، أو ثورة العبيد الذين يضرمون النار احتجاجاً على المعاملة السيئة التي يتلقونها من قبل الأسياد. أو الحرب الأهلية. يضاف إلى ذلك أنه في كل ليلة وفي كل شارع أو زقاق فإن موقدي المشاعل المجهولين يثيرون الحرائق جيئة وذهاباً عن غير قصد وأثناء أدائهم لأعمالهم. هذا دون أن ننسى النيران التي يشعلها كهنة روما القديمة

والتي لا ينبغي أن تنطفئ أبداً بحسب مبادئ دينهم. كان شيشرون الحذر جداً يقول بأن موضع محطبة تحريق الأموات ينبغي أن يكون على مسافة ستين خطوة على الأقل من مساكن الناس. وإذا ما حصل عكس ذلك فينبغي أن يتم بعد موافقة مالك المترل. وكانت نقاط إشعال النار هي تقريباً ذاتها دائماً: أي السوق أو الساحة العامة في المدينة الرومانية، أو بلاط الإمبراطور الروماني، أو مبنى البرلمان. وكانت دائماً توجد مكتبة كبيرة بجوار هذه الأماكن التي كثيراً ما يتردد عليها الناس أو يمرون بالقرب منها. فمثلاً في عام 80 ميلادية نشب حريق في حقل مارس وفي مبنى البرلمان أيضاً. وقد قام ديون كاسيوس بجرد خسائر هذا الحريق في قائمة ضخمة ومذهلة. ومن بين الخسائر الكبرى نذكر رواق أوكتافيوس ومكتباته. وعندئذ أرسل دوميتيان بعضهم لنبش مكتبة الإسكندرية وجلب الكتب منها من أجل التعويض عن المخطوطات الضائعة مع تصحيح النصوص بهذه المناسبة[26]. وقد دفع "مبالغ طائلة" مقابل ذلك. وفي عام 188 ضربت الصاعقة معبد جوبتر المركزي ودمرت مكتبته التي بذل جهوداً كبيرة في تنظيمها وترتيبها والتحمس لها. وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ نشب حريق في مستودعات تجار الحوانيت الشرقية. وتحول الليل إلى نهار بسبب اللهب الساطع من معبد السلام المشتعل، ومن السوق المركزية، ومبنى البرلمان. ويقال بأن ذلك حصل بناء على رغبة الإمبراطور كومود. نعلم أنه أثار الموضوع سابقاً، ولكن هل نفذ فعلته يا ترى؟ على أية حال فإن عدداً كبيراً من المكتبات دمر. وقد تأسف على ذلك لاحقاً ديون كاسيوس وهيروديان وجالينوس.

وعندما لم يكن القدر هو الذي يضرب فإن الإنسان كان يتكفل بالمسألة نيابة عنه. والدليل على ذلك هو الاعتقاد السائد بأن سيلاً هو الذي حرق الكتب المتعلقة بالعرافة يوم السادس من يوليو عام 83 قبل الميلاد. وقد دمرها عن بكرة أبيها بعد أن كانت قد كلفت غالياً. ولزم على الإمبراطورية بعدئذ أن

ترسل مبعوثيها إلى كافة البلدان المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط من أجل شراء وإعادة تكوين كتب الكهنة الذين يتنبؤون بالمستقبل أو بالغيب. ولكن بعد ذلك بوقت قصير جاء دور كلوديوس، الساعد الأيمن ليوليوس قيصر، لكي "يحرق معبد الحوريات من أجل تدمير الألواح الصغيرة الرسمية" المكتوبة عليها أشياء محرجة. وقد أسف شيشرون الذي روى ذلك كثيراً جراء هذا العمل الإجرامي وأدانه. ثم تكررت العملية بشكل استفزازي مرة أخرى عندما أشعل شخص يدعى ك. سوسيوس النار في مبنى سجل المحفوظات الذي كان يدعى "تابولاريوم". وعندئذ ذابت ثلاثة آلاف لوحة على الرغم من أنها مصنوعة من الفولاذ. وكانت المراسلات الرسمية والقوانين مكتوبة عليها. والواقع أن صلابة الذاكرة كانت ظاهرة جديدة في تلك الأيام. وكانت السلطة تتردد بين الافتخار بها أو القضاء عليها. ولهذا السبب كانت توعز أحياناً إلى بعض العبيد بحرق سجل المحفوظات الذي يحفظ ذاكرة الملوك السابقين والتي قد تسبب إحراجاً للملوك الحاليين.

إلى أين نذهب؟ هذه هي الصرخة التي أطلقها أحد نجوم الحرائق التي اندلعت يوم 19 يوليو عام 64 للميلاد وبالقرب من البلاط الإمبراطوري. وكان ذلك في حي مليء بالحوانيت والمساكن الجماعية للسكان.

ثم هبت الريح الجنوبية الشرقية الحارة لكي تزيد من اشتعال النار واتساع نطاقها لمدة ستة أيام وسبع ليال لكي تكتسح المدينة كلها ثم تنتهي عند أقدام الحي الذي يسكنه نيرون. ومعلوم أنه كان يقف على برج قصره المحاط بالحدائق وهو يتأمل في منظر روما المشتعلة وينشد الأشعار. وفي اليوم التالي انطلقت النيران بقوة أكثر ولم تتوقف إلا في اليوم التاسع بعد اشتعالها. وعندما انطفأت أخيراً كانت المدينة قد دمرت إلى حد كبير. فمن أصل أربعة عشر حياً لم يبق إلا أربعة أحياء واقفة على قدميها إذا جاز التعبير. الكل أصبح أنقاضاً. ومعلوم

أن نيرون كان قد صرح قبل اندلاع الحريق قائلاً بأن "منظر المدينة القديم قد صدمه بالفعل". وهذا يعني أنه المشبوه الأول في إشعال النار في المدينة. والواقع أن الناس شاهدوا بعض عبيده وهم يحملون المشاعل من أجل زيادة إشعال النيران في المدينة وانتشارها أو اتساعها. وبدا نيرون متألماً بصدق لما حدث من مصائب ولكن الشبهات ظلت تحوم حوله. ولذلك فلم يجد الإمبراطور أمامه من حل إلا أن يلقي بالمسؤولية على الآخرين. ولهذا السبب "ألقوا في النار بعض الأغنياء المترفين والمحتقرين بسبب دناءتهم وخساستهم. ومعلوم أن الجمهور الذي هاج عليهم كان يدعوهم بالمسيحيين الذين كانوا مكروهين جداً آنذاك وملاحقين". هذا ما يقوله تاسيت. ولكن يبدو أن المسؤولين الحقيقيين عن الحريق هم أشخاص آخرون. إنهم أولئك المتآمرون الذين يحيطون بشخص يدعى "بيزون". ولكن المشكلة هي أنه اختفت في ذلك الأسبوع مخطوطات هامة جداً من مكتبة أبولون التابعة لبلاطه. وكانت تحتوي على ثلاثين ألف مجلد. كما احترقت كل المكتبات التي كانت موجودة على طريق النيران. نذكر من بينها مثلاً مكتبة "تيبر" حيث كانوا يحتفظون بخطابات "كاتون" البالغة مئة وخمسين خطاباً. ولم يصلنا منها إلا بعض المقاطع.

وعلى إثر هذه الحرائق المتكررة المرغوبة أم لا فإنهم أحصوا ضياع أعمال ومؤلفات من كل الأنواع والأصناف. وهو ضياع مؤكد ونهائي. نضرب على ذلك مثلاً ضياع 109 نص لبلوت، و24 نص لإينيوس، و40 نص لأشيوس. كما وضاع كتاب فلسفي لشيشرون بعنوان "هورتنسيوس". وكذلك ضاع كل شعره ما عدا بعض الأبيات المتفرقة. وضاعت كل أعمال فارون تقريباً، وكذلك كل الملاحم التي كانت تكتب في زمن فرجيل. وضاع القسم الأكبر من كتابه "ساتيريكون": أو فن الهجاء كما ضاعت 107 كتب من أصل 142 كتاب من التاريخ الروماني للمؤرخ تيت لايف (ومن بينها كتابه الذي يحتوي

على مفتاح سر الإسكندرية). وضاعت أجزاء كبرى بأكملها من مؤلفات تاسيت أو من مؤلفات بلين القديم: فلم يتبق مثلاً إلا 37 جزء من كتابه التاريخ الطبيعي من أصل أكثر من خمسمئة مجلد كان قد كرسها لعلم النحو، وفن الحرب، ومواضيع أخرى. كما لن نستفيد أبداً يوماً ما من كتاب تيليف دوبيرغام "معرفة الكتب" لسبب بسيط هو أنه ضاع على الطريق أيضاً أو احترق ولم يصل إلينا. كما لن نرى بأم أعيننا كتاب إيرينيوس فيلون "كيفية اختيار الكتب واقتنائها أو شرائها" لأنه حصل له الشيء نفسه. وكذلك الأمر فيما يخص كتاب "فهرس الكتب" لداموفيل دو بيتيني[27].

كان الفيلسوف لوكريس قد فسر الانفجارات البركانية ليس عن طريق فرقعات السندان ومصهر السيكلوب [أي العملاق الأسطوري ذي العين الواحدة] وإنما عن طريق افتراض وجود رياح تحت الأرض تنفجر وتحرق كل ما يعترضها عندما تكون ساخنة جداً وعاصفة. وهذا ما حصل للمؤرخ بلين عندما هبت عليه رياح غازية حارقة من تحت الأرض وخنقته خنقاً عام 79 ميلادية أمام بركان فيزوف في ستابيس. وهل امتلك الوقت الكافي لكي يلغي هذه الرياح الغازية الساخنة جداً قبل أن يحترق ويموت؟ ويقال إنه وضع وسادة من القماش حول أذنيه لكي يحمي نفسه متبعاً نصائح جماعته ولكن ذلك لم يجده نفعاً لأن وابلاً من الحجارة الساخنة أخذ يتساقط عليه كالمطر الغزير.

ففي الرابع والعشرين من شهر أغسطس، وخلال أربعة أيام متتالية، بصق الجبل من أعماقه الحمم والغازات التي تصل حرارتها إلى 300 درجة مئوية! ثم تقيأها على الأرض فسالت حارقة كل شيء في طريقها. راح الناس يتراكضون في كل الاتجاهات محاولين النجاة بأنفسهم. كانوا يقفزون فوق البيوت لكي يهربوا، ولكن عبثاً. فالسائل الناري كان يلحق بهم لا محالة. كانوا يقفزون فوق بيوت الفقراء أو فوق بيوت تجار حي "بومبي"، وفوق المقرات الصيفية الراقية

جداً للطبقة الأرستقراطية الرومانية في حي هيروكولانوم. بل وحتى فوق أرقى المنازل كلها: أي فيلا آل بيزون. وكان والد زوجة يوليوس قيصر قد بنى هناك قصراً للعلم والثقافة. وهذا القصر كان مؤلفاً من فناءات داخلية متتالية، وصنوف أعمدة متناسقة، وأحواض مائية، وتماثيل تتماشى مع فلسفة المكان، ورواق طويل يؤدي إلى مقصورة في مكان مرتفع يشرف على البحر والمناظر الجميلة. وهناك كان الجو مناسباً لكي يجتمع بعض الأصدقاء الخلص من أجل الحوار فيما بينهم وتبادل الأفكار وهم يقضمون السردين والبصل. فهذا الأبيقوري الغني كان يحب البساطة والزهد في المأكل. كان الفيلسوف اليوناني فيلودم معلماً أو مرشداً لصاحب البيت. وقد أسس مكتبة في هذه الفيلا الراقية ووضع فيها أيضاً نسخاً متعددة لكل كتاب. وعندما حصلت المأساة كان هؤلاء الأصدقاء الأنيقون قد ماتوا منذ أكثر من قرن. ومع ذلك فإن هذه الفيلا الضخمة ظلت ملجأ أميناً للمطالعة وحفظ الكتب. كانت الكتب مرصفة في نوافذ مصنوعة من الرخام وموجودة تحت الأعمدة المحيطة بفناء العمارة. وهي نوافذ تدعى "كبسة"*. لقد وضعت فيها بطريقة تسهل عملية أخذها أو حملها أثناء الهرب لسبب ما. وكانت أيضاً موضوعة بشكل خاص في تلك الغرفة الصغيرة المرتبة خصيصاً من أجل الحفاظ عليها. فهي مزودة بكوى مرقّمة في الحائط. كما أنها مزودة بالرفوف الأنيقة الخاصة باحتواء الكتب. والغريب في الأمر أنه إذا كانت بعض الكتب قديمة يتراوح عمرها بين قرن إلى ثلاثة قرون أثناء حصول الكارثة، فإن أياً منها لم يكن حديثاً أو معاصراً.

هكذا نجد فجأة أن المكتبة قد خُسفت بها الأرض وأصبحت مطمورة تحت عشرين متر من الرواسب والنسيان الصلب شبيهة بالإسمنت المسلح. ولذلك فقد جهد فريق من الكادحين المحكومين بالأشغال الشاقة أن يثقبوا نفقاً في الحي كله للوصول إلى هذه المكتبة المطمورة تحت الأرض. وكان ذلك عام 1752م وتحت قيادة ضابط عسكري. وعندما وجدوا كل هذه الأشياء المختلطة

ببعضها البعض ازداد اهتمامهم بما اكتشفوه. ولكنهم كانوا يرمون هذه الأشياء المحروقة في المزبلة ما إن يخرجوها من تحت الأرض. وكل ذلك بسبب جهلهم لقيمتها. وعندما عرفوا أنها ليست شبكات صيد قديمة وإنما هي كتب محترقة هالهم الأمر وراحوا يهتمون بها. ولكن لم يكن قد تبقى منها إلا 1806 لفيفة. والسؤال الذي طرح عليهم عندئذ هو التالي: كيف يمكن فك رموز هذه اللفائف من الكتب؟ كيف يمكن أن يقرؤوها بعد أن أصابها البلى والتلف تحت الأرض؟ وراح العلماء ينكبون عليها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه والتوصل إلى جزء واضح على الأقل من هذه الكتب التي امحت خطوطها وكلماتها. وحاولوا التفريق بين "القشور" و"الجواهر". باختصار لقد تحولت على أيديهم إلى نثارات من الورق أو قصاصات متقطعة إلى أقصى حد ممكن. وقد وصل الأمر بالكاهن المسيحي أنطونيو بياجيو إلى حد أنه اخترع آلة لنشر هذه اللفائف من ورق البردي المتصلبة أو المتخشبة بسبب مرور الزمن. وقد لجأ إلى هذه الطريقة بعد أن عجزت اليد البشرية عن ذلك. وكل هذه الجهود لم تؤد في الواقع إلا إلى نتيجة متواضعة ومحدودة. بمعنى آخر فإنهم لم يستطيعوا أن ينشروا أكثر من أربع لفائف من الكتب خلال ثلاث سنوات. ولم يستطيعوا أن يقرأوا إلا بعض المقاطع المتفرقة. بل وخاطروا بترتيبها وقراءتها بقدر ما هو ممكن لأن الأمور لم تكن سهلة على الإطلاق.

ثم توقف العلم الخيالي عند هذه المكتبة العريقة. واحتاجوا إلى وسائل تقنية أخرى أكثر فعالية بكثير لفك رموز المخطوطات أو لقراءة حروفها. وكان أن عرضوها على أحد مختبرات "النازا": أي الوكالة الأمريكية المختصة بإرسال المركبات إلى الفضاء. وفيها توجد أجهزة رصد وتصوير قادرة على معرفة ماهية المعادن الثمينة المختبئة تحت سطح الكواكب البعيدة. وهي أجهزة قادرة أيضاً على قراءة الحروف السوداء حتى ولو كانت مكتوبة على ورق معتم جداً. إنها قادرة على قراءة الوثائق حتى ولو كان حبرها قد جفَّ على الفحم الحجري

وأصبح رمادياً داكناً لا يستبين فيه الخيط الأبيض من الخيط الأسود. وهي تفعل ذلك عن طريق تحليل الحبر أو تفكيكه إلى عناصره الأولية. بعد أن فحصوا هذه اللفائف في المختبر على هذا النحو تبين لهم أن هذه المكتبة المستخرجة من الأعماق المظلمة للأرض كانت مكرسة في معظمها لكتب الفلسفة. هذا ما اكتشفه العلماء بعد أن حللوا الوثائق في المختبرات. وهم الآن في طور ترجمتها في الجامعات الإنكليزية والأمريكية. لقد اكتشفوا أنها كانت مكرسة لحفظ كتب الفلسفة الرواقية والأبيقورية بشكل خاص. واكتشفوا من خلالها فكر هذا الفيلسوف فيلوديم المذكور آنفاً. وهو من تلامذة أبيقور. وكان حتماً سيبقى أقل أهمية لولا انفجار البركان. كما اكتشفوا المفكر أنيوس ثم بالأخص عثروا على نسخة (كاملة) من كتاب "طبيعة الأشياء" للفيلسوف لوكريسيوس. وفيه يحلل أسباب انفجار البراكين، وذلك في النشيد السادس من حيث المبدأ. وكل هذه الكنوز لم تقرأ بعد بل ولم يتم التحقق منها حتى الآن. ولا تزال مئات اللفائف سوداء، خرساء، مكتظة بالكلمات التي لا يستطيع أن يقرأها أحد. وبعضها يعود في تاريخه إلى ثلاثة وعشرين قرناً! ولكن هناك لفائف وكتب أخرى داخل هذه "الفيلا المليئة بورق البردي". وهذا ما دفع عام 2000 بوريث كبير وغني للمعلوماتية إلى دفع مبلغ مئة مليون دولار على مدار عشر سنوات من أجل ترميم هذا الموقع الأثري الخطير والبحث عن كتب أخرى ثمينة قد تكون لا تزال مدفونة فيه.

وكما يقول المثل: لكل عصر ثقافته التي تتناسب معه. والدليل على ذلك أن ملك نابلي في القرن الثامن عشر اعتقد للحظة أنه عثر على مخطوطات جديدة لأرسطو. وأما وسائل الإعلام الأمريكية ومن بينها (CNN) فقد وعدت قراءها ومشاهديها باكتشاف مخطوطات جديدة لهوراس وفيرجيل. فهل يمكننا أن نحلم اليوم باكتشاف مخطوطات جديدة للمؤرخ بلين أو لشاعر جديد غير

معروف سابقاً؟ هل من العقلانية في شيء أن نحلم بذلك؟ هل يمكننا أن نحلم باكتشاف أشياء جديدة عن المسيح أثناء موته؟ كل الآمال أو الأحلام مباحة ومشروعة بطبيعة الحال. نقول ذلك في اللحظة التي يدخل فيها بركان "فيزوف" الإيطالي في مرحلة جديدة من النعاس الهائج...

هنا تنتهي تقريباً ملحمة العصور القديمة ويبتدئ الفيلم الأسود لحرق المكتبات أو منع الكتب. فمع بداية العصور الأولى الميلادية انتهت الأعمال الشريرة الجنونية والمغامرة للعصور القديمة. وراحت تحل محلها تدريجياً النـــزعة الاستبدادية المطلقة والمنظمة التي تهدف إلى وأد الحرية الفكرية في مهدها. فاليهود والمسيحيون ثم المسلمون الذين جاؤوا بعدهم كانوا جميعاً أصحاب كتاب واحد. وهذا ما أدى بالأتباع إلى احتقار كل الكتب الأخرى، بل وحتى إلى حرقها وتدميرها بحجة أنه لا لزوم لها.

فاليهود والمسيحيون كانوا يعتقدون أن كل شيء موجود في الكتاب المقدس (أي التوراة والإنجيل). هذا ما تقوله النصيحة الموجهة إلى الحواريين والمكتوبة في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي. تقول بما معناه: "إذا كنت تريد أن تقرأ التاريخ فلديك سفر الملوك في العهد القديم. وإذا كنت تريد الاطلاع على الفلسفة، فلديك سفر الأنبياء. وإذا كنت تريد قراءة الشعر والاستمتاع بها فلديك مزامير داؤود"[28]. هذا ما حصل لبولس الرسول على الرغم من أن شخصيته تشكلت من خلال قراءة كتب الوثنيين: أي فلاسفة الإغريق (وذلك على غرار معلمه اليهودي غاماليال الذي كان شخصية ابتكارية غريبة الأطوار. والواقع أن معظم حاخامات اليهود كانوا يعتقدون بأن قراءة التوراة وتفسيرها والتأمل فيها لا تترك لك أي وقت لقراءة فلاسفة الإغريق). وفي مدينة أُفسس طلب بولس من كل أولئك الذين اعتنقوا المسيحية على يده "أن يجلبوا كتبهم معهم من أجل تجميعها وحرقها على مرأى ومشهد من الناس

جميعاً. ثم قدروا ثمنها فوصل إلى خمسين ألف دينار من الفضة"*. وقد فهم الشارحون بعدئذ بوقت طويل على أن الأمر يتعلق بكتب التنجيم والسحر أو هكذا ترجموا الأمر. ولكننا سنرى بانتظام أن كلمة "السحر" كانت تعجب القدماء كثيراً إلى درجة أنها حتى إن لم توجد حقيقة لاخترعوها. فالإمبراطور الروماني ديوكليتيان استخدمها ضد المسيحيين في الإسكندرية. أما جوفيان فقد فعل الشيء ذاته في أنطاكية عام 363م ضد الوثنيين. ومعلوم أنه أمر عندئذ بتدمير المكتبة التي كان جوليان أنشأها في المعبد الذي بناه هادريان على شرف والده تراجان. وقد فعل جوفيان ذلك "وهو محاط بعشيقاته الفرحات الضاحكات" كما يقول المؤرخ سويداس.

كان الإمبراطور الوثني الروماني ديوكيلتيان قد أصدر مرسوماً متعصباً يقضي على ثلاثة قرون من التسامح. وفيه يقول حرفياً: دمروا كنائسهم واحرقوا كتبهم. وقد تحدث القديس أوغسطينوس عن ذلك وقال بأن هذا العمل يمثل اضطهاداً للكتب التي وصلتنا عن الأجيال السابقة وتجريماً ظالماً لها. ولكن هذا المرسوم الإمبراطوري لم يطبق أبداً في الإسكندرية، ولا في القدس، ولا في قيسارية. وهذا دليل على أن سلطة روما قد ضعفت. ولكن حصل شيء معاكس لذلك في مدينة سيرتا (أي القسطنطينية اليوم، في الجزائر). فقد أمر الكاهن الروماني فيليكس المطران المسيحي بجلب كل الكتب أو المخطوطات التي يمتلكها من أجل حرقها. وقد قدم له المطران كتاباً كبيراً جداً، فقال له الكاهن الوثني: "وأين هي البقية؟ فأجابه المطران المسيحي: عند القراء. إنهم يحتفظون بالمخطوطات في بيوتهم. ولكننا لسنا خونة. وإذا كنت لا تصدقنا فما عليك إلا أن تأمر بقتلنا".

ولم يجدوا في نهاية المطاف إلا سبعة وثلاثين كتاباً فحرقوها لأنها تحتوي على أفكار وعقائد مسيحية. ومعلوم أن الإمبراطورية الرومانية كانت تحارب

هذا الدين الجديد وتضطهد أتباعه. وكان المسيحيون يقاومون الاضطهاد عن طريق استخدام أنواع عديدة من الحيل. فقد فرغوا مثلاً خزائنهم من الكتب الهامة ولم تعد تحتوي إلاّ على سجلات المحفوظات العادية. وفي أحيان أخرى كانوا يعطون للجنود الرومان الآتين لتفتيشهم بعض كتب الطب موهمين بأنها كتب في العقيدة. وبما أن هؤلاء الجنود ما كانوا يعرفون القراءة والكتابة فإنهم كانوا يأخذونها. ويعتقد المؤرخون أن الإمبراطور ديوكليتيان الذي حارب المسيحية بكل شراسة هو الذي ساهم في نشرها أكثر من غيره!

وقد صرح المفكر أميان مارسيلان بكل مرارة عام 378 قائلاً بأن "الرومان كانوا يكرهون العلم كرههم للسّم الزعاف... فقد كانت مكتباتهم مقفلة باستمرار وكأنها قبور". ثم هجمت بعدئذ العصابات الشمالية على العواصم القديمة للحضارتين اليونانية والرومانية وأدت إلى تدميرها والقضاء على روح الفكر والحضارة. وهكذا راحت المدن الأوروبية تسقط واحدة تلو الأخرى، وراحت سلاسل الكتب تحرق وتتبخر دخاناً في الهواء. وحده الإمبراطور المنسيّ تماماً الآن "ماجوريان" والذي كان غريب الأطوار حاول التخفيف من الظلم الذي يحل برعيته. وقد حاول أيضاً الاهتمام بالنصب التذكارية التي كانت مفخرة الناس سابقاً. وسبب ذلك هو علمه بأن الناس كانوا بحاجة إلى الحلم أيضاً، أي إلى الأمجاد التي تمثلها هذه المباني الرومانية والنصب التذكارية. ولكنه لاحظ أنها تهدم وتستخدم فقط من أجل البناء والعمران. يقول المؤرخ إدوارد جيبون عن ذلك ما يلي: "إن المعابد الرومانية التي نجت من تدمير المسيحيين لم تعد مسكونة من قبل الآلهة الوثنية ولا من قبل البشر. وراحت البقايا القليلة للشعب الروماني تضيع في تلك الفضاءات الشاسعة للحمامات والأروقة المسقوفة. فالمكتبات الواسعة وقاعات الاستقبال أصبحت تبدو بلا جدوى بالنسبة لذلك الجيل المتراخي أو المتكاسل الذي لم يكن يزعج نفسه أبداً

بالدراسة أو بالأعمال"[29]. ولكن هذا الإمبراطور الذي حرص على إنقاذ الروائع الفنية والمعمارية سرعان ما اغتيل عام 461م، بعد أربع سنوات من تنصيبه أو تكريسه إمبراطوراً من قبل الكنيسة.

ثم جاء توتيلا ملك شعب الأسترغوتة عام 546 ومحا مدينة روما عن الخارطة. ويعتقد المؤرخون أن قصر البالاتينا والأولبيينا أو ما تبقى منهما قد وجدا عندئذ نهايتهما تماماً كما حصل لمجموعة الكتب التي كان يمتلكها أغابيت الأول الذي عيّن بابا لعام واحد. وقد رأوا في بيته أن جدران المكتبة كانت لا تزال قائمة بعلو" ستة أمتار عندما دخلوها. ورأوا الإفرازات والطنف والصور التي تشرف عليها، والتي اختفت. وقد وجدوا على العتبة مكتوباً الكلمات التالية: "مكتبة أغابيت الأول A DXXXV DXXXVI". ثم لاحظ المؤرخ كاسيودور قائلاً: "هكذا ماتت كل مكتبات روما". وقد قرر مغادرة روما نهائياً والذهاب إلى منطقة "كالابر" حيث الهدوء والسكينة وحيث يمتلك قسماً كبيراً من الأرض، وذلك لكي يبني مكتبة هناك. وكان خياراً حكيماً جداً. وقد دعا هذه المكتبة الشهيرة بالفيفاريوم: أي بالمكان الحي الذي يطيب فيه العيش. والواقع أنه لم يكن فقط مكرساً للمطالعة وترقية الروح عن طريق الكتب وإنما أيضاً لتربية الأسماك. لقد أسس كاسيودور هناك إسكندرية جديدة من أجل التفرغ للعلم والمعرفة. والواقع أنه كرس عمره المديد (95 سنة) لتأليف موسوعة ضخمة تضم كل المعارف المتوافرة في عصره في شتى الاختصاصات. ولكن هذه المكتبة الرائعة لم تدم بعده طويلاً. فقد هجمت سلالة اللومبارديين على المنطقة وسلبتها ونهبتها ومحتها من الوجود وحرقت كتبها. وعندئذ تلقى قصر البابا في منطقة "لاتران" بعض الكتب الناجية من هذا الحريق: أي كتب كاسيودور. قلنا تلقى بعضها وليس كلها لأن البابا لم يقبل إلا الكتب المسيحية رافضاً الوثنية. نقول ذلك ونحن نعلم أن الأولى كانت مختلطة بالثانية في مكتبة كاسيودور التي

كانت تحتوي على الكثير من الروائع الكلاسيكية للرومان والإغريق. ولكن نزعة التطرف انتصرت بوصول غريغوار الأول إلى سدة العرش البابوي عام 590 بعد أن كان حاكماً لروما. فقد أمر بحرق ما تبقى من كتب شيشرون، وتيت ليف، والعديد من كتب كبار المؤلفين في العصر الذهبي الروماني. لقد فعل ذلك فقط لأنه رأى الشبيبة تفضل هذه الكتب الوثنية على قراءة العهد الجديد أي الإنجيل. وبدءاً من هذا البابا أصبح بمجرد وجود كتاب وثني بالقرب من الإنسان المسيحي يهدد سلامة عقيدته وطمأنينة روحه. أو قل هكذا أصبحوا يعتقدون. فهذا الرجل، أي غريغوار الأول، لقب نفسه "بقنصل الربّ" أو مستشاره على الأرض. ولم يكن يخفي احتقاره للكتب والثقافة بشكل عام. وقد برهن إسحاق ديزرايلي على الحقيقة التالية: وهي أن هذا البابا عندما أمر بحرق مكتبة روما فإنه أعفى القديس أوغسطينوس من تهمة السرقة عن كتب اليونان والرومان الوثنية المدانة. نقول ذلك ونحن نعلم أن القديس المذكور مدين في كتابه "مدينة الله" لفكر "فارون" وبشكل كلي. ومعلوم أن كتبه الأخيرة اختفت من الساحة عندئذ ولم يعد لها أي أثر. [كان القديس أوغسطينوس وثنيًّا مشبعًا بفكر أفلاطون والأدب الروماني قبل أن يتحوّل للمسيحية ويعتنقها]

في الواقع إن الكتب التي ألفها المسيحيون الأوائل لم تكن تبحث عن المظاهر الزمنية ولفت الأنظار بقدر ما كانت تبحث عن التقى والهداية الروحية والتقشف. والدليل على ذلك أن أحد آباء الكنيسة جيروم كتب إلى الشابة الجذابة لايتا رسالة عام 413 يقول فيها: "لتكن كنوزك مخطوطات الكتابات المقدسة لا الجواهر ولا أقمشة الحرير الفاخرة. وبالنسبة لهذه المخطوطات لا تفكري بنساختها الفاخرة أو زخارفها المذهَّبة وكل أنواع الزينة الأخرى التي كان القدماء يرفقون بها مخطوطاتهم. وإنما فكري فقط بصحة النص المنسوخ وتوافقه مع النص الأصلي ودقة التنقيط والنسخ وخلوه من الأخطاء الإملائية. فهذا هو المهم في نهاية المطاف وليس الأوراق المزينة والمزخرفة... وأما أولئك

الذين يمتلكون الكتب القديمة المحلاّة بحروف الذهب والفضة على النسيج الأرجواني فهذه مشكلتهم. هذا لا يعنيني في شيء. ليفعلوا ما يشاؤون وليزينوا مخطوطاتهم كما يشاؤون ويشتهون ويتركوني أنا مع صفحاتي المتواضعة التي لا تلفت الأنظار بجمالها وإنما بصحة معانيها وأفكارها". في الواقع إن القديس المتقشف جيروم يجد هنا وسيلة مناسبة لإبطاء نقل النصوص إلى الأجيال القادمة سواء أراد ذلك أم لم يرده. لماذا؟ لأن المظهر الخارجي الجميل أو الفخم للمخطوطات يساهم أيضاً في تحبيذ نقلها إلى الأجيال التالية وفي الحفاظ عليها أيضاً بكل عناية في المكتبات. وبالتالي فالمضمون وحده لا يكفي للاهتمام بالكتب على عكس ما يتوهم القديس جيروم. والدليل على ذلك أنهم وجدوا في إحدى الكنائس في منطقة "الجورا" الفرنسية القريبة من الحدود السويسرية عام 1500 رسائل جميلة للقديس جيروم نفسه. ولولا جمالها لما حافظوا عليها مدة طويلة تزيد على الألف سنة. ولكن لسوء الحظ فإن أحد الدببة التهمها بشهية لأنها مكتوبة على ورق ذي رائحة طيبة! *وهذا ما كان ينبغي البرهنة عليه*.

القسطنطينية:

كان الإمبراطور قسطنطين الكبير هو الذي أسس المكتبة الإمبراطورية لبيزنطة منذ اللحظات الأولى لتأسيس روما الجديدة عام 330م. وكانت ضخمة وغنية بالكتب ولا منافس لها في هذا المجال. ولكن حظها العاثر بعدئذ سيكون مرعباً أيضاً. كانت المكتبة تحتوي على سبعة آلاف كتاب، ولم تكن كلها مسيحية. وكانت كلها موضوعة في رواق القصر. ولم يكونوا يوظفون في المكتبة إلا "خطاطين أو نساخين من الطراز العالي وكذلك الكتبة وحفظة الكتب المتخصصين".

وقد وصل عدد الكتب بعد مئة عام من ذلك التاريخ إلى مئة وعشرين

ألف كتاب. وهو رقم لا يمكن تجاوزه عام 475م. وبالتالي فمكتبة القسطنطينية، عاصمة بيزنطة، كانت أكبر مكتبة في العالم آنذاك. ولكن الحظ العاثر شاء أن يستولي على السلطة بشكل لاشرعي شخص قليل الكفاءة يدعى بازيليسكوس. وقد دامت سلطته بضعة أشهر فقط ولكنها انتهت بالفوضى واندلاع الشغب. وعندئذ ظهر العمل السياسي المباشر في الشارع لأول مرة. وأدى كل ذلك في نهاية المطاف إلى اندلاع حريق كبير أتى على المكتبة كلها وحولها إلى ركام من الأنقاض والرماد. وكان من بين الكتب المشتعلة مؤلفات هوميروس المكتوبة بحروف من ذهب على جلد ثعبان يبلغ طوله اثني عشر قدماً، أو هكذا قالوا...

ثم صعد على سدة السلطة شخص تافه جداً يدعى تاراسيكوديسا. وقد أصبح إمبراطوراً تحت اسم: زينون. وقد طرد من منصبه ثم عاد إليه لكي يهتم بالمكتبة من جديد ويعيد إليها الاعتبار. وهكذا أصبحت مفتوحة أمام الجميع وجاهزة للعمل. ولكن حلّ محله بعدئذ ملك أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة يدعى ليون الإيسواري. وقد أساء إلى المكتبة وأهملها. وفي ظل هذا الإمبراطور ظهرت لأول مرة نزعة محاربة الأيقونات في العالم المسيحي. وهو مذهب ديني مسيحي قاوم التعبد للأيقونات والصور والتماثيل الدينية. ولهذا السبب فإن الصور أصبحت ممنوعة بين عامي 727–841 في بلاد الأيقونات والفسيفساء. وكان أتباع المذهب المعادي للأيقونات يكرهون كل الرسوم ويقتلون الذين يدافعون عنها. وعندئذ تم إغلاق الأكاديمية. ومعلوم أن مكتبتها كانت قد أنشئت عام 425. وقد اختفت بدورها أيضاً، تماماً كما حصل لمكتبة اللاهوت المسيحي التي أسست بين عامي 610–638 تحت مسؤولية البطريرك. فقد ذهبت ضحية النيران عام 726. وهذا ما حصل أيضاً للمكتبة العامة. وقد أمر الأباطرة مرتين أو ثلاث مرات بالبحث عن كتب لاهوتية تؤيد وجهة نظرهم عن استخدام الصور أو عدم استخدامها. لقد أمروا بالبحث عنها في قصورهم

ولكنهم لم يجدوا شيئاً. وقد انتشرت إشاعة تقول بأن ليون الإيسواري كان معجباً بالإسلام سراً وأنه أمر بالتالي بحرق الخمسة وثلاثين ألف كتاب التي كانت موجودة في الأكاديمية. كما وحرق الإثني عشر أستاذاً وسطها! ولكن البعض يعتبر ذلك مجرد إشاعة ويقول بأن بيزنطة هي بلد الثرثرات والأقاويل. وبفضل الإمبراطورة تيودورا من بين آخرين عديدين فإن نزعة محاربة الصور والأيقونات لم تعد موضة دارجة. ومعلوم أن هذه الإمبراطورة كانت سابقاً من جملة مرتادي البلاط ومن النوع الذي كان القدماء يصفونه بزائرة بلاط من صنف سلاح المشاة[30]. ثم عادت النزعة الكونية البيزنطية لكي تسود مرة أخرى بكل ألقها الذي لا يقارن ولا يضاهى. وكان ذلك في ظل الإمبراطور بازيل الأول الذي حكم بين عامي 867-886.

والواقع أن البطريرك فوتيوس 820-891 هو الذي اخترع ملخصات الكتب أو المقالات. وكانوا يدعون ذلك بالمكتبة ولكن في القرن السادس عشر. والبطريرك المذكور كان سفيراً سابقاً للإمبراطورة تيودورا، ثم مربياً لأبنائها. وقد ابتدأ فوتيوس حوالي عام 843 بتدبيج ما كان يدعى أولاً "بفرز وتعداد الكتب التي قرأناها والتي طالبنا أخونا المحبوب تاراسيوس بتفسير عام لها".

وهكذا راح يلخص في مئتين وتسعة وسبعين فصلاً بالإضافة إلى عدد مواز من الملاحق ثلاثمئة وستة وثمانين كتاباً أساسياً كانت قد ألفت منذ عهد هيرودوت. وهي كتب نادرة وآتية أحياناً من الأزمان البعيدة. وقد خلع على العمل التأليفي الضخم العنوان التالي: ميريوبيبلون: أي العشرة آلاف كتاب. ولم يهتم فقط بالكتب المسيحية أو العبرية وإنما لخص أيضاً الكتب الوثنية والدنيوية والواقع أنه يبدو مهتماً بهذه الأخيرة أكثر من غيرها. وكل ملخص من ملخصاته يبتدئ بالعبارة التالية: "قرئ..." ثم يتلوها العنوان والتعليق أو التفسير[31]. ولكن الحساد أو الوشاة يوشوشون قائلين بأن فوتيوس باع إيمانه المسيحي إلى ساحر يهودي مقابل أن يضمن له هذا الساحر النجاح، والغنى، والمعرفة. والواقع أن

قصته تبدو مذهلة: فقبل أسبوع واحد من توصله إلى مرتبة البطريرك لم يكن قد دخل بعد إلى سلك الرهبانية[32]! وبعد أن فقد حظوته أو مكانته لدى السلطة اشتكى إلى الإمبراطور بازيلوس قائلاً بأنهم صادروا أكياسه المليئة بالمخطوطات والكتب. ولكنه أخطأ في الشكوى والطلب. فما إن عرف المجتمع الكنسي الثامن بالقصة حتى أصدر أمراً في جلسته الثامنة بحرق المكتبة فوراً[33]. ولهذا السبب فإن قسماً كبيراً من الكتب التي جمعها وحلّلها أو فسرها فوتيوس لم تصلنا ولا نعرف إلا عناوينها فقط. فهناك مئتان وأحد عشر كتاباً لم تصلنا في نسختها الكاملة. وهناك مئة وعشرة كتب ضاعت كلياً و لم تصلنا أبداً. ولكن مشروعه الكبير في تبسيط المعارف والعلوم والذي كان موجهاً إلى قارئ واحد في البداية ساهم في ازدهار العلم وانتشاره في كل أنحاء الإمبراطورية. كما ساهم على أقلّ تقدير في نقض الفكر الأحادي الجانب (أي الفكر الديني المسيحي) وإن كان في نقل الأدبيات المسيحية القديمة. أو قل ساهم في نقل ما سمح الزمن بنقله إلينا و لم يضع على الطريق أو لم يحرق ويمزق من قبل المتعصبين اللاهوتيين.

والسؤال المطروح الآن هو التالي: كم هو عدد الكتب التي كانت تحويها بيزنطة عندما هجم الصليبيون على المنطقة؟ لا ريب في أن عددها كان بالآلاف، ولكن كم كان بالضبط؟ لا أحد يعرف بدقة. بالنسبة لمن يعتبرون أنفسهم مبعوثيّ الله فإن كل مدينة "لا تركع لهم" اعتبرت غنيمة حرب يحق لهم أن يفعلوا بها ما يشاؤون. نقول ذلك وبخاصة أن نهبها أو سلبها كان بمثابة الراتب الوحيد للجنود. ولهذا السبب فإن المؤرخ المسيحي نفسه كان يشبه الجنود الحجاج "بأسراب الجراد". وقد حصل أن القسطنطينية في عام 1204 كانت "تتجاوز الحدود في كل شيء". وبالتالي فاكتساحها من قبل الصليبيين كان مفرطاً أو مسرفاً جداً. وقد فعل فيها "الفرنجة" الفعائل. فقد عبروا عن احتقارهم لهذا الشعب البيزنطي المهووس بالقراءة والكتابة والمليء "بالنسّاخ والعلماء". ولذلك راحوا يستعرضون قوتهم في الشوارع ليس عن طريق وضع

الرؤوس الدامية على ألسنة حرابهم وإنما عن طريق وضع المحابر والأقلام والأوراق. وقد وصل الأمر إلى حد أن السيناتور والمؤرخ الإغريقي نيستاس راح يتساءل فيما إذا كان يمكن أن ننتظر شيئاً آخر من هؤلاء "الجهلة والأميين والبرابرة". وأما فيلاهاردون الذي ينتمي إلى المعسكر الآخر فيعترف "بأنه تم تدمير قصور فخمة مليئة بالروائع الفنية القديمة والمخطوطات الكلاسيكية". وقد أدى الحريق إلى ذوبان تمثال ضخم لهرقل على هيئة الجلوس. وكان النحات ليسيبوس قد صنعه من البرونز بطريقة رائعة ومتوازنة جداً إلى درجة أنه كان بإمكان أي شخص أن يجعله يدور حول محوره بيد واحدة. هذا ما نقله إلينا رجل إسكندراني مولع بالكتب والمكتبات هو جيورجياديس الذي يضيف قائلاً: إذا كان هذا قد حصل لتمثال من البرونز الصلب فلكم أن تتخيلوا ما حصل للمخطوطات!... وقد أذهل هذا الحريق المعاصرين الذين شهدوه وقالوا بأن صلاح الدين الأيوبي تصرف بطريقة أفضل في القدس عندما دخلها فاتحاً قبل سبعة عشر عاماً من ذلك التاريخ. وقد قال المؤرخ جيبون بهذا الصدد ما يلي: "كان القصر قد توسخ بسبب الدخان والطين والوحل. وكان يحمل على واجهته آثار همجية الفرنسيين. وبالإضافة إلى ذلك فقد دمرت شوارع بأكملها[...]. وبما أن اللاتينيين كانوا يتوقعون أنهم سيهزمون ويطردون لاحقاً فإنهم بالغوا في النهب والسلب والتدمير قبل أن يحصل ذلك [...]. ونقول ذلك وبخاصة أن مؤلفات الإغريق كانت متجمعة كلها تقريباً في العاصمة. وعلى الرغم من أننا لا نعرف مدى حجم خسارتنا إلا أننا نأسف فعلاً على ضياع المكتبات الغنية الكبرى المحترقة"[34].

ولكن لا يهمّ. فما أن استلم ميشيل الثامن باليولوغوس (العالم بالنصوص القديمة) زمام الأمور في القسطنطينية عام 1261 حتى أعاد سلسلة الكتب الإمبراطورية إلى سابق عهدها في أحد أجنحة قصر بلاشيرناي. وهكذا امتلأت الرفوف بالكتب من جديد وإن بحماسة أقل. ولكنها كانت كافية لجذب الرحالة الإسباني بيرو تافور على الرغم من أنه لا يحب هذه المدينة. فهو يقول

بأن شوارعها وسخة، وسكانها أرذال ولباسهم بشع وقصرها غير معتنى به بشكل جيد ما عدا الجزء الضيق الذي يسكنه الإمبراطور مع عائلته. بالمقابل فقد رأى "قاعة من الرخام مفتوحة على رواقات مقنطرة، على مقاعد من الحجر المبلّط تحيط بها من كل الجهات، مع طاولات من نفس الصنع. وهي طاولات مرتبة بعضها إلى جوار بعض وموضوعة على ركائز منخفضة. وكانت توجد هناك كتب كثيرة ومخطوطات قديمة وكتابات تاريخية[35]". وهذه هي الصورة التي نمتلكها عن آخر ما سيختفي بعد خمسة عشرة عاماً عندما سيطمس العالم القديم أثناء فتح الأتراك للقسطنطينية بتاريخ 29 مايو عام 1453. فبما أن المدينة قاومت محاولات الفتح ثمانية أسابيع بكاملها فإن المجزرة دامت ثلاثة أيام بلياليها. وعندئذ قضى الأتراك على كل شيء يتحرك. وكان عدد الموتى هائلاً. وراحت الجثث تطفو على مياه البوسفور "كما يطفو البطيخ في قنوات البندقية". هكذا عبر أحد الإيطاليين من مدينة البندقية عن المشهد.

أما عدد سكان المدينة الذين بيعوا كالعبيد من قبل الجنود الأتراك فكان أكبر من كل ذلك. ونحن نتأسف مع المؤرخ البريطاني إدوارد جيبون على "خسارة المكتبات البيزنطية التي دمرها الأتراك أو بعثروها أثناء الفوضى العامة التي تلت الغزو. ويقال بأن عدد المخطوطات التي ذهبت ضحية ذلك يصل مئة وعشرين ألف مخطوطة!". ولكنها لم تضع كلها لأن الأتراك ليسوا الصليبيين. فقد تركوا بعض أصحاب المكتبات من الإيطاليين ينقذون قسماً من المخطوطات ويبيعونها ويستفيدون من أثمانها. ويقال بأن "عربات البضائع كانت تنقل منها الآلاف عبر أوروبا وآسيا. وكان التجار يبيعون عشرة كتب لأرسطو أو لأفلاطون أو كتب العلم اللاهوتي المسيحي أو أي علم آخر بدينار بيزنطي. وكانت جوامع الأناجيل أي الكتب التي تحتوي على أناجيل القداديس مزينة بالذهب بشكل فاخر لا يكاد يوصف. وقد نزعوا هذا الذهب وكل المعادن

الثمينة التي تحيط بها. ثم راحوا يبيعون هذه الكتب مبتورة على هذا النحو، أو راحوا يلقونها طعمة للنيران أو للرياح. وكانوا يرمون في النار كل المنمنمات: أي الرسوم الصغيرة على العاج أو المعدن، في نار مطابخهم لتحضير موائد الطعام[36]". ويبدو أن النسخة الكاملة لكتاب التاريخ الكوني لديودور الصقلي قد دمرت في ذلك اليوم. وبعد النهب والسلب الذي تعرضت له المدينة على يد الجنود الأتراك أصبح السلطان محمد الثاني يلقب بمحمد الفاتح الذي انتصر على البيزنطيين وفتح القسطنطينية. ولكنه فقد صفة الشاعر والمحب للآداب والفنون بعد كل هذا الدمار الذي لحق بالكتب والمكتبات. ويبدو أنه حاول، ولكن بفتور، أن يجمع بعض المخطوطات الإغريقية واللاتينية التي نجت من تلك الكارثة التي يأسف عليها كما قيل لنا وكان يفضل تحاشيها. هذا ما يؤكده لنا على الأقل مؤرخه الرسمي كريتوبيل.

الفصل الرابع

إسلام البدايات الأولى

"يا إله السماء! ما أكبر أكداس الركام!
قرون بأكملها تندثر هنا
وشعاع واحد من اللهب الأصفر
يُحوّل المعرفة إلى تيّار هوائي".

أليكسندر بوب

الرجل الذي صنع مجد الإسلام يدعى عمر بن الخطاب. بدون عبقريته السياسية ما استطاع الإسلام أن يتجاوز بيئته المحلية في شبه الجزيرة العربية. ولولاه لكانت الصراعات العربية — العربية قد خنقت إحدى أكبر الحضارات البشرية في مهدها. وقد تحقق نجاح الإسلام بفضل هذا المفهوم المضيء والمحتوم: أقصد مفهوم "دار الإسلام"، أو دار السلام، وكل ما عداه أو يحيط به فهو دار الحرب. فكيف يمكن ألا يفرض المسلمون على هذا العالم الأخير سلامهم الديني حتى ولو عن طريق القوة إذا لزم الأمر؟

ولد عمر بن الخطاب عام 586م (ويقال أيضاً عام 591) في مكة، وسط

نخبة المدينة. وكان متواضع الحال من الناحية المادية، ولكنه كان ينتمي إلى أسرة قوية من جهة أمه. وقد وقف في البداية، وبكل عنف، ضد دعوة محمد وطموحاته. ثم انضم إليه بعدئذ وأصبح المستشار العسكري لنبي الإسلام، بل وأصبح النبي صهره بعد أن تزوج ابنته حفصة بنت عمر، عام 625. وبعد موت النبي فرض على أهل المدينة قبول خلافة أبي بكر الذي كان مكياً مثله. وما كان ذلك أمراً سهلاً. ولكنه استطاع إقناعهم به كخليفة أول لرسول الله. ثم تلاه على الخلافة بعد عامين فقط: أي عام 634م. وكان عمر بن الخطاب هو الذي أمر بالفتوحات الكبرى وأشرف عليها قبل أن يسقط قتيلاً بخنجر أحد العبيد الفارسيين يوم 3 نوفمبر من عام 644م. كان عمر بن الخطاب بارعاً في تنظيم أول ديوان للإدارة العربية الإسلامية بقدر ما كان بارعاً في تنظيم الفتوحات وإرسال الجنود إلى الخارج ففتح سوريا وفلسطين ومصر والعراق... وما كان العرب قبله صالحين إلا للهجوم على القوافل. أما الآن فقد أصبحوا محملين برسالة سماوية. ولذلك أصبحوا قادرين على تأسيس إمبراطورية عربية إسلامية شاسعة تضم سوريا ومنطقة وادي الرافدين وخراسان في إيران ومصر وليبيا... وقد تحدث عنه مؤرخوه قائلين إنه كان متقشفاً وتكتيكياً يعرف كيف يحسب حساباته. وكان صارماً لا يرحم إذا دعت الضرورة إلى ذلك. والواقع أن العرب لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحلة الحضارة الناعمة والمترفة. يقول المؤرخ الإنكليزي هوف لويد – جونس بهذا الصدد ما يلي: "لم يكن معظمهم أكثر تطوراً أو رقياً من المرحوم آية الله الخميني!". هذا ما كان يقوله في وقته هذا المؤرخ الكبير للحضارة اليونانية. ولم تكن عبارته إلاّ إحدى التوريات الملطّفة المبلورة في جامعة أكسفورد.

نظراً لكل ما تقدم فإنه لا ينبغي أن نتوقع أن المكتبات في البلدان المغزوة سوف تشهد أي شفقة أو رحمة.

فقد أمر عمر بن الخطاب عام 637 بتدمير مدينة طيسفون التي دعيت بالمدائن لاحقاً. وكانت هي العاصمة القديمة للساسانيين. ولا تزال هذه المدينة شهيرة بفضل القبة العملاقة لطاق كسرى. وهي القصر الكبير الذي كان كسرى أنوشروان يسكن فيه ويحكم البلاد بين عامي 531–579. كان هذا الملك يحترم كأسلافه القانون الزرادشتي الذي يقول إنّ لكل نص قيمة ما لأن المعرفة مقدسة بطبيعتها. ولهذا السبب فإن عاصمته راحت تفتح ذراعيها لكل الكتاب الذين اضطهدتهم بيزنطة أو طردتهم من أراضيها. وهكذا توافد عليها فلاسفة الإغريق بعد أن أغلقت بيزنطة الأكاديمية التي كانوا يعملون فيها. ثم قدم عليها المسيحيون النسطوريون من سوريا لكي يشتغلوا مترجمين للكتب ويغنوا بذلك المكتبة الملكية بشتى أنواع المعارف والعلوم. وكانت هذه المكتبة قد اكتسبت شهرة مرموقة بفضل احتوائها على الكتب العلمية الهندية والمؤلفات الدينية أو الطبية الصينية. كانت مدينة جنديسابور قد أسست من قبل كسرى أنوشروان ودمرت من قبل عمر بن الخطاب عام 638م. وهي الآن موجودة في إيران وتدعى: شاه آباد. ولكنها في العصر الإسلامي كانت تدعى: المدائن. وكانت تعتبر عام 555م بمثابة مركز علمي وثقافي كبير. ويُعتقد أن نصوص الديانة الزرادشتية قد بلورت هنا، تماماً كما أن لعبة الشطرنج قد ظهرت في الهند. وكانوا يقرؤون فيها كتاب الملوك الذي قلده الفردوسي أو نسج على منواله. كانت مكتبة جنديسابور غنية بكتب الطب والفلسفة والفلك، وبالتالي كانت مكتبة كونية. وهي التي اتخذها المأمون فيما بعد نموذجاً يحتذى عندما أراد تأسيس بيت الحكمة في بغداد. وكان ذلك بعد قرنين من الزمان. لقد كانت الفترة الساسانية رائعة حضارياً بكل المقاييس، ولكنها طُمست ونسيت لاحقاً إلى حد كبير. ومعلوم أن العباسيين في بغداد كانوا مفعمين بذكراها، وقد سعوْا إلى توليد حضارة أكبر منها.

في عام 1375 تأسف ابن خلدون على تلك الفترة التخريبية التي رافقت الفتوحات الإسلامية الأولى متسائلاً: "ماذا حصل لعلوم الفرس التي دمرها عمر بن الخطاب في أثناء الفتوحات؟ وأين هي علوم الكلدانيين، والأشوريين، وسكان بابل؟". ونحن نضيف إليه قائلين: وماذا حصل لعلوم المسيحيين؟ فعلى ما يبدو لم يكن المؤرخ التونسي الكبير يعتبر علومهم لائقة أو جديرة بالذكر. ولذلك لا يقول عنها كلمة واحدة. ولكننا نعلم أنه لا يمكن أن يجهلها لأنه كان يعلم بالمأساة التراجيدية التي حصلت في مدينة قيسارية بفلسطين.

كان المؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيف قد وصفها بأنها تقع "بين يافا ودورا" غير بعيد عن القدس التي ستكون منافستها الوحيدة. كان ميناؤها هو الأول في العالم لعمق مياهه ولأنه كان يشكّل محطة سهلة وإجبارية على الطريق البحري المؤدي إلى مصر. كانت قيسارية قرية في البداية ثم أصبحت مدينة مهمة في ظل الإمبراطور هيرودوس. وبعدئذ أصبحت أسقفية أو مطرانية مع أحد آباء الكنيسة ويدعى أوريجينوس الذي أسس فيها مدرسة لاهوت عام 231م. وفي ذات الوقت فتح الحاخام أوشايا مدرسة يهودية فيها (وربما كان التلمود الفلسطيني قد كتب هنا). وكانت مؤسستا هذه المدينة تتعاونان فيما بينهما بشكل حضاري ومدني جيد. وكانتا كوسموبوليتين: أي تضمان موظفين من مختلف الأديان والأصول.

وكان أوريجنيوس كاهناً غريب الشكل، أي من نوع خاص بمعنى أنه لم يكن يخضع لأية سلطة عقائدية تقف فوق رأسه. ومن غرابته أنه خصى نفسه وهو في الشباب لكي يطبق حرفياً كـــلام المسيح: "وهناك خصيان خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات. فمن استطاع أن يفهم فليفهم!" (إنجيل متّى، 12/19). وعلى الرغم من ذلك فإنهم لم يقبلوه ككاهن رسمي أو شرعي معترف به!

كان أوريجينوس من مدينة الإسكندرية. وقد حصل من أحد المحسنين الأغنياء على إمكانيات مادية لتوظيف سبعة كتّاب وسبعة نساخين والعديد من الخطاطين للعمل معه ليلاً ونهاراً لطبع الكتب ونشرها. وقد أدى هذا العمل الجماعي الجبار إلى نسخ ستة آلاف كتاب. ثم نفوه من مصر لأنه حصل على سيامته ككاهن بشكل سري من قبل مطارنة القدس وقيسارية. ولذلك فإنه هرب من الإسكندرية لكي يستقر في هذه المدينة الأخيرة عام 230، وظل فيها حتى تاريخ موته عام 254. وراح من جديد يهتم بجمع المخطوطات من كل أنحاء فلسطين، هذا، بالإضافة إلى نسخه مخطوطات أخرى عديدة. وقد قال عنه أحد تلامذته: "كان يطرق كل المواضيع دون أية محرمات أو تابو [...] وكان يسمح لنا أن نتعرف على جميع عقائد الإغريق والشرق، سواء أكانت دينية أم دنيوية". والواقع أن الأكاديمية التي أسسها أوريجينوس في قيسارية بفلسطين كانت تدرس كل العلوم الموجودة في ذلك الزمان. وسوف تصبح نقطة الانطلاق لتشكيل مكتبة كبيرة. وقد نالت هذه المكتبة شهرة عريضة في وقت قصير. وهنا، على هذا الشاطئ الجميل لمدينة قيسارية، ابتدأ ذلك المشروع الكبير الهادف إلى نساخة المؤلفات القديمة السابقة على المسيحية من أجل المحافظة عليها من التلف أو البلى. وكانوا ينسخونها على ورق الرق. وقد ابتدأت هذه العملية في عهد الإمبراطور الروماني قسطنطين. ثم بعد موت أوريجينوس خلفه على العمل وتحمل المسؤولية شخص سوري غني يدعى بامفيلوس. وقد أثرى المكتبة بمؤلفات جديدة وزاد عدد كتبها حتى وصلت إلى ثلاثين ألف كتاب. وقد نظم فهرساً يضم أسماءها كلها، ولكنه ضاع ولم يصلنا. يضاف إلى ذلك أن هذا الإنسان الحكيم والمتبصر كان قد أمر بكتابة نسخ عديدة للكتاب المقدس. ثم احتفظ بها وكدسها بعضها فوق بعض بشكلٍ يتيح أي شخص يريد قراءتها أن يحصل على نسخته. ثم خلفه بعدئذ على العمل عالم يدعى أوسيبوس (263 — 339 تقريباً). وقد اعتنى بالمكتبة وسخر أمواله من

أجل كتابة "التاريخ الكهنوتي" و"أسماء الأعلام". وهما يشكلان أول دراسة تاريخية وجغرافية للأرض المقدسة. وقد أشرف عام 332 على فريق عمل من الخطاطين المكلفين بكتابة خمسين نسخة من الكتاب المقدس. وهي النسخ التي كان الإمبراطور قد أمر بها. والنسخة الشهيرة للكتاب المقدس ناتجة عن هذا الجمع. وعندما حاولت روما الوثنية للمرة الأخيرة في شهر فبراير عام 303 أن تقضي على المسيحية عن طريق تدمير كنائسها وكتبها فإن نسخة قيسارية نجت من العملية. وبالتالي فإن جيروم استطاع هو الآخر أن يستخدم بحرية هذا المصدر من أجل كتابة نسخته الرسمية للكتاب المقدس: أي ترجمة الإنجيل والتوراة من الإغريقية إلى اللاتينية. وقد ذكر وجود نسخ قديمة جداً في نظره: كالنسخة الأصلية لإنجيل متّى أو نسخة أوريجينوس المليئة بالأخطاء. ومعلوم أن هذا المجنون كتب على ستة أعمدة نسخاً مختلفة من العهد القديم. ثم قال جيروم إن النساخة على ورق البردي المهترئ كانت شائعة آنذاك. وكذلك الأمر فيما يخص فتح فلسطين من قبل الفرس عام 614. فقد أدى ذلك إلى تدمير مكتبة القدس دون أن يؤثر ذلك على مكتبة قيسارية. ودليلنا على ذلك هو أن إيزيدور الإشبيلي راح يمجد غناها بالكتب وعظمتها بعد خمسة عشر عاماً من ذلك التاريخ. وهكذا بقيت قيسارية رمزاً مزدوجاً على ميناء كبير مفتوح على البحر، وعلى مكتبة ضخمة تساهم في نشر الكتب ونساختها بكل فعالية. والواقع أن هذه المدينة كانت مختلطة جداً، أي مليئة بالأقوام أو الشعوب المختلفة: أي كوسموبوليتية كما نقول نحن اليوم. كانت عبارة عن إسكندرية صغيرة مجهولة. كانت مدينة تكرس نفسها كلياً لخدمة الإيمان المسيحي.

وبالتالي فإن جنود عمر بن الخطاب هم الذين دمروا هذه الثلاثين ألف مخطوطة بالإضافة إلى ثلاثين ألف شخص تقريباً. وكان ذلك في عام 640م بعد حصار طويل للمدينة. وهو حصار دام سبعة أشهر. والواقع أن العرب ما كانوا قد تعودوا بعد على مقاومة السكان المحليين لهم. وقد كانت قيسارية آخر معقل

يسقط أثناء هذه المرحلة الأولى للفتوحات. وكان ينبغي على الجنود أن يفعلوا كل شيء لإسقاطها من أجل نيل رضى الخليفة عمر بن الخطاب. وبالتالي فلم يكن مستغرباً أن تعزو شائعات القرون لهذا الرجل مسؤولية تدمير حمامات الإسكندرية أيضاً. وهو خبر كاذب ومضحك وعارٍ عن الصحة.

هناك حديث منسوب إلى نبي الإسلام يقول: الإسلام جبّ ما قبله. ولا نعرف من أين جاء هذا الحديث الغريب الذي استُخدم دون شك كشعار ديني فعال في البدايات الساذجة للهجرة. ولكن الحديد والنار والدم، كلها أشياء سرعان ما لوّنته وللأبد بوشاح عابس مشؤوم. فالأعمال التي قام بها بعض القادة العسكريين للفتوحات سرعان ما تدنت وانحطت وأدت إلى ارتكاب ما لا تحمد عقباه. نضرب على ذلك مثلاً ما فعله القائد العسكري قتيبة ابن مسلم الذي فتح خوارزم عام 712. فعلى الرغم من أن جميع السكان ارتدوا عن دينهم وأسلموا إلا أنهم قتلوا عن بكرة أبيهم أو تفرّقوا في شتى أنحاء الأرض إذا كانوا يعرفون القراءة والكتابة. ولهذا السبب فلا نعرف شيئاً عن علومهم وتقاليدهم. هذا ما يقوله لنا رجل الدين الفارسي داوود (وبعد قرن من ذلك التاريخ فإن أحد سكان خوارزم هذه ترك اسمه على صفحة التاريخ كمخترع لعلم الجبر في بيت الحكمة ببغداد وفي ظل الخليفة المأمون. وهو العالم الشهير أبو بكر الخوارزمي). ثم يضيف أبو ريهم بشكل مرعب أكثر قائلاً: "لقد قتل قتيبة كتّابهم وكهنتهم، ودمر كل مخطوطاتهم وكتبهم لكي يجعل منهم شعباً من الأميين. وقد أصبحوا مضطرين للاعتماد على ذاكرتهم الشفهية من أجل تذكر المعارف التي يحتاجونها في حياتهم اليومية. ومع مرور الزمن راحوا ينسون كل التفاصيل التي كانت تميزهم عن غيرهم وتشكل هويتهم. ولم يعودوا يحتفظون في ذاكرتهم إلا بمفاهيم عامة يمكنهم الإجماع عليها" (هذا الاقتباس من نص دعوي لآية الله مطهري مرتضى الذي قُتل عام 1979 تُرجم إلى الإنكليزية من طرف منظمة دعاية –بروباغندا– إيرانية. وقد ساهمت في الواقع كل السلالات

التالية دون استثناء في استئصال ثقافة خوارزم).

ولكن هناك قبل ذلك وقت كان المسلمون يحرقون فيه نسخ القرآن!

ففي ظل الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذي كان يعيش في المدينة استطاعت الفتوحات العربية أن تواصل مسيرها وتحتل أراضي جديدة عديدة في أرمينيا. كما فتحت مناطق واسعة من بلاد فارس، والمغرب العربي، والنوبة جنوب مصر. وبدلاً من أن يعرّبوا هذه المناطق راح الفاتحون يضعون أعضاء عائلاتهم على رؤوسها من أجل جباية الضرائب (أو الجزية)، وهذا ما أثار بعض الحسد والمنافسات في أوساط المحاربين القدماء. ينبغي العلم بأن السلطة المركزية كانت لا تزال هشة والدين الإسلامي كان لا يزال في بداياته متردداً يتلمس طريقه. فالنبي محمد كان قد توفّي قبل اثني عشر عاماً فقط. وكانت هناك نسخ من القرآن لا نسخة واحدة على عكس ما نتوهم. وذلك لأن كلام النبي كان قد انتقل عن طريق السماع شفهياً. ولم يكن قد ثُبِّت كتابةً بعد. وكان القرّاء يكسبون عيشهم في الأمصار ويهددون السلطة المحلية عن طريق القول بأنهم المؤتمنون على الكتاب المقدس. ولذلك فإن الخليفة لجأ إلى الطريقة التالية لتحجيم قوتهم المتصاعدة في الأمصار البعيدة عن طريق إصدار المرسوم التالي: لا توجد إلا نسخة واحدة رسمية وصحيحة من القرآن، أما بقية النسخ فخاطئة وينبغي تدميرها. وقال إن هذه النسخة الصحيحة هي تلك الموجودة عند حفصة بنت عمر بن الخطاب والزوجة الرابعة للرسول. ثم أشاعت الدعاية الرسمية بأنها استلمت هذا المصحف من والدها، ومن أبي بكر شخصياً (وهو والد زوجة الرسول أيضاً وأول الخلفاء). ولكي يقطع الطريق على المماحكات الجدالية أو النميمة والشائعات المضادة فإن عثمان بن عفان لجأ إلى سكرتير (كاتب) محمد شخصياً. وطلب منه أن يشرف على كتابة نسخة من القرآن وكتابة نسخ أخرى عديدة عنها لكي توزع في الأمصار وتفرض على الجميع بصفتها النسخة

الوحيدة الصحيحة. وهكذا أرسل هذا المصحف الرسمي إلى الكوفة، والبصرة، ودمشق، وبقية المدن الأخرى لكي يعتمد رسمياً. وطلب عثمان من الولاة مصادرة كل النسخ الأخرى وتدميرها فوراً حرقًا بالنار.

وهذا ما فعله الولاة ونفذوه، ولكن بصعوبة أحياناً وبعد أن لاقوا معارضة شديدة وبخاصة في مدينة الكوفة في العراق. فقد ثار عبد الله بن مسعود على هذا الأمر وقال: "والله لو كنت أعرف أنه يوجد رجل واحد في أي مكان في الأرض يعرف كلام الله بشكل أفضل مني لذهبت إليه فوراً إذا كان يمكن الوصول إلى هذا المكان على رؤوس الجمال".

وهكذا اشتعلت المماحكات الصاخبة بين أنصار النسخة الرسمية التي يريد الخليفة عثمان فرضها وبين خصومها. وقد قُتل عثمان عام 656م، وتلت موته أربع سنوات من الحرب الأهلية. في أثناء هذا الوقت كان مروان بن الحكم والي المدينة قد ذهب إلى حفصة بنت عمر لكي تسلِّمه النسخة التي تمتلكها عن القرآن، فرفضت.. فقال لها: سوف أنتظر موتك وأنالها. وهذا ما حصل بالضبط. فطالب أخاها بهذه النسخة الثمينة جداً من المصحف ولم يجد هذا الأخير بداً من تسليمه إياها. وعندئذ حرق مروان المخطوطة على مرأى ومسمع من الجميع قائلاً: "ما كان فيها أخذناه ولا نريد بعد الآن أن يظهر أحد ويشكك بصحة النسخة الرسمية التي فرضناها على المسلمين". ولكن هذا العمل أدى إلى عكس النتيجة. فقد أدى إلى تزايد الشكوك وازدياد المماحكات الجدالية حول النسخة الرسمية للمصحف. وقد وصلت المماحكات إلى حد التشكيك بوجود أي نسخة مكتوبة قبل نسخ المدينة. ولكن على الرغم من ذلك فإن النسخة الناتجة عن مؤامرة عثمان هي التي انتصرت وتغلبت على ما عداها في كل الأمصار الإسلامية ما عدا في الكوفة. فهناك هيمنت نسخة عبد الله بن مسعود. بل وظلت مهيمنة حتى القرن الحادي عشر الميلادي. وقد

تعايشت في الساحة الإسلامية سبع قراءات متزامنة للقرآن. واليوم نلاحظ أن القرآن الموجود في إفريقيا السوداء ليس هو القرآن الذي يعتمده كل المسلمين. [يخلط الكاتب خلطًا فادحًا بين ما يسمّيه المسلمون القراءات السبع، اعتمادًا على الحديث النبوي القائل بأنّ جبريل عليه السلام أوحى القرآن إلى الرسول "على سبعة أحرف"، وبين ما يتخيّله من وجود سبع نسخ مختلفة للقرآن الكريم. المراجع ع.ع.]

كان الباحث يوسف العش أحد كبار المختصين بالمكتبات العربية للقرون الوسطى يبحث دون كلل أو ملل عن أي مخطوطة عربية أو كتاب يعود إلى تلك الفترة. وقد نقل بنوع من المزاح الحكاية التالية: كان هناك شخص أندلسي يعود إلى العصر الذهبي. وقد رأى عند أحد الطلبة الجزء السادس والخمسين لفهرس ضخم يضم عناوين كل الكتب التي ألفت باللغة العربية. ثم أضاف قائلاً إن ما رآه لم يكن الجزء الأخير. وكانت التوطئات أو الملحوظات فيه قصيرة. فالكتاب يذكر أولاً اسم المؤلف، ثم تاريخ موته، ثم مدينته الأصلية. هذا كل شيء. وبما أن كل صفحة كانت تحتوي على عشرين ملحوظة، وبما أن كل جزء كان يحتوي وسطياً على أربعمئة صفحة، فإننا توصلنا إلى رقم مذهل من حيث الضخامة: 896.000 عنوان أو كتاب. وإذا ما حسبنا الفترة الزمنية بدءاً من القرن الثاني للهجرة ولمدة ستمئة سنة بعدئذ فإننا نتوصل إلى إنتاج بمعدل 1491 كتاب في السنة.

وحتى لو كانت هذه القصة مختلقة وتذكرنا بأسطورة الرجل الذي رأى رجلاً آخر فإن التقييم الإجمالي لكل ما أنتج من كتب عربية لا يبدو لنا مبالغاً فيه كثيراً. نقول ذلك وبخاصة إذا ما علمنا أن مكتبات الإسلام كانت أيضاً مراكز للبحث العلمي والإبداع والترجمة بقدر ما كانت أماكن لحفظ الكتب. وبالتالي فكانت مكاناً لصنع الفهارس. وينبغي العلم بأن القرون الهجرية الأولى

التي تلت الفتوحات كانت فترة انفتاح على المعرفة والفكر قل نظيرها. وهي فترة لم تدم طويلاً بعدئذ. فقد تراكمت فيها جبال من الترجمات عن الخارج وبخاصة عن اليونان. وكانت الكتب المترجمة علمية وتقنية على وجه الخصوص. وأما المصدر الثاني لزيادة الكتب في المكتبات العربية فكان الأدبيات ذات الأصل الديني. وهي أيضاً تزايد عددها بفضل تفاسير الحديث، وتفاسير التفاسير، وتسجيل الفقه الغامض والعرضة للنقاش. وهو الفقه الذي ينظم كل تفكير المؤمن وأعماله. وهذا الفقه عرضة للبلورات والنقاشات والمناظرات الخلافية التي لا نهاية لها.

ولكن سواء أكانت كتباً دينية أم دنيوية، تابعة للأمراء أم للعائلات الخاصة، فإن كل مكتبات تلك الفترة كان مصيرها الحرق والفناء.

لقد عاشت قرطبة في القرن العاشر أكبر تجربة مرعبة لحرق المكتبات في القرون الوسطى كلها. ونحن نعرف الآن أسباب هذه الكارثة ونتائجها والمسؤولين عنها. وهي كارثة أقوى من أي قصة رومنسية. فقد ضحوا بإحدى أكبر المكتبات التي شهدها التاريخ لأسباب انتهازية أو منفعية ضيقة.

الأندلـــس

لنتحدث أولاً عن تلك الفتاة التي تدعى "صبح" أو بالأحرى صبح الباسكية لأنها من بلاد الباسك. إنها أمة (جارية) ومغنية في ذات الوقت عند الخليفة المقبل الحكم الثاني. وكان يحبها إلى حد الوله الكامل باستثناء كل النساء اللواتي كان يمتلكهن في حريمه. (ولكن يقال بأنه لم يكن يحب النساء، ولذلك كان يدعوها في لقاءاته الحميمية معها بجعفر. وهو اسم ذكر لا أنثى) [غريب هذا الهمز واللمز من باحث يدّعي النزاهة، كان يُطري في الصفحات السابقة على كاهن مسيحي خصي نفسه. ولعلّ الكاتب سيتّهم كل من نادى حبيبته

بـــ "حبيبي" كما هو معتاد في الشعر العربي والأغاني الحديثة، لعلّ الكاتب يصفه بالشذوذ. المراجع ع.ع]. وقد أنجبت له بعد أن تقدم في العمر ولداً يؤمن له استمرارية السلالة المالكة. وكان اسمه: هشام. وبفضل هذا العمل الجليل تحولت الخادمة إلى "سلطانة حقيقية" وأصبحت سيدة حرة بالمعنى القوي للكلمة. وبهذه المناسبة طلب الحكم من أحد الصاغة البيزنطيين أن يصنع له علبتين من العاج الثمين لكي يقدمهما كهدية "لأغلى النساء الوالدات المخصبات"[37]. وكان عمره آنذاك خمسين عاماً، وقد ابتدأ بالكاد بحكم البلاد.

كان أبوه هو الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث الذي حكم لفترة طويلة من الزمن. وكانت فترة هادئة ومجيدة مليئة بالبذخ والعطاء. وقد ورث عن والده هذا حب الكتب وجمعها في مكتبات. ومنذ نعومة أظفاره كان هشام معتاداً على أن يرسل والده المبعوثين إلى الأمصار للبحث عن الكتب في القاهرة، ودمشق، وبغداد. وكان يدفع ثمنها بالذهب لكي يقبل العلماء والمؤلفون الكبار أن يبيعوه أول نسخة من أول كتاب جديد. وهكذا كانت تحصل عليه قرطبة حتى قبل أن يسمع به سكان البلاد الأصليون! وبما أن الخليفة الأموي في الأندلس كان قوياً وغنياً فإنه راح يواصل هذا العمل في جمع نفائس الكتب وذخائر المعرفة حيث وجدها. وكان يأمر بترجمة الكتب الأجنبية وتصنيف المؤلفات المختلفة في سجل المحفوظات. وهكذا أصبحت الدولة المساند الذي يرعى العلوم والآداب وينفق على العلماء والمفكرين. وعلى هذا النحو كان هذا الخليفة الرائع يختلف عن الكثير من نظرائه من الملوك المستبدين الذين لا يهتمون إلا بالمتع والملذات. والواقع أنه كان يتمتع بالغنى وكل مظاهر الأبهة والعظمة التي تتمتع بها عادة كل سلالة جديدة طرية. وكان يريد أن يستغل حبه للمكتبات والثقافة لكي يبرهن للآخرين على أن قرطبة لا تقل أهمية عن بغداد، هذا إن لم تزد[38]. وكان والده قد استأثر بلقب الخلافة على حساب العباسيين الذين كان يحتقرهم ويعتبرهم أدنى شأناً ومحتداً منه. ولكي يؤكد نفسه ويثبت

حكمه فإن عبد الرحمن الثالث اقتطع ثلث ميزانية الدولة على مدار ثلاثين سنة لكي يبني في الريف مدينة إدارية وإمبراطورية كبيرة. وهي تبدو ذات أناقة رزينة ومؤثرة في أذهاننا اليوم. ولكنها كانت مترفة وبذخة في عيون معاصريه[39]. كان الأب يريد أن يؤسس أمة، وأما الابن فكان يريد تأسيس مركز كبير للثقافة.

وكانت أكبر مجموعة مرتبة بعناية وبطريقة عقلانية. فعلى الصفحة الأولى لكل كتاب تجد الاسم الكامل مع نسب المؤلف وتاريخ ومكان ولادته، وكل ذلك مرفق بعناوين كتبه الأخرى مع وصف لها ولأماكن وجودها. وكانت هناك قاعة طويلة مقوسة أو مقبَّبة وقاعات أخرى بجاورة مخصصة للترتيب أيضاً. وقد أمر الخليفة بإقامة قواعد من الخشب المتقن الصنع بعلوّ رجل وعرض ثلاثة أمتار. وكانت فيها رفوف من فوق إلى تحت. وكانوا يرتبون الكتب على هذه الرفوف بشكل دقيق وأنيق. وكان هناك مبنى من هذا النوع لكل فرع من فروع المعرفة[40].

وتحكى بهذا الصدد النادرة التالية: يقال بأن الحكم الثاني كان مشغولاً في يوم من الأيام فإذا بهم يزعجونه بطلب لرجال الدين الذين يريدون منع الخمور نهائياً وكلياً. فقال لهم بأنه سوف يهتم بالموضوع لاحقاً. وعندئذ قال له رئيس خزانة المال لديه بأن الضريبة المفروضة على الخمرة هي التي مكنته من تركيب الجناح الجديد لمكتبته والصرف عليه. وعندئذ قال لهم: لا، لن أمنع الخمرة. ثم أمر أئمة الجوامع بأن يهتموا بصلواتهم وألا ينشغلوا بمطالب سخيفة لا فائدة منها[41].

وفي الظل المعطر لهذه "الخلافة الثابتة"[42] كان يمكن لأهالي قرطبة أن يتصفحوا أو يستعيروا آلاف الكتب المذهلة. نضرب عليها مثلاً الكتب التي تتحدث عن تاريخ مصر أو تاريخ المغرب العربي، أو مؤلفات الشافعي، أو ملخص للتلمود، أو المقالة الطبية للعالم ديوسكوريدوس باليونانية وحتى بالعربية،

والمواعظ المسيحية ضد الوثنيين باللغة اللاتينية أو بترجمة عربية محلية، وكذلك أجزاء من العهد القديم والعهد الجديد، وحكايات رحلات الطرطوشي إلى أوروبا، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الذي دفعوا مقابل اقتنائه ألف دينار!... ولم نستشهد هنا إلا بالكتب التي تأكدنا من أنها حرقت. فما بالك بالكتب الأخرى؟ ينبغي العلم بأن القسم الأكبر من المكتبة لم يكن موجوداً في مدينة الزهراء وإنما في قصر الحمراء في قلب مدينة قرطبة على الجانب الغربي للمسجد. وقد أصبحت مكتبة القصر عبارة عن شركة حقيقية ومتكاملة. فقد كانوا يتعلمون فيها فن الخط، وعلم النحو، وفن الشعر، وكذلك فن تجليد الكتب. وكان الباحثون ينبشون تفاصيل عديدة[43]. فابن حزم يقول بأنه عرف "تالد" العبد المخصي المسؤول فقط عن الفهرسة. وكان فعالاً كما سيبرهن المستقبل على ذلك. انظروا إلى "لبنى السكرتيرة العظيمة" وهي في طور ترتيب الكتب الطبية بكل عناية واهتمام ومع أخذ كل الاحتياطات الممكنة. وهي مخطوطات نفيسة مكتوبة بحروف من ذهب. وقد قدمها إلى المكتبة إمبراطور بيزنطة مع راهب يعرف ثلاث لغات لكي يترجمها شفهياً. وكانت هناك زميلتها فاطمة القديمة التي تعرف كيف تستخدم القلم بكل أناقة وثقة. وكانت طاهرة شريفة إلى درجة أنها ماتت عذراء بحسب ما أُشيع.

هناك مخطوطة في جامع القرويين بفاس تتخذ الرقم التالي (MS 874). وكانت قد كتبت في يونيه أو يوليو من عام 970 لأجل الحكم في قصره. وهذه المخطوطة تدعى بنسخة "المختصر". ويعتقد بأنها الأثر الوحيد المتبقي[44] من تلك المكتبة الأسطورية المشهورة بضخامتها. وقد قدروا محتوياتها بأربعمئة ألف مجلد. وكانت مجلدات ضخمة لأن كلمة مجلد بالعربية تعني أن الكتاب كبير ويستحق التجليد. ولكن حتى لو كانت محتوياتها أقل، الشيء الذي ينكره بيير غيشار مثلاً[45]، فإن المحصلة النهائية تظل ضخمة. نقول ذلك ونحن نعلم أن السلاسل المعاصرة في أوروبا تدور حول ألف مجلد. وأكبر دليل على ضخامة مكتبة قرطبة هو أن جردها الذي اقتصر على ذكر عناوين الكتب فقط بلغ أربعة وأربعين

كتيباً. وكل كتيِّب مؤلف من عشرين ورقة. والشيء المدهش هو أن هذه الوثيقة مكتوبة على الورق العادي، وهو أمر حديث جداً في ذلك الزمان. على الرغم من أننا لا نمتلك أي برهان قطعي على ذلك إلا أننا نعتقد أن أول ورق أوروبي كان قد صنع في قرطبة. لقد صنع هناك قبل "جاتيفا" حتماً، وقبل إيطاليا بقرون عديدة.

وكانت الحالة الإيجابية النافعة لهذه المؤسسة واضحة وتنعكس على المدينة كلها. فقرطبة كانت تعج بالمكتبات، وحوانيت القرطاسية، وتجار الكتب القديمة، وهواة الكتب بشكل عام. ولم يكن هناك أقل من مئة وسبعين امرأة تعيش من قلمها أو نساختها. وكان القاضي ابن فطيس يوظف ستة نساخين في الوقت الذي يجمع فيه روائع المخطوطات التي تتراكم فوق بعضها. كان يجمعها في مبنى مطلي داخلياً باللون الأخضر، الشيء الذي يسهِّل عليه القراءة كما يقول. وعندما كان أصدقاؤه الخلص يريدون أن يستعيروا منه كتاباً ما، فإنه كان يأمر فوراً بأن ينسخوا له نسخة عنه. والمسجد الذي ورث أملاكه عام 1511 باع مكتبته بالمزاد العلني وربح منها ما لا يقل عن أربعين ألف دينار ذهبي. وأما المتأدب الغافقي فكان يفتخر بأنه يمتلك أكبر مكتبة في البلاد بعد مكتبة الخليفة مع نسخة كاملة عن كتاب الطبري. وقد بيعت أيضاً بالمزاد العلني وربـــح أصحابها مبالغ ضخمة عام 1541. وقد وصل سعر الورقة الواحدة إلى ربع مثقال ذهب! وكان ابن رشد يقول هذه العبارة المنقولة عن جده على ما يبدو:

"عندما يموت عالم ما في اشبيلية فإنهم ينقلون مكتبته إلى قرطبة لبيعها. ولكن عندما يموت مطرب أو موسيقار كبير في قرطبة فإن آلاته الموسيقية تباع لأهل اشبيلية".

ثم كان هناك في ذلك الإطار الهادئ ابن أبي عامر الملقب بالمنصور، أو

Almanzor كما يُقال كذلك، لأن صيته الذائع وصل إلى الجهة الفرنسية من جبال البيرينيه.

على الرغم من أنه كان ينتمي إلى طبقة النبلاء الصغيرة إلا أن ثقافته كانت عالية جداً. وهذا الانتهازي الملتوي ابتدأ مهنته في الإدارة القضائية وارتقى في المراتب بسرعة حتى أصبح أمين الصندوق عند ابن "صبح" المذكورة آنفاً. وكانت بحاجة إليه لكي تؤمن لوريثها مستقبله. ولكنه استفاد منهما واستغلهما أضعافاً مضاعفة. وعلى الرغم من أن الثرثرات والنمائم ابتدأت تكثر حوله إلا أنه (أي المنصور) اختير بين عشية وضحاها من قبل الخليفة قيّماً على الأملاك الشاغرة التي لا وارث لها، وقاضياً على اشبيلية، ومديراً للمالية. وهكذا راح يستخدم أموال الدولة كما يشاء ويشتهي لصالحه الخاص ولكي يعيش حياة الملوك. وعندما اكتشفوه وهو يسرق لم يعاقبه أحد وإنما راح أحد أصدقائه السياسيين يرجع للخزينة ما كان قد نهبه أو بعضاً منه. ولكن العلاقات بين هذا المناور والمحترف وسيده كانت معقدة فعلاً. ولذلك فلم يتأثر بما حصل له. وإنما راح سيده يعطف عليه أكثر ويظهر له الكثير من الدماثة والتفهم. وكانت النتيجة أن كافأه بدلاً من أن يعاقبه. فقد عيَّنه مفتشاً للمالية. وأصبح المنصور مكلفاً بالذهاب إلى المغرب الكبير للإشراف على الأموال الضخمة التي يغدقها الحاكم هناك على جيوشه من أجل صد البربر أو احتوائهم. وقد نفذ هذه المهمة الغامضة أو الملتبسة مُرضياً بذلك ليس فقط مليكه وإنما أيضاً القادة العسكريين المتهمين بالفساد. وقد أصبحوا من حلفائه. ثم مات الخليفة عام 976. وعندئذ خنق المنصور بعض الوزراء والطامحين الآخرين إلى الحكم لكي يبقى هشام الثاني على العرش الذي ورثه عن أبيه. ولم يكن عمره آنذاك أكثر من أحد عشر عاماً. وبما أنه كان يمتلك "عقل حمار في جسد بشري" كما يقول ابن سعيد، فإنه كان من السهل على المنصور أن يتحكم به ويعزله لكي "يكرس نفسه

لشؤون العبادة والصلاة". لقد عزله في أعماق القصر لكيلا يراه أحد، بل وحفر حوله خندقاً كبيراً. وعلى هذا النحو أصبحت السلطة كلها في يده لأن الخليفة الشرعي ما كان قادراً على ممارستها بسبب صغر سنه من جهة، وبسبب عزلته الخانقة من جهة أخرى. ثم ماتت "صبح" عام 999 غماً وحزناً لأنها لم تستطع أن ترى ابنها على سدة العرش يحكم البلاد. وقد تبع المنصور جنازتها ومشى وراءها حافي القدمين بل وصلّى عليها صلاة الميت شخصياً.

وبعد أن وصل المنصور إلى سدة السلطة لم يفقه أنه أصبح عرضة للانتقادات الجارحة المتزايدة أكثر فأكثر من قبل الفقهاء. فالأساليب التي اتبعها للوصول إلى السلطة، وحياته الشخصية المتحررة من القيود الدينية، وذوقه الليبرالي وحبه لجمع الكتب والاعتناء بها أياً تكن، كل ذلك أثار عليه حفيظة رجال الدين المتشددين. وفي الأندلس كان هؤلاء الفقهاء ينتمون إلى المذهب المالكي الذي لا يتساهل في الشؤون الدينية. وسوف نرى، على مدار تاريخ إسبانيا الإسلامية، هؤلاء الحراس الأشداء "للعقيدة القويمة" الأكثر تزمتاً وتعصباً يجوبون المدن وبخاصة اشبيلية بحثاً عن الكتب المشبوهة من أجل حرقها فوراً. كانوا يفتشون الأسواق، سوقاً سوقاً، للعثور على هذه الكتب "المادية الملحدة للفلاسفة" لتدميرها. وكانت العامة تصفق لهم وتحتفل معهم بهذه الأعياد البهيجة التي تحرق فيها الكتب على رؤوس الأشهاد. [تعرّض فيلم "المصير" ليوسف شاهين لهذه الظاهرة عند تقديمه حياة ابن رشد الأندلسي. المراجع ع.ع.] .ولم تكن هذه الميليشيات الدينية تعجب الحكومة ولكنها كانت تضطر للخضوع لها تحت الضغط الشعبي الذي كان الفقهاء يتلاعبون به كما يشاؤون ويستخدمونه كسلاح فعال ضد الحكام والمثقفين. وسوف نرى لاحقاً أن هذه الظاهرة لم تختف بعد من العالم العربي الإسلامي ولن تختفي عما قريب.

ضمن هذه الظروف لجأ المنصور إلى أكبر حل راديكالي يضمن له ترسيخ

سلطته وإرضاء الشعب: ألا وهو حرق مكتبة الخلفاء! وكانت تلك حيلة شيطانية من أقوى ما يكون. فقد ساهم هو شخصياً في الاستيلاء على المكتبة والكتب. وكان يحيط بها نفس الأشخاص المعادين له والذين نصحوه بألا يصبح خليفة. كان هناك ابن المكوي، والفقيه الأصيلي، والنحوي الزبيدي، الذي بلور تفنيدات مصطنعة للفيلسوف ابن مسرة واثنين أو ثلاثة آخرين من بينهم محمد ابن يبقع ابن زرب الذي كرس جهوده منذ خمسة عشر عاماً لملاحقة أتباع ابن مسرة هذا. وكان يجبرهم على "التراجع علنياً وعلى رؤوس الأشهاد عن أفكارهم. ثم يحرق أمام أعينهم مؤلفات الفيلسوف الذي يحبونه والتي كانت في حوزتهم. وكان ذلك يحصل في الجناح الشرقي من المسجد الكبير لقرطبة"[46]. وقد شعرت زمرة الفقهاء بقوتها وانتشت بها إلى حد السكر بعد أن استطاعت إجبار الخليفة على تنفيذ رغباتها. وراحت تنتزع آلاف الكتب من رفوفها لكي تلقيها طعمة للنيران في صحن القصر الملكي. راحت تحرقها حتى أصبحت رماداً ولم يبق منها أي شيء (في عام 1823 استمدّ الشاعر الألماني هاينريش هايني من هذه القصة مسرحيته "المنصور"، وقد وردت فيها عبارة تنبّئت بما سيحصل لاحقًا، لكنه لم يحصل إلاّ عام 1933 عند وصول هتلر إلى السلطة. انظر لاحقًا)*. وراحت تتلذذ برؤية شهب النيران وهي تلتهمها. وقد تركزت عملية التدمير على كتب الحضارات القديمة وبخاصة اليونانية. وكانوا يستهدفون بالدرجة الأولى كتب المنطق، وعلم التنجيم، وغيرها من المواد غير الإسلامية. ولكنهم وفروا من الحرق المواد "المقبولة"، وكانت قليلة للأسف الشديد. نذكر من بينها: علم المعاجم، وعلم النحو، وقواعد تنظيم الإرث. وما لم يحرقوه من الكتب رموه في آبار عميقة وغطوه بالحجارة والطين. وهكذا دفنوا تحت الأرض أمجاد الأندلس وزهرة علمها.

وفي هذا الهيجان المسعور يمكننا أن نتساءل فيما إذا كان اختيار العناوين

قد حصل بكل الدقة المطلوبة (نقول ذلك على الرغم من كل عمل التصنيف الذي قام به العبيد المخصيون المفهرسون، ولكن هل يستطيعون السيطرة على أربعمئة ألف مجلد؟!). ولكن فيما يخص المنصور، فإنه لم يجد أي عناء في التعرف على الكتب الشائنة والتدليل عليها. فهو قارئ نهم ويعرف الكتب. وربما كان يمتلك أمثالها في بيته لأن مكتبته كانت تغتني بموازاة مكتبة الحكم الذي كان يشاطره نفس الهوايات.

يضاف إلى ذلك أن جزءاً من سلاسل الكتب الخليفية التي وفرتها النيران بيع من أجل دفع رواتب "لجنود جيشه في إفريقية"، أي للستمئة مرتزق مغربي الذين قوى بهم جيشه عن طريق "وعدهم بضمان المنافع والفوائد لهم". ومن المؤكد أنه بقيت كتب عديدة لم تحرق في المكتبة الأموية الكبرى، وإن كانت ذات أهمية أقل. فالبربر كانوا أقل حماسة للموضوع وإن كانوا قد استمتعوا بتدميرها عندما دخلوا قرطبة بعد ذلك بقليل.

ينبغي العلم بأن كلمة "فيلسوف" ظهرت للمرة الأولى في اللغة العربية[47] في زمن عبد الرحمن الثالث بالذات. وقد رافقت الكلمة ومفهومها ترجمة الطب الإغريقي. وكان أول فيلسوف أندلسي هو ابن مسرة (883–931) المذكور آنفاً. وهذا الشخص كان متقشفاً ناسكاً يعيش بشكل خفي في سلسلة الجبال الإسبانية بالقرب من قرطبة. ولم يستطع أن ينجو من محاكم التفتيش الفقهية المالكية إلا بفضل ميله المرضي للتخفي والحياة السرية البعيدة عن الأضواء. وكانت عقيدته الناتجة عن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ترتكز على التعاليم الباطنية والرمزية. وقد قادته بعيداً جداً في هذا الاتجاه بقدر ما كانت تسمح به تلك الفترة. وكانت عقيدته تقول بما معناه: إن نجاة أرواحنا في الدار الآخرة يمكن أن تحصل عن طريق التفكير الفلسفي بقدر ما تحصل عن طريق النبوة. وبالتالي فالقرآن ليس لازماً بشكل قطعي. وهذا الاعتقاد كان كافياً لإخراجه

من أمة المسلمين واتهامه بالزندقة وإباحة دمه. بل إنه كاف الآن في بعض البلدان الإسلامية كي يُذبح عشر مرات ! ولهذا السبب فإن النصوص التي كتبها ابن مسرة وتلك التي أثنى عليها كانت ملاحقة بشكل عنيف من قبل المراقبة الرسمية للفقهاء المالكيين الأشداء. وقد شهد على ذلك مفسر القرآن وقاضي طليطلة سعيد الأندلسي أو ابن سعيد (1029-1070) عندما ذكر أنّ هذه العلوم كانت مكروهة ومشبوهة لدى القدامى وموضع انتقاد من ذوي النفوذ. وكل من يدرسها كان موضع شبهة بصحة عقيدته ومتّهمًا بالزندقة. ومعظم أولئك الذين انخرطوا في دراسة الفلسفة أخذوا يتراجعون عنها خوفاً من الملاحقة. وراحوا يختفون عن الأنظار محتفظين سراً بما لديهم من المعرفة[48].

ربما كانوا ينتظرون استهلال عصر آخر أكثر استنارة؟ ولكن الأزمنة التي تلت كانت أشد ظلاماً بالنسبة للعالم العربي الإسلامي إلى درجة أن فترة الأمويين الأوروبية في إسبانيا كانت أشبه بإشراقة رائعة عابرة.

إسلام الشرق في القرون الوسطى

إسلام القرون الوسطى هو عبارة عن جبل الأولمب بالنسبة للمكتبات. ففيه انتشرت وازدهرت كل الازدهار. وغالباً ما كانت تبنى تنفيذاً لرغبة الخليفة أو السلطان في البداية. ثم تغتني بعدئذ عن طريق العلاقات الدبلوماسية المعمقة مع الملوك الأجانب الذين يهدونها الكتب. وأسهم في جمالها وإغنائها لاحقاً وفرة الخطاطين وانتشار فن الخط، وعلم التجليد، والورق. ثم بعد ذلك بقليل راح الوقف (أي الهبات المجانية لوجه الله) يطور هذه المكتبات ويوسعها إلى حد كبير. نقول ذلك وبخاصة أن إنشاء المكتبات كانت تقف خلفه غالباً مقاصد شخصية راسخة كحب الخلود أو ترك الباقي لاسمه على صفحة التاريخ. ولهذا السبب فإن المكتبة الخاصة للأمراء أو الكبار عموماً سرعان ما ترافقها مكتبة عامة.

يمكننا أن نقرأ وصفاً دقيقاً لأماكن الدراسة هذه، أماكن القراءة والتأمل. وهذا ما تقدمه لنا شهادات تعود إلى تلك الفترة. فالمقدسي مثلاً رأى في شيراز قبل عام 990 قاعة ضخمة مقوسة أو مقبَّبة تفتح في ثلاث زوايا منها على سلسلة من الغرف تدعى الخزائن. فعلى مدار الجدران لاحظ هذا المؤلف وجود خزانات على هيئة أدراج مصنوعة من الخشب المصقول. ويبلغ علوها ثلاثة أشبار (أي حوالي سبعين سنتيمترًا). ولها أبواب تفتح وتغلق. بل إن المقريزي رأى في القاهرة أن هذه الرفوف مفصولة بعضها عن بعض بحواجز تؤدي إلى تشكيل مقصورات يمكن إغلاقها بالمفتاح. وكل مقصورة تحمل بطاقة تدل على محتوياتها من الكتب لكي يعرف القارئ بسهولة كيف يعثر على الكتاب الذي يريده. ورأى على الرفوف أن الكتب مصفوفة على بطنها وتشكل أهرامات صغيرة ذات عرض متناقص أكثر فأكثر. وأما عنوان كل كتاب فمكتوب عليه بشكل مختصر. وفي نهاية القرن العاشر راح ابن النديم يؤلف كتابه الشهير: الفهرست. وهو يشتمل على عناوين جميع الكتب التي كانت قد ألفت حتى ذلك الوقت أياً يكن موضوعها أو أصل المؤلف ودينه. كان ابن النديم ابن صاحب مكتبة دار الروم، وكان معجباً بأرسطو. وكانت دار الروم في بغداد تشبه الحي اللاتيني لباريس من حيث الاهتمام بالعلم والثقافة ونشر الكتب وغليان المعرفة. ونحن مدينون لابن النديم بشهادة ثمينة ورائعة على ذلك العصر الذهبي للكتاب. وقد تعرفنا على هذه الشهادة جزئياً عن طريق مراجعتين وصلتنا عنها.

تتجلّى الدقة الحسابية أو العددية للغة العربية في الطريقة التي تدل على الفضاءات العامة، أو شبه العامة، أو الخاصة التي تحتوي على الكتب وذلك عن طريق استخدام نفس الكلمات الأساسية. ففيما يخص الحيِّز أو الفضاء الذي يحتوي على الكتب نلاحظ أن العربية الكلاسيكية كانت تستخدم كلمة "بيت" أو "دار" (ولكن الدار يمكن أن تكون مجموعة بيوت متمحورة حول فناء أو

صحن الدار). كما تستخدم اللغة العربية الكلاسيكية كلمة خزانة للدلالة على المكان الذي يحتفظ بالكتب. وأما المحتوى فتدل عليه كلمة من نوع "حكمة" أو "علم"، أو "كتب" جمع كتاب. والتسمية الحاصلة تدل على أنواع مختلفة من الأماكن والفعاليات بدءاً من سجل المخفوظات الصغير وانتهاء بالجامعة الكبيرة. ولهذا السبب قالوا ما يلي: إذا كان "بيت الحكمة" هو تعبير عن مركز بحوث، فإن "دار العلم" هو تعبير عن أكاديمية علمية. أما "خزانة الكتب" فتدل على مكتبة خاصة بالأحرى. وهي تكون غالباً ضخمة جداً.

والمهم هو أن أول مؤسسة علمية عربية إسلامية دعيت "بيت الحكمة" على غرار ما فعلته فارس عام 555. وقد أسست مؤسسة بيت الحكمة في نهاية القرن السابع الميلادي في بغداد من طرف أول خليفة أموي ثم طورت وجرى توسيعها من طرف أحد الخلفاء من ذريته وكان يدعى: خالد بن يزيد ابن معاوية. وقد تم تأسيسها في البداية في قصر الخضراء. ومعلوم أن خالد بن يزيد هذا كان ميالاً لعلم "الخيمياء". وكان أحد الطليعيين العرب الذين كرسوا جهوداً كبيرة لترجمة النصوص الإغريقية عن الموضوع. وهي نصوص تتحدث عن مضاربات وتخمينات متنوعة فيما يخص هذا العلم الغريب من نوعه. ولكن السلطات الدينية والدنيوية احتقرت هذه البحوث لاحقاً ووضعتها على قائمة الكتب المحرمة. ويبدو أن هذا الرجل تنبأ بما سيحصل لبحوثه عندما علّق عليها في أواخر أيامه وكأنه يعتذر عنها. قال: "أنا لست عالماً ولا جاهلاً، ولم أفعل غير أني جمعت الكتب". وقد قال ذلك للتقليل من مسؤوليته.

والواقع أن هذه الكتب التي جمعها شكلت مكتبة غنية للعلوم الطبية. والدليل على ذلك أنهم ذكروا لنا أنها وُزِّعت على السكان بكل كرم وأريحية لمساعدتهم على معالجة أنفسهم أثناء ظهور وباء خطير في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز.

ثم جاء عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور. وقد أعطى دفعة جديدة لجمع الكتب في قلب المدينة المدورة ذات الفناءات الثلاثة. وقد تم هذا الجمع والاقتناء وزيادة عدد الكتب عن طريق ترجمة المؤلفات العلمية الموروثة عن العصور القديمة: أي كتب الإغريق بالدرجة الأولى. ثم جاء بعده الخليفة المهدي وشجع أيضاً على ترجمة كتب جديدة إلى العربية. ثم خلفه هارون الرشيد على الحكم. وقد أمر بجلب كل المؤلفات التي وجدوها في مكتبات المدن المفتوحة إلى بغداد حيث توجد ورشات الترجمة والنساخة في بيت الحكمة الجديد. وكان البيت قد أصبح مؤسسة ضخمة وشديدة الأهمية. وقد استلمها عام 813 ابن هارون الرشيد الخليفة المأمون. وقد قال عنه سعيد وهو يكظم غيظه قليلاً: "لقد كرس نفسه لدراسة العلم حيث وجد، وكذلك لاكتشاف كنوزه المخبوءة". ولكي يحصل المأمون على أكبر عدد ممكن من الكتب فإنه غمر بالهدايا أباطرةَ بيزنطة والملوك الآخرين مقابل أن يرسلوا له كتب الفلسفة التي يمتلكونها في خزائنهم. وبما أن الهدايا التي أرسلها لهم كانت ثمينة جداً فإنهم لم يترددوا في أن يبعثوا له كتب أفلاطون، وأرسطو، وأبوقراط، وجالينوس، وأقليدس، وبطليموس. وراحت هذه الكتب تتدفق على بغداد تباعاً.

ولم يتردّد إلاّ قادة قبرص وحدهم في إرسال كتبهم إليه. وعندئذ تدخل لديهم مستشار محنك وقال لهم: "على العكس. أسرعوا في إرسال هذه الكتب إليه، أي إلى خليفة المسلمين، لأن العلوم العقلية ما دخلت بلداً قائماً على المؤسسات الدينية إلا أفسدته وزرعت فيه بذور الشقاق والخلاف بين علمائه". (وبالمناسبة توجد هنا وهناك ثلاث نسخ متشابهة عن هذه النادرة الجميلة المثيرة للانتباه). ولكن الآثار السلبية للعلم أو التي افترضها هذا الرجل بأنها سلبية لم تمنع بغداد من أن تصبح مركزاً هائلاً للترجمات، والنشر، وفن الخط والتجليد. وقد أضيف إلى هذا المركز مرصد علمي يشتغل فيه العلماء المسلمون والمسيحيون واليهود والزرادشتيون والصابئون بكل تعاون وانسجام. ففي هذا

المرصد العلمي الكبير -أي مركز البحوث في الواقع- راحوا يعمقون أبحاثهم في مجال علم الفلك، والرياضيات، والجغرافيا أو فن تصميم الخرائط. وبالتالي فإن بيت الحكمة أصبح في القرن التاسع الميلادي (أي الثالث الهجري) وفي ظل المأمون "مكتبة شعبية ضخمة تسود فيها حرية التفكير والتعبير". كما أصبح "أكبر ملتقى للنقاش والتفاعل بين الفلسفة والدين"[49].

وقد مات المأمون ابن هارون الرشيد عام 833م. وإحدى ميزاته الأساسية التي شكلت عظمته ومجده هي أنه كان القائد الوحيد الذي تجرأ على تحدي الفقهاء إبان العصور الوسطى الإسلامية. لقد تحداهم على المكشوف وبشكل مباشر. ولكنه في غالب الأحيان كان يتوصل إلى حلول وسطية معهم بالتراضي والتفاهم. وكان يفعل ذلك عن طريق تنظيم مناظرات حوارية بين مختلف الأطراف في بيت الحكمة. أما إذا لم تنفع هذه الطريقة فكان يلجأ إلى استخدام القوة لإجبار الفقهاء المتشددين على الليونة في مواقفهم. وكان يفعل ذلك عادة عندما يكون منخرطاً في الحروب بعيداً عن بغداد وعندما تصبح الأفكار الضرورية لخلاص شعبه غير مفهومة وبخاصة في غيابه. بل إن أعداءه يقولون إنه اخترع نوعاً من محاكم التفتيش ولكن في الاتجاه المعاكس مجبرًا هؤلاء الفقهاء على القبول بفكرة أن القرآن مخلوق. وهذه النظرية للمعتزلة التي ظهرت في منتصف القرن السابع الميلادي (الثاني الهجري) ظهرت على الواجهة في أوساط بيت الحكمة. ومعلوم أن رؤساء الأقسام العلمية الخاصة بالترجمة أو البحوث كانوا جميعهم تقريباً من غير العرب، ولم يكونوا كلهم مسلمين.

ولا شكّ أنّ هذه التساؤلات والمناظرات الخصبة لم تكن تروق أبداً لكل أولئك الذين يعتبرون أن علم السنة هو وحده الضروري والكافي. ونقصد بعلم السنة هنا ذلك العلم الذي يقلّد بشكل صارم ودقيق الحياة المفترضة للنبيّ. ثم جاء السلاجقة فيما بعد وانتقموا لهؤلاء الفقهاء المتشددين الذين اضطهدهم

المأمون وأعادوا الثقافة العربية الإسلامية الزاهرة إلى نقطة الصفر. وهكذا راح السلاجقة يدمرون المكتبة البغدادية دون أن يؤثروا كثيراً على الضمائر أو على مستوى الوعي السائد. فالواقع أن الناس كانوا قد أصبحوا تقليديين قبل وصولهم بزمن طويل. ثم إن المكانة العلمية الكبرى لتلك المؤسسة العريقة، أي بيت الحكمة، كانت قد تدهورت بسبب نقل العاصمة من بغداد إلى سامراء عام 836م. ونقصد بنقل العاصمة هنا نقل النخبة الحاكمة فقط في الواقع. لقد انخفضت أهمية ذلك المركز العربي العريق للترجمة والبحوث إلى درجة أنه فقد اسم "بيت الحكمة" وأصبح يدعى خزانة المأمون فقط: أي مكتبته. إن الانغلاق الفكري الذي تلا ذلك العهد الميمون يوازي الانفتاح العقلي الذي كان قد دشّنه سابقاً. وقد ابتدأ هذا الانغلاق في عهد المتوكل الذي وصل به الأمر إلى حد منع التفكير العقلاني بشكل مطلق فيما يخص قضايا الإيمان والبحث فيها. يضاف إلى ذلك أن هذا الخليفة العاشر في سلسلة الخلفاء العباسيين كان أول من فرض على اليهود والمسيحيين وضع قطعة من القماش على سترهم تميزهم عن غيرهم.

في ذلك الوقت بالذات راح المؤرخ السني الكبير الطبري ينص على هذا المبدأ: "لا ينبغي في أي حال من الأحوال حرق الكتب دون معرفة ما فيها"[50] لقد اضطر هذا المؤرخ الغزير الإنتاج والمفسر الكبير أيضاً للقرآن أن ينص على ذلك خوفاً من تدمير الكتب والمكتبات. وكان يقصد بذلك أن الكتب التي تتناقض مع عقيدة الإسلام يحل حرقها أو تدميرها، أما غيرها فلا. وعلى هذا النحو جرت الأمور بالفعل. فمثلاً راح الوزير سابور في القرن التالي يشتري بناية في حي الكرخ. وكان ذلك عام 993. ومعلوم أنه كان كاتباً قبل أن يصبح وزيراً. وكان الكرخ في ذلك الزمان الحي الأكثر حيوية وانتعاشاً وامتلاء بالمثقفين في بغداد. وقد أمر هذا الوزير بتجديد البناية التي اشتراها وتبليطها

بالرخام وإدخال الكلس المتين إليها لكي يستطيع أن يعرض فيها أجمل الكتب التي كان يمتلكها في مكتبته. وكانت تضم عشرة آلاف وأربعمئة مجلد من بينها مئة نسخة من القرآن الكريم. وهي نسخ كانت مخطوطة من قبل أعضاء عديدين ينتمون إلى الأسرة الشهيرة: بني مقلة. وكانوا خطاطين من الدرجة الأولى. وقد ازدادت شهرة سجل المحفوظات هذا من عام إلى عام وحظيت بهبات كبار العلماء والمحسنين ومحبّي جمع الكتب. وبما أن الغرور دخل في الموضوع فإن المكتبة اضطرت إلى تشكيل لجنة تشرف على اختيار الهبات المستحبة وترفض ما تبقى. فإذا كان الواهب يهدف فقط إلى الشهرة والتبجح باسمه وبهداياه لها فإنهم كانوا يرفضون العطايا التي يقدمها. وحدها الهبات الصادرة عن شخصيات نزيهة هدفها حب المعرفة والكتب كانت مقبولة. وكان لهذه المكتبة ثلاثة مديرين هم: حافظ المكتبة، ومساعده، وخادمة موثوقة تدعى توفيق الزنجية. وكانت وظيفتها تكمن في استخراج الكتب من المستودع وتسليمها للنساخين لكي ينسخوا عنها ثم إعادتها إلى المستودع من جديد وترتيبها. ولكن للأسف كان مؤسس هذه المؤسسة الرائعة التي تدعى دار العلم وكتبه ومجمل الحي أميل إلى الشيعة (أي أتباع علي بن أبي طالب). ولذلك، عندما وصل السلاجقة إلى السلطة عام 1059م سنحت المناسبة للسنّة لكي ينتقموا من الشيعة. فهجموا على حي الكرخ واستباحوه واندفعوا مباشرة نحو دار العلم فحرقوها عن بكرة أبيها. وبعد أن خمدت النيران أمر السلطان بتفريق العامة أو الدهماء التي شرعت بأعمال النهب والسلب في الحي. ثم جاء هو شخصياً إلى المكان لجمع الكتب الناجية من الحرق وإرسالها إلى بيته.

أما السلالة الفاطمية التي حكمت مصر فكانت شيعية بدورها. وقد اشتهرت بأنها أعطت لمدينة القاهرة ذات التاريخ المضطرب بعضاً من أجمل وأعظم مكتباتها.

ويذكر أحد كتب التاريخ العربي (*Audiences et chevauchés*) الحكاية التالية: في أحد الأيام من عام 974 لم يستطع حافظ مكتبته أن يجد للخليفة الكتاب الذي يبحث عنه. وعندئذ قال الخليفة المؤسس للسلالة الفاطمية في مصر، المعزّ: سوف أذهب أنا شخصياً للبحث عنه. وعندما دخلت المكتبة فتحت الخزانة التي أعتقد أنه موجود فيها، ووقفت هناك لفترة، وكانت تلك بداية الليل. وقد ابتدأت أقرأ العناوين وأتصفح أوراق أول كتاب وقعت يدي عليه. وعندئذ وقع بصري على مقاطع لفتت انتباهي وأردت قراءتها بعناية. وبعدها أمسكت بكتاب آخر وحصل لي نفس الشيء. وهكذا بقيت هناك أقرأ كتاباً بعد كتاب. ولم أعد أعرف السبب الذي دفعني للذهاب إلى هناك ونسيت أن أجلس من شدة انهماكي في القراءة. ولم أنتبه إلى حقيقة أمري إلا بعد أن ابتدأت رجلاي تتعبان من كثرة الوقوف. وعندئذ انتبهت وعرفت أين أنا"[51].

عندما قرر المعز بالله أن يغادر الجدران الرائعة رغم كونها ضيقة لتونس (أو للبلاد التي ستدعى تونس لاحقاً) من أجل أن يستقر مع حاشيته وبلاطه في القاهرة، فإنه أمر قبل كل شيء ببناء "قصر كبير" مزود بكل ما يلزم من "دواوين وقنصليات وملحقات وذخيرة". وكان في طليعتها خزانة الكتب. نعم لقد أوصى عليها بالدرجة الأولى لأنه كان مولعاً بالكتب. وقد أنجزوا له ما أراد وأصبح كل شيء جاهزاً لاستقباله عام 973. ولا ريب في أن مجموعة الكتب الأولى كانت جمعت من قبل ابن كليس. وهو يهودي من بغداد كان قد ساهم كثيراً في استقرار السلالة الفاطمية التي أصبح وزيراً لها. وأما المسؤول الأول عن خزانة الكتب فكان يدعى علي شابستي الذي مات عام 1000. كان القصر الكبير موجوداً في جهة الشرق في شارع القصرين. وكان يحتوي على أربعين خزانة تضم ما لا يقل عن ثمانية عشر ألف كتاباً في العلوم القديمة فقط. أما المجموع الكلي لكتبها فكان يصل إلى مئة ألف كتاب! وكانت غنية بكل أنواع

المعرفة بشكل لا مثيل له. وبعض كتبها كانت منسوخة بأيدي خطاطين كبار من الدرجة الأولى. وقد قال المعز بكل افتخار واعتزاز: "لقد وجدت فيها صناديق مليئة بكتب منسوخة بقلم ابن مقلة وابن بواب وآخرين"[52]. هكذا نلاحظ مدى الفخر الذي يشعر به سيد البلاد إذ يتحدث عن معرفته بالكتب وحبه لها. ثم جاء بعده الخليفة العزيز بالله وسار على النهج نفسه. فعندما كانوا يثيرون أمامه ذكر هذا الكتاب أو ذاك كان يفتخر هو الآخر أيضاً بالنسخ التي يمتلكها عنده ويعرضها أمامهم لكي يروها بأم أعينهم. وكانت مكتوبة بأيد مختلفة وبأقلام خطاطين شهيرين في معظم الأحيان. وكانت أحياناً مكتوبة بخط المؤلف نفسه. كان يمتلك مثلاً ثلاثين نسخة عن كتاب "العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي النحوي وعالم العروض الشهير الذي مات عام 791م. وكان يمتلك عشرين نسخة عن كتاب الطبري "تاريخ الأمم والملوك". ومن بينها نسخة تعود إلى بداية القرن ومكتوبة بخط يده شخصياً. وكان يمتلك مئة نسخة من "جمهرة أنساب العرب" لعالم اللغويات الشهير ابن دريد المتوفى عام 933م. وقد وصل الأمر بمؤرخ حلبي ولد مباشرة بعد تدمير المكتبة إلى حد القول بأنها احتوت على مليون وستمئة ألف كتاب! وكانت "مهمة وذات قيمة كبرى. ولم يكن لها مثيل في الأقطار الأخرى من حيث أصالتها وصحتها وجمال خطها وتجليدها وفرادتها" على حد قوله. ربما كان هذا المؤرخ يبالغ في العدد، بل هو حتماً مبالغ. وبإمكاننا بالتالي أن نحذف صفراً منه لكي نقترب من الحقيقة. وهكذا يصبح العدد مئة وستين ألف كتاباً وليس مليون وستمئة ألف كتاب. فهناك إجماع على ضخامة العدد بين الشرّاح المختلفين وكتّاب سيرة هذا الخليفة من محبين ومبغضين. وعندما نقارن بين رواياتهم المتناقضة في الغالب نستنتج بشكل غير مباشر أن الخليفة بنى ملحقاً للمكتبة إلى جوار القصر المقابل (أي القصر الموجود في جهة الغرب، أو القصر الصغير المخصص مبدئياً لولي العهد). وتقول النصوص إنه كان يقع في مواجهة جامع "الأقمر" الذي لا يزال موجوداً حتى

الآن. وعندما كان يرغب في معرفة "المستجدات" أو الكتب التي وصلت حديثاً فإنه ما كان على الخليفة إلا أن يعبر الشارع لكي يصل إليها. وهذا ما كان يفعله ممتطياً حصانه عادة. وكان يترل عن دابته على منصة خاصة حيث يهرع إليه أمناء المكتبات لكي يقدموا له الكتب التي اقتنيت حديثاً والتي لم يطلع عليها حتى الآن. ولكن بعد أن يتصفحها قليلاً لا يعود يتمالك نفسه من شدة الشوق فيتبع موظفيه إلى داخل المكتبة حيث يتغلغل بين رفوفها لكي يملأ عينيه بمنظر الكتب ويتصفحها حتى الشبع إذا جاز التعبير.

وقد ولدت المؤسسة العامة عن جزء هام من الميراث الخليفي العظيم وفي المكان نفسه. لقد نشأت في الشارع الحالي المدعو بالخرنفش والواقع على بعد خطوتين من بناية سبيل الكتب التي تشق شارع المعز إلى نصفين.

أما الخليفة الحاكم بالله فقد كان إنساناً ظريفاً وبسيطاً جداً وقد حكم طويلاً لأن عهده امتد من عام 996 وحتى عام 1021 تاريخ اختفائه الغريب وغير المفهوم. ومعروف أنه كان محباً للغلمان الذين قد يبقر بطونهم في بعض الأحيان. وقد بنى "بيتاً للعلوم" عن طريق استعادة نفس الاسم الذي كان "سابور" الفارسي قد اختاره في بغداد للتو[53]. وقد دُشن يوم السبت بتاريخ 24 مارس 1005. وهو موجود في ذلك المبنى شمال القصر الكبير حيث يقيم (هذا في حين أنه كان ينبغي عليه أن يسكن في الجهة المقابلة، ولكنه كان غريب الأطوار). يقول أحد المؤرخين: "كان الناس يهرعون للذهاب إليه وزيارته. وكانوا من جميع الطبقات والأصناف لأنه كان مفتوحاً للجميع". بمعنى آخر فإنه كان يلبي رغبة مؤسسه عندما بناه. فقد بناه وكرسه لكل أولئك الذين يحبون "قراءة الكتب، ونساختها، ودراستها". وكانوا يعطون في هذا المكان أيضاً محاضرات عن العلوم الدينية، والفلسفة، وعلم التنجيم، والرياضيات، وعلم النحو، وعلم الطب. وكانت المكتبة عبارة عن بناية "مزودة بالأثاث ومزخرفة

مع الستائر على كل نافذة وباب وعلى طرفي كل رواق". وأما الحواجز الراقية المصنوعة من الحجر المنحوت فكانت مزينة بالتلبيسات الخشبية المنقوشة أو المحفورة برسوم للعازفين والراقصات. وقد قلبوها من جهة الجدار بسرعة عندما حولوا المكان لاحقاً إلى مستشفى. ولكنها لم تضع كلياً. فبإمكان الزائر أن يرى بعض القطع منها في المتحف الإسلامي بالقاهرة. وقد وهب الخليفة للوقف الإسلامي كتباً رائعة مكتوبة "بالخط المنسوب"، أي بالخط المتناسق (وذلك لأن كلمة فن الخط أو فن النساخة غير موجودة بالعربية بالمعنى الذي نقصده بالكلمة الفرنسية calligraphie). لقد كانت هذه الكتب من الجمال والروعة بحيث أنهم "لم يجدوا لها مثيلاً عند أي ملك آخر"، كما قال أحد أعضاء حاشية الخليفة الفاطمي بكل فخر واعتزاز. وقد شملت هبة الوقف هذه أيضاً أراضيَ عديدة ومباني في الفسطاط تُصرف مداخيلها على تشغيل المكتبة وأجور الموظفين. وبلغت ميزانيتها السنوية مئتين وسبعة وخمسين ديناراً: عشرة دنانير لشراء حصيرات القش، واثنا عشر ديناراً من أجل الشرب، وتسعون ديناراً من أجل شراء الورق لنساخة الكتب عليه. وأما راتب أمين المكتبة فقد وصل إلى ثمانية وأربعين ديناراً، هذا في حين أن راتب المستخدم في المكتب وصل إلى خمسة عشر ديناراً، وأما شراء الحبر والأقلام فقد وصل إلى اثني عشر ديناراً. وأما إصلاح الستائر فبلغ ديناراً واحداً، هذا في حين أن إصلاح الكتب كلّف اثني عشر ديناراً. وأما شراء السجاد الملبّد والأغطية لفصل الشتاء فقد بلغ تسعة دنانير. نلاحظ هنا مدى ضخامة المبلغ الذي صرف على شراء الورق. ولكن ينقص هنا ثمانية وأربعون ديناراً لا يقول عنها المقريزي أي شيء. ولكن ربما كان هذا المبلغ قد صرف أجوراً للنساخين. أما الأقلام فكانت توزع مجاناً على النساخين كما يشاؤون ويشتهون، وكذلك الماء القراح أيضاً. ولكن كل هذه الأمور التي حظيت بها دار العلوم وكل هذه الحرية أيضاً كان هدفها تهدئة مشاعر السنة وتبديد شكوكهم. والواقع أنهم كانوا بحاجة للطمأنينة لعدة

أسباب. أولها أن السلالة الحاكمة كانت إسماعيلية المذهب. بل ليس هذا فقط وإنما كان الخليفة الحاكم يثير الكثير من القلق وعدم الثقة لديهم. ولهذا السبب فإنه أمر بتعيين اثنين من علمائهم في دار العلوم لترضيتهم أو تحاشي المزيد من غضبهم. وربما كانت المجابهة الفكرية بين الطرفين قد انحرفت عن مسارها الصحيح في أحد الأيام من عام 1009 وأدت إلى حصول مشكلات خطيرة. ولهذا السبب أغلقت دار العلوم أبوابها فجأة عندما وجدوا الشيخين السنيين مقتولين. ثم فتحت أبوابها بعد ذلك بفترة، ولكنها هذه المرة أعلنت عن نفسها كمركز للدراسات والدعاية الإسماعيلية. وبالتالي فلم يعد هناك أي مجال لشيوخ المذهب السني.

في أثناء ذلك الوقت كانت الروائع الأدبية للقصر الكبير قد بقيت ضخمة وكثيرة. وقد أمر أحد الوزراء بفرزها عامي 1043-1044. كما أمر بتقدير قيمتها بعد تجديد تجليدها. وقد قام أحد صناع الأسطرلابات بتقدير عدد الكتب المختصة بالعلوم المحضة فكانت النتيجة ستة آلاف وخمسمئة كتاب. ولم يقلل وجود الأكاديمية وأبحاثها العلمية من أهمية هذه المكتبة التي أصبح عمرها الآن مئة سنة.

ولكن البلاء وقع عندئذ على البلاد. فبين عامي 1065-1072 لم يحصل أن ارتفعت مياه النيل إلى العلوّ الكافي ولو مرة واحدة. وعندئذ انتشرت المجاعة والفوضى في البلاد لمدة سبع سنوات متواصلة. وفي أثنائها وجدنا حتى نساء الخليفة المستنصر بالله تخرج إلى الشارع لكي تشحذ! وفي ذات الوقت كان هو يبقى وحيداً في أعماق القصر جالساً على حصيرة بلا قيمة وفي غرفة عارية من كل شيء. وصلت الأمور في مصر إلى هذا الحد من البؤس والفاقة. وقد فتح بنفسه الصناديق والخزائن الموجودة في القصر ثم أغمض عينيه ودعا مساعديه وموظفيه إلى نهبها وسلبها. وفي عام 1068 مثلاً رأينا في الفسطاط قافلة مؤلفة

من خمسة وعشرين جملاً تحمل على ظهورها أجمل الكتب يبلغ سعرها مئة ألف دينار *(ويعود الفضل في هذا الحساب الثمين للباحث ر. و. بوليي الذي قدّر أنّ حمل الجمل يصل إلى زهاء 1.500 كتاب، ويعني أنّ خمسة وعشرين جملاً يحملون حوالي 40.000 كتاب). وكان الوزير عبدالفرج هو الذي طالب بها لاسترداد ديون القصر تجاهه والتي بلغت خمسة آلاف دينار فقط كان القصر عاجزاً عن دفعها. فأعطاه كل هذا القدر الكبير من الكتب كتعويض. ولكن بما أن دارة الوزير كانت خالية من أي تجهيزات أمنية يتطلبها أي بيت غني فإن الكتب سرقت بعد شهر من ذلك التاريخ، ثم بيعت إلى تاجر من المغرب الأقصى. ولكن لم نعثر على أي مصدر يثبت لنا وصول الغنيمة إلى جهة المرابطين. ونعتقد أنها غرقت في مكان ما بين الإسكندرية ومدينة مراكش التي كانت قد أسست للتو.

كان المرتزقة يعانون هم أيضاً لعدم استلام رواتبهم من الخليفة المفلس. ولذلك فإنهم قلدوا الوزراء وأخذوا بدورهم الكتب كتعويض، ولكن من دار العلوم هذه المرة. ويبدو أنهم كانوا يبيعون مستودعات الكتب إلى الشارين أنفسهم أو إلى تجار بغداديين. ودليلنا على ذلك هو أن قبيلة "اللواتة" البربرية هي التي نهبتهم أثناء نزولهم على مجرى نهر النيل باتجاه الإسكندرية. وماذا فعلت هذه القبيلة بالكتب المسلوبة؟ لقد قطعت جلودها الأنيقة والفاخرة لكي تعمل منها أحذية أو نعالا خفيفة! وأما صفحات الكتب فقد استخدمتها وقودًا للطبخ.. وهكذا ذهبت تلك المخطوطات الرائعة هباء منثوراً. وتقول الأسطورة إنه كانت توجد أعداد هائلة من الكتب المحروقة إلى حد أن رمادها شكل ركاما عظيماً سرعان ما غطته كثبان الرمال. وقد دعوا تلك المنطقة بهضبة الكتب. وبقيت هذه التسمية زمناً طويلاً.

ثم فتحت دار العلوم أبوابها أخيراً دون أن نعرف كيف ولا ضمن أية

ظروف. وقد استعادت نشاطها وأعمالها بحماسة كبيرة إلى درجة أنها أخافت أعداءها. فاضطرت إلى إغلاق أبوابها فجأة من جديد عام 1119 بأمر من الديكتاتور الأفضل. ومعلوم أنه هو الذي زوَّر خلافة المستنصر عندما منع ولي العهد الرسمي (نزارًا) من الوصول إلى السلطة. فقد أرسل أحدهم لكي يطعنه بخنجر ويرديه قتيلاً (وهنا تكمن نقطة انطلاق النـــزاريين الذين ولّدوا فيما بعد طائفة الحشاشين الشهيرة). ولكن الأفضل هذا لقي مصرعه بعد أربع سنوات من ذلك التاريخ عندما طعنه الخليفة العامر بالخنجر أيضاً. وعندئذ تم الإعلان عن إعادة فتح دار العلوم ولكن بشكل مقلّص أو محدود وفي جنوب القصر الكبير، أي خارجه. وقد فتحوها هناك لكي "يخففوا من الفضيحة المتمثلة بالمناظرات الحرة التي تجري فيها بكل جرأة حول القضايا السياسية والدينية"[54]. وكانت دار العلوم تشغل الموقع الحالي لخان الخليلي، في ذلك الشارع الصغير الضيق الصاعد إلى أعلى حيث يبيعون الدفاتر. وقد ظلت أبوابها مفتوحة حوالي خمسين سنة وزيادة. ونفترض بالتالي أنها تعرضت لإهانات أخرى عديدة ونجت منها. وقد استمرت في العمل والإنتاج حتى مجيء صلاح الدين الأيوبي.

عندما استطاع القائد الكردي صلاح الدين أن يستولي على السلطة في مصر سعد كثيراً لأنه وجد المكتبات الفاطمية أمامه، ليس حباً بقراءة الكتب وإنما لكي يبيعها ويدفع بسعرها الرواتب لجنوده. وهكذا حطمها بكل سعادة ودون تأنيب ضمير لأنه كان يريد أن ينظف البلاد من كل أثر للمذهب الشيعي. ولم يبق عندئذ في خزائن الخليفة إلا مئة وعشرون ألف كتاب. وكانت لا تزال تعتبر بمثابة "إحدى عجائب الدنيا وروائعها". وقد كلفت السلطة القاضي الفاضل بالإشراف على عملية بيع الكتب بالمزاد العلني. ولكن بما أنه كان يمتلك هو الآخر أيضاً مكتبة جامعية ضخمة في مدرسته الواقعة بشارع درب الملوخية فقد حوّل الكثير من هذه الكتب إلى مكتبته. وانتشرت شائعات

تقول إنه كان ينتزع التجليد عن الكتب وينقّع المؤلفات بالماء لتشويهها حتّى يتخلى القصر عنها لكي يأخذها لنفسه ويجلدها من جديد ويضعها في مكتبته. ولكن يصعب تصديق هذه الإشاعة لأنه كان يحب الكتب كثيراً ولا يمكن أن يؤذيها بهذا الشكل. ولكن أحد المؤرخين المعاصرين للأحداث يذكر لنا أن المشترين المرسلين من جهة القاضي الفاضل أوهموا حاكم القصر وهو تركي أمي لا يعرف القراءة والكتابة أن الكتب منخورة ومليئة بالديدان التي تقرضها. وبالتالي فينبغي أن نرميها على الأرض ونهزها لكي تخرج منها هذه الديدان القارضة. وبعد تخريب الكتب على هذا النحو، أصبح ممكناً لهم أن يشتروها بثمن بخس (أي عشرة قطع نقدية من الفضة). وهكذا استطاعوا أن يزيدوا استثماراتهم وأرباحهم عشرة أضعاف.

ثم عندما استولى صلاح الدين الأيوبي على آمد في سوريا بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ منح من جديد للقاضي الفاضل إمكانية اختيار الكتب التي يريد أخذها من مكتبة المدينة. وعندئذ ذهبت حمولة سبعين حماراً من الكتب إلى دار الفاضل (أو الفاضلية). وتتراوح تخمينات المؤرخين في تقديرها ما بين ثلاثين ألف ومليون كتاب! ولكن أمين مكتبته اعترف بمئة وأربعة وعشرين ألف كتاباً. وأكبر دلالة على غنى هذه المكتبة النادرة أنّ ابن الفاضل طلب أن يقرأ حماسة أبي تمام فقدموا له خمساً وثلاثين نسخة كانوا يمتلكونها. وراح والده عندئذ يتصفح هذه النسخ وهو غارق في تأملاته العميقة. ثم راح يقول وكأنه يتحدث مع نفسه: "هذه النسخة كتبها لي فلان، وتلك كتبت بيد خطاط مشهور، الخ...". ثم حسم قراره أخيراً وأرسل خادمه لكي يشتري له نسخة عنها بدينار ويقدمها إلى ابنه الذي طالب بها.

ولكن ماذا حصل بعدئذ لكل هذه المؤلفات التي تعود إلى السلالة الفاطمية السابقة والتي أمضى القاضي الفاضل حياته في جمعها واقتنائها؟ لقد تبخرت

كلها عام 1294 ولم يبق منها إلا كتاب واحد هو: القرآن المنسوخ بالخط الكوفي. وقد قيل عنه إنه مكتوب بخط الخليفة الثالث عثمان الذي مات مقتولاً عام 656م. ويقال إن القاضي الفاضل دفع ثمنه مبلغاً ضخماً يصل إلى ثلاثين ألف دينار. وبما أنه كان غالياً جداً فإنهم حجزوه في خزانة خاصة هي التي أنقذته من التلف. ثم حصلت مجاعة أخرى مرعبة في البلد فراح كل طالب في المدرسة يبيع يومياً أحد مؤلفات المكتبة لكي يحصل على رغيف خبز. ثم جاءت لحظة أخرى فراح الفقهاء يستولون على الكتب ويتلفونها "بأيديهم"[55].

شهدت القاهرة في العصور الوسطى أربع مكتبات كبرى خاصة. من بينها اثنتان لليهود وهما أول ما ظهر. الأولى للطبيب افراييم وقد حوت ما لا يقل عن ثلاثين ألف كتاب. والثانية للوزير يعقوب ابن كليس وقد حوت عدداً مشابهاً من الكتب. ويقال عن هذا الأخير بأنه جمع ثروة طائلة عن طريق استخدام وسائل حقيرة وغير شرعية. ولكي يغطّي على حقارته راح يصرف كثيراً على العلوم والعلماء. ويقال بأن المدير العام المسؤول عن إدارة شؤون قصره كان يصرف على الكتب ألف دينار ذهبي شهرياً بأمر منه. أما المكتبة التي تجيء في المرتبة الثالثة فهي مكتبة المعرّف. وهو شاعر وطبيب ومؤلف كتاب يشرح فيه فلسفة أرسطو. وقد روى المنطقي سداد الدين إلى عصيبية الحكاية التالية: "لقد رأيت عنده صالة ضخمة مليئة بالكتب الموضوعة في خزائن خاصة بها. والشيء المدهش ليس أنه كان يمتلك ألف كتاب عن كل موضوع أو علم، وإنما أنه كان يكتب على ظهر كل كتاب عبارات جميلة تدل على مضمونه والموضوعات التي يناقشها". ونحن نجهل الآن مصير سجل المحفوظات هذا كله ولا نعرف ماذا حصل له بالضبط. أما المكتبة الرابعة، وهي الأروع والأجمل من بينها كلها، فكانت للأمير الفاطمي محمود الدولة ابن فاتك...

وقد سأل عصيبية المنطقي سداد الدّين: "ولكن بقايا هذه المكتبة ليست إلا

مزقاً وقصاصات ملطخة بالحبر والوسخ؟"

فأجابه سداد الدّين: "صحيح. ولكن دعني أفسر لك لماذا. لم يكن الأمير يحب شيئاً آخر في الحياة أكثر من القراءة والكتابة. وكان يتفرغ لهوايته هذه كل مساء بعد أن يترل عن حصانه مباشرة. لقد كان شاعراً حقيقياً. ولكن عندما مات فجأة أمرت زوجته خدمها بجمع كل كتب محمود في الفناء الداخلي لقصرها. ومعلوم أنها كانت أميرة وتنتمي إلى الأسرة الحاكمة أيضاً. ثم أمرتهم برمي الكتب، الواحد بعد الآخر، في حوض الماء الكبير. وعلى هذا النحو تلفت وخربت. هكذا انتقمت منها لأنها كانت السبب في انشغال زوجها عنها".

والواقع أن سرد تاريخ المكتبات العربية لا يمكن أن يكتمل ويصح إن لم نأخذ بعين الاعتبار تلك التصورات الخيالية التي أحاطت بها أثناء وجودها وفيما بعده. في عام 999م كان عمر ابن سينا ثمانية عشر عاماً، وكانت شهرته قد أصبحت كبيرة على الرغم من صغر سنه. لقد ذاع صيته إلى درجة أن أمير بخارى دعاه إلى البلاط. وقد قبل الدعوة وزاره ثم قال: "اكتشفت هناك قاعات عديدة مليئة بالكتب. وكانت مرتبة في خزانات خاصة، صفاً بعد صف. فكانت هناك قاعة مخصصة لكتب اللغة العربية والشعر، وقاعة مخصصة لكتب الفقه، وهكذا على التوالي... ثم تفحصت فهرس كتب المؤلفين الإغريق القدماء وبحثت فيها عن الكتب التي كنت أرغبها وأتمنى الاطلاع عليها. وقد رأيت عندئذ كتباً قل أن رآها أحد أو حتى سمع بها. وهي كتب لم أرها أنا شخصياً في أي مكان آخر لا قبل هذه الإقامة ولا بعدها".

لقد استغل ابن سينا قراءة تلك الكتب لتغذية عقله وتنمية ثقافته إلى درجة أن الناس اتهموه بحرق المكتبة بعد أن حصل فيها هذا الحادث ودمرها. وقالوا بأنه أراد بذلك ألا ينهل أي شخص آخر منها العلم الذي نهله لكيلا يصبح فيلسوفاً كبيراً مثله ويزاحمه على الشهرة والمجد.

لقد كانت المكتبات الأخرى للعالم الإسلامي ضحية مباشرة وغالباً مقصودة لتلك الصراعات التي مزقت هذا العالم وأصابته. وهي صراعات من أنواع مختلفة. ويمكن القول بأن دمشق، وحلب، وأصفهان، وعلموت شهدت سقوط جثث الكتب بنفس عدد جثث البشر من لحم ودم!

وفي البصرة كانت توجد أيضاً في القرن العاشر دار علم كانت دار كتب في ذات الوقت. وكان ابن سوار هو الذي أسسها. يقول الحريري بهذا الصدد: "لقد قدموا الهبات المالية لكل أولئك الذين كانوا يزوروها ويقرؤون الكتب فيها بشكل منتظم أو ينسخونها". ثم يضيف الحريري قائلاً: "عندما عدت من الخارج إلى بيتي ذهبت لزيارة دار الكتب التي يجتمع فيها عادة أهل الأدب وحيث يلتقي أيضاً سكان البلاد مع الآخرين القادمين من أماكن بعيدة". ويبدو أن أحد المنجمين الذي سيهتم لاحقاً بالسرقة أثار جشع أحد زعماء القبائل البدوية التي كانت تخيِّم بالقرب من هناك ودفعه إلى نهب المدينة مبتدئاً بالمكتبة ومنتهياً بالسوق.

لننتقل إلى مكان آخر.

نحن الآن في مدينة طرابلس الشرق، ميناء سوريا الغني والمزدهر، وذلك عام 1086. وكانت أولى الأماكن التي تصنع الورق خارج آسيا. وكانت تؤلف فيها وتنسخ كميات كبيرة من الكتب. ويقال إنّ المكتبة التي كانت قد أنشئت فيها للتو أصبحت أكبر مكتبات العالم وأغناها بسرعة خيالية. وقد تحدث البعض عن احتوائها ثلاثة ملايين كتاب وخمسين ألف نسخة من القرآن، وعشرين ألف تفسير. ويقال بأنها كانت توظف مئة وثمانين ناسخاً أو كاتباً دفعة واحدة وتدفع لهم أجورهم حتّى كان هناك ثلاثون منهم يشتغلون ليلاً ونهاراً. هذا ما يؤكده بكل ثقة عالم شيعي كان يشتغل في خدمة "بنو عمار". لقد أصبح هذا المكان عبارة عن دار للعلم، عن جامعة يعيش فيها الأساتذة

والطلاب جنباً إلى جنب. ولكن المصائب سرعان ما حلت بها. فقد حاصر الصليبيون المدينة عام 1099 وأغلقوا ميناءها من جهة البحر. وقد استغاث السكان مرات عديدة بالخليفة وطلبوا منه النجدة وإرسال القوات. وأخيراً وصلت رسالة الخليفة، فماذا كانت تقول يا ترى؟ كانت تطلب من سكان طرابلس إرسال فتاة جميلة جداً كان قد سمع بها لكي تصبح خليفته! وكانت تلك هي النقطة التي جعلت الكأس يفيض والصبر ينفذ فاستسلم أهالي طرابلس للصليبيين. ودخل الفرنجة إلى المدينة فاتحين في موكب تدق فيه الطبول وتسمع فيه الزمور. لقد دخلوها دون أن يضطروا إلى خوض أي معركة تكلفهم غالياً. وأول ما فعلوه هو حرق المكتبة!

يقول صاحب خطط الشام ما معناه: وقد دخلها أولاً كاهن مسيحي — لعنه الله— وفزع من عدد الكتب الهائل الذي كان فيها. ولما كان في رف القرآن، فتح أول كتاب فوجده قرآناً، وآخر قرآن وهكذا دواليك... وعندئذ قال للجنود: هذه المكتبة لا تحتوي إلا على نسخ القرآن، احرقوها فوراً!"[56]. وبعد الحريق بقيت بعض الكتب صامدة فأخذها العسكر وباعوها. لقد عاث الصليبيون فساداً في الأرض ونهبوا وسلبوا إلى درجة أن "ميراث الحقد"[57] بين المسلمين والمسيحيين أصبح حقيقة واقعة. ثم انتشرت الإشاعات وقالت إن كتب طائفة الحشاشين التي قضى عليها المغول في قلعة علموت عام 1255 غير مأسوف عليها لأنها ما كانت تتحدث إلا عن القتل والسحر. في الواقع إن الأمر كان أخطر من ذلك.

نتجت أول مأساة في الإسلام عن مشكلة الخلافة التي اندلعت بعد وفاة النبي. فقد نشبت الخلافات بين أتباع السلالات المتنافسة على السلطة. وفي ذلك الوقت كان هناك مسلمون كثيرون يعتقدون بأن علي بن أبي طالب هو وحده الجدير بالخلافة. أليس هو ابن عم النبي وصهره والابن الأكبر لوالد النبي بالتبني؟

ألم تجتمع فيه كل الصفات التي تؤهله للمنصب. ولكن هذا الشرف لم يكن يغري علي بن أبي طالب كثيراً. وعندما قبل به سرعان ما قتل، ثم قتل بعده أخوه وابنه. وعندئذ شعر أتباعه بالمرارة والألم. وهذا الشعور هو الذي ولّد المذهب الشيعي في أحد فروعه الأساسية: أي المذهب الإسماعيلي. وعنه نتج الفاطميون والدروز والتراريون. وهؤلاء الأخيرون هم الذين أنجبوا شيخ الجبل المرعب حسن الصباح ثم أنجبوا بعده بوقت طويل ذلك الشخص الحكيم والحضاري: آغاخان.

كان حسن الصباح، مؤسس دولة الحشاشين وأول زعيم لها قد كتب سيرته الذاتية بشكل مبكر تحت العنوان التالي: مغامرات سيدنا. والعنوان بحد ذاته هو أول دلالة على تأسيس هذه الطائفة المخيفة. وفيما بعد راح كل أتباعه ينادونه باسم سيدنا دائماً. وقد قال فيها: "لقد تعلقت منذ طفولتي بكل أنواع المعرفة وشغفت بها". وقد ولد حسن الصباح في مدينة قم الإيرانية ولكن لا نعرف متى. وبعد أن تدرب على فن الكتابة والخط راح يتعمق في دراسات أخرى. وقد جاب البلدان طولاً وعرضاً لهذا الغرض من فارس إلى سوريا إلى مصر. وتقول لنا الأخبار بأنه أمضى في القاهرة ثلاث سنوات من عام 1078 إلى عام 1081. وهناك استقبلته السلطة الفاطمية استقبال الملوك كما هو متوقع. وبعد أن أصبح مشبعاً بالقراءات الفلسفية أصبح المثقف حسن الصباح داعية للمذهب الإسماعيلي عام 1071. وراح يعمل جاهداً لنشر العقيدة الإسماعيلية في الأمصار. وقد نجح في مهمته إلى درجة أنه استطاع أن يقنع محتل قلعة علموت بالتخلي له عنها. وأبلغه أنّه لن يتركه يرحل قبل أن يكافئه على ذلك ويدفع له مبلغاً ضخماً من المال. وبالفعل فقد أعطاه ثلاثة آلاف دينار ذهبي كتعويض.

والواقع أن حسن الصباح كان يمتلك مشروعاً متكاملاً ويعرف ماذا يريد. وقد تبلور برنامجه من خلال سنوات التيه التي قضاها في مختلف البلدان

الإسلامية. وكانت سنوات محسوبة وضرورية لكي يكتمل تكوينه الثقافي وتتشكل شخصيته. وأخذت ملامح هذا البرنامج تتشكل تدريجياً بعدئذ. وقد دلّت عليها أو على توجهاتها ميوله الغريبة للسكن في المناطق الجبلية الوعرة التي تستعصي على الغزاة. ولذلك اختار منطقة في شمال فارس تدعى الديلم. وهي قريبة من بحر قزوين.

وقد كتب عنها الباحث عطا مالك جوفيني يقول: "إن علموت هي عبارة عن جبل يشبه الجمل من حيث الهيئة والشكل. نعم إنها تشبه الجمل الذي ينخُّ وتستقر رقبته على الأرض". وكان هذا الرجل، أي عطا مالك جوفيني، مثل أبيه فارسياً يشتغل لصالح الغزاة المغول. وقد ساهم في تقدم جيوش هولاكو. وعلى الرغم من أنه مشبع بالأحكام المسبقة السيئة، إلا أنه روى بالتفصيل حكاية هذه الفترة من حياته عندما أصبح حاكماً لمدينة بغداد التي أصبحت كالشبح بعد غزو المغول: أي تحولت إلى أنقاض. أما علموت فتعني في اللغة المحلية "عش النسر": أي تستعصي على البلوغ من كثرة علوها وشدة وعورة الجبل الذي تقع في رأسه. فلا يمكن لأحد أن يصل إليها، أي إلى تلك الصخرة الضخمة، إلا بواسطة طريق ضيق يعلو على سيل عارم وعنيف. وقد انتشرت إشاعات تقول بأنه يوجد هناك في الأعالي حدائق، وبساتين، وقصور، وفتيات جميلات تتجدد عذريتهن كل صباح، وكذلك مكتبة ضخمة. وكل ذلك كذب في كذب ما عدا الشيء الأخير: المكتبة. وفيها راح سيدنا (حسن الصباح) يختلي بنفسه لكي يطالع الكتب ويفكر ويتأمل ويصدر الأوامر أيضاً. ولم يخرج منها إلا ميتاً بعد أربعة وثلاثين عاماً من ذلك التاريخ. ثم أمر أعوانه بالاستيلاء على سلسلة أخرى من القلاع العصية في المناطق المجاورة لعلموت، ثم في المناطق البعيدة كسوريا. فقد سيطر الإسماعيليون هناك على عدة قلاع في الجبل: أي في القدموس ومصياف. والعديد منها كانت تحتوي على مكتبات تضم كتب

الفلسفة وبقية الاختصاصات المعرفية. يحصل ذلك كما لو أن الفيلسوف الفرنسي مونتيني وقع في أسر الأيديولوجيا الحامية لفاغنر.

ثم انفجر العداء بين حسن الصباح وأعداء العقيدة الإسماعيلية وبخاصة السلجوقيين في اللحظة التي طرحت فيها مسألة تعيين خليفة فاطمي جديد في القاهرة عام 1094. فقد حصلت مشاكل عندئذ، وكما رأينا سابقاً فإن الوريث الشرعي للخلافة، أي نزار، كان قد أزيح عن المنصب من قبل السنيين الذين دبروا له عملية اغتيال. في تلك اللحظة بالذات أعلن ناسك علموت "الدعوة الجديدة" المرتكزة على النزعة الباطنية الصوفية. وقد ألهبت حماسة أتباعه. وكانت من الفعالية بحيث أنها أدت إلى تشكيل فرق انتحارية من أجل القيام بالاغتيالات السياسية. وخلع عليها حسن الصباح بركته قائلاً بأنها لا تقل "شرعية عن ماء المطر أو مطر السماء". واستطاعت هذه الفرق الانتحارية التي أرسلها حسن الصباح من أعلى الجبل إلى قتل ما لا يقل عن خمسين خليفة وملك ووزير. وكلهم سقطوا تحت ضربات خناجر "الفدائيين"* (كلمة فدائيين أو فدائي هي نعت واسم في آن معاً. وقد خفّف برنارد لويس معناها وفسّرها بالمخلصين المتفانين في سبيل القضية. وغالباً ما تترجم أيضاً بكلمة "المضحى بهم". لكنّ "فدائي" آتية في الواقع من كلمة "فدية" كما في التعبير التالي: هل أستطيع أن أكون فدية لك؟ وهو تعبير قديم بالفرنسية ويدل على أقصى درجات الإخلاص والتهذيب الراقي في معاملة الآخر)، وذلك قبل أن يجيء المغول لوضع حد لكل ذلك عن طريق احتلال قلعة علموت بالذات. والواقع أنهم ابتدؤوا غزوهم وتدميرهم للمنطقة باحتلال تلك القلعة. ولكن قبل ذلك كان سبعة شيوخ أو معلمين كبار قد تعاقبوا على هذه القلعة. وكان قتلة آخرون قد سيطروا على الفرع السوري للحركة الإسماعيلية تماماً مثلما فعل شيخ الجبل حسن الصباح. وقد أرهب قادة الإسماعيلية الفرنجة الصليبيين عندما هجموا على المنطقة. وكان من بين هؤلاء القادة الموهوبين شخص يدعى رشيد

الدين سنان. وكان يسيطر على مصياف حتى مات عام 1193م.

كان هولاكو يعلم أن الحشاشين ليسوا بحاجة إلى كتلة حشيش لكي يقتلوا (والواقع أن هذه الإشاعة ابتدأت تتشكل عنهم وتنتشر مع الرحالة ماركو بولو الذي زار المنطقة عام 1273. ثم وصلت هذه الإشاعة إلى ذروتها مع صدور رواية فلاديمير بارتول عام 1938). وذلك لأن السمّ القاتل الذي يوجد في فصاحة المثقفين الإسماعيليين، أكثر بكثير من الحشيش نفسه. وهي فصاحة تغذيها قراءاتهم ومطالعاتهم العديدة. وكان حفيد جنكيز خان يعرف ذلك جيداً. ولهذا السبب حرص، مثل جده الأكبر، على حرق كل المكتبات التي وجدها في طريقه. هذا ما فعله في سمرقند، وبخارى، وبلخ، وهيرات، وخوارزم. في كل مرة كان يجتاح المدن وينهب ويسلب ولا ينسى أن يحرق الكتب حيثما وجدت. ولكن ها هو المشبوه جوفيني يمسك يده في علموت ويطالبه بعدم حرق مكتبتها. يقول: "لما كنت راغباً في تفتيش تلك المكتبة التي عمت شهرتها العالم أجمع قلت للملك إن الكتب القيمة في علموت لا ينبغي إتلافها. وقد وافق على كلامي وأعطى الأوامر الضرورية في هذا الاتجاه. وهكذا أتيح لي أن أذهب إلى المكتبة لتفتيشها من أجل فرز الصالح عن الطالح لكيلا يصيبها الحرق. وكذلك أنقذت بعض الكتب الأخرى. وقد فعلت ذلك طبقاً للمبدأ القائل: من الميت يجب أن نخرج الحي[58]... وكذلك أنقذت آلات رصد النجوم والدوائر الفلكية القديمة والأسطرلابات. هذا بالإضافة إلى آلات وأجهزة أخرى. وأما فيما يخص بقية الكتب المرتبطة بزندقة الإسماعيليين وضلالهم والتي لا ترتكز على السنة ولا على العقل فقد حرقتها كلها". هكذا نلاحظ أن جوفيني هذا لم يكن فقط خائناً لوطنه ويتعامل مع الغزاة المغول ضده وإنما كان أيضاً منافقاً وكذاباً. نقصد بذلك أنه حصل من ملك المغول هولاكو على طلبه بعدم تدمير المكتبة لكي يدمرها هو شخصياً! يضاف إلى ذلك أنه لم يقل لنا إنه احتفظ لنفسه بنسخة عن كل كتب الإسماعيليين وكتب حسن الصباح نفسه أو على الأقل

على جزء منها. وهي الكتب التي استخدمها لاحقاً لتأليف تاريخه. وقد وصل به الخلط والكذب إلى الذروة عندما قال بعد بضع صفحات في كتابه أن أحد كبار قادة علموت كان يرغب في العودة إلى الإسلام. ولهذا الغرض دعا علماء قزوين بين عامي 1210–1221 للصعود إلى القلعة لتفتيش المكتبة: أي مكتبة أبيه وجده والمؤسس حسن الصباح نفسه من أجل فرز الكتب المهرطقة وحرقها فوراً. ثم أردف قائلاً عن آبائه وأجداده: ليحرق الله قبورهم كلهم!.

بالطبع كانت الرواية مختلقة من أساسها. ولكن السؤال المطروح الآن هو التالي: بعد أن دمر المغول قلعة علموت من يستطيع أن يمنعهم من الوصول إلى بغداد؟

كانت توجد في أواسط القرن الثالث عشر ست وثلاثون مكتبة في العاصمة العباسية. وكانت أشهرها بالطبع مكتبة المدرسة التي أسسها الخليفة المستنصر عام 1233 إذ حمل إليها مئة وستون عتالاً ثمانين ألف كتاب. لقد كانت رائعة إلى درجة أن المفسر القلقشندي وضعها في أعلى لائحته التي صنَّف فيها المكتبات الكبرى. وعلى الرغم من أنه مصري[59] إلا أنه فضلها على مكتبات الفاطميين في القاهرة التي كانت تتفوق عليها من حيث الحجم وعدد الكتب. ولكن القدر كان لها بالمرصاد. فقد هجمت عليها عصابات هولاكو واستباحتها. ومعلوم أنه كلف أخاه الأكبر بتنظيف تلك المنطقة من العالم التي تتحدى غزوه وعظمته. ولذلك دخلها هذا الأخير بكل قواته وقتل أكبر عدد ممكن من سكانها ابتداء من الخليفة نفسه مع كامل أسرته. ويقال إنه ذهب فيها مئات الآلاف من القتلى. ولم ينج الخطاط الشهير ياقوت المستعصمي من المجزرة إلا بفضل ذكائه الذي قاده إلى الاختباء في أعلى المأذنة. ولم يخطر على بال الغزاة أن يفتشوا المآذن وإن كانوا قد استباحوا المساجد. ومعلوم أن هذا الخطاط كان مقرباً من بلاط الخليفة ولو أنهم مسكوه لمزقوه إرباً إرباً.

ولكن قبل أن يهرق الدم كالسيل المدرار كان هولاكو قد استدعى رجال الدين المسلمين وطرح عليهم هذا السؤال: هل السلطان المسلم الظالم أفضل من السلطان الكافر العادل؟ من المعلوم أن هولاكو كان بوذياً وبالتالي فيعتبر كافراً من قبل المسلمين. ولكن هل كان هذا السؤال المخيف يساعدهم على الإجابة؟ على أية حال فإن علماء المسلمين كانوا مقتنعين بأنه سيقطع رأسهم في كل الأحوال ولذلك رفضوا الإجابة. وحده ابن طاووس تجرأ على أن يتقدم نحو هولاكو ويقول: السلطان الكافر أفضل. وقد قال ذلك بصوت واضح قاطع. بل لم يكتف بهذا القول شفاهاً وإنما جعل منه فتوى شرعية راح يوقع عليها رسمياً. وقد كافأه هولاكو على هذا الموقف عن طريق خلع الأمان عليه وعلى كل عائلته وجميع كتبه. كما خصص له مرافقة حراسة تضم ألف رجل لكي تمنع الآخرين من الانتقام منه ولكي تجعله بمنأى عن المجزرة التي ستبتدئ. ثم عينه بعدئذ في منصب كبير ومهم[60]. وبعد أن أصبح هولاكو ملكاً واتخذ لقب الخان راح يهتم بعلم الفلك وغيره من العلوم. ثم أصبح من هواة جمع الكتب عالية المستوى في مقر إقامته بمحلة مراغة القريبة من تبريز. وهناك طلب من الفيلسوف وعالم الفلك نصير الدين الطوسي أن يبني مركزاً أو مرصداً لمراقبة الأفلاك والنجوم. وكان هذا العالم الشهير قد بلغ عندئذ الستين من عمره. وكان إيرانياً وإسماعيلياً في ذات الوقت. وقد شغل منصب عالم الفلك في قلعة علموت سابقاً. وفي ظله أصبحت مراغة العاصمة الجديدة للسلالة الأليخانية. وراحت تجذب العديد من الخبراء من الصين لكي يصنعوا المراصد الفلكية. ثم نقلت هذه المراصد إلى مدينة سلامنكا في إسبانيا. ومعلوم أن الحاخام "زاكوتو" استخدمها لكي يشكل الروزمانة الأبدية. كان هذا الأخير بعد أن طرد من إسبانيا قد التجأ إلى بلاط ملك البرتغال وعرض خدماته عليه. وهكذا استطاع فاسكو دوغاما أن يعبر رأس الرجاء الصالح بفضل مساعدة علموت ومن فيها. وميل زعيم المغول إلى المعرفة والتفكير الفلسفي يخلع كل معناه على استباحة

بغداد وتدميرها من أساسها. فعلى الرغم من كل هذه الميول المعرفية إلا أن قواته حرقت كل مكتبات العاصمة العباسية. بل ورمت خلال أسبوع كامل في نهر الفرات "عدداً من الكتب يعجز عنها الوصف (...) وقد شكل ذلك جسراً تمر عليه قوات المشاة من الجنود والفرسان. وأصبحت مياه النهر سوداء قاتمة بسبب حبر الكتب والمخطوطات". هذا ما قاله لنا ابن خلدون بعد مئة وعشرين سنة من ذلك التاريخ. بل إن حكايات ألف ليلة وليلة تحدثت عن الموضوع وبخاصة حكاية علاء الدين والفانوس السحري. فقد ورد فيها ما معناه: "أثناء الليل كانوا يغلقون أبواب بغداد خوفاً من أن يدخل إليها الزنادقة ويسيطروا عليها، وخوفاً من أن يرموا كتب العلم في نهر الفرات". وهناك شاهد معاصر للحدث، وقد عبَّر عن الرعب الذي لا يوصف والذي شعر به سكان المدينة أثناء هجمة المغول. قال: "لقد وصلوا، ونهبوا، وسلبوا، وحرقوا، ثم حملوا كل شيء معهم وعادوا على آثارهم واختفوا". ولكن هذه المعاملة "الإنسانية" إذا جاز التعبير لا تنطبق إلا على المدن الصغيرة. أما بغداد فكانت لها معاملة أقسى بكثير. فبعد أن قتلوا كل من فيها راحوا يدمرون بشكل منتظم كل المراصد والمشافي والجامعات، هذا دون أن ننسى السدود والقناطر. وهكذا تحطمت المدينة العظيمة ذات الأمجاد التاريخية وأصبح من المستحيل أن تقوم من تلك الضربة.

ولكن فصول المآسي لم تنته بعد. فقد استطاعت جيوش تيمورلنك أن تفعل بها وبسوريا عام 1401 أبشع مما فعله المغول. فلم يبق رجل ولا كتاب ولا منارة واقفة. وأمام بغداد المهدَّمة راحوا يقيمون مئة وعشرين برجاً من نوع خاص. فكل برج كان مشكلاً من سبعمئة وخمسين رأساً من رؤوس السكان! وبعدئذ اضطرت عصابات سمرقند نفسها إلى الهرب بسبب التعفن والنتانة وانتشار الأوبئة. نقول ذلك وبخاصة أن الوقت كان حاراً جداً لأن هذه الأمور

حصلت في شهر يوليو/تموز. ولكن لا يذكر لنا أي مصدر تاريخي أنه حصل حرق للكتب أو المكتبات البغدادية في تلك السنة. وربما يعود السبب إلى الحقيقة البسيطة التالية: وهي أنه لم تعد توجد كتب في المدينة لكي تحرق. بالمقابل نلاحظ أنه جرت خلال مرتين على الأقل الحادثة التالية: وهي أن رجال المدينة الذين كانوا يمتلكون علوماً نظرية أو عملية فصلوا عن بقية السكان و لم يقتلوا. بمعنى آخر فإن المجازر لم تطبق عليهم. ثم أرسلوا بعدئذ إلى سمرقند لكي تستفيد من خبراتهم وعلومهم. يضاف إلى ذلك أن ابن خلدون طلب مقابلة تيمورلنك عدة مرات لكي يتوسط عنده وحصل على ما طلب. وشهد ابن خلدون أن تيمورلنك كان يحب علم التاريخ ويفهم فيه ويقدر العلم والعلماء.

بعد كل هذا الدمار قال أحدهم متأففاً ومتألماً: "لقد تخلى العالم العربي عن الحركة العلمية لعدة قرون"[61]. ونسي الناس أن مكتبات فاس، وغزة، ودمشق، كانت تمتلك هذا الامتياز الرائع الذي لا يمتلكه غيرها: ألا وهو أن تقدم للقراء كل أنواع الكتب والمخطوطات في آن معاً. نقصد بذلك اللفائف، والكتب المكتوبة على ورق البردي، أو على ورق الرق، وورق النخيل الهندي المدعو: أوليس *(كلمة أوليس Ôles آتية من لغة التاميل. وهي تعني ورقة النخيل المقطعة إلى صفيحات مترابطة والتي كانت تستخدم في تأليف الكتب الهندية). وكانت مكتبات فاس وغزة ودمشق تقدم للقراء كنوزاً من المعلومات والمعارف وإمكانية توسيع خيالهم وملكاتهم العقلية أضعافاً مضاعفة بفضل تنوع اللغات والوسائل المادية المستخدمة للكتابة عليها.

بعد أن شهد الإسلام قرنيه الأولين المترددين والمتوحشين فإنه قدم لنا هذه الظاهرة الغريبة من نوعها: لقد انقسم إلى ثلاثة نطاقات ثقافية متباعدة بعضها عن بعض ومشعة حضارياً على العالم. ولكنها إذا كانت متباعدة جغرافياً إلا أنها كانت متقاربة زمنياً. ونقصد بها حضارة المأمون في بغداد، وحضارة الأمويين في

قرطبة، وحضارة الفاطميين في مصر. وأسست كل هذه النطاقات الحضارية مراكز للاكتشاف العلمي والازدهار العقلاني. ولكنها كلها انطفأت وماتت واحدة تلو الأخرى بعد أن اجتزنا عتبة القرن العاشر: أي عام ألف للميلاد. بعد ذلك التاريخ راحت مقصلة التعصب الأصولي والتحجر العقائدي تسقط على رأس الإسلام كله. وإذ كانت عيون الغرب تختلج وتنفتح، خنقت حرية الفكر في العالم الإسلامي وأصبحت المكتبات محصورة داخل جدران المدارس القرآنية، فذلك أسلم وأضمن.

إن الانقسامات والانغلاقات التي حصلت داخل الدين الإسلامي أدت إلى دمار المكتبات العربية الإسلامية أكثر مما فعل الغباء المحض. وبالغباء نقصد الصراعات المذهبية بين الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا.

لقد برهن المؤرخون على أن الانقسامات المذهبية التي حصلت بين المسلمين هي سبب انتصار المغول عليهم واستباحتهم لبغداد وبقية العواصم والأمصار. فلو أن العباسيين خفّفوا من الانشغال بالصلوات والمماحكات الفارغة بين الفقهاء والمؤامرات السياسية-الدينية التي لا تنتهي لما انتصر المغول عليهم بمثل هذه السهولة. ونقصد بالمؤامرات هنا تلك التسويات السياسية المتذبذبة والتي تقضي بأن يكون الخليفة سنياً والوزير شيعياً أو العكس. لماذا نقول هذا الكلام ونحن واثقون مما نقوله؟ لأن قوات الخليفة المستعصم عام 1258 كانت أقوى وأكبر عدداً وعدة من قوات الغزاة الهاجمين.

الفصل الخامس

أهل الكتاب

"يقول سفر حاسيديم (أي كتاب الورعين لدى اليهود في القرن الثاني عشر) ما يلي: تخيلوا أن رجلاً له ولدان الأول منهما يرفض إعارة كتبه للآخرين لكي يستفيدوا منها، والثاني يفعل ذلك بكل طيبة خاطر. في هذه الحالة ينبغي على الأب دون أي تردد أن يورث مكتبته للثاني وليس للأول حتى ولو كان الثاني هو الأصغر سناً".

كنا قد رأينا سابقاً أن غنى المكتبة اليهودية في العالم العربي أثناء القرون الوسطى كان كبيراً جداً. وهذا الأمر ينطبق على القاهرة كما ينطبق على بغداد وقرطبة. نقول ذلك وبخاصة أن المكتبة اليهودية لا تهدف إلى الكونية أو الشمولية إلا نادراً. فالقارئ الميسور نسبياً لا يجمع عادة إلا كتب ابن ميمون، وجالينوس، وابن رشد، وكلود بطليموس، وابن سينا، وأرسطو، وأبوقراط. ثم يرتبها إلى جانب التوراة أو التلمود، بل وحتى إلى جانب كتب المتعة والتسلية أو كتب الحكايات والقصص أحياناً[62]. بالمقابل فإن رفوف الكتب في شمال أوروبا تبدو أقل امتلاء بكثير. ولكن على الرغم من ذلك فإنها تلفت الانتباه كثيراً. ثم تثير العداءات على إثر ذلك.

وكان بعض المسيحيين يقولون إن كتب اليهود تحتوي على تلميحات

سلبية تجاه المنقذ والعذراء، أي المسيح وأمه. وبالتالي ففيها تجديف وكفر في نظر المسيحي وبالأخص في كتاب التلمود. وكان هذا الأخير يشكل غالباً الكتاب الوحيد في مكتبات اليهود. ولذلك فقد تعرض للملاحقة الدائمة بل وحتى الهوسية من قبل أباطرة المسيحيين وباباواتهم. والواقع أن الملك السوري أنطيوشوس هو الذي ابتدأ هذه الملاحقات لكتب اليهود أو دشنها وجعل منها عادة أو سنة متبعة. ولكن الشخص الذي بالغ فيها كان يهودياً في البداية ثم اعتنق المسيحية. ومعلوم أن المعتنقين الجدد يكونون عادة أكثر تعصباً وتحمساً للدين من أتباعه الأصليين. وكان اسم هذا الشخص نقولا دونان. وهو الذي لفت انتباه البابا غريغوار التاسع عام 1239[63] إلى خطورة الكتب التي تقرؤها طائفته الأصلية وسمعتها السيئة لكي يعاقبها أو يمنعها من قراءتها ولذلك فإن البابا بعث منشوراً سرياً إلى ملوك ومطارنة فرنسا وإنكلترا وإسبانيا والبرتغال يقول فيه ما معناه: عليكم جميعاً أن تستغلوا وجود اليهود في معابدهم يوم السبت في أثناء الصوم الكبير القادم لكي تجمعوا كل كتبهم وتسلموها إلى رهبان المسيحية من أجل تحليلها ودراستها. ولكن بما أن العملية بدت طويلة ومكلفة فإن فرنسا وحدها راحت تلتزم بها بتاريخ الثالث من مارس عام 1240. وعندئذ تجرأ بعض الحاخامات على أن يشاركوا في مناظرة خلافية تمت برئاسة الملكة الأم "بلانش دو كاستيل"، وذلك لكي يحتجوا بقوة على التفسير السيئ لنصوصهم من قبل الكهنة المسيحيين. ولكن دون جدوى. فبعد أن تظاهر البابا بأنه يريد قراءة كل شيء بتأن وروية راح يطلق حكمه الصارم بلا هوادة في الخامس عشر من مايو عام 1248. فقد أدان بشكل قاطع أدبيات اليهود والفظائع التي تحتوي عليها. ولكن الفرنسيين لم يستطيعوا الانتظار زمناً طويلاً. فقد انطلقوا قبل غيرهم وحرقوا حمولة أربع عشرة عربة من الكتب. لقد حرقوها في الساحة العامة بباريس على رؤوس الأشهاد عام 1242. ثم أتبعوا ذلك بحرق حمولة عشر عربات أخرى في يوم آخر، وربما كان ذلك عام 1244. ولما كان ينبغي عليهم

تنفيذ القرار البابوي فإنهم ابتدؤوا بحرق المزيد من كتب اليهود عام 1250 وما تلاه. وفي عام 1263 أمر البابا كليمان الرابع ملك أراغون والطبقة الإقطاعية المحيطة به بأن يأخذ من اليهود كل كتبهم لفحصها. وإذا لم يفعل ذلك فإن البابا سيطلق فتوى لاهوتية بتكفيره هو وكل الإقطاعيين. وفي عام 1299 أمر ملك فرنسا فيليب الجميل قضاة بلاده بمساعدة أعضاء محاكم التفتيش في مهمتهم المقدسة: أي حرق كتب اليهود. ولذلك حرقوا منها في باريس عام 1309 حمولة ثلاث عربات إضافة إلى كل ما حرقوه سابقاً. والتحقت المحافظات بالعملية بعدئذ. نضرب على ذلك مثلاً ما فعله شخص يدعى برنار غوي في مدينة تولوز بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ. فقد تجول بعربتين محملتين بكتب اليهود عدة أيام في شوارع المدينة لكي يفرح بها الشعب البسيط وكأنه يعيش في عيد أو كرنفال. ثم سار بالكتب أخيراً نحو المحرقة لرميها فيها. ومعلوم أنه كان قد صادرها سابقاً باعتبار أنها مليئة بالكفر والحقد على المسيح وأمه مريم.

وعلى هذا النحو راح يترسخ نوع من الروتين البابوي. فالبابا يوحنا الثاني والعشرون عام 1320 والبابا ألكسندر الخامس عام 1409 والبابا جول الثالث عام 1553... كلهم أمروا بمصادرة كتب اليهود وتفحصها لمعرفة فيما إذا كانت تحتوي على أي هجوم على المسيحية ثم تدميرها بعدئذ. وكان يبدو كأن هؤلاء اليهود يمتلكون مكتبة خيالية مصفوفة على رفوف القرون. وهي مكتبة تثير شهية الآخرين لتدميرها بعناد منقطع النظير. وبالتالي فلا مكتباتهم تنتهي ولا ملاحقاتها أو تدميرها ينتهي. وقد وجدوا عام 1569 في مدينة كريمون اثني عشر ألف كتاب يهودي تنتظر الحرق. ومن كثرة ما حرقت مكتبات اليهود قال أحدهم: إنها لمعجزة أن كتاب التلمود نجا من عمليات الحرق على مدار العصور.

وهنا نصل إلى قصة ذلك التقرير المشهور باسم روشلان.

ففي عام 1508 كان هناك لحام يهودي في مدينة كولونيا بألمانيا. وقد استطاع المسيحيون إقناعه بتغيير دينه واعتناق الدين المسيحي عن طريق تعميده على طريقتهم. ثم أعطوه راتباً بلا عمل لكي يخدمهم. وهكذا انقلب على أبناء طائفته اليهودية وراح يشي بهم عند السلطات المسيحية. وقال لهم بأن نصوص الدين اليهودي السرية تحتوي على شتائم فظيعة ضد المسيح والمسيحية. وعلى الرغم من أنه أمي لا يجيد قراءة العبرية ولا اللاتينية إلا أنهم صدقوه. ثم وصلت شكواه إلى إمبراطور العالم المسيحي ماكسميليان الذي قرر رسمياً أن يطرح هذا السؤال: هل ينبغي أن نصادر شرعياً جميع كتب شعب الله المختار من أجل حرقها بالنار؟ وقد كلف خبيرين بدراسة الموضوع وتقديم جواب على هذا السؤال. وأحد هؤلاء الخبراء كان المسؤول الأول عن محاكم التفتيش في مدينة كولونيا الألمانية. وكان جوابه معروفاً سلفاً: أي حرق كتب اليهود أياً تكن. وأما الثاني فكان أستاذ قانون ويدعى جوليان روشلان. وكان صديقاً لإيراسموس ومسيحياً طيباً. بمعنى آخر فقد كان من أتباع الفلسفة الإنسانوية النهضوية من جهة، وأتباع الدين من جهة أخرى على عكس المسؤول عن محاكم التفتيش. وقد ألف هذا العالم النهضوي كتاباً في قواعد اللغة العبرية عام 1506 تماماً كما فعل مارسيل فيشان وبيك الميراندولي اللذان كانا من أصدقائه. وكان روشلان هذا من مفسري التوراة على الطريقة القبلانية الصوفية والرمزية حيث توجد قاعدة الإيمان المسيحي الحقيقي بحسب رأيه. لم يكن هذا العالم يحب اليهود بشكل خاص ولكنه كان يعبد الكتب عبادة. وكان يحب المنطق العقلاني أيضاً. ولذلك فكان رده على سؤال الإمبراطور سلبياً: لا، لا ينبغي حرق كتب اليهود. وقد رد بشكل مطول على السؤال. وكان رده حقوقياً أو قانونياً بالدرجة الأولى، ولكن يمكن أن نقرأه كنص ميتافيزيقي أيضاً. وقد اتخذ

العنوان الطويل التالي: توصية فيما يخص مسألة الحق في مصادرة كتب اليهود وتدميرها وحرقها أو لا. وقد شكلت أول نص من نصوص التسامح الديني في الفكر الغربي عندما صدرت لأول مرة عام 1510. إن هذا النص يدهشنا الآن بحداثته وتنويره حتى قبل حصول التنوير والحداثة في أوروبا بزمن طويل. وقد ترجمه للتو باحث أمريكي من اللاتينية إلى الإنكليزية ونشره المبشرون الإنكليزيون التابعون لبولس الرسول. منذ البداية يبتدئ روشلان محاجته على النحو التالي: بما أن اليهود هم من رعايا الإمبراطور فإنه يحق لهم قانونياً أن يحظوا برعايته وحمايته. ثم نلاحظ بعدئذ أنه يمحو هالة الشعوذة والغموض التي تحيط بأدبياتهم عن طريق تقديم فرز كامل لها. وهو يفعل ذلك بكل عقلانية ومنهجية منطقية. يقول: إن هذه الأدبيات تحتوي على الأنواع التالية: الكتابات المقدسة، التفاسير، التعليقات والحواشي، المواعظ والخطب الدينية، شتى كتب الفلسفة والعلم، وأخيراً القصائد الشعرية، والحكايات الخيالية، والهجاء أو النقد اللاذع. ثم يضيف روشلان قائلاً: ربما وجدنا في هذا النوع الأخير من كتابات اليهود بعض العبارات المضادة للمسيحية، ولكن المسؤولية عندئذ تقع على مؤلف الكتاب وحده ولا يمكن أن نعتبر الشعب اليهودي كله مسؤولاً عنها. وأما فيما يخص البقية فإن روشلان يستعين بأرسطو والقديس جيروم لحل المشكلة. يقول: كيف يمكن أن نعارض ما لا نفهمه؟ فإذا ما فكر أحدهم في مهاجمة علماء الرياضيات وهو يجهل هذا العلم بل ويجهل حتى علم الحساب ألن يصبح أضحوكة للجميع؟ بعد أن قدم هذه المحاجات نلاحظ أن روشلان يسحب محاوريه في اتجاه أرضية علم اللغة وتمييز الصحيح عن الخاطئ. ثم يصل بهم أخيرا إلى اللغة التي يتكلم بها الله: أي العبرية بالضرورة. وعندئذ ينصح رجال الدين المسيحيين بتعلمها أولا ثم بعدئذ يناقشهم في الموضوع. أما قبل ذلك فلا. وبعدئذ يقدم روشلان محاجة ذات وزن، وهي تقول ما معناه: إذا كانت هناك أسباب تدفعنا إلى عدم حرق التلمود فإن أولها هو التالي: لماذا لم يحرقها أسلافنا

المسيحيون منذ قرون وقرون، وقد كانوا أشد تدينا وحماسة للإيمان المسيحي منا؟

إن هذه المرافعة الدفاعية عن استبعاد حرق كتب اليهود كانت من أولى الكتابات التي حظيت بالطباعة في المطبعة الجديدة التي اخترعها غوتنبرغ. وبالتالي فقد زاد ذلك من أهميتها وانتشارها في الأوساط المتعلمة في ألمانيا وعموم أوروبا.

ولكنها لم تنفع اليهود في شيء ! فقد زاد حرص المسحيين المتعصبين على مصادرة كتبهم وحرقها. بل وحرقوا منها مرافعة روشلان هذه وكذلك مختلف كتبه الأخرى. لقد أمر رئيس محاكم التفتيش في كولونيا بألمانيا بملاحقة كتابات هذا الزنديق الذي تجرأ على الدفاع عن اليهود وحرقها. وكان ذلك عام 1514. أما هو فلم ينج من الحرق إلا بسبب موته عام 1522. ولكن صدى مرافعته ظل حيا وباقيا. فأول هجوم في التاريخ المعاصر على معاداة السامية الذي كان سائدا في العصور المسيحية السابقة أعطى ثماره ولم يمت في أرضه. ويرى ناشره المعاصر أن أهم محاجة وردت في توصيته هي الأولى لأنها تدل على أن القانون الألماني كان يختلف عن القانون الكاثوليكي السائد في روما. وكان أحد الذين قرؤوا نص روشلان بكل دقة وعمق شخص يدعى مارتن لوثر.

أما في البندقية بإيطاليا فكانوا يفرقون عام 1500 بين يهود المشرق الذين يمتلكون حق الإقامة، وبين يهود الشمال الأوروبي الذين كانوا مكروهين ومحتقرين، وبين يهود الغرب المطرودين من إسبانيا. وبالتالي فكانت هناك ثلاث فئات من اليهود في المدينة. وبما أن هؤلاء الأخيرين كانوا الأكثر فقرا فإنهم كانوا يعيشون في "الغيتو" المخصص لهم والذي يفصلهم عن بقية السكان. وكانت نقمة المسيحيين تنصب عليهم قبل غيرهم عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن العالم المسيحي المهاجم من قبل العقيدة العبرية والكتب التي تنشرها. وبالتالي فإن

السلطات المسؤولة عن ملاحقة التجديف والكفر كان يحق لها أن تفتش بيوت اليهود ومكتباهم للاستيلاء على الكتب المعنية وحرقها حتى دون فرز أو تفحص دقيق لمحتواها. وكان هذا العمل يتكرر أكثر من مرة. وهكذا تم حرق مئات آلاف الكتب خلال بضعة أشهر فقط في كل المناطق التابعة لدول البندقية بما فيها جزيرة "كريت" اليونانية. ولكن الحرق كان يصيب الكتب اليهودية في البندقية ذاتها أكثر من أي مكان آخر لأنها كانت تطبع هناك. ومن أشد المتحمسين لحرق الكتب كان هناك شخص يدعى دانييل بومبيرغ من مدينة "أنفير" البلجيكية أو عائلة النبلاء جيوستنياني. وكان هؤلاء يدفعون أموالا طائلة لمصلحة الضرائب من أجل أن تسمح لهم الدولة بحرق كتب اليهود، أعداء الله في نظرهم. والواقع أن الطباعين النافذين التابعين لدولة البندقية حصلوا من البابا على تخفيف مواقفه المعادية لليهود عام 1554. وهكذا حلت الرقابة القوية والمسبقة محل التدمير الكامل والمتواصل لكتبهم. ولكن المسيحيين المتشددين تحايلوا على ذلك وراحوا يواصلون حرق كتب اليهود. وهذا ما فعلته السلطات التنفيذية عام 1568 عندما صادرت الآلاف من كتبهم من مستودعاهم وأحرقتها في الساحة العامة: أي ساحة القديس مرقس[64]. وحكمت على الطابع والناشر بدفع غرامة مالية ثقيلة. ولكن بما أن سوق الطباعة هذه مربحة جداً فإنهم نقلوا المطبعة إلى جزيرة سيفالونيا وراحوا يتاجرون بهذه الكتب سرياً على أوسع نطاق.

وبما أن اللغة العبرية كانت ذات جوهر إلهي فإن جانباً أساسياً من عالم الكتاب اليهودي سوف يتمثل بخلع القدسية على كل كتابة أيا تكن. ولهذا السبب كان يوجد عند اليهود مستودع للكتب يشبه كهف علي بابا: بمعنى أنهم يرمون فيه بكل كتاب أو وثيقة مخطوطة أو مطبوعة حتى تتراكم، ثم تنسى بمرور الزمن أو "تحفظ في السر" بما في ذلك سفر التوراة نفسه. وهذا المستودع الذي يغص بالكتب والوثائق على هذا النحو يصبح منجما غنيا بالمواد بالنسبة للباحث

الذي يريد العثور على أشياء قديمة، أو مادة رائعة للتأمل بالنسبة للفيلسوف. وهذا يعني أنهم لم يكونوا يرمون كتبهم حتى ولو كانت قديمة بالية لم يعد يقرؤها أحد. وبالطبع ما كانوا يحرقونها على الإطلاق من أجل التخلص منها أو من تراكمها. وهكذا نفهم مدى تأثر اليهود وانزعاجهم بسبب حرق كتبهم من قبل المسيحيين باستمرار، وهم الحريصون على كل الكتب والمخطوطات أيا تكن. إن حرق الأدبيات العبرية على مدار التاريخ كان يسبب لهم آلاما شديدة. ولكنهم كأقلية تعيش داخل المجتمعات المسيحية ما كانوا يستطيعون أن يفعلوا شيئا. وكان أول من ابتدأ حرق كتب اليهود لتحويلهم إلى يونانيين هو ملك سوريا أنطيوشوس الرابع ابيفانيس. لقد قام بهذه العملية الساحقة بتاريخ السادس من ديسمبر عام 167 قبل الميلاد. وبالتالي فالمسيحيون لم يفعلوا شيئاً إلا أن قلدوه. "لقد رمى كتبهم في النار بعد أن مزقها" لأنه كان وثنيا ينتمي إلى الثقافة اليونانية-الرومانية. ثم حصلت حركة واسعة لحرق كتب اليهود في القدس وكل فلسطين. وكانت من الاتساع والضخامة بحيث أنها أثارت انتفاضة المكابيين. ثم تلاحقت عمليات حرق كتبهم على مدار الأزمات بوتيرة متزايدة.

هكذا نلاحظ مثلا أن كتاب "أهل الكتاب" كان يتعرض لسياط النيران باستمرار. وكان ذلك يحصل أحيانا لأسباب سخيفة. نضرب على ذلك مثلا ما فعله المؤرخ الكبير هيرودوت عندما حرق كل كتبه من أجل إخفاء أصله العربي. وهذا ما أدى أيضاً إلى حذف تاريخ السلالات الأخرى التي تعود بماضيها البعيد إلى لحظة تأسيس الأمة[65]. ولكن ذلك كان يحصل في الغالب لأسباب زهدية أو نسكية أو صوفية. وقد يحصل ذلك لأسباب أسطورية محضة.

وكان يوجد آنذاك اعتقاد غيبي بأن الكتاب المقدس الذي يمتلكونه ليس هو الكتاب الصحيح. وعندئذ كانوا يحرقون كل نسخة مزيفة بالنار. وهذا ما سيحصل بالنسبة للقرآن أيضا: أي لنسخ المصحف المنافسة للمصحف الرسمي

وغير المعترف بها شرعياً بالتالي. أنظر ما حصل لمصحف ابن مسعود وسواه. وهذا ما حصل أيضاً بالنسبة للإنجيل المكتوب باللغة العبرية. فيقال إن الكنيسة حرقت كل نسخه ولم تترك منها إلا الترجمات الإغريقية الرديئة. وهكذا نلاحظ أنه حيثما تسود الديانة التوحيدية يحصل حرق للكتب. كما فعل ذلك مؤسس الديانة التوحيدية المصرية فرعون مصر أخناتون[66]. ولهذا السبب فإن بعض الباحثين يذكرون أن التعصب يرافق بالضرورة كل الأديان التوحيدية لأنها لا تؤمن بالتعددية. ولكن ذلك ليس مؤكدا في جميع الأحوال. فالتسامح ممكن إذا ما توافرت شروطه من تثقيف وتنوير وعدل اجتماعي وبحبوحة من العيش.

إن تاريخ الفكر اليهودي مختلط بتاريخ الحرق والنار على مدار العصور. بل ليس ذلك فحسب وإنما هو مختلط بالحرق الذاتي للذات. ونقصد بذلك أن بعض اليهود المتعصبين قاموا بعملية الحرق لكتب فلاسفة اليهود أنفسهم. نضرب على ذلك مثلا شهيرا ما حصل للفيلسوف اليهودي العربي موسى ابن ميمون ولكن بعد موته بزمن طويل وفي فرنسا بالذات. ففي عام 1233 اعتبر اليهود المتزمتون أن كتبه خارجة على الشرع اليهودي ولم يترددوا في الذهاب إلى أبواب محاكم التفتيش لكي تقبل بحرقها. وكان ذلك في مدينة مونبلييه الواقعة جنوب فرنسا على البحر الأبيض المتوسط. وقد فرح المسؤول الكهنوتي عن محاكم التفتيش المسيحية كثيرا عندما طلبوا منه ذلك. وجمع كتب الفيلسوف الزنديق في مكان واحد وأمر بإشعال النار فيها. ولكنه لم يكتف بذلك على عكس ما كان يتوقع اليهود الذين طالبوه بذلك. وإنما أمر بجمع كل كتبهم بما فيها كتاب التلمود نفسه وحرقها.

والواقع أن النزاعات الهلوسية المتعصبة لدى اليهود ما كانت تقل سخافة عن هلوسات المسيحيين أنفسهم. نضرب على ذلك مثلا ما كان يفعله شابيتاي ذيبي، وباروشياه روسو، ويعقوب فرانك. فقد كانوا يثيرون الجماهير بشعوذاتهم

وهلوساتهم المفهومة ضمن الغيتو اليهودي المنغلق على نفسه ثقافيا والمليء بالتابوات والمحرمات والخرافات.

فمثلاً كانوا يقولون: "مبارك أنت يا من تحلل الحرام". هذه هي عقيدتهم أو عبارتهم التي تتكرر مرارا وتكرارا. وكانوا يمارسون أفعالا قبيحة مضادة للأخلاق والدين كتشكيل حريم من الفتيات العذارى، والزواج بما حرم الله علينا من أقارب، وانتهاك لكل المحرمات الغذائية، أو تدنيس للمقدسات، الخ. كل هذا أصبح عادة يومية عندهم؟ وكان من عقيدتهم تدمير الكتاب المقدس وكل الكتب الأخرى وهكذا حرقوا آلاف الكتب في الساحة العامة في مدينة بودوليا بأوكرانيا عام 1757. وكان المسؤول عن حرقها يلبس حذاءً مصنوعاً من ورق التوراة ! وبالتالي فلا ينبغي أن نندهش إذا ما رأينا اليوم على صفحات الإنترنت مواقع تأخذ على محل الجد هذه الانحرافات الانتهازية التي لا ينبغي أن نخلط معها الحالة الأكثر التباساً وغموضاً لذلك اليهودي المدعو ناشمان. وهو من مدينة بريسلو بألمانيا. ولكننا لا نعرف عنه شيئاً تقريبا. كل ما نعرفه هو أنه ولد عام 1772 ومات بمرض السل عام 1811. وقد أمضى حياته القصيرة في التشرد من مكان إلى مكان. فقد كان يغير مكان إقامته باستمرار. وكان يقول بأنه المسيح المنتظر. وكان الناس يحتقرونه ويكرهونه بسبب تصرفاته. وكما يحصل لدى "الشيوخ الكبار" فإن ورثته أكملوا المهمة. وهذا ما فعله سكرتيره ناتان الذي كشف عن سر هذه العقيدة الغريبة من نوعها لهذا الحاخام الصوفي. وكان جوهر عقيدته يقوم على شيء واحد ألا وهو ضرورة تدمير كل الكتب. وراح ينسج كلامه وهذيانه حول فكرة الكتاب المحروق. ثم ألف كتابا يحمل هذا العنوان. وبعد أن انتهى منه حرقه بدوره ! وكان ذلك عام 1808. وهكذا ظل منسجما مع نفسه وأفكاره. وقد عرض على طلابه ورقة مليئة بالملحوظات المكتوبة بخط يده وقال لهم: "إن التعاليم التي تحتويها هذه الصفحة عديدة،

وعديدة هي العوالم التي تتغذى على دخانها". ثم حرقها. وكان يقول: إن فعل ذلك سوف "يجلب النور إلى العالم" بالضرورة. بالطبع فإن هذا الاستنتاج الأخرق عن طريق الاستفزاز ما عاد يعد يثير اهتمام أحد اليوم لأنه أصبح قديماً باليا. ولكنه كان يثير ضجة كبيرة في وقته. نقول ذلك وبخاصة أنه وصل الأمر بناشمان إلى حد القول بأنه ينبغي أن نرمي في النار جميع الكتب المقدسة. لماذا؟ لأنها في رأيه تجعل من المستحيل علينا أن نقترب من "الاسم المبارك" تماماً كما تفعل كتب الزنادقة سواء بسواء. وهذا الشخص المجنون أو المعتوه يعتبر اليوم قديسا من قبل مريديه ! ويبلغ عددهم مئات الآلاف في شتى أنحاء العالم. فمن يصدق ذلك؟ ومن بين هؤلاء غلاة اليهود بطبيعة الحال. وهم يعبدونه عبادة. ولكن لحسن الحظ أنهم ما عادوا يحرقون الكتب كما كان يفعل هو وأتباعه في الزمن القديم، على حد معرفتنا على الأقل. وطبقاً لأقوال سكرتيره الذي ربما كان هو الذي اخترع كل شيء فإنه كان يؤمن بالنظرية الجميلة التالية: فوق كل كتاب محروق فإن الكتاب المطلق أو المقدس حقيقةً هو ذلك الذي يتنكر ويختفي ولا يظهر لنا أبدا. ولم "تلمسه يد بشر قط، ولم تره عين قط"...

الفصل السادس

آسيا قبل القرن العشرين

"سيهدم هذا الرجل جداري مثلما دمّرت
كتبي بنفسي وسيمحو ذاكرتي ويصبح ظلّي
ومرآتي، ولن يعرف ذلك".

جان لويس بورج

ورق النخل أفضل من الخيزران

شهدت أرض إينانغ في الصين خلال شتاء عام 1899 طوفانا عارماً وسرت سريعاً إشاعة في القرى تقول إنهم "وجدوا عظام التنين بكثرة". خفّ الشباب والشيب في الحال نحو حفرتين شكّلهما انزلاق أرضي كانتا زاخرتين بأشياء غريبة بيضاء اللون تشبه تلك اللوحات المنقوشة للاستدلال على الطرق. باعها الفلاحون للعطارين الذين أحالوها إلى طحن مفيد حسب قولهم في إطالة العمر وتجديد الطاقة الجنسية. هكذا عمّت السعادة على الجميع.

كذلك اهتم العلماء بالظاهرة مما أدى إلى زيادة كبيرة في ثمن تلك العظام.

وعندما عرف الفلاحون أن الأمر يتعلق باكتشافات علمية تتوجب حمايتها قاموا بحك الكتابات المنقوشة كي يبيعوا ما وجدوه للصيدليات دون إحساس بالخزي. وتوصّل أخيرا الباحث في فقه اللغة "ليو زنيو" إلى أن ينتزع من أحدهم اسم قرية "تسياوتون"، المجاورة للموقع الرئيسي[67]. وهكذا ثبت بالبرهان أن القرن الرابع عشر قبل الميلاد قد شهد وجود سلالة ماهرة بالكتابة. كانت الصين تمثل حتى ذلك الحين صورة الأمة الكسول بالقياس إلى سومر أو إلى مصر، لذلك أمكن القول عندها أنها "ظفرت بماضيها" أخيراً.

كان أبناء شعب "الشانغ" يمارسون في الواقع "التابو"، أي "التنجيم الكبير" بواسطة قواقع السلاحف وعظام كتف الجواميس. فبتقريب حديد محمّى أو شعلة من القوقعة كان يرتسم عليها في الحال خط متعرج كأسنان المنشار ينبغي تفسير دلالته. وكان المنجم يقوم بمزيد من إثارة انفعال الجمهور عندما يكتب بواسطة رأس مدبب ما توصل إليه عبر فك الرموز؛ مثل "في يوم كذا ذهب الأمير إلى الهضاب الصغيرة لاصطياد دب بالشبكة. لقد اصطاد واحدا ثم اثنين. وفي يوم كذا ذهب الأمير إلى الهضاب أيضاً لكنه لم يصطد شيئا". وكان يسجّل في أمكنة أخرى حساب حصيلة مراسم الجنائز: "تمّت التضحية بخنزير من أجل الأخ المبجّل الأكبر لري يينغ، وبخنزير آخر من أجل الأم مو. وخنزير ثالث من أجل الأب ياي"[68]. كان علماء الآثار وحدهم يجدون تسلية في مثل تلك القراءات، فمنظومة الخط كانت موجودة وكانت تعمل حتى لو كانت الحروف مرسومة بلا تمييز واقفة أو نائمة، صغيرة أو كبيرة، ومن اليمين إلى اليسار أو العكس. كان هناك 5.000 حرف. وإذا كان الأدب متواجداً فقد كان ضائعاً كلّية حتى تلك اللحظة (لا يمكن اعتبار الآبار التي كانت تتكدس فيها تدريجياً عظام التنجيم والعرافة كأراشيف وبدرجات أقل كمكتبات، كما قال مؤلفون أمريكيون مشهورون؛ وإنما قد يمكن تقريبها بالأحرى من "كشكولات" يهودية

أو من سلاّت مهملات الحاسوب). لكنه جرى بالمقابل، في ظل سلالة "دجو"، تنظيم مجموعات نصوص حقيقية حافظت على وجودها. وتحوّل العراف إلى ناسخ رسمي كما عرفت اللغة المكتوبة عملية ترميز أولي دون نجاح كبير إذ سُمِح بألف حرف فقط جُمعت على الخيزران.

تعود إلى تلك الفترة (حوالي 800 سنة قبل عصرنا) الصروح الثلاثة الأكثر قدما في الأدب الصيني أي الوثائق والأشعار والتحولات. وشكّلت الحوليات الدقيقة لفصول الربيع والخريف نصا كلاسيكيا يعود للحقبة التالية وكذلك نص "التقاليد". هذا يعني أن القراءة واقتناء الكتب لم يكونا أمرا نادرا لدى أصحاب الثروات عند بداية العصر الذهبي للفكر الصيني وللفلسفة مع كونفوشيوس؛ وترافق الظهور المدهش لـ"المئة مدرسة" في نهاية عهد سلالة "دجو" مع ازدهار مكتبات قديمة وإنما متناسقة. وفي حوالي عام 500 قبل الميلاد كان كونفوشيوس يجوب البلاد ويتغذّى من معارفها، وكان "لاوزي" هو حارس "أراشيف السماء" أي المكتبة الملكية في لواويانغ، ولم يكن "موزي" ينتقل دون عرباته الشخصية الصغيرة بما فيها من خرائط وكتابات. كانت عربة الكتب تشكل آنذاك وحدة قياس المعرفة حيث يقال عن إنسان مثقف جدا أنه عالم بسعة أربع أو خمس عربات.

"(عندما كانت الرسالة) تحتوي على أكثر من مئة كلمة كانت تكتب على تساو (مجموعة من جذاذات الخيزران)؛ وعندما كان عدد كلماتها يقل عن المئة كانت تُكتب على فانغ (أي لويحات من الخشب)"[69]. كانت رقائق الخيزران ولويحات الحور أو الصفصاف مادّة النصوص منذ فترة سلالة شانغ، دون شك، حتى القرن الثالث؛ وقد التحق بها الحرير ما بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد، ولمدة ألف عام تقريباً. لكنه ظلّ باهظ الثمن. أمّا بالنسبة للورق فقد دخل بهدوء إلى تاريخ الكتاب اعتباراً من القرن الثاني الميلادي تقريبا. وهو المادة

الأكثر احتراقا بين الثلاث. ثم لم تتوقف مواصفاته عن التحسن في هذا المجال حيث أصبح أكثر فأكثر خفّة بمقدار ما كان فن صناعة الورق يتقدم في الصين، ولم تعد مادته الأولى هي الخيزران المهروس ثم القنب أو شجر التوت الأبيض بل أصبحت في حوالي القرن السابع هي تلك الخلاصة المعروفة المرنة والمصقولة المؤلفة من ألياف خشب الصندل مع قليل من القش والهواء النقي(لا ينبغي أبداً استخدام تسمية ورق الأرز، ذلك أن مثل هذا الورق لم يوجد أبدا). وإذا كانت المكتبة الغربية لا تلتهب بسهولة (على عكس ما يُكتب غالبا) فإن الكتب المصنوعة من الورق الصيني الذي لا يحتوي على مادة لاصقة أو مواد مضافة أظهرت كفاءات كبيرة بهذا الصدد. فبالإضافة إلى الاحتراق السريع والكامل فإن التحسن الذي عرفته تقنية الورق سمح في ظل سلالة تانغ بالانتقال من اللفائف إلى الكتب ذات الجلود المثبتة بالخيوط. ومن هنا جاءت إمكانية تنضيد الكتب بشكل مسطّح بحيث تكون حافة الكتاب موجهة نحو خارج الرفوف وظهره على اليمين، مع شريط مدسوس بين جزئين عليه العنوان بشكل شاقولي.

لكن بانتظار مثل هذا التقدم كان على القارئ، ولو كان سيد العالم، أن يقوم يوميا بجهود بدنية كبيرة. إذ أن القراءة كانت تعني استخدام علب أسطوانية ثقيلة الوزن ومربكة وحملها دون مساعدة أحد. يبلغ متوسط طول رقاقة الخيزران 50 سنتيمترًا وتحمل ستين حرفاً على عمود واحد، بينما يمكن للويحة الخشب أن تحتوي على عدة أعمدة. ويمكن لفّ هذه الرقائق المشدودة بواسطة حبال صغيرة مثل مغالق النوافذ لتشكل عندها اللفافة التي تبقى وحدة حساب المكتبات الصينية حتى بالنسبة للحرير أو الورق، بينما يتم جمع اللويحات بالأحرى بواسطة الطي. وقد يعادل كتاب فلسفي كامل مثل النسخة الأصلية من تسوانغزي (أكثر من مئة ألف حرف بينما لا يحتوي النص الحالي على أكثر من 65.200 حرف) حوالي 1700 من قضبان الخيزران المربوطة بهيئة عدد كبير

من اللفافات من أجل سهولة استخدامها، ويتناظر هذا العدد مع عدد الفصول. هكذا كانت تتم غالبا ترجمة "كلمة" بـــ"كتاب" (مثل "الكتب الثلاثة والثلاثين المتوفرة من تسوانغزي"، كما يقول بيلليستير لكن هذا العمل لا يشكل بالنسبة لنا سوى كتاب واحد)؛ وقد أدى هذا إلى خلط كبير فيما يتعلق بحجم المكتبات، كما حصل أيضاً بالنسبة لمكتبة الإسكندرية وغيرها بوجود اللفائف-الفصول من ورق البردي.

وفي عام 280 قام نهاب للقبور يدعى بيشون بنبش مدفن يعود لزمن سلالة "واي". وعلى ضوء مشاعل كان قد ربطها بالعلب الأسطوانية للكتب اكتشف بخيبة أمل كبيرة أنه كان هناك، كما ظهر في عملية الجرد التي أمر بها الإمبراطور "واو" لاحقا، ستة عشر عملا فقط تعود للماضي مؤلفة من 75 لفافة ذات 2.500 رقاقة، أي أكثر من 100.000 حرف إجمالا. أحد هذه الكتب قد يكون "حوليات الخيزران"، وهو عبارة عن تأريخ أسطوري ينطلق من حقب الأسطورة حتى عام 299 قبل الميلاد. اكتشاف رائع بالفعل، ولكن لسوء الحظ لم يتم نسخه، بل جرى إتلافه في ظل سلالة "يوان"[70].

على أساس مثل هذه المجموعة من المكتبات التي كانت في طور التكوّن، والتي كانت تنوء تحت أثقال أعمدة جملها المنحوتة، وُلِدت سلالة "كين". كان أحد الفاعلين الأوائل للمأساة يُدعى "لو بيواي".

قيل عن "لو بيواي" الرجل الأكثر ثراء في عصره أنه "كان يسافر ويشتري بسعر زهيد ثم يبيع ما اشتراه بسعر مرتفع جدا". كان السؤال الأول الذي طرحه على والده هو: "إلى أي مدى قد يرتفع الربح في بيع الجواهر؟ وفي بيع حجر اليشم الكريم؟" وأضاف "سيما كيان" أنه كان يجذب إليه "الضيوف والمغامرين" كي يصل من خلالهم إلى السيطرة على البلاد كلها. وكان من بين زبائنه "لي سي" الذي سيكون له شأن كبير لاحقا. اشترى "لو"، ذو الثقافة

المتواضعة، شهرته كرجل مثقف بفضل عمل المفكرين الذين كان يؤمّن قوتهم، ومن هنا جاء "ربيع السيد لو وخريفه".

لقد أجلس على عرش "كين" رجلاً من رجاله ومنحه الأكثر جمالا من بين خليلاته. كانت حاملا، كما سيضيف النمّام "سيما كيان" فيما بعد في ظل سلالة "هان"، حيث كان إنكار السلالة السابقة مرغوبا. من هنا جاء الإلحاح على أصل "كين شي هو انغدي" وعلى أنه لم يكن لقيطًا فحسب وإنما أيضاً ابن تاجر[71].

في حوالي عام 259 وُلد الطفل "تشينغ" الذي أصبح ملكاً وهو في الثالثة عشرة من عمره. واستطاع "لوبيواي" عندها أن يستعيد خليلته مع عشيق رسمي كي لا يثير ضده شخصيا غضب الملك الشاب. لكنه لم يقدّر الشخصية القوية والمخيفة للغلام حق قدرها. إذ ما إن وصل إلى سن البلوغ واستطاع أن يمارس الحكم حتى أجهز على عشيق والدته ونفى الرجل الذي هو مدين له بكل شيء، ابتداء من وجوده دون شك. تجرّع "لوبيواي" فيما بعد السم وهو في طريقه إلى سيشوان.

استطاع الطاغية الشاب بواسطة الابتزاز والتجسس والعنف الدموي، أن يُخضع في أقل من خمسَ عشرة سنة الممالك الأخرى في الصين المترامية الأطراف. وفي عام 221 أصبح السيد الوحيد في البلاد حيث منح نفسه لقب إمبراطور، أي اللقب الذي لم يكن مستخدماً حتى آنذاك إلا في الأساطير. إن "تشينغ" هذا، لم يعد معروفا في القرون التالية إلا بلقب "أول قيصر إمبراطور لكين". كان خطؤه الوحيد أثناء مساره هو زعمه أنه قد أسس سلالة ستعيش عشرة آلاف جيل. لكنها انهارت بعد أربع سنوات من وفاته المبكّرة.

كان "لي سي" هو "مستشاره المقرّب"، وقد نجح بمساعدته في تحقيق ما لم

يكن يخطر على البال بإخضاع الصين لسلطته عبر توحيد نمط الكتابة وتوحيد العملة والوزن والمقاسات وتوسيع المحاور الرئيسية للبلاد وبناء سور يربط قلاع الشمال وشبكة مواصلات (بما في ذلك طريق سريع –أوتوستراد– حقيقي يربط بين مقر الإقامة الإمبراطوري الصيفي بالقرب من كزيانيانغ حتى منغوليا– الداخلية، أي ما يزيد طوله عن 800كلم). وبغية مزيد من السيطرة على البلاد أُجبرت 120.000 عائلة ارستقراطية على القدوم والإقامة في العاصمة وصهر أسلحتهم. هكذا إذن أُلغيت الإقطاعية قبل عشرين قرنًا من الاستيلاء على سجن الباستيل. لم يأبه الإمبراطور للاحتجاج العام الذي أظهره أربعمئة وستون من أعيان الكونفوشيوسية، بل قام بدفنهم أحياء. ومع ذلك، أراد "لي سي" أيضاً طمر الماضي الآخذ بالتكلس واقعياً عبر آثار مادية مربكة بتزايد مطّرد، بالمعنى المزدوج للكلمة.

وخلال الاحتفال الذي جمع 70 أكاديميا عام 213 خرّبت كلمات مشؤومة صفاء شرب الأنخاب. ذلك أن أحد المدعوين، والذي ربما أعطاه النبيذ الأصفر جرعة من الشجاعة، قال: "قد لا يُؤخذ القديم قدوة في قضية ما ومع ذلك قد يمكن الاستمرار؛ وهذا ما لم أسمع أبدا أنه قد حدث". فجأة خيّم صمت القبور. وأجاب الوزير ببرودة: "إن المعلّمين المثقفين لا يأخذون الحاضر قدوة لكنهم يدرسون الماضي من أجل التشهير به؛ وهم بهذا يزرعون الشك والتشوش بين أفراد الشعب". ثم استدار نحو الإمبراطور و"اقترح أن يتم حرق التاريخ الرسمي كله باستثناء تاريخ كين. وكل الأشخاص في الإمبراطورية الذين يتجرؤون على حيازة الأدب الكلاسيكي أو نقاشات مختلف الفلاسفة يتوجّب عليهم الحضور لدى الحكام الإداريين أو العسكريين كي تُحرق تلك الكتب دون أي تمييز". لم يكن ذلك من وحي اللحظة المفاجأة، فإتلاف الكتب كان موجودا بوصفه أداة للحكم منذ فترة حكم شانغ يانغ قبل قرنين من الزمن على

الأقل ؛ مما حث الدوق "كسياد" على "حرق الكتب كي تتجلّى صورة القانون والمراسيم بوضوح"[72].

أرضى قرار ملك كين كثيراً مستشاريه الذين تخرّجوا من مدرسة فقه القانون والذين كانوا يعتبرون أنه لا يمكن حكم الدولة إلا إذا بقي الشعب جاهلا. ثم إن "أولئك الذين يريدون الدراسة عليهم أن يأخذوا الموظّفين كمعلمين" كما قال "لي سي" مستلهما ذلك من زميله السابق الذي غدا منافسا، وإنما جرت إزاحته بسرعة، أي "هان فاي" الذي كان قد أكّد القول: "لا يوجد في دولة القائد المستنير أدب ولا لويحات من الخيزران، فالقانون هو المبدأ الوحيد. ولا مكان لأقوال الملوك السابقين، فالوزراء هم القدوات الوحيدة الممكنة"؛ ذلك أن هؤلاء الوزراء هم وحدهم الذين يحق لهم التعلّم، على غرار الحاكم، والكتب التي بحوزتهم تنجو من الحرق لفترة من الزمن.

هكذا جرى إذن منع الـ"مئة مدرسة"، ومن بينها مدرسة القوانين ومدرسة داو ومدرسة كسونزي، الذي كان فيلسوف الشك الأول. عبّر الفيلسوف المتفرّد بوضوح عن فكره، بينما كانت المفاهيم في الصين تُنقل غالباً بواسطة الأمثال، وحتى بواسطة الحكايات الطريفة، وساهم في تكوين هان فاي كما لي سي[73]. وصدرت الأوامر بعملية الحرق الكبرى للمكتبات بما في ذلك كتب الأناشيد والوثائق والحوليات والطقوس. أمّا مجموعات كتب "العرافة" فقد تمّت المحافظة عليها ذلك أن الإمبراطور كان من المؤمنين الأشدّاء بالخرافة، وكذلك تمّت المحافظة على الدراسات التي تتعلق بالزراعة والطب. وكل من لم يذعن للأوامر خلال شهر تّم طبع علامة على وجهه وإرساله للقيام بالأشغال الشاقة في ورشة السور العظيم بالبناء نهارا وبالحراسة ليلاً.

فهل يُعتقد أن تلك الإجراءات صدمت الطاويين؟ على العكس إذ شكّل الإسراف في القراءة بالنسبة للمتزمتين منهم مصدرا للتخمة الذهنية. ويُقرأ في تسوانغزي: "إن الذهن الذي يتابع الدراسة يتورم كل يوم، والذهن الذي يمارس

الطاوية يتضاءل كل يوم. وعبر التضاؤل يتم الوصول إلى الهمود وعدم التحرك، وعدم التحرك يعني عدم عمل أي شيء". بالطبع يمكن الاعتقاد أن التفسير الكونفوشيوسي ذي الحضور الكبير هو المستهدف هنا خاصة وحصراً.

سادت حالة من الذعر في كل مكان وخف العديد من المثقفين لإخفاء كتبهم في جدران منازلهم. هكذا فعل "فو شينغ" بكتب الوثائق. ثمّ حلّت النقمة بهذا الرجل بعد ذلك وألقي في الشارع. لكن عندما استطاع العودة إلى منزله، استرد تسعة وعشرين جزءاً من الكلاسيكيات التاريخية. وهو ما فعله أيضاً "كونغ فو" في منزل كونفوشيوس. وبعد 68 سنة وقعت الأسرة على المكتبة المخبأة عندما أرادت توسيع المنزل، وكانت التعديلات التي عرفتها الكتابة آنذاك، آنيًا، قد جعلت النصوص غير مقروءة. "لم يكن أهل ذلك الزمن يعرفون بعد أنه كانت هناك حروف قديمة وأنهم كانوا يطلقون عليها تسمية كتابة على هيئة تفرعات[74]".

يا له من مصير محزن وغامض لأقوى الرجال! كان شينغ قد انطلق، بعد أن شد لحمة البلاد، في جولات سرّية بالأقاليم حيث أقاموا له الكثير من النصب التذكارية تمجيدًا لفضائله وجرى نقش النص الدال عليها في "كتاب الأختام الصغير". كان الموت قد فاجأ "شينغ" المصاب بالهذيان، كما يبدو، على أحد الطرق دون أن يلحظ أحد ذلك، لا هو ولا أي شخص، ورافق موكبه طيلة أيام دون دراية أحد جثة انتهى المآل بها، كما هو معروف، وسط قبر تبلغ مساحته 52 كلم^2 كان 700.000 من العبيد قد أنهوا حياتهم فيها منذ عشرين سنة. أمّا أبناؤه وورثته فقد ماتوا بسرعة و"لي سي" قطعوه إلى نصفين. كان من نتيجة النهاية المبكرة للسلالة أن شهد عام 208 قبل الميلاد بداية حالة انتعاش فقهي لغوي ووله بالمكتبات باتجاه معاكس لما كان قد أُقِرّ قبل إحدى عشرة سنة، إذ ازدهر كلّ ما له قيمة في عالم التاريخ والفكر والفن عبر إحياء النصوص التي لم تختف تماماً ونسخها وتحليلها واكتنازها. هكذا تثبتت نهائياً مواقع احترام

المكتوب مما يشكل سمة دائمة في العالم الصيني. وقد اعتبر جورج لويس بورج متسلياً أن "حريق المكتبات وبناء السور ربما يكونان عمليتين تلغي كل منهما، سراً، نفسها". هذا لا يمنع أن "حرق الكتب ودفن المثقفين أحياء" يبقى تعبيراً جاهزا يُضرب فيه المثل لوصف طريقة في الحكم أو لوصف عمل جذري ما.

نار حامية تدفع ناراً حامية، فالتاريخ الصيني بقي مصنوعاً لفترة طويلة من عدد متساوٍ على الأقل من عمليات حرق المكتبات ثم إعادة بناء مجموعات الكتب. "إذْ ما أن يصار إلى تأسيس مجموعة وطنية للكتب حتى يتم تدميرها أو تشتيتها كي يعاد بناؤها من جديد مع الضياع النهائي لعدد من المؤلفات[75]". مئة مدرسة أو مئة وردة، يبدو أن قانون العودة الأبدية قد نسج اللحظات الحاسمة لحضارة متصالحة مع "مبدئها لجدل الأضداد[76]".

من يملك الكتب يملك العالم. كان "ليو بانغ" ابن الفلاح، ومؤسس سلالة "هان" على قناعة شديدة بذلك، وهكذا أرسل بسرعة أحد الضباط كي يسحب من المكتبة الإمبريالية جميع الوثائق المتعلقة بسلالة "كين" معتقداً أنه بحاجة لها (إن الجندي المنضبط لم يأخذ للأسف، سوى ما كانوا قد طلبوه منه بدقة). وأثناء المعارك الأخيرة لـ"ليو بانغ"، الذي أصبح يدعى لاحقاً "هان غاوزو"، ضد منافسه "كسيانغ يو"، قام هذا الأخير بحرق العاصمة عام 207. استمر الحريق طيلة ثلاثة أشهر. وضاعت الكتب القديمة جدا كلها، أي تلك التي كانت تعود للإمبراطور وكتب الوزراء وتلك التي كانت مخبأة، كما تلفت أيضاً تلك التي كان قد جرى إخراجها من مخابئها قبل فترة وجيزة. إن الخسارة ربما فاقت الكمية التي أتلفها قرار 213 وبكل الأحوال هي مضافة إلى تلك الكمية. وكان لا بد من مرور سنوات طويلة ومن فترة الحكم المديدة للإمبراطور "يو"، الهاوي نفسه للمكتبات، كي "تتكدس الكتب كالجبال (وكي يستطيع سيما كيان أن ينقّح في تلك الفترة كتابه "مذكرات مؤرخ" أو "مذكرات تاريخية" حسب المترجمين). بنفس الوقت جرى تشجيع جامعي

الكتب كي يجلبوا ما لديهم من مؤلفات لنسخها وهذا ما تكرّر أيضاً بالنسبة لأكثر من سلالة دشنت عهدها برفوف خاوية. كان لا بد آنذاك من ظهور العديد من الكتب المزيّفة بل والمغلوطة عندما كانت التعويضات المقدّمة ذات قوة جذب كبيرة، وأمناء المكتبات ليسوا شديدي التمحيص. كانت عمليات التخريب التي استهدفت مجموعات الكتب كثيرة إلى حد أن فن التزوير انتشر بوقت مبكر جدا ووصل إلى قمم البراعة في ظل سلالة "مينغ" حيث كان من الدارج بيع مطبوعات "يوان" على أنها مطبوعات "سونغ". والمؤلفات التي كانت تحتوي على مقدمات وملاحظات ختامية، كان يتم انتزاعها منها دون حسرة من أجل صناعة كتب مزوّرة متقنة لا عيب فيها.

ولم يعد سرا بالنسبة لنا حال المكتبات الخاصة في القرن الثاني قبل الميلاد بفضل الابن المزعوم للحاكم "لي كانغ"، حاكم منطقة "داي" الذي جرى دفنه مع الكتب التي اعتبرها أساسية، بالإضافة إلى 38 قطعة سلاح. فالرجل كان محاربا (يمكن رؤية هذا الإرث في متحف هونان في شانغشا). وكانت مخطوطاته من الحرير ملفوفة بصناديق من خشب البرنيق الصيني ومزوّدة بحجيرات ومكسوة بحوالي مئة ألف حرف بالإجمال. توجد نسختان من كتاب "دوادجينغ" مقدّمتان بنسق يختلف عما هو معروف وإحداهما مسبوقة بأربع دراسات أسطورية ساد الاعتقاد بأنها كانت قد أُتلفت في حريق عام 213 الكبير، أي "الكلاسيكيات الأربع للإمبراطور الأصفر" وهي عبارة عن كتب إرشاد للسلوك الطاوي مكرّسة للحاكم حصرا وبشكل ما نوع من "الدليل السري"[77]. وتوجد أيضاً عدة مؤلفات ثرية بالتعاليم مثل "حكايات طريفة" و"خطابات حول فترة الربيع والخريف"، وكذلك "رسائل الإستراتيجيين السياسيين للممالك المحاربة"، و"حركة الكواكب الخمسة" الموصوفة من أجل التنبؤ بمدارات المشتري وزحل وتينوس منذ عهد "كين شي هوانغدي" قبل 70

سنة، ثم "دراسة حول الأحصنة" وكتب في الطب تحتوي على لوحات رائعة للتربية البدنية باللباس أو عارية الجذع وأخيرا ثلاث خرائط لدولة "تشو" وحاميات الجنود ومخطط مدينة بأسوارها ومنازلها. كان الرفيق الملازم وزبدة المعرفة الضرورية للإنسان النبيل آنذاك يتمثلان في التاريخ والإستراتيجيات وعلم الفلك ومعرفة الخيول وهيئة بدنية جيدة، ودليل مزدوج (لاوزي) فيما يتعلق بالصحة الأخلاقية.

"توشو" يعني الخرائط والكتابات. لا يزال هذا التعبير مستخدماً للدلالة على المكتبة العامة الصينية (بينما يتم استخدام تعبير "كانغشو" للدلالة على مجموعة كتب خاصة، والمعنى الأول لهذا التعبير هو إخفاء المؤلفات كضرورة متكررة)، كذلك ليس من محض الصدفة أن "توشو" هو أيضاً اسم الرسم التخطيطي الذي يرمز لتغيّرات الكون في الفلسفة القديمة. ولفترة طويلة لن تميّز المكتبة الأدب المحلّي ولا سجل المحفوظات.

لقد أشارت فهرسة كتب الصين التي حاول خبراء عهد الـ"هان" القيام بها قبل سنوات قليلة من عصرنا إلى وجود 677 عنوانا، من أصل كم؟ هذا غير معروف. عشر مرات أو مئة مرة حسب المؤلّفين[78]. بل جرى الكشف عن تأكيد ذي طبيعة نافية قاطعة لدى الماركسيين في سنوات السبعينات، وخاصة في مجلة "تيل كيل" Tel Quel (الشاذة جدا اليوم) حيث أكد الباحث العلمي — المحترم مع ذلك– جوزيف نيرام بأن "شي هوانغدي" لم يتلف أي كتاب، وأن الأمر لم يكن بالضرورة، كما يقول تقريبا، سوى مجرد ثرثرات. يجدر التذكير أن الإمبراطور الأول في سلالة "كين" كان النموذج المثالي لدى ماوتسي تونغ، وأن عمليات التخريب التي قام بها هذا الأخير كانت آنذاك قصيّة عن التفكير بمقدار ما كانت مجهولة من بقية العالم.

إن واحداً وأربعين مؤلّفاً قد وصلت إلينا من عملية الجرد الخاصة بحقبة

سلالة "هان"، وخمسة وستين أمكن إعادة ترميمها حسب مصادر أخرى، أما الباقي فقد ذرته ألسنة اللهب نهائيا.

إذا كانت الفهارس الأولى المنظّمة قد ضاعت، فإن التصنيف في سبعة موجزات أو ملخصات جرى تبنيه لفترة طويلة بوصفه تصنيفا للكتب العامة والكلاسيكيات والفلسفة والشعر والعلم العسكري وعلم الفلك والرياضيات والعلوم الخفية. لكن ما فائدة هذا كما يمكن للفيلسوف أن يقول، إذ أثناء انتفاضة المغتصب "وانغ مانغ" عام 23 دُمِّرت مدينة "شانغان" مع مجمل 13.239 لفافة تمّ إحصاؤها منذ فترة قريبة. ويؤكد "نيو هونغ" أن "تلك هي الكارثة الأدبية الثانية في التاريخ".

أصبحت آنذاك "ليويانغ" عاصمة حكم سلالة "هان" شرق البلاد، وكان المثقفون يؤمّونها من مختلف الأصقاع ومعهم أكياس مليئة بمخطوطات "لا عدّ لها". إن سجل ومحفوظات إمبراطوريا مهمًّا قد رأى عندها النور. فهل تبحثون عن كتاب "سوترا" باثنين وأربعين مقالا؟ إنه محفوظ في الرف الرابع عشر بقاعة بطرس لشرفة الزهور السحلبية (الأوركيديا). هناك قطاعات أخرى من الفهرس موجودة في جناح الكركدن أو جناح الغبطة السماوية. إنه اسم ذو وقع سيء بالنسبة لذلك اليوم من عام 190 حيث قام أحد الجنرالات ومرتزقته بنهب القصر وتخريب المكان و"كل الوثائق والأعمال الأدبية جرى تقطيعها وتشتيتها"، أما الكتب المصنوعة من الحرير فقد جرى استخدامها، تبعا لأبعادها، كستائر أو سقوف للخيمات أو للتغليف، وتحوّلت الصفحات الأكثر صغرا إلى خيوط. مع ذلك أمكن استرداد 70 عربة مليئة بالكتب وصل نصفها فقط إلى "شانغان" ليكون مصيرها الحرق خلال اضطرابات عام 208.

قام "نيوهونغ" بجرد عمليات التدمير الكاملة للمكتبات الكبرى في مذكّرة قدمها للإمبراطور "وين" من سلالة "سوي" عام 538، وقد أحصى خمس

مكتبات "لكنه نسي واحدة" (أحصى ديكست واو غوانغ كينغ 14 بالإجمال. أما ويندمون ولكنسون فقد قال من جهته إن الكارثة المطلقة ترددت "12 مرة على الأقل")، بعد عملية التدمير التي قام بها "كين شي هوانغدي" ثم تلك التي أصابت عاصمته تسيانيانغ (هناك إذن عمليتا تدمير)، ثم عملية شانغيان عام 23، والمصائب الأخرى الثلاث التي يحصيها هي تلك التي شهدها عام 190 ونهب مكتبة ليويانغ عام 311 من قبل "كسيونغ نو"، حيث أمكن استرداد 10% من الكتب أي 3.014 لفافة، وعملية الحرق العفوية للإمبراطور "يوان" من سلالة ليانغ. إن مذكرة عام 583 تشير عرضا بنفس الوقت إلى صيغة من الرقابة ومن الإيداع القانوني إذ ليس من المقبول، كما يكرر "نيوهونغ" القول، أن يتواجد كتاب في مكتبة خاصة إذا لم يكن موجودًا في مكتبة الإمبراطور.

وما بين الانبعاث والاختفاء بقيت المكتبة الإمبراطورية ثابتة الأركان وأكثر تقدما باستمرار. فأمام قصر "يانغ" في ظل سلالة "سوي" (589–618) كانت تنتصب قاعة المؤلفات المكتوبة حيث "النوافذ ووسادات المقاعد وطنافس الخزانات وكل شيء رائع الجمال. وكانت تنفتح حجرة جديدة كل ثلاثة رفوف تحدّها عارضتان. وكانت تتدلّى من الأبواب طنافس مصنوعة من البروكار ويعلوها رمزان لخالدين مجنّحين (الخالدون من رموز الصين القديمة مثل الملائكة الحراس) وعلى الجهة الخارجية من الأبواب وفي الأرض جرى (إخفاء) آلة للتحريك الذاتي. عندما كان الإمبراطور يأتي إلى قاعة المؤلفات المكتوبة كان العاملون في القصر يحملون المباخر. وأثناء تقدّمه كان يتم تشغيل آليات عملية التحريك الذاتي وعندها كان الخالدان المجنّحان يترلان ويأخذان الطنافس ويصعدان من جديد. أما مصارع الأبواب وأبواب الخزائن فقد كانت تنفتح لوحدها. وعند خروج الملك كانت الطنافس تتدلّى من جديد والأبواب تنغلق[79]".

وبوجود 2.655 كتاب مؤلّفة من 48.169 لفافة كانت مكتبة الإمبراطور كساونزونغ (712-756) هي أكثر اتساعاً أيضاً، فأمر فجأة أن يغدو اسم قصره هو المكان "الذي يجتمع فيه الحكماء" بدلاً من "الخالدين".

كان التدمير أكبر في الواقع إذ أن حركات التمرد أو اجتياحات اليوغوريين والتيبيتيين والمغول لم تمر دون أن تترك وراءها خسائر فادحة. ذلك أن عمليات تدمير عديدة جرى التبييت لها وتحضيرها. فبتاريخ 11 أغسطس 1258 أمر "كوبيلاي" بـ"إرسال المبعوثين كي يبحثوا في كل مكان عن نصوص الكتب المحددة مسبقا وعن الألواح التي تخدم لطباعتها ووضع اليد عليها، وخلال مدة شهرين جرى جلبها إلى يانجينغ (بكين) حيث جرى تكديسها وإتلافها بالنار". لقد نفّذ بذلك أوامر أخيه "مونغكي"، في أثناء ذلك وبتزامن مذهل كان أخوه الآخر "هولاكو" يعيث فسادا أكثر في بغداد. وما إن أصبح "بيلاي" إمبراطوريا حتى تابع هذا الاندفاع حيال مجمل كتب التعاليم الطاوية، باستثناء "داود جينغ" (فهل كان ذلك يعود لعدم وضع ذلك النص الأساسي في متناول عامة القراء؟)

وبتاريخ 2 ديسمبر 1281 وحتى نهاية عام 1282، جرى حرق كل نسخة ولو خاصة وكل الكليشهات الخشبية التي قد تخدم في إعادة سحب 7.000 جزء من مجموعة كتب التعاليم بما في ذلك بجنوب البلاد الذي استولي عليه حديثا. وهذا ما ردّ عليه تسوانغزي بالقول مقدّما إنه عمل لا جدوى له، فالكتاب لا وجود له بذاته. "إن الكتب ليست سوى مجرد كلمات، وحتى لو كانت الكلمات ثمينة، فإن الثمين في الكلمات إنما هي الأفكار".

هناك إمبراطوران على الأقل قاما بعملية تدمير إرادي لمجموعات كتبهما الهائلة. "يوان دي" عام 554 عندما حوصرت مدينته، أضرم النار في المئة وأربعين ألف لفافة التي كان شديد الاعتزاز بها وهدد بإلقاء نفسه في النيران

بينما كانوا يمسكون بأكمامه. قام أيضاً عندئذ بتحطيم سيوفه ذات الأغمدة المغطاة بالذهب وبالأحجار الكريمة وهو يصيح: "سوف تختفي الثقافة المدنية والعسكرية هذه الليلة". وقد قيل عنه لاحقاً إنه أحب من كتبه عددها، و لم يكن يحبها بذاها إلى درجة كافية. مع ذلك كان شغوفاً جداً بالأدب إلى درجة أن خمسة من القرّاء كانوا يترددون على حجرته عندما كان مريضاً. وفي كل مرة كان النعاس يداعب فيها أجفانه كانوا يتجاوزون بعض الصفحات.

وقام أيضاً الإمبراطور "هوزهو" آخر سلالة "تانغ" في الجنوب، عندما كان محاصرا، بحرق العشرة آلاف مؤلّف التي كان يملكها بدلاً من أن يترك للمنتصر عليه أن يستفيد منها، والذي سيُدعى لاحقاً "تايزو" من سلالة "سونغ".

وبما أن المعرفة تعني السلطة، طلبت أميرة صينية يوم تزويجها لأحد ملوك التيبت إرسال أعمال الأدباء الكلاسيكيين من الإمبراطور "كساونزونغ" كي تتحمل دون شك السأم القاتل في "لاسّا" (عاصمة التيبت)؛ لكن أحد الساخطين في القصر اعترض على إرسالها ذلك أن "معرفة الأعمال الكلاسيكية قد تجعل أعداءنا أكثر قوة".

لكن براعم المعرفة لن تتأخر في الخروج من كتر أبناء الشمس والانتشار في عموم أرجاء البلاد الواسعة عندما اخترعت الصين المطبعة.

إذا كان الأثر الأكثر قدمًا لنص مطبوع بأحرف من خشب سابق على عام 751، فإنه إنتاج الكتب غير المخطوطة باليد وإعادة إنتاجها بصورة متقنة، انطلق بداية من نهاية القرن الثاني تقريبا. وقد أشار دليل رسمي إلى حي المكتبات في "شينغ دو" عام 883 حيث كان يمكن اختيار كتب الضرب بالرمل (كشف الغيب) وتفسير الأحلام والقواميس المطبوعة بواسطة كليشهات بحجم الصفحة وتضم أحيانا أحد المقاطع مطبوعة بشكل سيّئ وغير مقروءة. بالمقابل انطلقت

المشاريع الطباعية الجيدة الكبرى الأولى عام 950 بطبعتين كاملتين لتعاليم كونفوشيوس في "ليويانغ" و"سيشوان" ودخلتا في منافسة فيما بينهما[80]. وتزايد بداية من تلك الحقبة عدد المكتبات الخاصة في هبّة حماس كبيرة لم تكن غريبة بالطبع عن ألم ما قبل العام 1000 حيال حرق المؤسس الكبير. أدّى تزايد تلك المكتبات الخاصة غالبا فيما بعد إلى إثارة الغيرة الإمبراطورية، هذا إذا لم تكن مصادرتها بكل بساطة. لذلك كان أي مالك لمجموعة كتب قديمة شحيحا بصورة عامة بكتبه. وإذا أعار أحدهم، فإنه ما كان له أن يفعل ذلك سوى لصديق موثوق كان عليه أيضاً أن يجلب دناً من النبيذ لاستعارة أصغر مجلّد ودناً آخر عندما يعيده[81].

فهل يُراد إعطاء فكرة عن المكتبة الصينية الكلاسيكية؟ إنها حديقة التنميق والحنين المبهم. فها هم جامعو الكتب السبعة في "هانغ زهو" الذين ملك كل واحد منهم مكتبة هامة كانوا، ودون أن يشكّلوا حقيقة مجموعة منظّمة، يلتقون مساء لمعاقرة الخمر على شواطئ بحيرة الغرب حيث توجد بيوتهم الأنيقة، ويتبادلون المؤلّفات النادرة والمعلومات وفي بعض الأحيان أشعارهم الخاصة.

لقد عُرف قليلاً من بين هواة الأدب هؤلاء اسم "وانغ كسيان" (1721-1770) الذي كان من سوء طالعه أنه نجح في المسابقة الإمبراطورية مما أرغمه على القبول بمهمة في محافظة "بينس" مع مكتب في بكين. لكنه لم يتأخر عن أن يتعلل بالسن المتقدم لوالديه وبواجباته حيالهم كي يعود نهائيا إلى "هانغ زهو" وإلى كتبه. مرّت الأيام بلا سأم في المقارنة والترقيم والتعليق بريشة مصمّمة، للآلاف من المؤلّفات التي تحتويها مقصورته المسمّاة الفضيلة الفائقة. والحالة نفسها بالنسبة لأصدقائه "واو زهو" و"زهاو يو" والآخرين. كان "زهاو يو" هو الأكبر سنا والأكثر نفوذا إذ كان ينحدر من ناحية أمه من عائلة "كي" التي كانت مكتبتها ذات المشارب المتعددة (كانت بحدّ ذاتها نادرة في نهاية عهد

سلالة مينغ) قد احترقت عام 1597، الأمر الذي لم يكن منه سوى أن حثّ "كي شينجي" على أن يبني في الحال مكتبة أخرى أكثر روعة كي يورثها لأبنائه مع حب الكتب الجنوني ودراسة حول اقتصاد المكتبة الخاصة كانت الأولى من نوعها في الصين. لكن تقلبات السياسة قادت للأسف إلى خراب العائلة وإلى تشتت الكتب، وقد روى "زهاو يو" كيف أنه قام وهو في الثامنة عشرة بالحج نحو خرائب المكان حيث كان جدّه القديم قد تنعّم بمجموعة كتبه الثمينة قبل مئة عام، وحيث كانت اللافتة الموجودة فوق المدخل لا تزال تحمل الحرفين الأولين لـ"كشك المتفرّد"، اللذين كتبهما الخطاط والرسام الكبير "دونغ كيشانغ". لقد حمل اللافتة معه إلى "هانغز هو" حيث بنى مكتبة ثانية فقط بغية تزيين بابها بهذين الحرفين. وعندما توفي كرّس له "كوان زيوانغ" هاتين الجملتين: "من عنده أولاد لا يموت، ومن عنده ثقافة لا يصيبه التفسخ". وباستثناء مكتبة "وانغ كسيان"، التي استمرت ملكيتها طيلة أجيال أربعة، انهارت تلك المجاميع الجميلة كلها واختفت دون ضجيج عند وفاة أصحابها. وكانوا قبل ذلك قد ساهموا أو حاولوا المساهمة – ذلك أنه كان ينبغي قبول الهبة أولا – في تشييد مؤسسة مكتبة "سيكو كوانس هو" التابعة للإمبراطور "كيان لونغ". فمن بين الواهبين التسعة من الخاصّة الذين جرى قبول عطاياهم، في عداد مئات الطامحين لنيل هذا الشرف الهائل في الصين كلها، كان هناك خمسة من أصدقاء "هانغز هو"[82]. لقد زوّدوا المؤسسة الإمبراطورية بـ1.905 كتاب قديم وتلقى كل منهم كتعويض مقابل موسوعة. لم تكن هدية تافهة إذ جرى تجميعها عام 1726 في ظل سلالة "كانغكسي" وطُبعت بـ64 نسخة في ظل سلالة "يونغ تسينغ" حيث احتوت على مئة مليون حرف تؤلّف 5.020 كتاب بخط اليد.

وأُهديت للسبب نفسه نسخة من هذا الصرح إلى مكتبة "تيان بيج" التي شُيّدت عام 1561 في "نينغبو". فعندما وصل الموظف الصيني الكبير "فان

كين" (1506-1585) إلى سن التقاعد أراد حماية مجموعة كتبه التي كانت تعد 70.000 مؤلّف والتي كانت نواقما هي مجموعة "وان جوان لو" من عائلة "فينغ" العائدة نفسها إلى عام 1086. كانت تلك المكتبة النموذجية حالة فريدة إذ لا يزال البناء قائما في "نينغبو" وقد أعادت الدولة تجهيزه بعد سلسلة المآسي التي عاشها. وكانت مكتبة "تيان بيج" مع ذلك محط الانتباه الكامل، إذ وُضعت تحت الخزانات الثمانية والعشرين المصنوعة من خشب الأرز، والمحتوية على الكتب ذات الورق الناعم، كتل من حجر الانهدريت الذي يمتص الرطوبة. من جهة أخرى اختار لها "فان كين" تسميتها لأن "تيان بي" — قد تعني الكلمة أيضاً "الأول تحت السماء" — تدل على ذكر الماء في "كتاب التبدلات". وفي الواقع نجت مكتبة "تيان بيج" من الحريق لأنهم استخدموا القرميد في بنائها ومنعوا أية تدفئة أو إضاءة فيها. أما سر طول عمر هذه المجموعة من الكتب فهو من أكثر الأسرار إثارة للاستغراب إذ طلب "فان كين" من ورثته أن يختاروا بين جبل من المال، أي 10.000 تايل (عملة النقد الصينية آنذاك) وبين المكتبة دون الحصول على تايل واحد مع منع بيعها. كان ابنه البكر "فان داشونغ" أول المتحدثين وفضّل المكتبة دون تردد. ثم كانت وصيته مشابهة وكذلك وصية ابنه لعدة أجيال. بالإضافة إلى ذلك نفّذ جميع الذين آلت إليهم ملكيتها بدقة كبيرة الإيعاز الآخر لمؤسسها والقائل بـــ"عدم دخول أي غريب عن العائلة إليها وعدم خروج أي كتاب منها". لكن ربما أثار هذا كله سخرية اللصوص الذين قاموا بفتح كوة في الجدار دون أي حياء بعد ثلاثة قرون عندما اجتيحت "نينغبو" من قبل "الجنود ذوي الشعر الطويل" بقيادة "تيبينغ". وفي عام 1832 بيعت بالوزن كمية كبيرة من المؤلّفات التي لا تعوض لورشتين في "فينغ هاو" و"تانغ آو" قامتا بتحويلها إلى ورق عادي لتغليف اللحم في السوق[83]. كان هناك لص آخر تعوّد الدخول إلى المبنى ليلا ليأخذ منه ملء باعه من الكتب وينقلها بواسطة قارب صغير لتجد مكانها غداة اليوم التالي لدى أصحاب

مكتبات للبيع في شنغهاي كانوا قد طلبوها بالتحديد من أجل هواة كتب غربيين. سارت الأمور على تلك الشاكلة حتى تحرك "تسانغ يوان جي"، مدير الصحافة التجارية، وخلق مؤسسة لنقل ما بقي من المجموعة إلى "هان فان لو"، وهو مستودع كبير للكتب النادرة في مكتبة الشرق الكبرى، لكن حيث تدمّر كل شيء سريعا تحت وطأة القنابل اليابانية عام 1932.

"إن المصير المحزن للمكتبات الحالية لا يعود فقط إلى الحروب والحرائق فقط. فالناس الذين لم يكونوا يملكون إمكانيات حقيقية لا يستطيعون تكديس الكتب، وأولئك الذين يتوصلون لتكديسها كانوا يجدون أنفسهم مرغمين على التفرّج عليها وهي تتشتت لأن إمكانياتهم لا تكفي للاحتفاظ بها، وما هو موجود اليوم يمكن أن يختفي غدا. كانت المكتبات الكبيرة لا تحصى في جنوب يانغز، لكن كم بقي منها حتى يومنا هذا؟ ثلاث أو أربع بالكاد"، كما عبّر سابقا "هوانغ فرونسكي"، وهو أديب شهير في بداية عهد سلالة "كينغ"[84] التي كانت تملك قرابة 30.000 مؤلّف قرأها كلها تقريبا.

صين الكتب هي جسد هائل مخرّم بالثقوب السوداء، بدن مبتور الأوصال نهائيا. فبالإضافة إلى عمليات الإتلاف الكبرى هناك الملايين من اللحظات المديدة والقصيرة للرقابة الذاتية، والتحريفات السرية للنصوص، والنسيان المقصود، جعلت المدونات الصينية كلها عرجاء للأبد. إن جميع السلالات بما فيها تلك المسالمة جدًّا قامت على إدانة الكتابات التخريبية وإتلافها وتزويرها لغايات دعائية. "أويانغ" لم يحب مؤلفات "ووداي" ودفع إلى إتلافها وأتلف المتنفذ الكبير "غاو يوان" كتب التاريخ التي قرر أنها غير مفيدة لأنها تتعلق بأحداث مضت، وتمّ التخلص من النصوص مجهولة المؤلّف لأنها قليلة المصداقية، وكان كل حكم يغيّر دون عائق ما لا يروق له في تسلسل أحداث الأزمنة التي سبقته وليس هناك من لم يلجأ، وصولاً إلى الطابعين، إلى ممارسة البحث عن

أخطاء الآخرين. لا يمكن للإنسان أبدا أن يكون متعقلاً بدرجة كافية.

كان هناك في "كنغ لونغ تسن" أثناء فترة حكم سلالة "يوان" هاوٍ شهير للكتب اسمه "توانغسو" وكان يمتلك 80.000 لفافة من روايات وأشعار وتاريخ منظّمة في عشرة أقسام. لكن في عام 1346 عندما قام الإمبراطور التالي بتقديم عرض لشراء الكتب فضّل ورثة "توانغسو" حرق المكتبة خشية العقاب الذي يمكن لمضمونها أن يجره عليهم، وفي ظل حكم سلالة "كينغ" شوهد الكثير من المثقفين المرموقين يكرسون حياتهم لمواضيع لا مخاطرة فيها مثل علم الآثار أو "الدراسة العلمية للأعمال الكلاسيكية"، وهو اسم حركة نافذة مـــا بين 1736 و1820 كانت قد صرفت بالتأكيد قسطاً كبيراً من طاقة فكرية ربما كان يمكن تكريسها لتحضير دخول البلاد إلى العالم الحديث بدلاً من أن تساهم نوعًا ما في جعل النعاس يهدهد أجفانها في القرن التاسع عشر[85].

كان البشر يفضلون تجنب التعبير عن آراء شخصية بل يحرصون على عدم كتابة أي شيء من أجل عدم المخاطرة في الخوض بأمر محظور. الحقيقة في الصين لم تكن أبدا عارية، خاصة إذا كانت لا تروق للأسياد. وكان يقال بشيء من الدعابة: "لقد تصفّحت الريح الباردة الكتاب، ولا تستطيع قراءة الكلمات المكتوبة فيه". وهذا يعني القول: "إن أهل كينغ بلهاء" (كتب الأديب "شن دنغ يوان" في شنغهاي عام 1936، حول تشييد المكتبات الصينية وتدميرها 524 صفحة تنتظر مترجماً. ومن فائدتها، بين فوائد أخرى، أنها تجعل مألوفاً ما جرى بعد ذلك في ظل حكم ماو تسي تونغ). والمثقفون الذين قاوموا هذا الجنوح العام للمجتمع الصيني يُعدّون على أصابع اليد الواحدة. ويذكّر "جان فرانسوا بيلليتيه" بحالة "لي تسي" (1525–1602)، المعارض للتقاليد ولمظاهر التقوى والذي لم يكن يحترم شيئاً ولا حتى الأدب، وكتب كلمات غير مقبولة تقول: "الشعب يحكم نفسه ولا يقبل أن يتم حكمه حسب مبادئ غير مبادئه

الخاصة (...). ومنذ الولادة يمتلك كل إنسان طريقة ما للتصرف ولا أحد بحاجة إلى أن يأتي كونفوشيوس كي يزوده بها(...). إن دعاة الصلاح يستخدمون الفضائل والطقوس من أجل السيطرة على العقول". فماذا بقي إذن للمتشكك؟ الكتب بالطبع، إذ "كل أولئك الذين ينكبّون على الدراسة يبحثون في أعماقهم عن جوهر الحياة والموت وعن سر مصيرهم. وسيكون بمقدور طائر قندس أن يعشش فوق رؤوسهم دون أن يلحظوا ذلك". أعطى هذا الأديب المتيقظ الفطن لمؤلّفيه الاثنين الرئيسيين العنوانين التاليين: "كتاب للحرق" و"كتاب للرمي". ولم يتردّد في الانتحار عندما ألقته السلطة، في نهاية المقاومة بالسجن. إن شهرة لي تسي "تعطي فكرة عن درجة الجنوح الذي أصاب ذهنية المرحلة وعاداتها"، كما ستقول السلالة التالية والتي طبّقت الترجمة الحرفية والفعلية لعنوانَيْ كتابيه[86].

وعرف الإمبراطور "كيان لونغ" كيف يبدو في الواقع أكثر "عظمة" في الدناءة من سابقيه، رغم أنّ عيون معاصريه وعيون السلف كانت تنظر إليه كمدافع مقدام عن الأدب الصيني. في عام 1772، أي السنة السابعة والثلاثين من حكمه أشار بضرورة البحث في المحفوظات العامة أو الخاصة، وطوعا أو عنوة، عن جميع كتب الصين النادرة من مخطوطات أو مطبوعات من أجل جمعها في مدوّنة هائلة تحمل عنوان "موسوعة الكتب الشاملة" في أربعة أقسام. هذه الأقسام الأربعة تتناظر مع التصنيفات التقليدية وتكون مجلّدة بحرير ذي لون مناسب. وهي مؤلفات القانون (باللون الأخضر) والمؤلفات التاريخية (بالأحمر) والفلسفية (بالأزرق) وخلائط الأدب أو الآداب الجميلة (باللون الرمادي). هكذا تحت عنوان واحد قامت مرّة أخرى أيضاً، المكتبة المطلقة، الجميلة بمقدار ما هي شاملة؛ إذ جرت مصادرة 79.337 لفافة وعُهِد بها إلى 3.286 خطّاط لنسخها كي تكون أبدية. وربما ما كان لها أن تكون بنفس الجودة في حالة طباعتها.

وقد قال "كيان لونغ" عن الأدب الصيني: "لقد أمرت أن تسلك هذه المؤلفات مجرى الزمن بهدوء. لكن إذا كان بينها كتب لمؤلفين من سلالة مينغ معارضين لعائلتنا فإنه ينبغي وضعها جانبا لحرقها بالنار". هكذا انقلبت العملية بسرعة إلى مشروع هائل للتفتيش، حيث قام عناصر السيد المطلق بالانتقال من باب إلى باب في الإمبراطورية كلها بحثا عن كتب يمكن أن لا تروق له أو تعجبه، وحسب مقاييس تعاظم غموضها أكثر فأكثر. وأصبح التوجه انطلاقاً من "كل أصناف الأدب المنجزة منذ نهاية عهد سلالة سونغ في الجنوب" هو مصادرة الكتب الضالّة بحيث أن مجرد طريقة الخط مثلا قد تعتبر مصدرا للضلال مثل كتاب "شوفا جين غيان" لمؤلفه وانغ "كزي هو"[87].

وبتاريخ 11 يونيو 1778 شهدت بكين تنظيم عملية حرق هائلة للعديد من نسخ الكتب المصادرة وكذلك كليشيهات من الخشب خدمت في طباعتها وكانت مكوّمة حتى ذلك الوقت لدى لجنة المحفوظات العسكرية. وقد علق أحد كاتبي المذكرات التاريخية بشكل لاذع وجريء بأن خشب التدفئة كانت كلفته 2,7 تايل لكل 1.000 ليبرة صينية، وبالتالي يكون القصر قد اقتصد 98,6 تايل[88]. تكررت عملية حرق الكتب 24 مرّة حتى عام 1782 وأتلفت جميع الطبعات لـ13.000 كتاب قديم على الأقل من بينها بعض الأعمال النادرة التي جرى تقديمها للمؤسسة الوطنية من قبل أشهر جامعي الكتب بطيبة خاطر. أو ربما من أجل لفت نظر السيد المطلق بل ربما على خلفية معرفة المسألة الرقابية.

"لا شيء ينقص مما تواجد على مر العصور وفي الكون ذي النظام المتناغم"، هكذا كتب جلالته في مقدمة الأقسام الأربعة لموسوعة الكتب الشاملة، بيده الجميلة النبيلة وبتلك الأنفة الخاصة جدا التي يتحلّى بها الأباطرة والتي يُطلق عليها أيضاً اللاوعي أو الجرأة الفجّة. إن نزوة الأمير وهذيان المتعصبين له — هذا إن لم يكن العكس– اشتركا معا من أجل خلق فراغ هائل

في بيان مؤلفات — بيبليوغرافيا- البلاد؛ ففي عام 1782 أدّى فهرس الكتب المحرمة الذي جرى تحضيره في إطار تلك الحملة التوجيهية إلى جمع 345 كتاب لتشطيبها بالأسود و2320 كتاب للإتلاف نهائيا. إن خمسين كتابا فقط من هذه المجموعة الأخيرة أمكن إخفاؤها — أحيانا في فرنسا- لتصل إلينا.. بينما ضاع الباقي.

أمّا بالنسبة لموسوعة الكتب الشاملة التي كان إعدادها يشكل الهدف الرسمي للمشروع فمن المعجزة أن تلك الكتلة الضخمة المتهافتة لم تضع كلها. كان "تشيين لونغ: قد طلب إعداد أربع نسخ منها له ثم طلب ثلاث نسخ أخرى لتقديمها هدية للمقاطعات التي أبدت تعاونا أفضل من غيرها؛ وهكذا لا تزال نسخة منها في "هانغ جو" تقريباً في المبنى الذي كان يشغله آنذاك على ضفاف بحيرة الغرب "وينلانج". كانت أماكن وجود هذه النسخ مفتوحة للعموم، وقد تعرّضت للحرق أثناء الهزّات التي سببها الغزاة من "التاينغ" مما كان يتماشى بشكل ما مع نزعة مسيحية انحرفت عن سياقها. وكانت النصوص الأربعة الأولى المعدّلة قد وُضعت في أجنحة بنيت خصيصا لهذا الغرض كتقليد لمكتبة "تيانيج" في نينغبو، داخل مقرّات إقامة تابعة للملك مثل القصر الصيفي الذي غدا مشهوراً بعمليات النهب التي تعرض لها.

لم تكن فرنسا وإنكلترا عام 1860 على اتفاق حول أي شيء، باستثناء ملاحظة أن الصينيين يمكن أن يمثلوا صيدا ثمينا، وأن البلاد تنام على جبل من الذهب والفضة وبدرجة أقل على الملايين من الكتب القديمة الفريدة، ولذلك ينبغي إيجاد حجة معقولة قبل الانتفاع بها.

بتاريخ 6 أكتوبر نجح الجيش الفرنسي بتجاوز الإنكليز والولوج قبلهم إلى القصر الصيفي بليلة. "إنه حلم صائغ متعطش" حسب تعبير هيريسون الذي كان يتابع مباشرة بوصفه سكرتيرا ومترجما للجنرال مونتوبان— إلى درجة أن

وزارة الحرب (الدفاع) حاولت فيما بعد أن تكبح نشر روايته[89]– عملية السلب والتخريب لمثي مبنى كان أجيال خمسة من الأباطرة قد كدّسوا فيها ثرواتهم بسخاء ووفرة لم يكونوا يسمحون لأنفسهم بمثلها في المدينة. وكانت زجاجات نبيذ "البوردو" الفرنسي الفاخر هي أول هدف للسطو.

"ملأ أحد المنتصرين جيوبه بينما ملأ المنتصر الآخر وهو ينظر إليه خزائنه"، هكذا أعلن فكتور هوغو سخطه عمّا جرى لاسيما أن ذلك كان يشكل ورقة إضافية في ملفه ضد نابليون الثالث، إذ اعتبر أن عملية النهب الشنيع لـ"عملاق" الصين جاءت من أمة يقودها "رجل صغير". فتش الإنكليز في الواقع بصورة أكثر منهجية إذ نظّموا في عين المكان عمليات بيع بالمزاد ولم يأخذوا سوى أكياس النشوق وقطع النقود –القروش– والجواهر وأحجار اليشم الكريمة وأواني الأكل المصنوعة من الذهب؛ أما الفرنسيون، بصفتهم أطفالا كبارا، فقد تخفّوا بلباس الأميرات وناضلوا من أجل الحصول على الأشياء ذات الأحجام الكبيرة وخاصة الساعات الجدارية والأشياء الآلية المصنوعة في أوروبا. كانت الهجمة مخيفة إلى درجة أن الجنرال "كوزان دو مونتوبان" انسحب إلى خيمته. وقال هيريسون بتأثر: "كانت هنا وهناك، في الحديقة، مجموعات تجري نحو الأجنحة والقصور والمعابد ذات الأدوار العديدة، ونحو المكتبات للأسف". كانت إحدى تلك المكتبات قد بنيت كي تستقبل نسخة كاملة من موسوعة الكتب الشاملة؛ أي "3.461 كتابا" و168.000 مجلد التهمتها النيران يوم 6 أكتوبر وخاصة يوم 18 أكتوبر عندما أعادت السلطات الصينية مراسل "التايمز" الرهينة عندها ميتًا فقرر اللورد "إيلجين" أن يعود إلى "يوان منغويان" وينهي تدميرها. ولا يثير مثل هذا التخريب الماجن للنفائس إلا قدرا متوسطا من الدهشة إذ أن والده هو الذي اخترع عملية التدمير المرتبطة باسمه "الإيلجينية" وهو يفكك مقبرة العظماء. زد على ذلك أن مترجمه هو الأخصائي الشهير بشؤون الصين "توماس فرنسيس واد" الذي يقال إنه نجح في أن يجلب لحسابه

عدداً كبيراً من كتب القصر الصيني. لم يشارك "مونتوبان" في تلك الحملة التأديبية وانسحب من جديد إلى خيمته. إذ وجد في حرق "المدينة الممنوعة" مردوداً سياسياً أكبر.

بقيت مجموعة واحدة كاملة من أقسام موسوعة الكتب الشاملة. إنها النسخة المحفوظة في "وينيوانج" خلف القصر الإمبريالي. وقد خُطفت في النهاية إلى "تاي باي" من قبل "الغومينيدانغ"[90]. كما تمّ العثور على نسخة غير كاملة في تركستان الصينية بعد أن عانت من قبضة الجيش السوفييتي. واستطاعت المكتبة الوطنية في بكين أن تسترد النسخة التي كانت موجودة في قصر "شيند". وهكذا لم تعرف مصير "موسوعة يونغل الكبرى"، المشروع الآخر الفائق لقدرة البشر والذي انتهى بصورة تدعو لمزيد من الرثاء.

طلب الإمبراطور "يونغل"، منذ وصوله إلى العرش عام 1403، من "ياو غوان كسياو" أن يجمع لجنة من 2.129 عالما لإنجاز موسوعة كبيرة تضم كل المعارف الصينية. استمر إنجاز موسوعة يونغل الكبرى 4 سنوات من 22.877 لفافة، وما بين سبعة إلى ثمانية آلاف عمل أساسي، ابتداء من "فصول الربيع" و"فصول الخريف". وتدل التقديرات أنها اشتملت على 370 مليون حرف على ورق رائع مطرّز بالحرير الأحمر ومغطى بكتابة بديعة بالأسود المبرنق مع علامات التنقيط وهوامش بالأحمر القرمزي، والكلّ مجلّد بالحرير الموشّى باللون الأصفر الإمبريالي.

وبسبب نقصان المال اللازم لطباعتها لم يتم إنتاج سوى نسخة واحدة احترقت بالكامل عام 1645 في نانكين أثناء سقوط سلالة "مينغ". وكانت قد أُنجزت نسخة أقصر عام 1567، اشتملت على 2.422 لفافة كما أنها كانت أقل فخامة بكثير. وكان ناشرو "تشين لونغ" قد سحبوا منها أيضاً 385 عنوانا (كتابا). حصلت "الأكاديمية الإمبريالية" المسماة بـ"هانلان" أو "غابة ريش

الكتابة" على الباقي لفائدة مكتبتها الضخمة أو "زبدة النبوغ (...) الأكثر عراقة والأكثر غنى في العالم[91]". لكن من سوء حظ هذه المكتبة أنها كانت واقعة في الطرف الشمالي الغربي من حي المفوضيات، على بعد عدة أمتار من السفارة الإنكليزية والذي كان معسكرا محصنا أثناء حصار بكين عام 1900.

كان المحاصرون هادئين فالصينيون يحترمون بوجل الكتابات وخاصة عندما تكون ممهورة بالخاتم الأحمر لابن السماء (الإمبراطور)، وكان هذا يشكل ضمانا لوجود مانع لا يمكن تخطيه. فمن الذي حرق إذن مكتبة هانلان في ذلك السبت 23 يونيو؟ إنهم الإنكليز، كما يقول الصينيون. وهذا ما كتبه أيضاً ولكنسون، ثم لا شك بأن تدمير البناء الذي يحتل موقعا إستراتيجيا كان يبعث الإحساس بالارتياح لدى المحاصرين. أو أن القوات النظامية (وكانت مسلمة: فانتفاضة البوكستر — فرع من فرقة الزنابق البيضاء الصينية– هي جهاد أيضا) بقيادة الجنرال دونغ فوكسيانغ هي التي قامت بذلك بأمل أن تنتشر النيران حتى مباني الأجانب أو على الأقل تغرقهم بالدخان. من جهة أخرى كان المهاجمون يطلقون النيران من النوافذ المجاورة على كل ما يتحرك بينما "كانت الأبنية القديمة تحترق كالصوفان الإسفنجي بهدير يغطي على فرقعات البارود". مع ذلك كانت توجد في الحي ثمانية آبار وما يكفي من السواعد لتشكيل سلسلة بشرية. ثم هبّت ريح الشمال وتمّ صد الهجوم في نهاية الأمر؛ لكن بعد فوات الأوان بالنسبة للكتب. "غدت المكتبة الصغيرة في الباحة الشرقية عبارة عن خرائب، وغصّ حوض الزخارف بالحطام بينما كانت كليشيهات الطباعة الخشبية والكتب المطبوعة منثورة على الأرض ومغطاة بالوحول[92]".

أخذ كل إنسان ما يشتهيه. فالأطفال خطفوا كتل الخشب المنقوش كي يصنعوا منها مصدّات صغيرة ويلعبوا لعبة الجنود، والجنود جمعوا ما تبقّى كذكريات من السفر. ولم يبق من "موسوعة يونغل الكبرى" إلا حفنة قليلة من

اللفافات. لقد أسف المترجم البريطاني "لانسلو" لأنه لم يستطع سرقة سوى القسم رقم 13345 من الموسوعة، أي كتاب واحد عرضه 30 سم وطوله 50 سم، و"ما يمثل عيّنة بالكاد"، ولانسلو جيلز هو ابن هربرت آلن جيلز الذي وضع نظاما معقدا لنقل اللغة الصينية إلى لغة روما مما شكّل إضافة للجهود المبذولة سابقا من قبل "واد".

إن التخصص بالشؤون الصينية ما كان له أن يوجد دون عملية النهب. وبالتوازي مع عملية جلب جميع سبائك الذهب والفضة التي كانت تمتلكها البلاد، شهدت المئة سنة قبل عام 1900 وبعده عمليات شحن كبيرة للكتابات حتى من أقصى المناطق النائية في الصين مثل منطقة "دون هوانغ"، باتجاه لندن أو باريس. ورأى بعض الشرفاء بكل جديّة أنهم يفعلون ذلك بدافع المحافظة على وثائق لا تقدر بثمن ووضعها في مكان آمن حيث أنها كانت معرّضة للخطر لدى أمة من الأشقياء، وهذه حجة يمكن القبول بها لو أنها ترافقت بإرادة إعادة هذه الوثائق ذات يوم، وبالطبع لم يكن الأمر كذلك.

(يُلاحظ بشيء من التسلية أن الصين قد بدأت تطالب باستعادة الممتلكات الثقافية المسروقة. وهذا ما أجاب عليه أكبر ثمانية عشر متحفا في العالم مجددا ببيان مشترك في شهر ديسمبر 2002 أنها لن تعيد شيئا[93]. لكن من الآن وعلى مدى جيلين قادمين سوف تغدو الصين، كما يقال، البلد الأكثر قوة في العالم). هكذا أصبحت مكتبة تيانيانغ هزيلة جدا عام 1940. وغدا الزائرون الأجانب يتجولون في البلاد يتبعهم ناقل أمتعتهم حيث لا يشترون الكتب على أساس العنوان ولا على أساس الوزن بل على أساس تغطية جدار كامل[94]. ولا يدفعون بالمقابل سوى مبالغ زهيدة، هذا فضلا عن إحساسهم بأنهم محسنون.

إنها عملية رائعة لإنقاذ سجلات المحفوظات والكتب تبيّن مدى درجة التخلّي والاحتقار التي كانت الإمبراطورية المحتضرة قد وصلت إليها، والنتيجة

التي وصلت إليها مكتباتها، سواء تلك التي تمّ إنقاذها أو المكتبات الأخرى. ويعود الفضل مرّة أخرى إلى "ليو دجنيو"، الذي تدخل بخصوص قضية الكتابات الخاصة بفن العرافة عند بداية القرن، مما جعله يفوز هنا بلقب فاعل الخير لفقه اللغة الصينية وهو لقب لا يشاركه به الكثيرون.

في عام 1909، كانت دائرة المحفوظات الإمبريالية-المزيّنة بمجموعة هامة من الكتب القادمة من المكتبة الإمبريالية الرئيسية، وين يوانج – على وشك الانهيار بسبب ما وصلت إليه من تداعي. لقد قرر المدير والإصلاحي شانغ جيدونغ أن تشكّل بعض الأقسام القاعدة الأساسية للمكتبة الوطنية الصينية لكن مع حرق كل الأعمال غير المفيدة المتكدّسة خلال ثلاثة قرون، كما تشاء التقاليد (وكما يشاء القدر أيضاً إذ أُتلف ما بين 50% إلى 60% من المحفوظات عند دخول الحلفاء إلى بكين عام 1900). لكن "ليو دجينيو" نجح في ردعه لتذهب الوثائق كلها إلى المتحف التاريخي في "ويمن" بعد تأسيس الجمهورية. بعد عشر سنوات، احتاج أمين المتحف للمال فقام ببيع ثلاثة أرباع المجموعة بمبلغ 1000 دولار مكسيكي لتاجر ورق قام بحمل 150.000 رزمة منها بأكياس من القنب، أي ما يعادل 75 طنا. بعد فترة من الزمن عندما مرّ "ليو دجنيو" في بكين شرع بممارسة هوايته المفضلة أي التنقيب لدى بائعي الكتب فوقع على رسالة تهنئة موقّـعة من قبل ملك كوريا وتحمل خاتم المكتبة الإمبريالية. ذلك أن تاجر الورق، وبانتظار القيام بعملية حرق ما كان قد حصل عليه من كتب، باع قسما منها لأصحاب مكتبات في ليوبيي شانغ. واضطر "ليو دجينيو" إلى دفع مبلغ 13.000 دولار كي يشتري كل ما وقع تحت يده وبنى جناحا لإيوائها وجردها. لكن العملية أدّت إلى خرابه فاضطر إلى بيع المكتبة الإمبريالية لجامع كتب من تيانجين اشتراها منه عام 1929 معهد التاريخ وفقه اللغة بمبلغ 18.000 دولار. أثار الأمر فضيحة إذ كتب لوتسون في إحدى المجلات: "من الصعب

حقًّا في الصين المحافظة على الممتلكات العامّة، فإمّا أن السلطات تنقصها الكفاءة، وهكذا تضيع تلك الممتلكات أو أنها ذات كفاءة وبالتالي تسرقها"[95].

وكتتويج لفترة الانفلات تلك قام مدير المكتبة باختلاس زبدة الكتب النادرة في بكين ونانكين وكذلك 7% من محفوظات سلالة "كينغ" التي جرى الحديث عنها سابقًا ثم نقلها معه إلى منفاه في جزيرته، ولاسيما أنه من الصحيح القول إنّ تلك الممتلكات الأدبية التي اعتبرها الصينيون دائماً "ذات فضائل سحرية وكونية-كوسمولوجية"[96]، وضمانًا وأساسًا لا بد منهما للسلطة السياسية.

بدأ عهد جديد بالنسبة للصين مع حلول العام 1900 إذ لم يدرك عجزة بلاد وسط العالم (الصين) المتخلفون إلى أي حد يمكن لطعم الربح التجاري أن يتجاوز المصاعب ويلغي آلاف الكيلومترات ويوحّد ألدّ الأعداء، ولم يدركوا أيضاً أن التكنولوجيات الجديدة والصارمة جدا يمكنها أن ترى النور بلا علمهم معتمدة خاصة بطريقة مثيرة على منتوج محلّي صيني ومواكب للأعياد مثل البارود. وهكذا بدأ عهد جديد بالنسبة للصين مثلما بدأت الصين بمسح جزء لا يعوّض من ذاكرتها.

الهند في منابع المعرفة

تغطي مساحة الهند 3% من الكرة الأرضية وهي مهد ديانات عديدة متناحرة، جاء الإسلام كي يزيد منها. وشكّل وجود فرقٍ لا تحصى ونظام من الطوائف كأساس للنسيج الاجتماعي تربةً قابلة للاشتعال .إلى درجة أنّه لا يُستغرب أن تؤول البوذية إلى الزوال[97].

وربما أن بوذا نفسه قد توقف ذات يوم في نالاندا ثم أن نا-الام-دا، أي ما يعني "عدم التعب أبداً من العطاء"؛ هي إحدى صفاته. اليوم وتحت اسم

"باراغوان" في غرب "بانتا"، تدلّ الخرائب العالية الحمراء المائلة للون البرتقالي لنالاندا على عظمة المركز الجامعي الذي تأسس أثناء حقبة الغوبتا (320–467) والذي كان كما يبدو نموذجاً عابراً للمجمع المسكوني وكان يتم فيه أيضاً تعليم البراهمانية وكل المعارف الدنيوية.

كان الراهب "شوان تسانغ" الجسور، وفي "الرحلة نحو الغرب"، الرامية إلى جمع النصوص الأساسية للبوذية من أجل الصين، قد وصف في القرن السابع النشاط الرائع لتلك المدينة الثقافية التي وجد فيها 10.000 شخص من "الكهنة والمقيمين الأجانب"، أي 1.510 أستاذ لتعليم 8.500 طالب. والتعليم مجاني فيها لأن الملوك قد زودوها بريع مئة قرية.

وكانت فيها أبنية من ستة إلى تسعة طوابق "تلامس الغيوم" كما سيدل نصب تذكاري في القرن الثامن عشر، مع قاعات للندوات والعديد من الصوامع مع مشكاة للمصابيح وأخرى للكتب.

أُطلقت على المكتبة الكبرى تسمية جميلة هي "إلى سوق الإيمان"، وهي مؤلّفة من ثلاثة أبراج: راتناساغارا وراتنارانجاكا وراتنودلهي. يشرف هذا البرج الأخير على المركّب من طوابقه التسعة وفيه الكتب الأكثر ندرة والأكثر قداسة التي من بينها المجموعة التنتريكية (الهندوكية). وإذا كان عدد المؤلفات المجموعة في نالاندا مجهولا فمن المعروف أن "شوان تسانغ" قد أقام فيها مرتين منها استمرت إحداها خمسة أشهر في جنة النصوص تلك للإشراف على نسخها. أمّا نظيره "ييجينغ" فقد بقي فيها عشر سنوات اعتبارا من عام 762 وجلب معه أربعمئة كتاب تحتوي على نصف مليون من ثنائيات الأبيات المتكاملة باللغة السنسكريتية.

ذات يوم حضر متسولان فقيران جداً أثناء أداء قسم. كانا من الهراطقة

(تيرتيكاس) كما كانوا يطلقون على أنصار اليانية (إحدى ديانات الهند وهي ترتكز على تطهير النفس باللاعنف). وكان هؤلاء يطلقون بالطبع نفس الصفة على البوذيين. وقام راهبان مبتدئان شريران خارجان على الرقابة برشقهما بالماء فثار غضبهما بسبب ما تعرضا له. ويقال أنهما بعد أن توسلا في عين المكان طيلة اثنتي عشرة سنة لمعبودهما المفضل وتطهّرا بذلك قاما باحتفال طقوسي قرآ فيه نصوصاً مناسبة حسب الكتابات الدينية حول النار المقدّسة ثم ألقيا جمرات ليست أقل قداسة داخل الأبنية. تبع ذلك حريق كبير واشتعل البرج المسمى راتون دلهي لتلتهم النيران مكتبة نالاندا الرائعة بالكامل.

لا تزال هذه الرواية تُعزى إلى حاجٍّ من التيبت يسمّى "شارما سفامين"، وهو رجل مثير للقلاقل ربما كان قد زار الأنقاض وسط القرن الثامن عشر بعد أن كانت نالاندا وكتبها —كما يرجح— قد أضحت خرابا كاملا بعد مرور الغزاة المسلمين بقيادة بختيار خالجي عام 1199. وكانت توجد كذلك إلى الشرق من "باتنا" أودانتابوري، أي بيهار اليوم، التي عرفت المصير نفسه بالتزامن على يد التركمان—الأفغانيين نفسهم.

تأسست تلك الصومعة البوذية في القرن السابع من قبل الملك غوبالا، وكانت دون شك مستلهمة أو منسوخة عن نموذج نالاندا وكانت بدورها نموذج الصوامع التيبيتية التي كان أولها "بسالم-ياس" عام 749. وترافقت أحيانا عمليات التدخل المستمرة لإسلام الفتوحات إلى الهند مع السطو على المكتبات (كما فعل عام 1739 الإيراني نادر شاه في دلهي حيث بيعت كتب أباطرة المغول فيما بعد ببلاد فارس بسعر زهيد جدا) وجرى استبدالها غالبا بمؤسسات للتربية الإسلامية هذا إذا لم يتم اللجوء إلى عملية إبادة ثقافية شرسة كما جرى في فيجاياناغارا عام 1565.

اندفع "شوان تسانغ" دون أن يوقفه شيء سوى شائعات الحرب الأهلية

في سريلانكا، ووصل إلى تاكشاسيلا أو تاكسيلا عاصمة قندهار. ولم تكن تُرى فيها بعد سوى أكوام من الحجارة المثيرة للدهشة ذلك أن المعابد البوذية تمتلك هنا تيجان أعمدة كورنثية. ترنّح هذا الملتقى الاستثنائي للحضارات تباعًا تحت وقع خطوات داريوس والإسكندر وسيلوكوس من نيكاتور وأبولينوس من تيان والقديس تو ومحمود من غزنا. كان أزوكا هو حاكمها في القرن الثالث قبل الميلاد ثم أصبح أحد أشهر ملوك الهند وتشرّب من ذهنية بوذا. كانت تاكسيلاهي أحد أول الصوامع وعرفت أوج ازدهارها حوالي العام 400. وقد زارها فاكسيان، رائد الرهبان الحجاج من الصينيين، بحثا عن مخطوطات لنسخها حيث كانت المكتبة تحت تصرف خمسمئة معلم ومثلهم من تلامذة الدير. كان على هؤلاء التلامذة أن يدفعوا مسبقاً ألف قطعة من النقود من أجل دراستهم الطويلة وكان فعل "تعلّم" يعني "سيام تاشيتي" أي قراءة العلوم، نعم قراءة. وللأسف كان "الهونس" البيض، أو الهتاليون، يحسّون بنوع من الحقد حيال البوذية وجهدوا كي يدمّروا كل تظاهراتها المادية إن لم يكن الذهنية خلال القرن الخامس. وهكذا اختفت تاكسيلا بشكل مباغت.

وبينما كانت البوذية في الهند لا تفعل سوى أن تدير خد اللاعنف لمهاجميها وتقبل الانطفاء، انتقل صراعها مع الهندوسية بكل لهيبه إلى سريلانكا حيث ازداد حدة. كانت سيلان السابقة محكومة من قبل سلطة سنغالية ذات لون هندوسي معدّل قليلاً مع نزعة سياسية عنيفة، كما تجابه يومياً معارضة تامولية داعية للاستقلال ليست أقل استثارة وغضباً كما سنرى لاحقاً. كانت البوذية مع ذلك أول من توطّن على الجزيرة بشكل هادئ حوالي عام 220 قبل الميلاد وأثّرت على اللغة والفكر والأدب. ففي حوالي القرن الرابع لوحظ وجود ثلاث مكتبات رهبانية على الأقل من النصوص المكتوبة. وعلى غرار هذا التقليد زيّن الملك باراكرا ماباهو الأول (1153–1186) البلاد وعاصمتها الجديدة

بولاناروپا بعدة مكتبات من بينها المكتبة الملكية المسماة بول غولفيهيرا. لكن عندما وصل بعد ذلك الملك "ماغا" من "كالينكا" إلى السلطة وحكم بسلاح الرعب من عام 1214 حتى عام 1255، كانت مجاميع الكتب تلك من ضحاياه. وعلى الرغم من أن "ماغا" لم يكن تاموليا، فإن التامول تحمّلوا تبعات سوء سيرته. كان هؤلاء قد تفرّقوا في شمال البلاد وتكرّست في القرن الثالث عشر مكتبة لأعمالهم، هي مكتبة ساراسفاتي ماهالايام لكنها اندثرت في حريق كبير عقب حادث طارئ.

شاعت ذهنية بوذا القديم أيضاً في مناطق شرق الهند. وكانت الكتب في ميانمار، التي سميت للحظة برمانيا، مصنوعة أولا من صفيحات الخيزران أو من أوراق النخيل ثم من الورق المحلي المطوي "البارابيك" وجرى حفظها بعناية. وعندما احتل الإنكليز يانغون عام 1855 وأطلقوا حملتهم عبر عملية ضم دامية حُرقت عدة مكتبات خاصة ومدرسية. وقد قام الملك، دون شك من أجل الاحتفاظ بما هو أساسي، في الوقت نفسه بتشييد "كوزوداو"، أي مكتبة غير قابلة للاشتعال. ونُقشت المبادئ البوذية الأصلية "تيرافادا" بلغة "بالي" الهندية الدينية على 729 نصب من المرمر علوها متر ونصف. كما احتلت الشرائع البوذية "للأولين" ستة هكتارات بالقرب من ماندالاي، أمّا الكتب الورقية التي لم يتم إتلافها فقد جرى جمعها فيما بعد من قبل السير شارل إدوار برنار وأمكن بواسطتها، بالإضافة إلى مجموعته الخاصة من المخطوطات، افتتاح المكتبة العامة الأولى أي مكتبة برنار الحرّة. هذا وتشكل قرابة 5.000 مؤلّف أمكن استردادها بعد تدميرها أثناء الحرب الأخيرة نواة المكتبة الوطنية الحالية التي تتباهى بامتلاكها 618.000 مجلّد مطبوع و15.800 مخطوطة والتي ربما سيصار إلى افتتاحها ذات يوم.

حكم الأمير "أومايادو نو أوجي" اليابان منذ عام593 حتى وفاته عام622. هو معروف أيضاً باسم "شوتوكو" بعد وفاته، وقد شجّع الواردات الضخمة من المعارف والممارسات الصينية، ووفّر الحماية الحاسمة للبوذية. وقد شيّد لهذه الغاية غير بعيد عن "نارا" موقع "هوريو-جي" الذي ربما يحتوي على أقدم أبنية من الخشب في العالم وحيث توجد مكتبته الهامة "يوميدنيو" أو قاعة الأحلام. تشكل العمارة المكوّنة من الخشب الخفيف والورق إحدى سمات اليابان وبالتالي تمثل النار أحد المكونات الطبيعية للحياة الجارية، إذ يمكن للزائر اليوم أن يُعجب مرارا بالمعابد والقصور التي أعيد بناؤها ثلاث أو أربع مرّات أو أكثر بحيث أنها غالبا تعاصرنا تقريبا. ومن نافلة القول إنّ الكتب المصنوعة من الـ"واشي"، وهو ورق مصنوع ورقة إثر ورقة حسب تقنية تتمثل في تهوية العجينة مع طبع بعض الحركات في الشكل، تتلف بهبة ريح. لم يبق أي شيء من المؤلفات التي شكّلت المجموعات العديدة التابعة لنبلاء "هي يان"، أي الكتب الكونفوشيوسية المحببة لدى "إيزونوكامي نو ياكاتسونغو" الذي كان جناحه للأعشاب المعطرّة مفتوحا للجميع (أي لجميع الشباب الأرستقراطيين الذين يعرفهم). ولم يبق شيء من كتب قصر ساغا، الإمبراطور والشاعر والخطاط أو من كتب "ريزن-آن" التي احترقت عام 875 مع "قائمة الكتب الموجودة حاليا في اليابان".

وعندما حلّ السيف محل الريشة "القلم" بعد القرن السابع أصبحت المكتبات أكثر ندرة، ذلك أن المعابد وحدها هي التي كانت تمتلكها، وأحيانا الأثرياء الكبار، مثل مكتبة فرقة "تنداي".

فاسدون ولا عقلانيون، هكذا وصف المحارب "أودا نبوناغا" البوذيين الذين حاربهم طيلة حياته. كانوا يشكّلون منذ أجيال دولة داخل الدولة، وكانوا

متمردين حتى عندما تكون السلطة موالية لهم؛ كانوا في القرن السادس عشر أكثر قوة من أي وقت آخر، وكانت فرقة "تنداي"، مهما قال عنها "الدايميو" (أمير ياباني من الطبقة العسكرية التي حكمت اليابان قديما) تتسم بحسّها العقلاني العملي عبر سماحها القيام بعملية خلط كبيرة تمتد من "الزن" حتى الشنتويه (الزن Zen: فرقة بوذية تميزت بالتأمل للوصول إلى الجمال، وأسهمت في تطوير الفنون اليابانية. أما الشنتوية فهي ديانة يابانية تمجّد الأجداد وقوى الطبيعة). وفي عام 1571 أرسل جيوشه للهجوم على جبل "هيواي" حيث توجد أديرة "أزياكو-جي" وكلّفها بمهمة إحراق ثلاثة آلاف من الأبنية والمعابد والمدارس والمكتبات وذبح 6.000 راهب. يذكر كاتب سيرته ذلك الحدث بالكلمات التالية: "كان هدير الدير الكبير الذي تأكله النيران، وترفده صرخات الشباب والعجائز الذين لا حصر لهم، يرنّ وتتردد أصداؤه حتى تخوم الأرض والسموات[98]" لكن لم يكن هناك أي وجود لحرب الدين. إذ كان "أودا" يحتقر جميع المعتقدات. ثم إنه ولكي يحقق غاياته السياسية ويستأصل التعاليم البوذية شجّع قدوم واستيطان الـ"كيريشيتان" (اشتقاق من اللغة البرتغالية آنذاك للمسيحية) إلى درجة أنه كان يوجد في اليابان عند وفاته مئة وخمسون ألف من الذين جرى تعميدهم. لكن الأنظمة اللاحقة بذلت كل الجهود من أجل التخلص منهم.

هناك عدد قليل من الشهادات التي أظهرت ميلا حقيقيًا للمحافظة على الكتب في اليابان. هكـــذا سيبرز بالأحـــرى ميل الحاكم والمثقف "كانيوشي" (1402-1477)، الخبير بالدراسات الصينية والشاعر الذي عاش حياة جميلة "مستمتعا بأولاده الستة والعشرين وبمكتبة ثرية، كانت مثل مستودع كبير للتاريخ كله ولآداب الماضي. كان يعتقد أنه مستعصٍ على الضرر وبمنجاة من تأرجحات القدر". لكن الحرب "الغبية" التي نشبت عام 1467 أضاعت فجأة كل ما كان عزيزا على قلبه، وكتب هو نفسه في يومياته: "ارتفع خلال زمن

قصير عمود من الدخان وأصاب الخرابُ المكان سريعا. لقد نجت مكتبتي من اللهب دون شك لأن السطح كان من القرميد والجدران من التربة، لكن لصوصًا أشرارًا من الجوار خفّوا إليها على افتراض أنها تحتوي على المال والأشياء الثمينة وحطموا الباب وبعثروا الآلاف من المجلدات. و لم يتم إنقاذ أي كتاب من الكتب اليابانية أو الصينية التي جرى تناقلها منذ عشرة أجيال[99]".

تغيّر وضع المكتبات اليابانية العامة انطلاقا من فترة "إيدو" في القرن السابع عشر حيث أنشأت كل جماعة مكتبتها خاصة خلال القرن التالي عندما بدأ عامة الناس بالتعلم. لكن لم يؤدِّ هذا إلى تشكل مجموعات كتب كبيرة ولا إلى استمرارها حتى بعد إصلاح "ماي جي"، إذ باستثناء المكتبة الإمبريالية التي تأسست عام 1872 بقيت جميع المكتبات التي أنشئت تبعًا لإرادة الدولة فقيرة وسيئة التنظيم ومحط احتقار الناس. ثم غدت على الفور عديمة الفائدة... كما تعرّضت للقصف.

أثّر الإحساس بعدم دوام الأشياء والانجذاب لما هو طازج وجديد في باكورته[100] كثيرا في الفلسفة اليابانية. لم تكن مثل هذه المفاهيم بالتأكيد غريبة تماما عن قلة الحرص على جمع وتقديس الأشياء العتيقة التي تمثلها الكتب المقروءة. وسيغدو هذا كله، كما يقول "باشو" في مقطوعته الشعرية الشهيرة "هايكو"، مشابها بعد حين للمحاربين القتلى في الأعشاب العالية... بقايا أحلام.

الفصل السابع

الغرب المسيحي

"لن يثير الدهشة إذن امتلاك هذا
الكم القليل من الكتابات، بل إنّ امتلاك
أي منها هو الذي يثير الدهشة".

جرترود برفورد راولينغز

التفتيش

اخترع البابوات التفتيش لإسكات الراديكاليين الفوديين (من مقاطعة فود السويسرية) والكاتاريين الذين أثاروا قلقهم؛ لكن تحولت العملية سريعاً عن مسارها بسبب حماس العامة المكلّفين بتطبيقها مثل روبير البوغر أو فيرييه "مطرقة الهراطقة" أو موزاد دوماربورغ الذي بلغ شرّه درجة توجب معها قتله. ثم جرى بقدر أكبر من النباهة تكليف قساوسة بتنظيم شبكة الأظناء. كانوا يمتلكون، كما هو معروف، جميع السلطات وكانت السرية المطلقة تحيط بكل أعمالهم ولم يكن يحاسبهم أحد سوى الملك إذا عرف الوصول إليهم. ونادراً ما شوهد نظام للسيطرة أكثر فعالية، دون حاجة للدبابات ولمعسكرات الاعتقال

وبالاعتماد على تمويل ذاتي على حساب الضحايا، إذ من أعلى بيوت التفتيش إلى أدناها كنس الجميع الثروات الشخصية ربما باستثناء اثنين أو ثلاثة من كبار المفتشين الأكثر تقشفا، إذا وُجدوا. ويقال أنه عندما كان على جميع اليهود، الأغنياء منهم والفقراء، الإسهام في دفع مبلغ من المال لفرديناند ملك إسبانيا قدره 600.000 دوكا مقابل توقيف عملية التفتيش، كان سيسنيروس، المعلم الأكبر لمحكمة التفتيش، يدفع هذا المبلغ للملك على حسابه الخاص به. هكذا يسهل كثيرًا فهم مدى السهولة التي كان يمكن معها توجيه الاتهامات لعدد مخيف من البشر ثم "عدم ملاحقتهم" بشأن الكلمة المحددة التي يمكن أن تؤدي إلى موهم.

وفي عصر التفتيش الحليم، كانت تُصلى بالنار، كما يقول فولتير في روايته "كانديد"، أجساد الرجال والنساء أكثر مما يجري من حرق للمكتبات، وإذا كانت هناك رغبة بـــ"إطعام النار" بعض الكتب فإنه كان ينبغي الرجوع أولا لمحكمة التفتيش إلى أن أعدّ مجمع لاتران عام 1515 القرار البابوي الذي وضع حدا لأشكال التردد وتوجب حكما إتلاف الكتب "المترجمة من اليونانية والعبرية والعربية والكالدية، إلى اللغة اللاتينية أو اللغات الدنيوية، وكذلك الكتب التي تحتوي على مغالطات في الإيمان وعقائد مفسدة (...) وأيضا أهجية مسيئة لشخصيات مرموقة". لكن رغم الإجراء الأخير، المعمول به دائما، بدا المرسوم شديد القسوة ومفاجئا إلى درجة أن ألكسيس، أسقف "مالفي" قد صرّح أنه موافق على ما يخص الكتب الجديدة ولكنه غير موافق بالنسبة للكتب القديمة. ومن المعروف أنه لم يتم أبدا في أيّ منطقة، خاصة في شمال أوروبا، تطبيق مثل ذلك المرسوم. بل كان البابا ليون العاشر شخصيا قد تصرف بشكل معاكس، كما سنرى.

ولوحظ في المناطق الحليمة نسبياً في ميدان التفتيش خارج إسبانيا أن

رأسمال الحقد الذي تجنبته، إلى هذه الدرجة أو تلك الكثير من المكتبات لم يتأخر في أن ينصب على الكتاب اليهودي "المفسد كالطاعون" بامتياز.

إسبانيا الكاثوليكية

جعلت إسبانيا من التفتيش أداة جيدة للحكم بحيث أنها وجدت صعوبة كبيرة في التخلّي عنه ولم يتم إلغاؤه رسميا إلا في عام 1834 (اكتُشف من جهة أخرى أن الفاتيكان لا يزال يحافظ عليه حتى الآن تحت اسم آخر مما يثير رعشة لا تدركها الحواس). وبما أن الروابط المقدّسة للزواج وحّدت بين كاستيل وأراغون، وبعد اكتمال عملية الفتح من جديد، أطلق فرناند وإيزابيل حملة تطهير إثني واسعة. هذا وينبغي القول إنّ طبقة النبلاء الكاستيليين حددت لنفسها عندما كانت في السلطة هدفا تمثّل في القضاء على اليهود كمالكين ومنافسين، الأمر الذي صفّق له عامة الناس بطيبة خاطر دون معرفة السبب. لقد تم الإعلان عن أمر طردهم في شهر مارس من عام 1492. وكان يحق بموجبه للذين قبلوا منهم أن يتمّ تعميدهم كمسيحيين البقاء حيث أطلقت عليهم تسمية المهتدين.

بدا المردود المالي أقل بكثير مما كان مُنتظرا، فبدأت وقتها وبهدوء عملية تحويل الإسبان المغاربة إلى المسيحية إلى أن اعتبر الكاردينال فرنسيسكو جيمينيتر أن النتائج بطيئة، فانتهج فجأة، بدعم من الثنائي الملكي، سياسة القسر. وهكذا جرى بتاريخ 18 ديسمبر 1499 تعميد 3.000 مسلم بالقوة وتوجب عليهم أن يصطحبوا معهم كل كتبهم كي يتفرّجوا عليها وهي تحترق في ساحة فيفا راميلا في غرناطة، بينما جرت تنحية الدراسات الطبية جانباً واستعادتها جامعة الكالا. كان ذلك عملا مشهودا، وأكثر إثارة من عملية حرق الكتب التي نظّمها توركيمادا عام 1490، بشكل سرّي تقريباً وبطريقة مدانة إذ شمل ذلك 600 مجلّد وُصمت بالسحر واليهودية. وعلى العكس لاحظ شهود غرناطة أن النيران

التهمت أكداسًا من المخطوطات ذات خط وزخرفة رائعين ومزوّدة غالباً بزوايا ومشابك من الذهب أو الفضة. الإتلاف هو أجمل تسلية. صعق ذلك المشهد العقول ولاسيما أن الكمية المقدّرة للكتب تقارب حدّ الهذيان إذ تصل إلى ما بين مليون ومليوني كتاب[101].

أثارت القضية انتفاضة فكانت الإجابة بدورها أكثر حزماً، إذ جرى تعميدهم جميعهم وصولاً إلى أراغون. و أجاب القس على الذين اعترضوا أن ذلك لم يكن تكريسا طوعيا أن خيارهم الصريح والنهائي للتعميد وتفضيله على المحرقة هو نتيجة خيار حر صريح. وفي عام 1511 أصدرت الابنة الثانية للملك "دونا خوانا" أمرا توجّب بمقتضاه على جميع الموريسكيين – التسمية التي أطلقوها على الذين يتم تعميدهم من المسلمين – أن يجلبوا جميع الكتب التي بحوزتهم؛ إذ كان يراد الخلاص من الدراسات الفلسفية (كانت قليلة العديد إذ كانوا هم أنفسهم قد ألقوها بالنار بناء على أوامر صدرت في ظل حكم المرادين، إلى جانب نصوص تمس اللاهوت أو علم الكلام) وخاصة الخلاص من شرعهم الشرير ومبادئهم، كما كانوا يطلقون على المصاحف والمؤلفات الأخرى ذات الطابع الديني المتوفرة بكثرة. ثم جرى منع اللغة والأسماء والثياب العربية، وطال المنع أيضاً الاستحمام. وفي النهاية ما بين عام 1609 وعام 1614 ألقوا جميع الموريسكيين خارج إسبانيا، مما أدّى إلى انهيار الاقتصاد وخاصة في منطقة فالانسيا حيث كان يتواجد ثلاثمئة ألف منهم شبه عبيد، وهذا ما دعا أحد الأساقفة أن يقول بأسى: "والآن، من سوف يقوم بتصنيع الأحذية؟" بعد فترة وجيزة من طردهم، روى "ماركوس دو غوادلخارة" أنهم وجدوا في بيوت غرناطة، رغم كل الإجراءات المتخذة كتباً عديدة لاسيما من المصاحف ذات الجمال الرائع دفعت حروفها الغريبة وزخرفاتها لاعتبارها كتباً في السحر والشعوذة.

لم يعرف اليهود في تلك الأثناء أية راحة، وحصلت السلطة التي كانت تشك بصدق إيمانهم المفروض عليهم عنوة، إذنًا من البابا على أن يشملهم التفتيش الذي لا يمكن دونه التعرف على أولئك "الذين يمارسون عباداتهم اليهودية سرّا". وبما أن النبلاء الكاستيليين لم يكونوا موهوبين جدا في عالم الأعمال، أدّى عداء الدولة للسامية، بين أسباب أخرى، إلى جعل جميع بنوك البلاد تعود لأهل جنوة بين ليلة وضحاها، مما لم يكن حقيقة في صالح البلاد أيضا. وعمل جهاز القمع تحت سلطة "سيسنيروس" بكل طاقاته إذ أصبحت النزعة الإنسانية إحدى أشكال الهرطقة وجرى قسراً استبدال اسم الفيلسوف "إيراسم" باسم "فلان" في الاستشهادات، كما بدت نزعة التصوف المسيحي نفسها مقلقة وبالتالي تمّ استهدافها. أمّا الأطروحات ذات الطبيعة الإباحية فقد تمّ اعتبارها وسيلة إلى الشك الديني فهذه الكتب "ماذا تكون إذن بين أيدي الشباب الغض سوى سكين بيد مجنون؟[102]" هكذا جرى التوجه نحو منع العديد من الكتب ونُشر فهرس للمؤلفات المحرّمة التي قد تصل عقوبة قراءتها وحيازتها وتجارتها وطبعها إلى الإعدام. وكان نشر تلك القائمة قد جرى "تنظيمه مثل استعراض" مع موكب وطبول وموسيقى[103]، لم يتوقف عدد الكتب الممنوعة عن الازدياد، وكان للملك باع في هذا أيضاً إذ كان يكفي عامةً نبش ثري ما ووصمه بالهرطقة بسبب قراءاته وبالتالي حرقه كي يذهب إرثه كله إلى العرش، باستثناء الربع الذي يذهب لصاحب الوشاية.

ويبيّن تحليل عناوين الكتب الممنوعة أن التفكير حول تقدم الأفكار الخطيرة كان خاطئا إلى حد ما أو كان مصدره، على العكس، نزعة انتهازية خالصة. ففي النصف الأول من القرن السادس عشر أظهرت فهارس الكتب الممنوعة وجود هلع مخيف من "ضلالات محمد" ومن "كتب التوراة باللغة العامية" وشمل المنع سريعا النصوص اللوثرية؛ وكُتب هذا كله بنوع من الهذر لم

تعرف المحاكم تفسيره، فتُبودلت رسائل تسويفية كثيرة (يمكن معرفة تفاصيل أكثر في كتاب بارتولومي بن نصار Bertolomé BENNASSAR التي درست ظاهرة التفتيش طيلة مسيرتها المهنية)؛ وعلى العكس أعدّ اليسوعيون فهرساً لم يكن يُعنى سوى بالكتب المعادية لمنظومتهم، وصولا إلى الدفاع الصرف عن النظام الملكي وإعداد قائمة عام 1790 منعت كتب فولتير ولوك ونيكير (وصولاً إلى الأقلّ اطلاعًا. وآخر فهرس للكتب الممنوعة يعود إلى عام 1966 فقط ولا يزال مطبقًا. ولا تزال دراسات مونتين موجودة فيه) [انظر في هذا الموضوع مقال عبدالودود العمراني على صحيفة *الوطن* القطرية بتاريخ 2008/3/24 في الصفحات الثقافية بعنوان: قائمة الكتب المحرّمة ***Index Librorum Prohibitorum***. المُراجع]

وفي حالة الارتياب، لم يكن مدمرو المكتبات في القرن السادس عشر يكتفون بإحراق الكتب المحددة بدقة وإنما كان يصل بهم الأمر أحياناً إلى تخمين ما ينبغي حرقه. وقد أدّى ميلهم هذا إلى إتلاف عدد لا يحصى من الكتب العلمية لأنهم لم يستطيعوا أن يحددوا بدقة مضامينها السيئة أو الجيدة[104].

كانت عمليات الحرق عامي 1559 و1560 فائقة الشراسة إذ كان المقصود آنذاك هو رمي الأفكار اللوثرية إلى ما وراء جبال البيرينيه شمالاً. ثم أصبحت القوانين أكثر صرامة عبر منع التعليم في الخارج باستثناء روما وجامعتين أو ثلاث جامعات؛ وأُعطيت بنفس الوقت الأوامر للطلبة والأساتذة الذين كانوا خارج الحدود بالعودة إلى البلاد والمرور بامتحان أمام محاكم التفتيش عند وصولهم، مع منع استيراد الكتب والقراءة بلغة أخرى غير الإسبانية. بل كان الملك نفسه، لا يتحدث ولا يقرأ بطلاقة سوى اللغة الكاستيلينية (الإسبانية) بينما كان رعاياه يتحدثون الهولندية والكاتالانية والعربية والفرنسية والإيطالية والبرتغالية والإنكليزية. وكما في الإسكندرية تحت ظل حكم بطيلموس

فيلاديلف، وإنما بهدف مغاير تماما، كان يجري تفتيش السفن الراسية في المرافئ حيث كان مفوّض التفتيش يصعد إليها حتى قبل رجل الجمارك.

هكذا غدت المكتبات الإسبانية، الخاصة منها كما العامة، تحت الرقابة وصودرت وأتلفت سرا. "بتاريخ 25 أكتوبر 1566 استيقظت إشبيلية لتجد نفسها محتلة تماما من قبل رجال البطانة (هكذا كان يدعى الجنود الإضافيون، أي المتطوعون المدنيون أصحاب المصالح الجليّة) الذين أحاطوا بجميع مكتبات المدينة. ثم ختمها المفوضون بالشمع الأحمر كي يصار إلى تفحص محتوياتها كتابا إثر كتاب[105]". وجرى ذات يوم آخر تفويض عشرين أستاذا للقيام بتنظيف جميع رفوف مكتبات سلامانكة من جميع المؤلفات الملعونة. وقد طالب أحد الخبراء بزيادة الأجر إلى المفتش إذ أن تنقية مثل تلك المكتبة في مدريد التي تبلغ قيمتها 18.000 دوكا احتاجت وقتا أطول مما كان متوقعا، أي أربعة أشهر بواقع ثماني ساعات من العمل يوميا. وعلى العكس، تعوّد محبّو المكتبات ذوو النفوذ أن يغشوا. هكذا عندما وضعوا برسم البيع مجموعة كتب خوسيو أنطونيو دوسالاس، ذلك السيّد الذي لم تكن ترقى له الشكوك والحائز على ميدالية فارس كالاتافار، اكتشفوا أنه من أصل 2424 كتابا كان هناك 250 محظور امتلاكها تحت طائلة عقوبة الموت. وبنفس الطريقة لم تأخذ مؤلفات "ملعونة" كثيرة طريق المحرقة وإنما أخذت طريق مكتبة قصر "اسكوريال" التي احتوت على الأقل 932 منها عام 1639[106].

كان ذلك القصر ذو الغرابة القاتلة هو أحد الأبنية الأكثر إثارة للقلق في المسيحية على غرار سيده الملك فيليب الثاني الذي لم يكن يتذوق النوم الهادئ في حجيرته-الكنسية. منع هذا "الملك الشعبي"، الذي لم يعرف أبدا ماذا يريد واتهمته مقالة نقدية بروتستانتية بظرافة أنه يريد تقطير "الدواء الكاثوليكي الإسباني". وقد حرّم عام 1566 على جميع رعاياه الاستحمام واستخدام اللغة

العربية، وأعطاهم فترة ثلاث سنوات من أجل تمثل الخطاب الرسمي. لكن لا يُعرف عنه إلا قليلاً هذيانه بحب المكتبات، فالرجل الأقوى في العالم آنذاك لم يكن يحلم سوى بتخطي روما وفلورنسة والبندقية حيث توجد أفخم المكتبات المعروفة وأن يبني مكتبة جديدة على غرار مكتبة الإسكندرية لاستخدامه الشخصي حصراً. ويروي خوسيه دوسيغويترا، المأمور، أن مجموعة الكتب البازخة تلك فصلت المخطوطات المكتوبة باللغة اللاتينية "دون خلطها مع أية مخطوطة مكتوبة بلغة أخرى"، ومن بينها مخطوطة مكتوبة بيد القديس أوغسطين نفسه وذات "الحروف الشبيهة بأحرفنا الكبيرة والشكل المتطاول أو الهمجي المُشاهد قديما في إفريقيا حيث كان يتواجد الكثير من البشر المرموقين".

جُمعت في قاعة أخرى النصوص "العبرية والعربية والإيطالية والكاستيلية والفارسية والصينية والتركية" بالإضافة إلى مصنّف جامع بـــ"اللغة المالابارية". وكانت المخطوطات العربية هي الأجمل دون منازع بحروفها الكوفية المذهبة على خلفية من الأزرق السماوي وحروفها الصوتية المكتوبة بالأحمر وحركات التشكيل بالأزرق الغامق، مما يشكل لازوردا مرشوشا. لكن جرى إتلاف عدد كبير من هذه الروائع إلى درجة استوجبت البحث عنها في المغرب بعد أن كان "ألونسو دو كاستيللو" المغربي الأصل – الموريسكي- مفوضا في غرناطة وقرطبة بشراء ما كان قد بقي منها، أي القليل دون شك.

ومع ذلك امتلك قصر "إسكوريال" الجزء الأكبر من المكتبة الملكية المغربية، أي أربعة آلاف مخطوطة مسروقة عام 1612 من مولاي زيدان الذي أراد الهرب بممتلكاته. فقام بشحنها على سفينة شراعية حربية فرنسية (نوتردام دو لاغارد). هرب القبطان بحجة أن السلطان رفض أن يدفع له مقدّما. وقام الأسطول الإسباني بتفتيش السفينة ليمضي أبناء زيدان، عندما عادوا إلى السلطة، بقية حياهم وهم يطالبون دون جدوى بالمكتبة من ملك إسبانيا وبتعويض عن الخسائر من ملك فرنسا[107].

وبعد هذا القدر من الجهود وتصفيف الكتب على الرفوف المعطّرة قليلاً لمكتبة ريجيا لورنتينا، كان مجرد سهم ناري أُطلق في المجمّع المجاور كافيًا لإشعال حريق هائل استمر خمسة عشر يوماً وكان شديدًا إلى درجة أن النواقيس الثلاثين قد ذابت. ويقول الجندي خوليان زاركو: "استطاعت ألسنة اللهب في مكتبة المطبوعات الدخول من الباب، لكن جهودا بطولية تضاعفت كل لحظة خلال الأيام الثلاثة الأولى في عملية صراع استثنائي وهائل ويائس أدّت إلى منع تقدم النيران ولم يمس هذا القسم أي أذى على الرغم من اشتعاله في اللحظات الأولى"[108]. ومع ذلك شبّت النيران فيما بين 2.000 إلى 4.000 مخطوطة عربية كانت مكدّسة في زاوية من الرواق الداخلي عندما اشتعل البيرق التركي المبسوط عليها؛ وكان هذا البيرق المصنوع من الحرير المجفف يمثل الغنيمة الدالة على الانتصار في معركة "ليبانتي". وحسب شهادة الجندي "فرنسيسكو دولونس سانتوس" نجا المصحف والعديد من الكتب الأخرى من ذلك الحريق لأنها كانت مبعثرة في أمكنة متعددة. وكذلك نجت أشياء ثمينة قديمة كانت محفوظة في المكان؛ وبقي الكثير أيضاً من الكتب اليونانية واللاتينية وبلغات أخرى، كتب أصلية ونسخ جرى رفعها من مكانها. أما الباقي فقد اشتعل مع الرفوف والرسومات التي كانت تزيّن القاعة عالية الارتفاع مما لم يسمح بإنقاذها، وانهارت ثريتان من المعدن المذهّب من الغنائم التركية وأدوات خاصة بالرياضيات وميداليات وتماثيل وثنية، وبما أنه كانت تحيط بالمكان رفوف مصبوغة مصنوعة من خشب الجوز ومساند للكتابة وأشياء أخرى من الخشب ازدادت ضراوة النار المتأججة وكأنها جهنم"[109]. لقد تلف في تلك القاعة أكثر من ثلاثة آلاف مؤلّف من بينها ستمئة وخمسون كتابًا يونانيًا بالإضافة إلى ألفي كتاب آخر في الرواق الرئيسي؛ أي ضاع ما بين أربعة آلاف إلى خمسة آلاف مخطوطة من بينها "لوسنس"، المخطوطة الشهيرة التي تحتوي على نصائح شعب الفيزغوت، ومؤلّفات ديوسكوريد والتسعة عشر مجلداً من "التاريخ الطبيعي

للهنود" من تأليف توليدان فرنسيسكو هرنانديس الذي يصف فيها نباتات ووحوش وعادات المكسيك مع وسائل إيضاح بالألوان برسم يده.

أنقذ الرهبان عددًا من الكتب (من بينها كتاب "بياتو دو ليبيانا" الذي يحتوي على 19 منمنمة تعود للقرن الحادي عشر) بقذفها إلى الفناء من النوافذ وإغلاق الأبواب على عجل لمنع انتشار الحريق. لكن من أصل 8.000 مخطوطة عربية، لم يبق سوى 1.824 مخطوطة "ناجية ربما من المكتبات الكبرى الغابرة في قرطبة القديمة[110] كما أظهرت عملية جرد بعد مئة عام".

وعندما انحط شأن إسبانيا إلى درجة إرسال جوزيف بونابرت لإدارتها، طال الأذى مكتبة القصر بالطبع دون حياء. وعهدت الحكومة الفرنسية آنذاك بمهمة تحويل مجموعة كتب قصر إسكوريال إلى باريس إلى أحد العملاء (هكذا كانت تُطلق التسمية على أولئك الذين اعتقدوا أن البلاد لن تخرج من حالة الركود وحدها، فاعتبرهم الكثير من الناس عملاء). هبّت على هذا الرجل المكلف "خوسيه أنطونيو كوندي" الذي كان يتحدث اللغة العربية نفحة من الإحساس الوطني فقام بإخفاء الكتب القيّمة في قبو كنيسة "ترينيتي" في مدريد وغطّى الصناديق التي تحتويها بجبل من المطبوعات التافهة. لم يتحدث أحد عن تلك الكتب طيلة خمس سنوات، وعندما عبّر الملك فرناندو السابع، الذي لم يكن يحظى باحترام كبير، عن رغبته في إعادتها إلى الرفوف المذهبة اعترض أهل الأدب في مدريد على ذلك إذ اعتبروا أن مجموعة الكتب تلك قد تكون محميّة ومقدّرة بشكل أفضل في مكتبة "ريال". وقد وجد عدد من المخطوطات ذات قيمة عالية طريقه خلال تلك الفترة المشوشة إلى صالات البيع حيث استطاعت الحكومة الفرنسية الحصول على مخطوطة "كانسيونيرو دو باينا"، وظفر مجلس النواب بمجموعة قوانين أزتيكية (موسوعة قوانين بوربون، بقيمة 1.300 فرنك)، بينما رسى بيع كتاب جامع للأناجيل يوناني رائع الزخرفة على المتحف

البريطاني وانتهى آخر إلى متحف "بييربونت مورغان" في نيويورك. وأظهرت عملية جرد عام 1839 أن مكتبة "ريجيا لورنتينا" فقدت أكثر من عشرين مخطوطة و168 من الكتب المطبوعة النادرة.

وأكثر ما يثير السخرية هو أن عدم عثور مبعوث فيليب الثاني في حينه على الكثير من المخطوطات العربية الجميلة لشرائها في الأندلس إنما يعود إلى ترحيلها إلى قابس وتونس أثناء اضطهاد مسلمي غرناطة، وإلى غيرها من الأمكنة في القرن الماضي. وكان ابنه شارلوكان مسؤولا، جزئيا، عن إتلافها نهائيا عندما استعاد تونس من خير الدين بربروس في شهر يوليو من عام 1535. كانت القضية ذات أهمية كبيرة وكان ينبغي القيام برد فعل قوي حيال عملية القضم الهائلة لسليمان الكبير الذي سيهدد فيما بعد إسبانيا نفسها. وهكذا أرسلت قوات هائلة لمواجهة تقدمه وأعطيت مهلة ثلاثة أيام فقط للجنود كي يشيعوا الرعب في العاصمة. هذا ما يرويه "غيّوم دومونتوش" معلم الفروسية، في "خطابه الكامل على واقع ما جرى" بالقول: "بعد دخول جلالته إلى مدينة تونس بفترة قصيرة وصل جنود المشاة وغيرهم من الجنود وبدؤوا بتكسير وتحطيم الأبواب والنوافذ والدخول إلى البيوت وقتل العرب المقاومين بداخلها كي يلجؤوا بعد ذلك للنهب وتخريب كل شيء من آبار وصهاريج ومخازن تجارية ذات الغنائم الكبيرة وكذلك المساجد والمعابد الخاصة بالعرب المسلمين، وذلك بعد أن أتلفوا وخرّبوا العديد من الكتب الجميلة من بينها كتب القانون والشرائع ذات التجليد الجميل والمذهبة والمكتوبة بالحروف العربية المذهبة أيضاً وذات اللون الأزرق السماوي، كما أخذ بعض أولئك الجنود معهم أحجاراً من اليشب الرمادي وغيره من الأحجار الكريمة[111]".

لن تفوت في هذا السياق الظلامي الذي كانت إسبانيا إحدى تجلياته البارزة، ملاحظة شخصية الدون "أنريك داراغون" الإصلاحية والفريدة، مركيز

"فيلينا" المولود عام 1384 من دم ملكي مزدوج كاستيلاني وأراغوني. كرّسه والده لمهنة السلاح ودربوه منذ سنوات شبابه الأولى على الفنون العسكرية، وهذا ما دفعه مبكّرا كي يصبح شاعرا. كما دفعه شغفه الكبير بالتاريخ إلى التحدث بعدة لغات أمام الاندهاش الكبير لزملائه من البارعين باستخدام السيوف. أصبح الدون "أنريك" شهيرا بسرعة بل حظي بشعبيته لعلمه في ميدان العرافة وفنه في تفسير الخبايا. ويُظن أنه كان "لا يحظى إلا بقسط قليل من التقدير من قبل الملوك والقليل من الاحترام من قبل فرسان إسبانيا الأشداء[112]". لقد وجدوه قصيرا وسمينا ومفرطا بنهمه للرفاهية وأكثر منها للذات الجسد، ثم إنه تخلّى عن زوجته وكتب العديد من الكتب التي اختفت كلها من بينها كتاب "فن تقطيع" اللحم والسمك والفواكه؛ بل اقترح إقامة مدرسة كبيرة يمكن لأبناء النبلاء أن يتعلموا فيها مبادئ السلوك الجيد في الحياة. لقد تخلّى عن إقطاعته "تينيا" كي يصبح سيداً في جماعة "كالاترافا"، وهذا لقب جرّده منه الملك سريعاً ولم يعد يمتلك، كما يبدو، شيئاً ثم توفي عام 1434.

سرت الإشاعات الأكثر جنوناً حيال قصته، خاصة تلك القائلة أنه طلب تقطيع جسده إربا إربا ووضعها في وعاء زجاجي محكم الإغلاق كي يبلغ الخلود أو كي يجعله عشب "أندروميد" غير مرئي. ودون إبطاء أعطى الملك يوحنا الثاني أمرا للراهب لوب دو بارينتوس كي يستولي على مكتبة المركيز الكبيرة ويقرر ما ينبغي عمله بشأنها. جرى حرق أغلبية الكتب باستعراض كبير أمام الدير الدومينيكاني في مدريد حيث دُفن المركيز. أما الباقي فقد حفظه الأخ لوب سراً، بناء على أوامر الملك كما زعم، كي يساعده في كتابة عملٍ كبيرٍ ذات يوم يدين فيه علوم السحر والتنجيم. لقد وجد فيها، في الواقع، مادةً ومنفعة كافيتين كي يؤلف كتابين على الأقل. وبينما كانت المكتبة تنال جزاء الكتب الملعونة التي احتوتها نجت الكتب نفسها من التلف وأشاعت الجريمة.

العالم الجديد

"لقد وجد عالمنا منذ فترة وجيزة عالماً آخر، ليس أقل حجماً وانبساطاً واتساعاً منه، إنه عالم جديد وهو ما يزال صبيًّا لدرجة أنه يتمّ تعليمه الألف باء. ولجلّ ما أخشاه أن نكون قد عجّلنا في انحطاطه وخرابه بوبائنا وبعناه بسعر باهظ جداً أفكارنا وفنوننا[113]". من هو صاحب مثل هذه الرؤية البعيدة عام 1588، الذي فهم بسرعة وتكلم بوضوح؟ إنه مونتين.

ما إن وضع الإسبان أقدامهم في العالم الجديد حتى أدخلوا إليه محاكم التفتيش. وأصدرت الملكة مرسوماً ينصّ على حصر حق الهجرة والإقامة بالحائزين على وثيقة "نقاوة دم" مضمونة على مدى أربعة أجيال من "الممارسات الكاثوليكية". لكن لم يؤخذ في الاعتبار أن المرشحين للسفر كانوا يصطحبون معهم أعداداً كبيرة من الخدم غير الخاضعين للرقابة وأن الكثير من أصحاب السفن كانوا من اليهود وكذلك غالباً البحارة العاملين على سفن تلك الوجهة، هذا دون الحديث عن التزوير السهل عبر الذهاب واختيار اسم موجود على حجرة لحد مهجور في المقبرة.

وهكذا اعتبارا من شهر يوليو 1517، أدخل "سيسنيروس" التفتيش في "بلاد الهند" لمراقبة الجاليات التي تحولت إلى المسيحية واستوطنت في تلك البلاد بسرعة كبيرة دون تطبيقه على أبناء البلاد باعتبارهم آنذاك مثل القرود تقريباً (وحتّى بعد ذلك ففي عام 1629 كتب "بينالوز" البندكتي هذه الكلمة (كما يذكر ألفريد توزير). لكن دورهم في القلق سيأتي، فلتطمئن النفوس، إذ كان وراء تأخيره تفصيل قانوني–تقني هو أن التفتيش لا يخص سوى المسيحيين، لذلك توجّب أولا تعميد أبناء البلاد من أجل امتحانهم (أمام محاكم التفتيش).

لم يأخذ المهاجرون معهم بالطبع مجموعات كبيرة من الكتب. بل أعارهم تقريباً سكان العالم الجديد كتبهم. وقدّموا لــ"كورتيس" في اللقاء الثاني العديد

من الهدايا الذهبية وكتابين "من تلك التي كان الهنود يمتلكونها".

في حوالي عام 1450، جمع إمبراطور الأنكا باشاكوتيك، أو "مصلح العالم" المؤرخين ورؤساء القبائل المحتلة. لقد "استنطقهم طويلاً وأمر برسم الأحداث الرئيسية التي مهرت حكم أجداده على ألواح كبيرة مطعمة بالذهب ثم نصبها في قاعة بمعبد الشمس حيث كان له هو وحده وللعلماء الذين عيّنهم حق الدخول إليها[114]". ولقد استخدموها كمكتبات " كما يقول "سارمييتو دو غامبوا". وعندما احتل الإسبان البيرو، اختفى سجل المحفوظات هذا أو بالأحرى تلك الأسطورة. وليس معروفاً إذا كانوا قد أبادوها بصفتها ذاكرة أو استولوا عليها باعتبارها غنيمة. بكل الأحوال ربما أنهم قد خربوها "فمن أجل الحصول على القرفة كانوا يقطعون الشجرة ومن أجل الحصول على الصوف كانوا يذبحون الخرفان".

أصابهم الذهول بالمقابل أمام "قاعات كاملة" من ذوات العقد، أي تلك الحبال الملونة والمعقودة التي لم يكن يتم استعمالها لتسجيل عدد الجمال الأمريكية (اللامات) ووصف تفاصيل تنظيم اجتماعي وبيروقراطي صارم فحسب، ولكن أيضاً لتسجيل أحداث التاريخ وعلم الفلك. يفتقر كل محتل إلى المخيلة وإلا لبقي في بلاده. ولم يكن لدى أي من صحبة "بيزارو" الفضول الذي يدفعهم إلى شرح الألغاز طيلة أكثر من خمسين عاما بقيت فيها تلك الوثائق قابعة في عين المكان. ثم أمر مجمع ليما عام 1583 بحرقها بسبب وصفات سحرية كان لا بد لأشياء بذلك القدر من الغموض إلا أن تحتوي عليها. وبالتالي لا يوجد اليوم أي شخص بمقدوره أن يقدم إلا بطريقة مختزلة تفسيرا آخر لآلية عملها ولمدى معناها المفقود.

تباهى "خوان دو زوماراغا" أسقف المكسيك ثم كبير مفتشي إسبانيا خارج الأسوار ما بين 1536 و1543 بحرقه كل مجموعات القوانين الأزتيكية التي

نجت من الحرائق التي قام بها "كورتيس" قبله. أي جميع الكتب المقدسة التي أرسل عناصره لجمعها أو كانت مكدّسة في قاعات المخفوظات. كانت كمية كبيرة دون شك وموسوعة "مندوزا" موجودة لحسن الحظ كي تدل على أنه كان ينبغي إرسال "24.000 رزمة ورق (وللمزيد من الدقة هي رزم من 20 ورقة والورق هو بالطبع من نوع "امات") سنويا بصفة جزية إلى مخازن سيد تينوكتيتلان" مونتيزوما الثاني، كما لوحظ وجود "أوراق أماكوزتيتلان الصفراء أو حزم تيبوزتلان البيضاء"[115]. وفي عام 1529 أمر زوماراغا بجلب محتويات مكتبة "عاصمة أناهواك ذات الثقافة العالية ومستودع المحفوظات الوطنية الكبير"[116] إلى ساحة سوق تلالتيكولو، حيث شكلت "جبلاً" اقترب منه الرهبان بمشاعلهم الملتهبة وهم يردّدون الأناشيد. ثم التهمت ألسنة اللهب آلاف الصفحات متعددة الألوان. كانت مهمة الفاتح هنا هي أن يقتل وينهب ومهمة رجل الدين أن يمحو ما هو قائم؛ قام الأسقف بمهمته على أكمل وجه مع إرضاء رغبته الواعية بتدمير ذاكرة أبناء البلاد وعزتهم. "كان المبشرون يعتقدون بإيمان راسخ أن الكنيسة المكسيكية لن تقوم إلا على خرائب الديانات المحلية" كما أراد تبرير ذلك عام 1533 المدعو روبيرت ريكا، مضيفا أيضًا: "المبشر ليس جامع أشياء قديمة!".

كان الكتاب الأمريكي منذ الأصل بناء متفرداً ومعقّداً إلى درجة قد يوحي فيها بالنفور لدى الأغنياء الجدد في عالم الطباعة إذ يستطيع كتاب موسوعي جامع على أوراق من الخشب الطري لشجر التين المطروق (من نوع هون لدى المايا وأماتل لدى الأزتيك) المطوية بثنايا (مثل الأكورديون) أو المخاطة، والمطلية بطبقة من الجير كي تستطيع استقبال علامات الأصبغة، أن يسجل تسلسل أحداث وأن يصلح كتاب للعرافة ويحتوي على معلومات في علم الفلك ومعطيات أسطورية ويصف إنجازات حربية. جرى مع ذلك تناقل

الأساطير والأشعار الملحمية شفهياً ونادراً بالكتابات. واستُعيض عن الآداب بقاموس للأشياء المعيّنة المعروفة أو المجردة أو حيوانات أو وجوه عبوسة أو رؤوس موتى مصممة بأناقة مما يثير بالتأكيد حفيظة الرهبان الفرنسيسكان. وقبل أن يشير بيير مارتير دانغييرا، الإيطالي ذو النزعة الإنسانية الذي كان قد زار الإسكندرية، إلى أن الأمر يتعلق بشارات دالّة وإذن بنصوص، لم يكن يُرى في ذلك في أحسن الحالات سوى مجموعات من نماذج (موديلات) للصائغين والمطرزين، وقيل أحياناً أن تلك الحروف تذكر باللغة العربية مع ما يثير هذا من الرعشة لدى لوبيز ميديل، المترهبن حديثاً.

وتدلّ مجموعة الكتب المقدسة التولتيكية المسماة "تيو أموكستفي" التي جمعها المنجم "هيوماتزين" في تولا حوالي عام 660 على وجود كتابات قديمة جدا في غواتيمالا. وقد ذكر هذا "لاس كازاس" — ساد الاعتقاد بدفاعه عن الهنود- الذي حرق بتصميم مذهل كل ما استطاع الحصول عليه من تلك المخطوطات أو "أعمال الشيطان". وقال المكتشف يوهان لويد ستيفنس أن بلده "كوبان" في الهندوراس كان باستطاعتها أن تكون "كعبة أو قدس شعب مجهول". انتفض أبناء تلك البلدة ضد المحتلين الإسبان عام 1530 مما ترتب عليه قمعهم بشدة. ولاحظ "غارسيا دو بالاسيو" الذي زار المدينة وأعجب بها عام 1576 أنه "لم يعد لديهم في الوقت الحاضر أية كتب عن أزمنتهم القديمة، واعتقد أنه لم يبق هناك سوى كتاب واحد، وهو الذي بحوزتي".

كان سكان نيكاراغوا الأصليون يمتلكون أيضاً، حسب أقوال الإسبان، مخطوطات موشاة بالأسود والأحمر مكتوبة على جلد الوعل، وكانت بعرض يد وطول يتراوح ما بين تسعة إلى عشرة أمتار، مطوية بعدة ثنايا على شكل "أكورديون". هذا ما عبر عنه "فرنانديز دو أوفيديو" باقتضاب عندما قال: "على الرغم من عدم وجود أي حرف على تلك الصفحات فإنها لم تكن خالية من الدلالة[117]".

ورغم بقاء أربعة عشر كتاباً جاءت من المعابد الأزتيكية (من بينها كتاب في فيينا على 65 جلد لحيوانات الوعل)، لا يُعرف وجود سوى ثلاثة أو أربعة كتب هزيلة وبحالة سيئة بالأحرى، نجت من معابد المكسيك من شعب المايا، منها كتاب في المكسيك وآخر جميل جدا وإنما مهترئ، في باريس- أُطلقت عليه تسمية بيريزيانوس إذ تم العثور عليه في ظرف مكتوب عليه "بيريز"، وبالتالي هو ليس باريسيا إلا بسبب وجوده في باريس- وآخر في درسدن بخمسة وأربعين صفحة تعود للعام 1000، بينما تحتفظ مدريد بالكتاب الأكثر تنوعا والأكثر اكتمالا، والذي جرت دراسته إلى درجة أن المختصين أشاروا إلى وجود عدة أخطاء إملائية، إذا أمكن قول ذلك فيه، ووصفوها بـــ"عسر في القراءة والفهم". وتمّ شراؤه من ذرية "كورتيس".

كان الفرنسيسكاني "دييغو دو لاندا كالديرون" المولود عام 1524 أحد الواعظين الأوائل الذين دخلوا إلى "يوكاتان". وقد أعطى مثالاً أعظم للإساءة المتعمدة مما فعله "زاموراغا"، إذا كان هناك ما هو أسوأ، ذلك أن دراسته لعادات المايا وفكه لدلالات نقوشهم جعلت جرائمه أكبر بوقاحتها وقسوتها. وجاء في كتابه عن "حكاية أمور يوكاتنان" قوله: "كان هؤلاء يستخدمون أيضاً بعض الحروف كي يدونوا في كتبهم أشياءهم القديمة وعلومهم؛ وكانوا يفهمون بما امتلكوا من وسائل وبواسطة الصور وبعض الإشارات في الصور أمورهم ويحددون معناها ويعلّمونها. وقد وجدنا عدداً كبيراً من كتبهم بتلك الحروف، ولم يكن هناك أي كتاب يخلو من خرافة ومن أكاذيب الشيطان فقمنا بحرقها كلها مما أثار انفعالاً كبيراً لديهم وجلب لهم الكثير من الكآبة[118]". وأضاف على ذلك الأسقف ابن السابعة والثلاثين آنذاك مئتي جلدة لكل نبيل من نبلاء البلاد أرغموه على حضور المشهد.

كانت شعوب المايا في القرن الثالث تنقش تقاويمها الزمنية على الصخر

وقد توقفت عن ذلك بعد عام 889، أي منذ التاريخ الذي قد يدل على ظهور كتبهم[119]. عندما وصل الإسبان كانت حضارات "بوكاتات" بحالة انحطاط ولذلك استطاعوا أن يدمروا بضربة واحدة جميع كتابات البلاد تقريباً، بعد جمعها بعناية كبيرة في أحد المستودعات السرية في "ماني" مقر سلالة توتول كسيو[120] آنذاك. ثم ألم يكن كتاب "بوبول فوه"، الرائعة القديمة للتقاليد الشفهية التي اغترفت من الكتب المقدسة "تيو أموكستلي"، قد أعلن ذات يوم ذلك المصير: "هذا هو الكتاب الأول، المرسوم قديما، بينما وجهه مخفي (اليوم) عن المتلصص والمتأمل"؟[121]

تحدّث "خوسيه دو أكوستا" بعد ثلاثين عاماً بالكاد عن تلك "الكتب المصنوعة من الورق التي كان العلماء الهنود يخطّون عليها بطريقة جميلة جدا ومتقنة أخبار زمنهم ويدونون معارفهم حول النباتات والحيوانات والعادات القديمة (...). لم يكن الهنود وحدهم قد أسفوا لذلك الضياع، بل إن العديد من الإسبان الذين ربما أرادوا أن يعرفوا أكثر عن أسرار البلاد أسفوا له بصدق[122]". لكن ينبغي القول إنّ "أكوستا" كان من اليسوعيين.

تختلف رؤية العالم التي يستهدي بها اليسوعيون إستراتيجيتهم -إذا فضلنا القول- عن رؤى أبناء دينهم، إذ شكل البحث العلمي والتربية جزءاً من اهتماماتهم الأساسية من بين تلك التي يمكن البوح بها. وكان "أثانا سيوس كيرشر" بالمعنى المزدوج للكلمة أحد أكثر الرجال إثارة للدهشة في المسيحية. وقد أطلق أبناء جلدته أسماءهم على الجبال وعلى بحيرات القمر. وتحمّل أحدهم في مكان ما عام 1595 عناء كتابة قواعد لغة مشتركة لسكان الأمازون كلهم. ثم من يمكنه غير مجموعة من اليسوعيين أن ينكب في أيامنا على إعداد قاموس صيني من سبعة آلاف صفحة يسمّى "ريكسي الكبير"؟ (المقصود بالأحرى بنك معلومات موسوعية اعتبارا من 13.500 حرف تطلّب إنجازه 50 سنة من العمل

المتقن منذ 1952، وهكذا جرت كتابة الكلمات الصينية بالأحرف الرومانية حسب نظام "واد" الذي لم يعد يستخدمه سوى القلائل.) إنهم وحيثما حلوا، كانوا يحتاجون إلى مكتبات. فمثلاً في كاليفورنيا كان عدد من الإخوة المعزولين هم أول المحتلين الدائمين إذ تلخص الوجود الاستعماري في بعض المناطق بوجود جندي ومبشر، وعندما طردهم ملك إسبانيا في القرن التالي كانوا يملكون ثلاثة عشر مكتبة صغيرة تضم 1.855 مجلداً، كان من بينها، دون الخوض في التفاصيل، 22 كتابا و40 مؤلفا على قائمة الأعمال الممنوعة.

وصل "مانويل دو نوبريغا" إلى باهيا في البرازيل عام 1549 مع خمسة من زملائه. وضمّت مكتبة المجمع المحلي ما بين عطايا الملك أو البابا ثم مقتنيات جمعية رهبانية أصبحت ثرية، 15.000 كتاب مع فهرس وميزانية سنوية. وقُدّرت قيمتها بـــ5.976,69 رايس (وحدة نقد). وعملت المؤسسة في غضون ذلك على تكوين نخب محلية، كما في ريو وساوباولو وماراناهو، بتوفيرها ما يزيد عن 5.000 مجلد لكل مدينة أو عشرات الأمكنة الأخرى حيث "لم تكن هناك أية منشأة، ومهما كانت بعيدة داخل اليابسة أو في أعالي الأنهار، دون قاعة كتب صغيرة[123]".

حصل المركيز بومبال من الملك خوسيه إذنًا بطرد اليسوعيين من جميع الأراضي البرتغالية عام 1759، لأنهم كانوا يعيقون، كما يقول، أفكاره العقلانية والحديثة في إدارة الدولة وإلى حد ما أيضاً بسبب إشاعة سرت حول مناجم الذهب في البرازيل. (لكن السبب الحقيقي كان معارضتهم لعبودية الهنود، مما أثار الجميع ضدهم. تنبغي إضافة أن موقفا نبيلاً كهذا كان سهلاً عليهم لأنهم كانوا يستوردون العبيد من إفريقيا.) وفعل شارل الثالث الشيء نفسه عام 1767 في المستعمرات الإسبانية لأنه كان يطمع أيضاً بممتلكاتهم في الباراغواي. هكذا وجد الإخوة اليسوعيون المتغطرسون أنفسهم بين ليلة وضحاها في الشارع

لاسيما أن ملك إسبانيا أصدر مرسوماً سرياً جرت قراءته فجأة على جميع المعنيين وهم في سريرهم عند منتصف الليل ينص على أنه لا يحق لهم أن يصطحبوا معهم سوى كتاب الصلوات والتبغ لاستنشاقه والشوكولاطة.

هكذا جرت من كاليفورنيا حتى الشيلي مصادرة الكتب أو نسيانها في أمكنة تسبب تعفنها أو حرقها أو تشجع على سرقتها أو إرسالها إلى أوروبا أو بيعها كورق للتعليب لدى أصحاب البقاليات. وتُرك في ريو دو جانيرو 4701 مؤلفا عرضة للتعفن مدة 16 سنة إلى حين إعادة الممنوعة منها أو التي كانت تخص الرهبانية إلى البرتغال، أما كتب اللاهوت فقد أرسلت إلى أسقف ريو و"أعطيت كتب أخرى لأشخاص جديرين بالعناية بها"، واعتبر نائب الملك 734 كتابا غير مفيدة، مثل أعمال أفلاطون، فعرفت طريقها إلى الحرق.

وصودرت كذلك مجموعات كتب اليسوعيين في كوردوبا (الأرجنتين) وميريدا (فنزويلا) من قبل الدومينيكان. وشكّلت في سانتياغو بالشيلي الحالة الجنينية للمكتبة الوطنية التي استمر إثراؤها بطريقة مخجلة عبر غزو البيرو عام 1881 حيث اختار الجيش الشيلي مكتبة "ليما" معسكراً مثالياً لمدة ثلاث سنوات استخدم فيها يوما بعد يوم أكثر من ثلث 150.000 كتاب في المراحيض بعد سرقة 8.790 من أفضل النسخ التي انتهت على رفوف مكتبات سانتياغو حيث ما تزال موجودة هناك.

لم يقتصر الأمر على استمرار أجمل مكتبات أمريكا الجنوبية في البقاء وإنما انقلب حساب بومبال ضد بلاده نفسها إذ شجع إجلاء اليسوعيين بروز سلطة من البيض المولودين في المستعمرات ودفع مسيرة البرتغال نحو استقلالها عام 1822[124]. وفوق كل شيء، أدّى ذلك إلى انهيار منظومة وإرادة تربويتين ربما كانتا، من يدري، حظا للقارة من أجل إنتاج عدد أكبر من الشعراء وأقل من الطغاة أو من تجار المخدرات.

الفصل الثامن

من العصر الوسيط إلى الثورات

"إله السلام، شتت الأمم التي تفرح بالحرب، إنما جرح الجروح بالنسبة للكتب، معاقل الحقيقة الأبدية".

ريشار دوبيري

العصر الوسيط وكيفية الخروج منه

"المكتبة هي الكتر الحقيقي لأي دير، فهو بغيرها ليس سوى مطبخ دون قدور"[125]. مع ذلك كان لا بد من عدة أجيال ومن أحداث متسلسلة مجنونة قبل الوصول إلى تلك الملاحظة العيانية عام 1632 التي لن تتأخر عن أن تؤدي، من جهة أخرى، إلى عملية سلب معممة.

كانت المكتبات الكبرى في الغرب قبل قرون من العام 1000 تقتصر، واقعيا، على حفنة من مجاميع القوانين الشاملة (موسوعات) الموجودة في صناديق مقفلة ولا تقدم بالتالي الكثير من العمل للباحث الحالي[126] وعندما ظهرت كلمة "مكتبة" (بالإضافة إلى البناء ومجموعة الكتب، ستعني كلمة "مكتبة" في بعض

الفترات فهرس الكتب واحتمالا وصفها، وأحياناً إحصاء المؤلفين الذين توجد أعمالهم فيها) في عملية جرد، كان المقصود بها أحيانا هو "الكتاب المقدس" حصراً. لكن ما إن ازدادت مجموعة الكتب في الأديرة ثراء، بالتوازي مع ممتلكات أخرى ظاهرة للعيان حتى حلّت المصائب سريعاً متمثلة في الغزاة من الهونس أو المسلمين العرب أو الفيكنغ. وهكذا خُرِّبت أبرشية مدينة "تور" ست مرات على الأقل خلال خمسين سنة. لذلك كان الناس يحجرون على القليل الذي يملكونه مع احتمال ضياعه بسبب الإفراط في الحذر كما حصل بالنسبة للمكتبة البابوية في القرن العاشر التي وُضعت في ملجأ بني خصيصا لتلك الغاية، و لم يطلع أحد أبدا على المؤلفات التي انتهى الأمر بها إلى التفسخ.

عاش ابن شارلمان في مدينة "طولوز" حتى وفاة أبيه الذي نصّبه ملكا وهو في الثالثة من عمره. وعندما حكم باسم لويس الأول عام 814 بدأ بحرق مكتبة القصر الإمبريالي والأبوي في مدينة "آكس لا شابيل" والتي كانت تحتوي بالطبع على كتب فريدة لا توجد منها سوى نسخة واحدة، مما حرم الأجيال اللاحقة من جزء من الأدب الفرنجي والجرماني. ونظف لويس الأول الأمكنة أيضاً، بالإضافة إلى العديد من المخطوطات التي أنجزها شعراء وعلماء أراد شارلمان أن يحيط نفسه بهم، من المومسات اللواتي كن يعشن بهدوء فيها ثم أرغم أخواته المستهترات على الاحتجاب داخل دير. لم يكن بمقدور المرء أن يكون أكثر إخلاصا وطهارة فأطلقوا عليه بالنتيجة لقب الورع. ولولاه ربما كان العصر الذي يسمونه بـــ"الوسيط" قد انتهى بوقت مبكر أكثر.

انتشرت المكتبات الرهبانية الهزيلة — في حال وجودها إذ اعتبرت بعض الجمعيات الرهبانية أن الإيمان ليس بحاجة للقراءة وحتى المقدسة منها– ببطء شديد من خلال العودة للإنتاج اليدوي للناسخين الذي كان من اختصاص الرهبان في الأصل. كان الناسخ في ذلك المشغل المكرّس لمعالجة النصوص (لم

يكن الأمر يتعلّق بعد بالخط العربي وبسنوات تنوير "الفن الصيني للكتابة") يقوم بعملية تصفيف ميكانيكية دقيقة لملايين الخطوط المنجزة بالقصب أو بريش الطيور التي سوف يتشكّل منها الكتاب بعد أن يكون المكلّف بتزويقه قد أتمّ زخرفاته بواسطة ما يوفره الكيميائي من مواد. وعلى الرغم من القناعة الاستثنائية التي تحلى بها المدعو "ألكوين" الذي درس في إنكلترا وتكراره القول للرهبان في دير "سان مارتان" بمدينة تور: "أن نسخ الكتب أفضل من زراعة الكروم"، إلاّ أنّ الإخوة الرهبان برهنوا على سوء نيّة مفهوم (مع ذلك أصبحت مكتبة الدير من أكثر المكتبات شهرة في عصرها، لكن جرى حرقها عام 905).

الخطاط ليس مثقفا إذًا أو هاويا للمكتبات ولا حتى فناناً. وأصبح أحد شعاراته هو: " يتلقى الشيطان من الجراح بمقدار ما ينسخ الراهب من الكلمات الإلهية" (في نفس الفترة، لكن على مسافة بعيدة جداً، كان البوذي يقوم أيضاً بنسخ التعاليم البوذية — سوترا — إنما من أجل الحصول على فائدة روحانية مباشرة).

لا شيء يثير الدهشة إذن من استخدام مكتبات الأديرة بشكل سيئ أو عدم استخدامها البتة وأنها لم تعرف الصيانة و لم تجد من يدافع عنها في مواجهة النهّابين من كل صنف. فمثلاً كان جبل كاسينو "سيناء العصر الوسيط"[127] يدير في القرن الحادي عشر ورشة كتابة نشيطة لنشر أعمال الشعراء اليونانيين واللاتينيين وكذلك الكتابات المقدسة، لكن عندما أبدى "بوكاس" رغبة زيارة المكان بلهفة يمكن تخيلها لمولع بالمكتبات أجابوه "ما عليك سوى أن تذهب، فالمكان مفتوح". لقد كان مفتوحاً في الواقع لدرجة نبت معها العشب بين طاولات القراءة وكان المطر يسقط على غبار الكتب ذات الجلود المتروعة منذ فترة طويلة.

لم تتأخر المعرفة لحسن الحظ في تغيير مكمنها، إذ ظهر شيئاً فشيئاً تجميع

منسّق للكتب بهدف تربوي داخل الكنائس التي جسدت مقدمًا دور الجامعات مثل كنيسة نوتردام دو باريس تحت إشراف "بيير أبيلار" أو هيلرشايم أو برشلونة أو دورهام الغنية بامتلاك 570 مجلدا عام 1200 (امتلكت جامعة السوربون 1.720 مجلدا عام 1332). كان يتم أولا تجميع الكتب في خزائن، ثم تطلّب تعاظم كميتها لاحقاً إنشاء قاعات منفصلة للعمل فيها نهاراً حيث كانت الشموع ممنوعة. وكانت المجموعات مؤلفة عامة من مختارات شعرية أو ملخصات من كل الأنواع والكتاب المقدس ونصوص آباء الكنيسة وسير حياة الشهداء مع قليل من التاريخ أحياناً. وظهرت بعد فترة وجيزة مجموعات الكتب الخاصة ثمّ المطبعة... كما تنوّعت الفهارس فيها.

تشكّلت المجموعات الغربية الكبرى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لدى الأمراء والملوك وأحياناً في مساكن مستشاريهم مما جسد في الغالب بوتقة المكتبات الوطنية القادمة. لكنها عانت قبل ذلك من الضربات المضادة أثناء سنوات التقلبات حيث تغلب حس الهواية والقرارات المزاجية وتنظيم المعارض ذات البعد الإيديولوجي على الإنجازات الأكثر عطاء والأفضل قابلية للدفاع عنها.

كانت إنكلترا هي البلد الأكثر تقدماً من حيث الشغف بالمكتبات، لكنها كانت بطلة الفوضى والابتذال في مجال الكتب (أدّى ذلك الشغف بوضوح إلى تلك الفوضى والابتذال).

لقد قال سبوتزوود[128] في كتابه "تاريخ الكنيسة والدولة في سكوتلندة "إنه عندما انتصر الملك إدوارد الأول على السير وليام والانس عام 1298 فعل كل ما في وسعه من أجل "طرد السكوتلنديين" الذين كانوا يقطنون سكوتلندة و"ألغى القوانين القديمة واستلهم من القوانين الكنسية قوانين إنكلترا وحطم النصب القديمة التي نصبها الرومان أو ذريتهم وحرق جميع السجلات كما حرق مكتبة

ريستنوت التي حفظت، بين مؤلفات كبرى كثيرة، الكتب التي اصطحبها الملك فيرغوس الثاني معه من روما"، أي من المدينة التي خرّبها عام 400. وكان قد عُهد بسجل المحفوظات إلى دير بمنطقة "جزيرة جونا" حيث كانت القرية الوحيدة تدعى "سودور" في الوقت الذي كان يتزاحم فيها الكهان من بلاد الغال والكاهنات والناجون من أعاصير الأطلسي.

قرر "ريشار دوجيرفيل دوبيري"، أسقف دورهام تأسيس معهد جديد في أوكسفورد وزوده بمكتبته الشخصية الاستثنائية مع خمسة من البندكتيين لإدارته. كان جامعا للكتب باستمرار وسمحت له مهماته الدبلوماسية التي كلفه بها إدوارد الثالث بزيارة أوروبا المكتبات والنساخين والمحفوظات كي يشبع شغفه بالكتب من كل الأشكال أو المواضيع، وهذا ما يرويه بقدر كبير من الادعاء والحماس في كتابه "حب الكتب". وقد بولغ بالقول عن بيري أنه امتلك من الكتب أكثر مما كان يوجد في إنكلترا كلها مجتمعة. ويشهد "وليام دوشامير" أن الأسقف كان يكدس الكتب في جميع قصوره وكانت كومات منها منثورة باستمرار على أرض غرفة نومه لدرجة لم يكن ممكناً التحركَ فيها دون الارتطام بها. وغداة وفاته عام 1345 لم يكن بيع الخمسة عشر ألف كتاب التي امتلكها (1.500 فقط حسب قول أصحاب بعض ألسنة السوء) كافيا لتسديد الديون الكبيرة التي ترتبت عليه للحصول على تلك الكتب، كما بدأ معهده بالعمل برفوف خاوية.

من المؤكد أن هنري الثامن أسهم بأكبر قدر من السمعة السيئة لبلاده الشرسة. إذ جعل من إنكلترا كما هو معروف، بسبب عدم قدرته على الطلاق على هواه إلى جانب بعض الأسباب الأخرى، بلدا شاذا دينيا حيث تولّى الحاكم منصب البابا أيضاً، ولم يكن حل الأخويات الرهبانية وإغلاق الثمانمئة دير مع مصادرة كل ممتلكاتها قضية خاسرة لكن تدمير المكتبات الغنية كان

للأسف سلوكا موازيا إذ جرى إتلاف ثلاثمئة ألف مجلد حسب التقديرات. وبالطبع عرفت المخطوطات الأكثر إثارة للإعجاب آنذاك طريقها إلى مجموعة الكتب الملكية كما عرف بعض الخبراء الوسطاء دون شك كيف يأخذون نصيبهم. أمّا الباقي فقد جرى استخدامه جهارا لإشعال المصابيح، ومسح الأحذية وتنظيف المبولات، بعد أن كان جامع الأشياء القديمة "جون لولاند" قد لمّ كل شيء لصالح الملك و"احتفظ بالكثير من أعمال المؤلفين الجيدين"، تاركاً الباقي للمرتزقة الذين تخلصوا منه بأسرع وقت وبأول سعر عرضوه عليهم. ويشار أيضاً إلى حالة تاجر حصل على مكتبتين رفيعتي المستوى وكاملتين بمبلغ 40 شلنغ، ثم بدلاً من محاولة إعادة بيعهما وجدهما أكثر فائدة كاحتياطي من "الأوراق عديمة النفع" أو لمسح كل شيء طيلة عشر سنوات. وقال بأنه كان لا يزال مع ذلك بعيدا عن استهلاك تلك الكتب كلها[129].

أظهر إدوارد السادس أنه جدير بخلافة والده الشهير إذ أمر رجال شرطته عام 1550 بإتلاف القراءات ذات التوجه "الثقافي القديم". ويبدو أنه على إيقاع تردد الزخرفات في الكتب كان يتم الحكم على درجة إساءة الثقافة القديمة. بتعبير آخر جرى تقريباً تجريم جميع كتب المكتبات الغنية، مثل مكتبة ويستمنستر التي كان مطلوبًا تخليصها من خرافاتها وأساطيرها وكتب قداسها الأخرى كما جاء في إيعاز مكتوب باليد الملكية، وقد أضافت يد أخرى في حاشية ملحقة أنه يتوجب "نزع المغالق الذهبية من جميع جلود الكتب وتسليمها للسيد أنطوني أوشير" المفروض أنه مكلف بتنفيذ ذلك الأمر للأسف. وقد كتب بهذا الصدد أحد مدوني الأخبار باحتقار: "كان الربح يخفي وجهه خلف غلالة خفيفة والمتملّقون يكشفون بوضوح عن الطبيعة الحقيقية لذهنيتهم[130]". ونُهبت في مكتبة أكسفورد عربات كاملة من الكتب دون تمييز وبحماس فُقدت معه دراسات الرياضيات بنفس درجة ضمان فقدانها لو جرى إعدادها في الأديرة،

و لم تحظ باحترام أكثر مجموعة الكتب المقدمة من قبل همفري، دوق كلوسيستر وأخ الملك هنري الخامس، المعتبرة كأجمل مجموعة في البلاد في عصرها (كانت تضم حسب المصادر ما بين 281 إلى 600 كتاب من الأكثر فخامة). بل بيعت أيضاً الرفوف نفسها، كما قال البعض، إذ لم يكن هناك بعد ما يوضع عليها وقال آخرون إنها قد بيعت من أجل محو حتى ذكرى الكتب التي قد تتعارض مع ما يسمى باللغة الإنكليزية المتميزة بـــ"المعرفة الجديدة".

قام ماتيو باركر، أسقف كانتنبري، ووليام سيسيل، مستشار الملكة إليزابت، وشخصيات مرموقة أخرى مثل كوتون أو بودولي بمبادرة جمع ما بقي من آثار مجموعات الكتب الناجية من الحريق بالبحث عنها لدى التجار، وشكّل القليل (ليس أكثر من نسبة 2%)[131] الذي نجحوا في جمعه بعد قرن مجموعات شهيرة، أي نواة المحفوظات الثلاثة الأضخم حاليا المتمثلة في مجموعة مدونات كريستي في كمبردج وبودليان أكسفورد والمكتبة البريطانية.

إذا كانت ممارسة الحرق المنهجي لمجموعة الكتب الكاملة التابعة لرجل أو مجموعة هي أقل ندرة في المملكة المتحدة مما هو في غيرها، فإنها مع ذلك ليست ممارسة يومية. بالمقابل شكّلت أحيانا عمليات حرق الكتب علانية بيد الجلاد، روتينًا في ويستمينستر ووصل عددها عامة إلى المئات لأسباب سياسية أو دينية أو أخلاقية[132]. كان يتم الاكتفاء عامة بإتلاف رمزي لنسخة واحدة من أعمال المؤلّف المدان. لكن السلطات ألقت بالنيران كل أنواع الوثائق. أصبح مثل ذلك الإجراء اعتيادياً إلى درجة أن صموئيل بيبيس قد ذكر بالكاد، بعد عدة عقود، في يومياته قوله: "شوهد الجلاد وهو يحرق بناءً على أوامر البرلمان مرسومين قديمين كان أحدهما يخصّ إنشاء الكومنولث ونسيت موضوع الثاني". خمدت هذه الممارسة في لندن و اكتشفها الباريسيون في الوقت نفسه إذ كان كتاب "إميل" لروسو والقسم الأكبر من أعمال فولتير من أشهر ضحاياها.

رقصات موت عصر النهضة

انتعشت مع حلول الأزمنة الجديدة الأفكار الجديدة أيضاً ابتداء من الهذيانات الغنوصية (نزعة فلسفية مسيحية تهدف إلى إدراك كنه الأسرار الربانية) الأكثر جموحا حتى أشكال الشطط المتماشية مع عصر الإصلاح. وربما فاقت كثيرا آثارها مجتمعة على المكتبات الإجراءات الشرسة لفترة محاكم التفتيش التي بدت مجرد أعمال متناثرة.

كان "كوسم دو ميديسيز"، أغنى رجل في العالم يبحث عن الكتب على طريقة أباطرة العصور القديمة. ولم يكتف بالحصول على مجموعات الكتب الممتازة مثل الثمانمئة كتاب لـ"نيكولو دي نيكولي" التي دفع ثمنها مرتين لأن ذلك الخبير كان مدينا له وتوفي قبل أن يسدد ديونه، بل قام المصرفي الأوروبي الأول بتكليف عملائه شراء الكتب له من جميع أصقاع العالم المسيحي بل ومن الشرق – كان قد فاوض حتى شراء ذلك مع السلطان محمد الثاني–، بينما كان تاجر الكتب "فيسبازيانو دا بيستيشي" يعمل أثناء ذلك في عين المكان إذ عمل ذات مرة 45 من النسّاخ مدة 22 شهرا من أجل إنتاج 200 مؤلّف فخمة التجليد ومحكمة التخطيط تماما[133]. وقدّم "جان فرنسسكو بوجيو راسيوليني" مساهمته في مكتبة "ماركسيانا" التابعة للأمير وأطلقت عليها تلك التسمية بسبب وجودها داخل دير القديس مرقص (سان مارك). وبوجيو هو أحد شخصيات عصر النهضة إذ كان خطاطا شهيرا يعود له النموذج "الإنساني" للحروف، أي النموذج الذي أعطى مسحة إنسانية للحرف الكاروليني – الروماني – الذي جفّ نسغه، وكان هذا الرجل باحثاً دؤوباً أيضاً عن المخطوطات القديمة ونجح في أن يجلب إلى إيطاليا، غالباً عبر نسخها بخطه الجميل والأكثر سهولة في قراءتها من قبل الذين كلّفوه بها مما هو بالكتابة الغوطية، عدداً هاماً من النصوص لشيشرون أو لوكريس أو لاكتانس أو كينتيليان، كان قد عثر عليها في أديرة

حيث كان يتم تجاهلها، كما يزعم، في إنكلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا. ولم يكن يضاهي شهيته الشديدة سوى دهائه ورباطة جأشه، إذ كان يقدم نفسه أثناء انعقاد المجامع هنا وهناك على أنه مبعوث صاحب القداسة البابا وينقب بالتالي في المكتبات. هكذا قدّم له القس الشجاع مخطوطات ذات قيمة هائلة مثل "حول الهندسة المعمارية" لـ"فيتروف" بعشرة مجلدات والتي ربما كانت في طريقها إلى التلف بدير "سان غال". لم يكن بوجيو يخشى التأكيد أن ألمانيا "سجن للأعمال الكلاسيكية الرومانية من قبل التوتونيين – سكان شمال ألمانيا قديما – البرابرة" وأن يُبدي القدر نفسه من الإهمال حيال الكتب المحصّلة. لقد أضاع الآخرون وأشباههم من تجار الأشياء القديمة من المخطوطات بعد نسخها بمقدار ما كانوا قد وجدوه منها تقريباً، إذ أن صفحات من تأليف شيشرون وكاتول وبلين وتاسيت قد اختفت، بل إن مخطوطة "سينا تريمالشيونيس" الشهيرة التي كان بوجيو قد عثر عليها في كولونيا عام 1423 كادت تتبخر تماماً عندما استعار "نيكولو دي نيكولي" النسخة الوحيدة وأضاعها؛ وما كان لنا أن نعرف عن "ساتيريكون" سوى فكرة مشوشة تماما لو أنها لم تعد للظهور عام 1650 في "ترو" بألمانيا.

كان الطرس (الرقّ الممسوح والمكتوب عليه ثانية) في العصر الوسيط عامل ترقيق رهيب للنصوص الكلاسيكية التي بدت أنها تجاوزت الموضة في لحظة كان الرق فيها غالي الثمن. وكان الكثير من المؤلفين "مغلوبون على أمرهم" وربما أنهم تخفّوا دون علم أحد تحت غطاء خطاب أحد آباء الكنيسة؛ أي خطاب يثير اليوم سأماً كاملاً لكنه اكتسب الاحترام نهائياً بسبب أقدميته. وبفعل التقدم ومتطلباته في القرن السادس عشر، نظرا للانطلاقة الجريئة المستمرة لأصحاب النزعة الإنسانية "عرف عدد من المخطوطات الجميلة طريقه إلى المطبعة دون عودة"[134]. كانت المهنة جديدة، فكيف أمكن تصور ضرورة إعادة

ما سمّي بـــ"النسخة" لمالكها؟ كانت دعوة للباحثين الشباب كي يتحققوا إذا كان لا يزال هناك بعض المخطوطات في مكان ما من جميع الكتب المطبوعة قبل 1501.

لم يكن "كوسم دو ميديسيز" مجرّد محب للمكتبات أو قارئ. فبإدراكه للتداعيات الفلسفية لسقوط العالم القديم — والمسيحي- في القسطنطينة، قام بمساعدة "مارسيل فيسين" على تجديد أكاديمية أفلاطون وأدخل تعليم اللغة اليونانية المنسية منذ 700 سنة إلى جامعة فلورنسة. لقد عرفت فلورنسة إذن أو سمعت كثيرا عن مكتبة "كوسمي" الخاصة الموجودة في القصر وعن المكتبة العامة المعروفة بالعامة أو مارسيانا. وكان بوجيو قد وهبها قسماً كبيراً من الكتب التي اكتشفها وفعل "بيك دو لاميراندول" الشيء نفسه إذ ترك لها ما يزيد عن ألف كتاب كان يمتلكها لكن قدراً معاكساً أرغمها على التوجه إلى البندقية وأتلفها حريق في القرن الثامن عشر.

أظهر "لوران الرائع" حفيد "كوسم" أنه جدير بمثل ذلك الإرث إذ تابع بوصفه أديبًا مرهفًا وشاعرًا (باللغة التوسكانية — الإيطالية — وليس باللاتينية، مما شكّل أمراً جديداً) إثراء مجموعة الكتب. لكنه شغف، كما كان محتملاً، بالتجديد الكبير الذي أطلقت عليه ذات يوم تسمية الكتاب الاستهلالي (بداية الطباعة). "اعتبر مالكو المخطوطات القديمة النادرة والثمينة بخطوطها الرائعة، دون كياسة أن عمليات إعادة إنتاجها فجة وقبيحة عندما تتم بطريقة ميكانيكية"[135]؛ وربما لم يكن هناك من يتجرأ على الاعتراض أن التوراة المطبوع — توراة غوتنبرغ – كان أحد أكثر الكتب تواضعاً في قرنه؛ هذا إذا لم يكن المعني مالكاً لمثل ذلك الكتاب.

لم تمتلك فلورنسة مطبعتها الأولى إلا عام 1477 أي بعد فترة طويلة من "مايانس" أو حتى من نابولي. لذلك أنفق لوران عشرات الآلاف من "الدوكا"

كل سنة من أجل الحصول على كتب. وأرسل "جان لاسكاريس الشهير مرتين إلى الشرق بهدف وحيد هو العثور على مخطوطات قديمة. وأثناء رحلته الثانية جلب لاسكاريس معه مئتي مؤلف يوناني، كان من بينها ثمانون مجهولة تماما"[136]. وعندما كان "الرائع" على فراش موته لم يجد ما يقوله لـ"بيك" و"بوليتيان" سوى هذا: "كنت أريد أن يوفرني الموت لفترة ويتركني أكمل مكتبتيكما". كان عمر قائل هذا الكلام ثلاثة وأربعين عاماً. و لم يكن يعرف أنه قد أدخل الشيطان إلى المكان.

أبقى لوران على الحلقة الأفلاطونية التي أسسها جدّه؛ وكان "بيك دو لاميراندول" ينتمي إليها وهو صاحب النصيحة السيئة بتعيين "سافونارول" بصفة رئيس لدير "القديس مرقص". وما إن تولّى هذا الدومينيكي العنيد منصبه حتى شرع بالشجب الجذري للكنيسة وللفجور ولآل ميديتشي ولجميع "حشد الشاذين الرومانيين"؛ وبينما كان "لوران" يحتضر أصبح المرشد الروحي لأهل فلورنسة متابعا أوهامه الخاصة بفضل ملك فرنسي مرّ في المكان عام 1494، أي شارل الثامن. جرى بعد ذلك طرد آل ميدتشي وسلب كل ممتلكاتهم بما في ذلك المكتبات العامرة. كان غزو القصور آنذاك نشاطاً شائعاً سمحت به السلطات، أو كانت وراءه في حالات محددة كحالة آل ميدتشي. ويُذكر أنه تقرر أثناء الجلسة الثانية عشرة والأخيرة من مجمع "لاتران" وضع حد نهائي للممارسة التي كانت تتيح للشعب أخذ ما يروق له من مسكن البابا الجديد المنتخب وعدم إعادته، ذلك أن الأوغاد تعودوا نشر إشاعات كاذبة عن إجراء الانتخاب بقصد تنظيم عمليات غزو مربحة.

وضعت الإقطاعية والحالة هذه يدها على الكتب التي كان الرعاع قد أهملوها أو لم يتسع لديهم الوقت لسلبها، ثم امتلكت وقاحة إعادة بيعها بسعر 3.000 دوكا لدير القديس مرقص نفسه الذي وجد نفسه مديناً إذ لم يكن في صناديقه سوى 2.000 دوكا.

غرف سافونارول من تلك الرفوف وقدّم للمطارنة الذين كانوا يدعمونه طبعات فاخرة من أعمال أوفيد أو تيبول أو مارسيال، منظّفاً بذلك الدير من "الكتب السيئة التي كانت تفسده". ألم يكن قد ردد في مواعظه باستمرار أن أفلاطون، بين آخرين، يستحق "الحرق في بيت الشيطان"؟ وهذا ما فعله حقيقة بعد حين، عندما بدأت حظوته بالتضاؤل. لقد أسس ميليشيات من الأطفال القضاة وكلّفهم بالذهاب إلى بيوتهم أولا ثم إلى جميع البيوت لجمع الأشياء المخلّة بالشرف" من أعمال فنية وحلى وعطور ومرايا و"كتب فاسقة مثل مورغانت وغيره". ودعا "ملعونة" تلك الثورة الثقافية التي أدّت إلى حرق الأباطيل. وأقيمت على ساحة الإقطاعية في احتفال (كرنفال) عام 1497 "منصّة على شكل هرم قاعدته من الأقنعة واللحى الزائفة وثياب الراقصين والبدع الشيطانية الأخرى؛ وفوقها كتب الشعراء اللاتين والإيطاليين، وكتاب "مورغانت" وأعمال بوكاس وبترارك وما شابه ذلك". ووُضعت فوق الكل لوحات تمثل الجمال الفلورنسي الشهير. عرض أحد تجّار البندقية مبلغ 20.000 إيكو ثمنا لذلك كله؛ وكانت الإجابة أن رُسمت بسرعة صورة له أضيفت إلى الكومة. "كان جوف المنصة زاخراً بمواد قابلة للاحتراق، أشعل فيها الأطفال النار بعد القدّاس وتناول القربان والطواف وصاحبت بأناشيدهم المقدسة والمرحة فرقعات اللهب على صوت أبواق الإقطاعة وأجراس كنيسة بلازو فيشيو". وأعيدت الكرّة بعد عام.

لكن لم يظفر "سافونارول" بالجنة. إذ جرى طرده هو نفسه من الكنيسة وشنقوه وأحرقوه وذرت كتاباته الرياح على وقع نفس الأجراس ونفس الأبواق وأمام نفس الفضوليين بتاريخ 23 مايو 1498.

كان القسم الضئيل من مكتبات آل ميدتشي أي 22 صندوقاً محفوظاً في دير القديس مرقص واشتراه ووضعه في مكان آمن بروما عام 1508 جيوفاني،

ابن لوران، الذي أصبح البابا ليون العاشر بعد خمس سنوات. لم يقبل أن يدفع سوى 2.652 دوكا، أي دفع الدير من جيبه (يلاحظ القارئ المتنبه مروراً أن الأسرة دفعت ثمن كتب نيكولي للمرّة الثالثة، هذا إذا كانت تلك الكتب لا تزال موجودة ضمن المجموعة). اعترف هذا البابا الأقل معاناة بين جميع البابوات، قائلاً: "بما أن الإله منحنا البابوية فلنستمتع بها إذن"، كما كان مطاردا دؤوباً للكتب؛ واعتبر أن مهمة جميع رجال الكنيسة هي تزويده بها كما أوفد عملاء، كانوا أحياناً تجاراً حقيقيين، للبحث عنها" من شواطئ المحيط حتى تخوم آسيا". إن الكتب الخمسة الأولى لـ"تيت ليف" موجودة اليوم في فلورنسة بفضله. وكانت سرقتها من دير "كوربي" في فرنسا قد أثارت انفعالاً عنيفاً يعادل انفعال اكتشافها بعد اعتبارها مفقودة نهائياً. انتقلت تلك الغنيمة سراً من يد إلى أخرى حتى وصلت إلى البابا الذي دفع للذي زوده بها مبلغاً خارقاً هو 500 دوكا. وبدلاً من إعادة المخطوطات أرسل لرئيس دير "كوربي" نسخة عنها "جميلة التجليد" من الطبعة التي قام بها مصحوبة بغفران كامل لكنيسته ورسالة "كي يعترف أن تلك السرقة جلبت من الكسب أكثر مما سببت له من الخسائر".

وفي الوقت الذي استخدم فيه قداسته التسهيلات التي وفرتها البابوية من أجل إثراء مكتبته الشخصية، ازداد عدد الكتب في مكتبة الفاتيكان من 3.650 مجلّداً إلى 4.700 مجلّداً فقط. ولوحظ من جهة أخرى أنها تكبّدت أثناء نهب روما عام 1527 "خسائر هامة وتبددت جزئيا الجهود المبذولة من أجل إثرائها"[137]، كما ترافق اسم هذا البابا المحب للمكتبات بأحد أكثر الإجراءات عداءً للقراءة تاريخيا. فبتاريخ 4 مايو 1515 قرر مجمع "لاتران" أن إزالة "الأخطاء الكثيرة جدا في الماضي والأكثر خطرا في المستقبل"، تقتضي حرق كل مؤلّف قد يهز الإيمان. لقد أرضته تلك الصيغة الفريدة بما تفتحه من آفاق، ولم يتم تحديد أي مؤلف أو عنوان. هذا على عكس القرار البابوي، دومينيا 1520، الذي وضع مارتن لوثر تحديداً في قائمة المحظورين. رفض مجمع العشرة في البندقية

نشره و لم يسمح بقراءته في الكنائس إلا بعد خروج آخر المصلّين.

في عام 1523 قام البابا كليمان السابع، ابن أخ لوران الرائع، بإعادة جميع كتب آل ميدتشي إلى فلورنسة وكلّف ميشيل أنج (مايكل انجلو) ببناء — اكتفى هذا برسمها — المكتبة اللورنتية — من لوران— كي تستقبل وتعرض على الجمهور عام 1571 آثار مشتريات "كوسم" وأحفاده. وقد ضمت هذه الأخيرة 10.500 مجلّد من بينها 700 تعود لما قبل العام ألف في عدادها أحد أعمال فيرجيل من القرن الرابع أو الخامس، وأقدم نسخة من التوراة، والنسخة الأصلية للبندكتيين من أعمال جوستينيان (533)، والمصنّف (الموسوعة) الشامل "أمياتينوس"، وأقدم نسخة من الترجمة اللاتينية للكتاب المقدّس "فولكات"... وعناوين أخرى مماثلة تترك العنان للحلم بالثروات المجهولة التي ضاعت في شهر نوفمبر 1494.

مع ذلك لم تكن المكتبة الأولى الكبيرة ذات النزعة الإنسانية موجودة في إيطاليا وإنما في هنغاريا (المجر) وكان رونقها رائعا إلى درجة أن آل مدتشي استلهموا منها.

كان ماتياس كورفان عند انتخابه ملكا على هنغاريا وهو في الرابعة عشر من عمره يمتلك أصلا مجموعة كتب هامة من الكتب الجميلة والجيدة. تولّى تربيته رئيس القضاة "جوهانيس فيتيز" الذي قال عنه فيسبازيانو دوبيستيشي أكبر تاجر للكتب آنذاك: "هناك القليل من الكتب اللاتينية التي لا يمتلكها". ودلّت رسالة تعود إلى عام 1471 أنه كان لماتياس عميل دائم اسمه "بلانديوس" راسم الزخارف، المكلّف بالتحرّي عن الروائع أو العثور على وكلاء يبيعها في إيطاليا. وأمر أن تُرسم على القباب في قصر بودا الواقع في الجناح الشرقي المطلّ على نهر الدانوب الإحداثيات الفلكية للحظة المحددة التي تم تتويجه فيها ملكا على بوهيميا عام 1469. لقد تكدّست تحت تلك السموات المباركة ثرواته وكانت مجموعة الكتب الأساسية تعود لسلفه "سيجيسموند دو لوكسمبورغ"

الذي كان إمبراطوراً رومانياً جرمانياً يتردد أصلاً هو نفسه على أنصار النزعة الإنسانية الإيطاليين ومن بينهم بوجيو براشيولوني المتواجد آنذاك في جميع المحافل. أضيفت إلى هذه الكتب تلك التي صودرت من رؤساء القضاء المعزولين ومكتبة الزوجة الثانية لماتياس، بياتريس داراغون، أميرة نابولي. تمّ ذلك كله عن ذوق جميل جدا وكانت أمنية الملك أن تضم مجموعة كتبه الإنتاجات الأساسية للعقل الإنساني، وذكر أمين المكتبة "مارزيو غاليوتو" أن ثلث المؤلفات كانت تعود إلى ما قبل عام 1470، بصفحاتها المزخرفة "على الطريقة الفلورنسية" أي بأغصان بيضاء بسيطة. على العكس، كانت البقية من أفخم ما يكون كما يشهد على ذلك 216 أثرا. كان الملك يثمّن العبقرية مثل تلك التي تحلّى بها الرسّام "أتافانتي ديلجي"، وكانت المؤلفات من خلال اتصاله الدائم مع "مارسيل فيسين" باللغة اليونانية كما باللاتينية والعبرية. لم يكن عددها خارقا إذ قارب الثلاثة آلاف، حسب التقديرات اليوم، لكن "كان هناك من الكنوز بمقدار ما كان هناك من المجلّدات" بحيث يخال للمرء أنه "ليس داخل مكتبة وإنما، كما يقال، في أحضان جوبيتر"[138]. كانت إدارة هنغاريا جيدة إذ عند الموت المفاجئ للملك عام 1490 حذر مرسوم ابنه جانوس من التصرف بكتب أخرى غير تلك المكرّسة لاستخدامه الشخصي ذلك أنه كان قد بدأ بالسلب والبيع لحسابه الخاص. وإذا كانت مكتبة كورفينيانا "قد توقفت عن كونها مركزا للمبادلات الإنسانية كما كانت أثناء حياة مؤسسها، فقد أريد على الأقل المحافظة عليها بتمامها وكمالها بعد أن أصبحت المكتبة الوطنية رسميا، الأولى في أوروبا. وربما كانت قد حافظت على ذلك الموقع لو لم تدمّرها القوات التركية. ما يتفق عليه الجميع هو أن والد ماتياس قام قديما بعدة حملات ضد العثمانيين تكللت بالنجاح، وكان ينبغي غسل الإهانة.

"ظل الله على الأرض" هكذا كان يروق لسليمان الكبير أن يصف نفسه،

وهو الذي بسط نفوذ القسطنطينة إلى أقصى ما وصل إليه إذ فتح بلغراد والعراق وجزيرة رودس وأرعب فيينا وجعل من هنغاريا بلداً عثمانياً. وما أن دخل السلطان إلى بودا وإلى بست عام 1526 حتى أمر بحرق المدينة باستثناء القصر إذ "لم يجد مناسباً الأمر بحرقه وهو يقطن فيه"، كما أكّد الصحفيون الرسميون الذين تبعوه. وقام الجيش بتخريب الباقي بما في ذلك جناح المكتبة وكل ما كان "يعود للملك البائس". هكذا نظر الرأي العام والمثقفون للأتراك، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، على أنهم شريرون وتوجب عليهم أن ينتظروا طويلا كي يتخلصوا من تلك السمعة. فالكتب "قاموا بتمزيق بعضها أو كرّسوها لاستخدامات أخرى بعد أن نزعوا ما فيها من فضة بالنسبة للبعض الآخر". وماذا عن مكتبة كورفينيانا؟ "لقد خرّبتها البربرية الآسيوية"[139]. وأمر الملك بتزيين جميع جلود الكتب عوضا عن عبارة من كتب فلان بالشعارات ودلّت التقديرات أن عشر الكتب نجا من الكارثة وعاد للظهور في أسواق القسطنطينة بعد فترة حيث كان التعرّف عليها سهلاً. ويتم اليوم تحديد مكان 216 "كتاب مزيّن" مبعثرة داخل 48 مكتبة موجودة في 44 مدينة بـــ14 بلد.

قامت الخسّة الدخيلة بتصفية الحساب المتعثر للحروب الصليبية. وانطلاقاً من بدء المواجهة مع الذات أمر الملك بتزيين جميع جلود الكتب. وولدت أوروبا ذات الهزّات الاجتماعية والدينية والسياسية. فبدلا من أن تواجه الأتراك، اتجهت قوات شارل الخامس، المؤلّفة مناصفة من الإسبان والألمان، بحماس نحو روما في شهر مايو من عام 1527 حيث قدّمت الأخبار آنذاك وصفا لمخطوطات المحفوظات ووثائقها وهي مبعثرة في الشوارع لينتهي بها الأمر كفراش للأحصنة، بينما جرى تذويب الأختام الرصاصية للقرارات البابوية للمكتبة الرسولية بقصد صنع رصاصات. وهو ما وصفه البطل البروتستنتي سباستيان شيرتلن فون برتنياخ باعتزاز قائلاً: "لقد خرّبنا روما وحرقنا القسم الأكبر من المدينة، وأتلفنا كل أعمال النسّاخين وسجلات الدولة ورسائلها ووثائقها"[140].

استمرت حرب الفلاحين خلال عامين 1524 و1525. كانت انتفاضة العبيد والبورجوازيين الألمان تلك ثورة حقيقية قبل الأوان؛ وانتهت كالعادة إلى ذبح أولئك البؤساء الذين آمنوا بها بينما جنى الأغنياء المكاسب منها، واسترجع الأمراء عندئذ الممتلكات الكنسية وتعاظمت سلطتهم (في فرنسا كان فلاحو بوفيه وسواسون قد سبقوا الألمان بأكثر من قرن، وتصرف الفلاحون الفرنسيون مثل "كلاب مسعورة" لم يتغلّب عليهم سوى الطاعون الأسود). أدّى ذلك التطهير للنفس رغم فشله المأساوي إلى عملية تنظيف هائلة للبلاد بالتوازي مع عصر الإصلاح، وحُرق ما لا يقل عن ألف قصر حصين وعدد مماثل من الأديرة (70 في منطقة تورينج وحدها) وأتلفت مئات المكتبات عندما تصرفت القوات المهاجمة من تلقاء نفسها بينما جرت مبادلتها ببعض القطع النقدية عندما خضعت تلك القوات للأوامر قليلا. كل ما كان يعرفه الفلاحون الجهلة هو أن تلك الأشياء الغريبة المتمثلة في الكتب كانت وراء الديون التي تثقل عليهم. أو أنهم كانوا يرون فيها رمزا لعالم غامض لم يشاركوا أبدا في امتيازاته ولا في مكاسبه. هكذا قاموا لدى أتباع القديس أوغسطين في باهاوسن بتقطيع 1.200 مجلدا قيمتها 300 فلورين إربا إربا، وفي سانت-بلازيان بالقرب من فريبورغ "ألقوا ومزّقوا وحرقوا" المكتبة، وقُدّرت قيمة خسائر مكتبة "أرباخ" بـ500 فلورين. وفي كيمبتن، رفع القس شكوى ضد أولئك الذين "أتلفوا جميع السجلات والرسائل والكتب والوثائق واستولوا عليها". وفي مايهنغن كدّسوا ثلاث كومات ضمّت ثلاثة آلاف كتاب، ثم أضرموا النار في الأولى وألقوا الثانية في الماء أما الثالثة فاستخدموها لاحقاً لمسح القذارات كما قالوا، تكرر الأمر نفسه فيما بعد في رينهارد-دسبرون حيث أبيدت المكتبة بالكامل في بامبيرغ وأتنغهاوسن.

كان مارتن لوثر مؤيداً بالأحرى في البداية لقضية المتمردين، لكنه حسم

الأمر في النهاية بالقول: "النفخ بالبنادق يزيد شرّها أكثر بمئة مرة". مع ذلك كان يُفترض لسوء تصرّفهم حيال المكتبات الكنسية أن يثلج صدر لوثر الذي كتب أن لا شيء أكثر "جنوناً وعدم جدوى وخطورة" من كتب الرهبان، وبكلمة واحدة من "غائط الحمار" الحقيقي. أما تلميذه السابق توماس منذر فقد ذهب أبعد من ذلك ووصل به تشدده إلى درجة تسمية أستاذه بـ"الآنسة مارتن" على اعتبار أن مبدأه العام ليّن العريكة، ونشط على رأس المتمردين لينتهي الأمر به إلى التعذيب والقتل. وصاغ فريديريك أنغلز من ذلك فلسفة وكتب رواية متحزبة تماماً وإنما مؤثرة لتلك القصة الهمجية ووجد غوته أيضاً ما يبتغيه في ذلك الخليط ولكن بشكل أكثر تكلفاً.

المكتبة هي السلطة وإغواء الضمائر. كانت هذه الفكرة تحوم في أجواء أوروبا. و لم يجد أولئك الذين يعرفون استغلال النزعة الشعبية (الشعبويون)، ولن يجدوا عامة، أية صعوبة في إقناع البشر "المحدودي الذكاء" (هكذا كان أنغلز نفسه يصنّف الفلاحين) أن عدم امتلاك أي كتاب أفضل من امتلاكه، وخاصة أفضل من امتلاك الكثير من الكتب. وقد واتى الحظ مناهض الثقافة كي يهاجم اللازمة التي يرددها كل دين حول اصطفاء الجهلة لافتداء العالم، ثم اغتصاب صفة "العقل الحر" كما فعل بشكل ما دعاة التصوف والآدميون (دعاة التعري) والتابوريون (نسبة إلى مدينة تابور) والفلاحون (الذين غزوا فرنسا) ورعاة الكنائس الصغيرة وحملة السوط (من أجل التكفير عن الذنوب). "لا ينبغي على أي شخص أن يمتلك أو يمسك بيده أو يقرأ أي كتاب غير العهد القديم والعهد الجديد، فهما كافيان وحدهما لنجاة الروح[141]". كان "جان ماتيس" صاحب هذا القول أمّياً يعمل خبازاً في هارلم ويعتبر نفسه مبعوثاً من الإله. وأصبح النبي والمعلم الأكبر الأول للذين تعمّدوا ثانية في مدينة مونستر، أي فعلوا ما يترتب عليه الموت في أمكنة أخرى.

سقطت المدينة بعد عامين إثر خيانة وقتلوهم جميعاً. لكن لوحظ في عام 1534، عند بداية تمردهم، كما جرى في "مونتسيغور" بأزمنة أخرى، أن جسارة قراراتهم وجنونها أغشيا على عيونهم وكان الابتهاج في ذروته كما أُتيحت إمكانية إعطاء الأوامر لارتكاب أي عمل مشين، إذ "عندما نهبوا الكنيسة أحسوا بمتعة خاصة عبر تدنيس وتمزيق وحرق كتب ومخطوطات مكتبتها القديمة[142]". وأتلفوا في يوم آخر أراشيف المدينة وسجلات الحسابات فالأمس لم يعد موجودا والجنة لم تعد بعيدة جداً. أخيراً، يوم الأحد 15 مارس، قرر الخبّاز-النبي، مثل مسؤول مهذب عن تنظيم قرى الاصطياف حالياً، الانطلاق فورا للبحث عن جميع الكتب في المدينة مهما كان محتواها وحتى، بل وخاصة، كتب المجموعات الخاصة وجلبها أمام الكنيسة لجعلها هباءً منثورا. هكذا تشكّل جبل من النار رقصوا حوله، ورقصوا حتى الترنح. قدّرت القيمة التجارية للخسائر بـ20.000 فلورين ذهبي. أمّا الجنود الذين حاصروا المدينة مدة خمسة عشر شهرا بأمل الثراء عبر نهب "لؤلؤة وستفاليا" فلم يتلقوا سوى 18 فلورين بعد أن أبادوا سكانها ووصل بهم الأمر إلى التناهش فيما بينهم.

نجت مكتبة "بالاتينا" التابعة لجامعة هايدلبرغ من جميع كوارث ذلك الزمن. كان مصيرها نموذجياً لكن لم يشاركها فيه سوى القلة.

ازدادت موجودات تلك المكتبة في القرن الرابع عشر بواسطة المؤلّفات التي تركها لها أساتذتها واحتوت على 600 كتاب في عام 1396. وجرى تصنيفها وفهرستها عام 1466 عندما كان فيها 1.600 عنوان كتاب بـ841 مجلّداً، ثم أوصلت تركات مجموعات كتب خاصة محتوياتها إلى 6.400 عنوان عام 1556 منها 4.800 مجلّد مطبوع و500 مخطوطة على الرق و600 على الورق عندما أمر الأسقف اللوثري "اوتهن رايش"، أنه يشتري من يخلفوه كتباً بقيمة 50 فلورين كل سنة من معرض فرانكفورت وجعلها مكتبة حديثة يفوق عدد كتب الأدب

المعاصر فيها عدد النصوص العائدة للعصر الوسيط والنصوص الكنسية. وضاعفت الكتب الرائعة التي تركها عام 1584 أحد أفراد عائلة فوجير (كان الأوائل من عائلة فوجير هم روّاد الرأسمالية في القرن الخامس عشر، فامتلك أبناؤهم ملايين الفلورين بالولادة وأصبحوا من أنصار النزعة الإنسانية في القرن السادس عشر، وكان أورلينح المقصود بروتستانتيا) من حجمها فأصبحت أهم سجل محفوظات في أوروبا، قادر على منافسة الفاتيكان. وهذا ما كان ينبغي تجنبه.

يمكن القول إنّ روما فرضت بصيغة ما نظامها مرّة أخرى في تاريخ المكتبات إذ نهب رئيس الرابطة المقدسة خلال حرب الثلاثين عاماً المشوشة جداً مكتبة بالاتينا وقدّمها للبابا تنفيذاً لصفقة إستراتيجية كانا قد اتفقا عليها. وكي لا تلمس أصابع قداسته جلود الكتب التي مسّتها أيادي بروتستنتيين فرنسيين، نُزعت جلود 13.000 كتاب مطبوع و2.500 مخطوطة وأُلصقت بطيّة الجلود الجديدة عبارة من كتب فلان مثيرة للشكوك جاء فيها: "أنا من المكتبة التي غنمها مكسيميليان، دوق بافيرا، في هايدلبيرغ وأرسلها كتذكار للبابا غريغوار الخامس عشر". كان ذلك عام 1623. أعادت جامعة هايدلبرغ بعد ذلك بناء مجموعات كتبها بحماس، لكن جرى تدميرها بالكامل أثناء حرب خلافة "بلاتينا" عام 1693 التي قوّضت المدينة كلها. بدئ بإعادة البناء من جديد عام 1710، بل إنّ الفاتيكان قبل إعادة 847 مؤلّفا عام 1826 بينما أعادت باريس (بعد محادثات حثيثة) مؤلّفا واحدا، لكنه شديد الأهمية هو المصنف الشامل (موسوعة) "مانيس" الذي يضم مجموعة منتخبات شعرية تعود لعام 1300 ومزخرفة بـ137 منمنمة كانت قد نجت من أعمال السلب والقصف والمصادرات. وقد بلغت الخسارة 40.000 نسخة فقط– أثناء الحقبة الهتلرية.

فتحت تجاوزات الكرسي الرسولي الطريق، كما هو معروف، أمام

الكالفينية في فرنسا قبل عدة عشرات من السنين وساهمت في ارتكاب الفظاعات والرد عليها والاغتصاب والاغتيال المتكرر أثناء حروب الدين.

عانت الكتب كثيراً من ذلك لاسيما أن العاملين على زخرفتها كانوا موجودين في كل مكان آنذاك وكانوا يشون بها للعسكر البروتستانتيين، وأيضا برفاة القديسين وتماثيل المسيح المصلوب بصفتها أداة لتنصير الجهلة من العامّة. وكيف كان للعسكر البروتستانتيين أن لا يندفعوا بحماس لا حد له إلى دير مثل "كولومب" الذي كان يفتخر بامتلاكه إحدى قلفات المسيح أو مثل دير "سواسون" بامتلاكه اصبع القديس توما (وتمّ الحصول عليها بوسائل ملتوية في القسنطينة عام 1204)[143]؟ فهيّا إذن للاستيلاء على ممتلكات الكنيسة والهجوم على مكتبات سان ميدار وسان جان ديفين وهوتفيلييه، بالقرب من مدينة رانس، وبواتييه وكلوني حيث قُطعت المخطوطات إربا إربا "على اعتبار أنها من كتب القداس كلها"، هذا ما اعترف به الكالفيني تيودور دوبيز بشيء من الندم. تقول كاترين بريزاك: "جرى تخريب العديد من مكتبات المؤسسات الدينية، غير النظامية منها والنظامية، من قبل العسكر البروتستانتيين في هذا الجزء من فرنسا. وتظل حالة مدينة ليون (1526) شهيرة لكنها أبعد من أن تكون الوحيدة، إذ فقدت مؤسسات كثيرة مخطوطاتها". والحال نفسه بالنسبة لدير "جومبيج" عام 1562 الذي نهبه مرتزقة مونمورنسي. وفي "سان أوفيرت" قاموا بـــ"تكسير الكراسي وغيرها مما هو مصنوع من الخشب وأضرموا النار ثم أطعموها جميع كتب الدير". تكرّر الأمر في "سان جيل" عام 1563 وفي سان بونوا سورلوار عام 1568 حيث أتلفت ثلاثة أرباع المكتبة البندكتية التي أسسها ماكاريوس عام 1146 على يد الفرسان الألمان المرتزقة بقيادة كوليني الذي عرف مع ذلك كيف ينقذ في اللحظة الأخيرة كمية من المؤلفات وجدت ملاذها سريعا على الرفوف المتشبثة بالعلم وذات الذوق الرفيع بما فيها رفوف كاترين، ملكة السويد .

وقام الكاتب رونسار بتذكير "دوبيز" بلطف متكلّف أن فرنسا "ليست أرضا غوطية ولا منطقة تترية ولا سيتيكية، إنما الأرض التي شهدت ولادتك"؛ والنار وحدها تداوي النار. لكن، حدثت بالمقابل بسبب عدم وجود مكتبات فخمة وتماثيل بروتستانتية لحرقها، مذبحة بارتيليمي. يومها، ومثلما حدث للتماثيل العديدة التي دفع جنوده لتقطيعها انتهى الأميرال كوليني إلى "التعليق من قدميه، إذ كان مقطوع الرأس".

ثورات وتقييمات

يبيّن أحد النقوش ظهر راهب وهو يتصفح مجموعة من صور النساء العاريات وعلى يساره دورق عامر بالنبيذ بينما تحاول فأرة الصعود على إطارات خزائن الكتب للوصول إلى قطع السحق المعلقة فيها، وتحيط السلاسل ببعض الرفوف بينما يبدو بوضوح أن كتبا قد فُقدت أصلا عن رفوف أخرى، وتتهدّل الباقية يمينا أو يسارا مما يساهم في تحطيم ظهور جلودها. يفصح هذا النقش الرهيب المأخوذ من مجموعة "صور أشكـال الإسفـاف في الأديـرة" (1748)[144] بما فيه الكفاية عن الحالة الذهنية المناهضة لرجال الدين التي تولّدت في ظل فولتير وأزمة الثقة العامة التي أدت إلى الانقلاب الكبير في أوروبا خلال القرن الثامن عشر، حيث بدّلت المعرفة والسلطة القائمين عليهما في إطار عملية بلبلة هائلة في المكتبات. جرى ذلك الانقلاب بلطف أحيانا وببعض اللباقة، ولكن بطريقة مثيرة للرثاء عامة. خاصة في فرنسا.

أثارت أحداث أربعة عرفتها عملية تحويل الأملاك الطائفية والأرستقراطية إلى الملكية الشعبية المشتركة التي كانت في طور التشكل أكبر قدر من الانتباه وأبرزت تأرجح عالم كامل. الأحداث الأربعة المقصودة هي كف يد اليسوعيين بشكل كبير ومدروس؛ والثورة دون ثوريين في النمسا مما ربما كان نموذجاً

يُحتذى به؛ والمغامرة الفرنسية الكبرى بصفتها نموذج لقصور مأساوي، وأخيراً المسار المثير لـــ"أمروتان" البافاري الذي استلهم جزئيا من تلك المغامرة.

طُبع كتاب "مرهم للحروق أو سر منع اليسوعيين من حرق الكتب" لمؤلّفه جان باربيه دوكور، الصادر عام 1670، خمس مرات في القرن السابع عشر ثم أعيد طبعه عام 1826. كان هذا العمل النقدي المتزمت الناجح يؤلّب ضدّ "الآباء الشرسين" غير المحبوبين شعبيا الذين كانت روما قد بدأت تنظر إليهم بعدم الرضى بسبب تمجيدهم عمق التقاليد الكونفوشيوسية وسحرها بينما كانت الإستراتيجية المسيحية تريد حتى آنذاك إخماداً مباشراً وراديكالياً لجميع المعتقدات أنّى تواجدت. لم تكن البرتغال وإسبانيا تعملان إذن وحدهما للتخلص من جمعية اليسوعيين[145]. واعتبارا من عام 1761 أحرق البرلمان الفرنسي أعمال 23 كاتبا من الرهبان اليسوعيين تمّ اعتبارها مخالفة للأخلاق المسيحية وأغلق المدارس؛ ثم مُنعت الرهبانية اليسوعية بعد عام وصودرت جميع ممتلكاتها المنقولة وغير المنقولة. كان عدد الرهبان الذين فقدوا حتى قوت يومهم ثلاثة آلاف تقريبا. لقد عزلهم الجنرال لورنزو آنذاك من مهامهم؛ وفرّ بعض المتشددين منهم إلى بلدان أخرى أكثر جذباً مثل بولندة. وبغية منعهم من العودة وردع ادعاءاتهم، سعى "ميثاق الأسرة" الصادر عن أهل البوربون إلى الحصول من بابا روما على الإلغاء الرسمي للرهبانية اليسوعية. كانت إجابة البابا هي: "أفضّل على ذلك رؤية يداي مقطوعتين". لكنه توفي عقب ذلك مباشرة تقريباً بأزمة قلبية وخلفه كليمان الرابع عشر الأكثر ليونة. هكذا أُعلن عن إنهاء جمعية اليسوعيين بتاريخ 16 أغسطس 1773 عبر رسالة بابوية صريحة الإدانة وأقصي رئيسها العام "ريكسي" كي يموت ببطء في سجن بقصر سانت أنج بعد أن تبعثر أصحابه البالغ عددهم ثلاثة وعشرين ألف في منطقة شاسعة تمتد من سان دييغو إلى شنغهاي. وغدا عليهم كي يصبحوا رهبانا أن يقسموا دون أية همسة

يمين طاعة قرارات قداسته مهما كانت. الثغرة الوحيدة كان مصدرها كاترين الكبرى التي أعلنت أن التربية الوطنية في بولندة هي اهتمامها الأول واعتبرت بالتالي قرار البابا كأنه لم يكن. و لم يتجرأ أحد على التحدي.

أدرك "إينياس دو لوايولا" أن التربية تعطي ثمارها في كل الأمور وأن الكتاب وحده يسمح بها، وطالب الجمعيات اليسوعية النظامية (1540-1556) رغم أنه قد أطعم النيران أعمال تيرانس أو إيراسم أو لوثر، بضرورة وجود مكتبة في كل معهد وإعطاء مفتاح لكل أولئك الذين ينبغي تزويدهم به، بموافقة المدير. كما جرى تشجيع المعلمين رغم فقر حالهم على تكوين مكتباتهم الخاصة "المهنية" على أن تعود ملكيتها إلى مجموعات الكتب العامة عند موتهم مما سيطرح أحياناً بعض المشاكل نظراً للعناوين التي ما كان ينبغي لها أن تكون في تلك المجموعات.

هكذا وجدت ألف مكتبة في العالم نفسها بين ليلة وضحاها ما بين عام 1762 و1773 دون سادة ولا خدم، بل وأحيانا مشرّعة الأبواب. و لم يتوجب على رؤساء الأديرة في "المقاطعات" التخلّي بسرعة عن مجموعاتهم الخاصة من الكتب فحسب، بل كانت هناك مكتبة هامة على الأقل بالنسبة لكل واحدة من المؤسسات السبعمئة، تنفيذا لإرادة إينياس. جرى تدمير الكثير منها أو هجرها بعد سلبها المدروس حتى من قبل المحرّضين على تطبيق الرسالة البابوية، وظهرت فجأة كنوز عديدة من المكتبات في مجموعات الكتب الكبرى في أوروبا. لوحظ أيضاً أن رفوف مكتبات الفرنسيسكان والدومينيكان قد اغتنت هي الأخرى بشكل كبير. ورغم عمليات السطو السرية التي رافقت كل جرد استفادت جامعات عديدة ناشئة من الخير الوافر، وكذلك مجموعات كتب كثيرة تابعة للبلديات. وبلغت بعض المكتبات درجة كبيرة من الغنى حيث احتاجت إحداها في مدينة "روان" مثلاً إلى 208 ساعة عمل من أجل بيع موجوداتها بالمزاد العلني.

وفي ليون بدأ فهرس بائع الكتب فرانسوا دولوس ريوس الصادر عام 1777 بالكلمات التالية: "قد يصاب المرء بالدهشة أمام حصولي خلال هذه الفترة القصيرة على مثل هذا العدد الكبير من الكتب النادرة والفريدة[146]".

عندما ألغى البابا بي السابع إجراء المنع بعد 41 سنة، تكاثرت طلبات إعادة فتح المدارس اليسوعية في العالم كله (86 في فرنسا). لكن لم يكن أمام الرهبان الذين أعيد الاعتبار لهم، رغم الذكرى السيئة لـ"أشكال التضليل السوداء" التي ذكرها بليز باسكال، سوى رفض الاقتراحات لفترة من الزمن إذ كانوا إمّا طاعنين كثيراً أو صغاراً كثيراً في السن وليس الكتب لممارسة التعليم. (ربّما أن تلك الذكرى تفسر السرية النسبية لاستعادة مكانتهم خاصة أنه لم يتم إعداد أية دراسة جامعة حول المصير الذي عرفته ممتلكاتهم. "إنكم تجدون أنفسكم أمام الفراغ" كما أجابت إدارة المحفوظات اليسوعية على المغامرين بمثل هذه الدراسة).

كانت عربات محملة بالكتب تنوء بحملها في طريق موحل بجبال الألب، وكان الحوذي يلقي بين فترة وأخرى موسوعة أو أطلسا تحت أقدام الأحصنة الغائصة في الوحل. اعتقد الفلاحون المنذهلون أنها مكتبات أديرة النمسا في طريقها إلى مستودعات الدولة. قد تبدو هذه الصورة خيالية لكنها لاقت صدى شعبيا كبيرا دلّ على مدى الألم الجماعي الذي سببه جوزيف الثاني لبلاده عبر محاولته تنويرها قبل أن تنضج الأمور فيها لذلك. وكتب لرئيس مكتبته فان سويتن قائلاً: "لن تكون إمبراطوريتي مستقبلاً مسرحاً لعدم تسامح مخيف". لقد أُقرّت حرية ممارسة الطقوس الدينية وحرية الصحافة وألغيت عقوبة الإعدام والرقابة وكذلك العبودية والإقطاع إذ توجّب على النبلاء دفع ضريبة عقارية على أراضيهم غير المنتجة. كان ذلك الرجل أكثر من مستبد مستنير كما يقال عادة، إنه مجنون بالعقل ومسكون بالحماس لصلاح الحكم وقد عهد بإدارة

مسارح فيينا للممثلين وزاد عدد المدارس وأقرّ التعليم الإلزامي والعلماني قبل الجميع بمئة سنة. وصرّح بكل بساطة أنه يتبع النهج "الذي خطّه منذ قرون زرادشت وكونفوشيوس والذي غدا اليوم، لحسن حظ الجنس البشري، نهج الحاكمين"، فمن من رؤسائنا الحاليين يستطيع أن يتلفظ بمثل هذه الجملة؟

"في الزمن الذي كان المرتدّون يسجنون بين أربعة جدران ويحجر أكبر العقول وراء السلاسل في مكتبات أروقة الأديرة، أطلق جوزيف سراح جميع هؤلاء السجناء". صدر هذا النص لكاتب مجهول، و"المترجم من اللغة الألمانية" كما زُعم عام 1787 أي بعد خمس سنوات بالكاد من قرار الإمبراطور بغد معرفته أن الكنيسة تمتلك ثلاثة أثمان النمسا والأساقفة من أصحاب الملايين، إلغاء جميع الرهبانيات التي لا تعطي علما ولا إحسانا، فحُلّت 738 رهبانية وعاد 36.000 راهب إلى بيوتهم مع تعويض. وتحولت المباني إلى مدارس أو مساكن ووُضعت الأموال في صندوق ديني يموّل جدّيا إنشاء المستشفيات ودور الأيتام والحضانات. أما المكتبات فقد حكم عليها بالتبعثر بعد أن جرت غربلتها أولا لأخذ كنوزها. وعرفت المخطوطات والملفات الشاملة القديمة طريقها إلى المكتبة الإمبريالية، الوطنية لاحقا، التي لا تزال تحتوي اليوم على سجلات ما كان قد نُقل (تجدر الملاحظة مرورا أن غوتفريد فان سويتن، مديرها خلال سنوات 1777–1803، قام بتجديد كبير تمثل في إيجاد فهرس بالبطاقات بينما كانت تُعدّ حتى ذلك الوقت سجلات غير كاملة ومشوشة باستمرار). كانت عمليات الابتزاز التي شهدها سجل المحفوظات ذاك محدودة جدا لكنها اختيرت بعناية فائقة إذ جرى مثلا أخذ 150 كتاب تعود لبدايات الطباعة و15 مخطوطة من العصر الوسيط كانت تمثل كل ما هو موجود في دير غامينغ[147] بالإضافة إلى 12.000 كتاب آخر إلى جامعة فيينا، وبيعت عدة آلاف من الكتب بالمزاد كما نهب الفلاحون المجاورون عدة مئات منها. ورغم حالات الإتلاف العديدة

بسبب الجهل أو السلب استفادت جامعات ليتز وانسبروك وبراغ وغراز وعدد آخر من الجامعات من ذلك "التجديد الكنسي" الكبير. لكن على عكس ما جرى في فرنسا لم يتعرض أي راهب للمعاملة السيئة أبدا و لم يتم أي تخريب لكتاب، حتى بسبب مضمونه التقوي. زد على ذلك، وكما كان يرغب الإمبراطور، لم تعرف، كما يُزعم، أية مكتبة تابعة لدير كنسي حجز الدولة عليها، لذلك قرر الكهنة القانونيون لمكتبة ستارهون في براغ فتح أبوابها أمام الباحثين، مما ترتب عليه اليوم وجود الخمسة آلاف مخطوطة في موضعها البهي تحت السقوف الرائعة المزخرفة عام 1727.

برزت التيارات الطليعية مبدئيا من أعماق المجتمعات كي تكون مقبولة. وبدأ الإمبراطور جوزيف الثاني بعد أن نجح في تأليب القارة كلها ضده عندما حاول فرض التجديد من أعلى، بالتراجع، كما يبدو، قبل فترة وجيزة من نهاية فترة حكمه القصيرة جدا تحت تأثير الأحداث الباريسية[148]؛ وكان من حسن حظه أيضاً أنه لم يعرف بقتل أخته. ألغى خليفته المفرط في رجعيته فجأة اعتباراً من عام 1792، جميع الإصلاحات التي قام بها، باستثناء إصلاح واحد بقيَ سائدا في البلاد هو إعادة توزيع الكتب. انكبّ المؤرخون انطلاقاً من ذلك الحكم الفريد على دراسة فرضية مفادها أن جوزيف الثاني قد مارس عبر أفكاره التحديثية تأثيراً على صهره لويس السادس عشر. ألم يكن قد آزره في أحد أكثر الميادين حميمية في مطلع زواجه؟

ومهما يكن من أمر، ما كان للثورة الفرنسية أن تكون سيئة في عمقها لو أنها ألغت أيضاً عقوبة الإعدام وأكدت على عدم المساس بالكتاب. لكن هاتين الفضيلتين لم تكونا على درجة من النضج تسمح بقبولهما على مستوى واسع. طالب المركيز "ساد" وحده بتطبيق الأولى (وبقليل من الجهد أيضاً ربما كان من هذا الرجل الشريف أن يدعو بملء إرادته لتطبيق الثانية)[149]. وقيل عن الكفرة

أنهم لا يزالون يؤمنون قليلاً بعالم الغيب حيث كانوا يصعدون إلى منصة الإعدام بصفوف متراصة. زد على ذلك أن الحماس المحيط كان متأججا لدرجة أن فولتير وروسو ربما كانا عرفا طريقهما إلى المقصلة لو عثروا عليهما. وكان لا بد للتأميم العنيف للبلاد من أن يجلب نصيبه من الأفكار السيئة والغش والحماقة القذرة في مثل ذلك المناخ المتوتر. وشكّلت عملية إعادة تعميد غرونوبل (المدينة النبيلة) باسم غروليبر (المدينة الحرة) أو الملكة — الغيورة باسم المواطنة- الغيورة جزء من الظواهر العارضة المعبّرة عن المتنفّس الهائل الذي "لا يحتاج لعلماء" أو يرى في جامعة السوربون "هيئة مخاتلة وعبثية معادية للفلسفة وللإنسانية".

تعود بداية كارثة الكتب إلى يوم 2 نوفمبر 1789 عندما انتقلت جميع الممتلكات الكنسية والدينية "إلى يد الأمة"، التي كانت بحاجة حقيقية لزيادة إمكانياتها دون اللجوء إلى السبل البنيوية لتنظيم السلب. كانت المسألة بسيطة ورأس المال يمكن حسابه بالنسبة للأراضي والأبنية وحقـّـات القرابين المرصعة بالأحجار الكريمة. لكن ماذا بالنسبة للمكتبات؟ تلك الأروقة الكاملة من الكتب التي يعلوها الغبار وربما يعثر عارف فيها على ما له قيمة أكيدة، ولكنها تغدو، باستثناء الكتب العائدة لعصر استهلاك الطباعة أو المخطوطات الزاخرة بالزخرفات، أقل من أن تقارن مع أسعار خيوط الذهب في حلّة قدّاس. ما هي المكتبات إذن؟ إنها وزن معطل عصي على الفهم بالنسبة للأمة وتوجيه مسموم بالنسبة للموظفين، لكنها قبل كل شيء رمز للطغيان بنظر الثوار.

البحث عن الإكليل وعن أزهار الزنبق أمر لائق واهتمام جيد للبسطاء. لكن الطرق على الشعارات الحجرية التي ترمز للنبالة في الواجهات أقل سهولة من نزع أغلفة الكتب أو تمزيق الرسوم. وعندما كانت الجماهير تدخل إلى متاجر باعة الكتب من أجل تطهير مخزوناتها لم يكن بوسع هؤلاء سوى أن يصفقوا لذلك. والمكتبة الوطنية كانت "ملكية" حتى الأمس. وكانت كل

المؤلّفات فيها تحمل بالتالي علامات العار، مما دفع "لاهارب" للمطالبة بإزالتها نهائيا وتجليدها من جديد، أي ما يعني ثلاثة ملايين "بالنسبة للعلامات الخارجية فقط" حسب إحصاء عالم الرياضيات "روم"، وربما لم تكن "الجلود المحضّرة لتلك الغاية كافية"[150]؛ لذلك تم الاكتفاء بطبع الحرفين الأولين من اسم الجمهورية الفرنسية (ج ف RF) في كل مكان، باللون الأحمر إذا تيسّر ذلك. تحدثت شخصيات عديدة جديا عن حرق المكتبة الوطنية بكل محتوياتها و لم تكن هناك أية صعوبة في إيجاد المتطوعين للحرق. في مرسيليا أو تولوز، أو في باريس مثلا حيث يذكر شاهد ألماني في يومياته أنه جرى بتاريخ 19 يونيو 1792 "حرق كمية هائلة من المجلّدات في ساحة الفاندوم أمام تمثال لويس السادس عشر. لقد ذهبت إلى عين المكان ورأيت الرماد لا يزال ساخنا. كان هناك عدد كبير من البشر يتحلقون حول النار ويفركون الأرجل والأيدي بسبب رياح الشمال الباردة وقد تنعّمت بدفء الحرارة كالآخرين". وازداد تنعمه المؤقت عند حرق 163 مصنفا ورقيا تحتوي على ألقاب النبالة والفروسية بالإضافة إلى محروقات أخرى مجلّدة؛ وبتاريخ 7 أغسطس شهد نفس المكان حرق 582 مجلّداً وعلبة كرتونية، أي 2.000 مجلد بالإجمال تقريبا. هكذا غدت مكتبة الرهبانيات مجرد ذكرى[151].

لم يحرز المرسوم الأول لمصادرة المكتبات نجاحاً كبيراً، إذ قام الرهبان بعرقلة العمل وأخفوا الكتب وكانت البلديات غالباً بجانبهم. من جهة أخرى أحس المأمورون بتنفيذ العمل بتثبيط هممهم مقدّما أمام كدسات الكتب التي قد تُشكل كتب الصلوات والقدّاس ومجموعات الأناشيد وحياة القديسين جزءاً كبيرا منها. وكانوا يعرفون أنه لن يتم الدفع لهم إلا على الغنائم القانونية. بدأت المقاطعة (المحافظة) عندها ببيع الكتب "بسعر الوزن" رغم المنع. ثم صدر في شهر مارس 1790 مرسوم جديد يقضي بعودة المأمورين خلال ثمانية أيام إلى عين

المكان وجرد مجموعات الكتب لتبدأ عمليات التحويل. وفي شهر يناير 1791 غدت الإيعازات ضاغطة أكثر وبدأت البلديات بإخراج الكتب من الأديرة بفعالية أكبر "تحت طائلة تحميلها مسؤولية تقصيرها".

برز عندئذ سؤال أول كبير هو ما العمل بهذه الملايين الأربعة من الكتب (في الواقع كان هناك ثلاثة أضعاف ذلك)؟ هل إتلافها؟ سيتعب الناس سريعاً من عمل السخرة هذا. التخلي عنها؟ أشار القس السابق تويت في "مشروعه حول ما يمكن عمله بالكتب الوطنية[152]"، إلى أن بيعها بكميات كبيرة سيجلب القليل جدا من المال بينما الشعب بحاجة ملحّة جدا للتعليم... بقيت أيضاً مسألة أدوات العبادة المتنوعة التي فقدت قيمتها بنظر الشرائع الجديدة وظلّت نسبة استمرار وجودها أمرا مجهولا. لذلك أطلق "أورميسون"، مسؤول مكتبة الملك حتى ذلك الوقت والذي أُعدم بعد فترة وجيزة، مشروعاً ضخماً هو إنشاء "مكتبة فرنسا الشاملة"؛ بدت الفكرة علمية وحسنة بينما كانت نواياها الضمنية الواضحة هي اغتصاب كنوز المحافظات من المكتبات وتركها تتصرف بالفتات المبارك. تمثل أحد مفاتيح هذه القضية في دخول باريس حربا شاملة ضد العالم كله ابتداءً من المقاطعات الفرنسية، باعتبارها خدما للإقطاعية وأسوأ من ذلك أيضاً، باعتبارها وراء نزعة فردية جغرافية سُميت آنذاك بـ"الفيدرالية"، أسوأ الجرائم. هنا كمن صلب المأساة، في تلك العلاقة الأوديبية الجديدة حول حساسيات الفترة وما جسّده تبادل الرسل في كل الاتجاهات والهبّات المتلاحقة من التوجيهات الآمرة بل والمزدرية التي وجدت إجاباتها في تبريرات حادة وأحيانا جارحة مما جعل الجنس البشري يفوح بالطيب إذا لم يكن برائحة الثوم!

هكذا أغرق الموظف التقنوقراطي قبل الأوان— أوريسون — البلاد كلها بعملية تسجيل معلومات موحّدة لكل كتاب في المكتبات بحيث تُكتب على ظهر البطاقة المعلومات الفهرسية —البيبليوغرافية— الأساسية المتعلقة بكل مؤلّف

ويتمّ إرسال كل المعلومات خلال أربعة أشهر إلى اللجان الموحّدة "في صناديق جيدة التجهيز بقماش مغطى بطبقة من المواد الواقية من الداخل والخارج". لم يلق المشروع النجاح المرتقب واعتذر كثيرون بالقول: "تشرّفنا ملاحظة أن أشغالنا قد ازدادت كثيراً" أو: "يؤسفنا كثيراً، أيها السادة، التأخير الحاصل في إرسال القائمة المطلوبة مع أنها بدت عملاً تافهاً جداً في الظاهر". كانت الفهارس المتلقاة متواضعة. فهذا الفهرس "لا شيء دقيق فيه سوى الخط" وذاك الآخر المرسل من سارغومين، الذي يفترض أنه يتضمن جرداً لمكتبة البندكتيين في سانت أفولد Saint-Avold ربما كان تاما متمما لو لم تنقص منه "تواريخ الطبع أو اسم المكتبة أو المدينة أو الأبعاد أو اسم الناشر أو اسم المترجم". تمّ التخلّي بعد خمس سنوات عن المشروع العظيم لفهرسة الكتب الموجودة في فرنسا بعد أن أظهر أصلاً حقيقة مرعبة في منظور المستقبل هي أن إرثًا كاملاً من المكتبات سترفده سريعا مكتبات المهاجرين والمحكومين بالموت والمشبوهين من كل الأنواع يقع تحت رحمة موظفين معدومي الثقافة إن لم يكونوا جهلة أو على الأقل تنقصهم الحوافز. شجب القس غريغوار[153] "إهمال الإداريين الذين كانوا بالقطع لا يهملون تقاضي رواتبهم (...) وكان معظمهم من الناسخين الحمقى الذين شوّهوا عنوان المؤلف وزوّروا التواريخ وخلطوا الطبعات وبعثوا بفهارس غير مفيدة" قد نقرأ في نهاية أحدها ما يلي: "بالإضافة إلى ثلاثمئة أو أربعمئة مجلّد باللغات الإنكليزية أو الألمانية أو اليونانية أو العبرية أو بكتابات لا يمكن فك رموزها، قديمة أو مجلّدة بالرق، اعتقدنا بعدم جدوى تعدادها وكان وصفها يحتاج إلى وقت طويل جدا، الخ". هذا في الوقت الذي ربما كانت فيه الكتب المعنية، رغم تقشف غلافها، هي الأكثر قيمة في تلك المستودعات، على غرار لامتسرولو — لقب الثوار الفرنسيين عام 1793- المكتبات". أشار "غريغوار" إلى أن تلك الكتب قد نجت دون شك من الرقابة "تحت غلاف متواضع من الرق" بينما حظيت الكتب "التي أودعها الاستبداد أشكال شططه

وجنونه بأغلفة من الجلد دائماً تقريباً".

تناظرت كوارث الجرد في آنٍ معًا – أو حجبت- نتائج عمليات الحرق والسلب والمعمم، سواء كانت تعودُ للبيع بالوزن من قبل المقاطعات أو للسرقة من قبل الموظفين أنفسهم.

جاء في اتهام غريغوار: "لقد بددوا الكتب. يزعمون أن عشرة آلاف مجلّد قد اختفت في مكتبة ميجان بمدينة إيكس وحدها، ونعرف أن النصّابين لا يترددون عن الاختيار" ثم أضاف بغضب بعد عدة أشهر: "بدأ السلب بالمكتبات(...) واستفاد باعة الكتب، تدفعهم مصلحتهم، من الظروف(...). وترك معظم الإداريين الذين لم يلجؤوا للبيع ثروات الكتب فريسة الحشرات والغبار والمطر. وقد عرفنا منذ فترة وجيزة أن الكتب في آرني وُضعت ببراميل النبيذ... كتب في براميل للنبيذ!!(...). والرعب من الإتلاف والحرق. هذا أكثر سرعة من الجرد كما تعرفون. وهذا ما فعلوه في ناربون عندما أرسلت كتب كثيرة إلى مصنع الأسلحة وفي فونتين ليديجون حيث وُضعت محتويات مكتبة الرهبان في النفايات وألقيت في مستودع الأوراق القديمة".

نعم "إن مصالح المدفعية لا تبدي تذوقاً أقل للكتب القديمة من صانعي الورق" مثل ديدو في منطقة إيسون. ثم إن "إرسال الكتب إلى مصنع السلاح" لا يعني تطلع العسكريين للتثقف وإنما كانوا ينتزعون الصفحات من أجل صنع عبوات – فشكات- بهيئة صرّات صغيرة من البارود يحشون بها بنادقهم؛ وبالتالي قد تكون الرصاصات التي ستصيب دماغ العدو مشرّبة بأفكار أفضل الفلاسفة. وقد يلعب مستودع الأوراق القديمة دور غرفة الانتظار قبل الإتلاف، وبتعبير آخر "إعادة التذويب"، كما دعيت آنذاك عملية غريبة دفع الشح في توفر الخرق إلى ظهورها، أي عملية إعادة التدوير[154].

انفرط في شهر سبتمبر 1791 المجلس التأسيسي دون البت حول النقطة التالية: هل ينبغي استخدام الوفرة في الكتب من أجل التثقيف العام أم ينبغي التخلص منها؟ كانت الثورة تتردد بين الثأر و"التجديد". قال بواسي دانغلاس في عمله الذي يحمل عنوان "بعض الأفكار حول الفنون" إن "الأمر لا يتعلق إذن بتعليم الفرنسيين كيف يحرمون أنفسهم وإنما كيف يستمتعون". هذا ما ردّ عليه المدعو "أوربان دوميرغ"، الداعي لصفاء اللغة الذي ترقى إلى منصب رئيس علم الفهارس بالقول: "فلنحمل المبضع في مستودعات كتبنا الرحبية ولنستأصل كل الأعضاء المصابة بالتسوس — الغرغرينا– في جسد الفهارس". لم يقترح هذا الرائي المتحمس حرق الكتب وإنما إرسالها إلى الأعداء كي تبذر عندهم "التيه والهذيان". ورأت روما منذ البداية أن الحكمة تقتضي الاحتفاظ بكل شيء و"أن يُترك للزمن وللفلاسفة تنقية مكتباتنا". وقال "بواسي" للجنة التثقيف العام أيضاً: "إنكم تملكون مكتبة هائلة (...). إنما ينقصها الكثير من الكتب. وينبغي تزويدها بها بأسرع وقت ممكن كي لا يكون هناك على صعيد فرنسا، على الأقل، أي كتاب لا يمكن العثور عليه فيها". أما بالنسبة لـــ"الفرز بقصد التنقية(...) فلم يكن ذلك المبدأ سوى نظام من البربرية والظلمات (...) فليس بإحراق الكتب ستعوضونها بما هو أفضل (...). فإذا احتوى أي منها فكرة واحدة مفيدة لسعادة الإنسان وتسريع تطور العقل أو توسيع دائرة معارفه. تكونون بحرقكم لها قد اقترفتم عدوانا لن تغسله لكم القرون".

كانت الغلبة لهذه الحجج مما أدّى إلى قبول منظور وجود مكتبات "عديدة ومتنوعة ما فيه الكفاية" خاصة بفضل "الهروب الأليم لأعداء حريتنا الجبناء". لكن من خاصية المنظورات البعيدة عدم رؤية مصيرها سريعاً، إذ عليها أولاً مواجهة عدد من المآسي المرتقبة بمقدار ما هي حتمية ومن بينها قضية "المستودعات".

بتاريخ 29 نوفمبر 1793 ثار "أشارد" بائع الكتب في مرسيليا ضد الأفراد الذين "يطالبون دون كلل بحرق جميع الكتب على اعتبار أنها غير مفيدة أو سيئة". وأوحى بجمعها كلها في مستودع إلى حين البت بأمرها. جرت إزاحة دوميرغ عندها. ودفعت الجمعية التأسيسية لجنة التثقيف العام إلى صدارة اهتماماتها الملحّة وقررت بعد شهرين، إقامة مكتبة في كل منطقة من المناطق الخمسمئة والخمسة والأربعين. بدأت المناطق التي كانت قد تخلصت من كتبها بالتطلع إلى كتب الجيران. واستنتجت أخرى، على العكس أنها طليقة اليدين في بيع ركامها من الكتب بسعر زهيد. وأعلنت منطقة "دوغاياك" باعتزاز أنها عثرت على "مواطنين ذكيين اثنين" من أجل اختيار أفضل الكتب للاحتفاظ بها. فأجابت اللجنة التنفيذية بغضب: "من الممنوع عليهما قطعيا القيام بأية عملية انتقاء وجرد جميع الكتب مهما كانت". دلّ ذلك على التقليل من درجة عناد أهل منطقة "تارن" إذ عندما وقع أمين المكتبة "بلاني ليني"، الذي أمروه بإحصاء الكتب ابتداء من الجهة اليسرى في المستودع والمتابعة نحو الجهة اليمنى، على كتاب لم يرقه عنوانه ألقاه في القمامة كي لا يكون محط سخرية بوضعه على القائمة. وقال مضيفا إن الإدارة لم توفر ما يسمح بعمل بطاقات "فلتأذن لي إذن بامتلاك هامش كتاب ألحان قداس غوطي بلا بداية ولا نهاية كي يقوم مقام البطاقات. فهل يعنى ذلك امتلاك ذهنية تخريب النفائس؟ سأعترف لكم أنني كنت أمتلكها دون أن أدري (...). بالنتيجة تابعت عملي الذي غداً لاحقاً على غاية الكمال".

أصدر المجلس التأسيسي أصلا تعليمات حماية صارمة للكتب تصف كيفية الوقاية من الرطوبة أو الفئران أو النار بحيث "يتم في نقلها مراعاة أكبر قدر ممكن من النظام للمحافظة على التقسيمات السابقة للمكتبات". أية أحلام عذبة هذه إذ عند نقل مكتبة قصر "بيري" إلى المستودع المحدد في مدينة رين وزّع الجنود

المتعالون الكتب على الناس المتجمهرين لمشاهدة مرور الموكب؛ وقام الحرّاس الوطنيون المكلّفون بردع النهّابين "في مواضع أخرى بالاستيلاء على الكتب وتمزيقها لإشعال تبغ غلايينهم أو تغذية النار في مراكز حراستهم". فما العمل "ضد المختلسين الذين كانوا أساساً من رجال الدرك أو غيرهم من العسكريين بل ومن سائقي العربات"؟ ربما أن أعباء أمين المكتبة اللاحق قد خفّت: "إمّا بسبب وجود عدد قليل من الكتب الجيدة أو بسبب اختلاس بعضها أو ضياعها أو تلفها أيضاً أثناء الأسفار وبالتالي سيُعهد له بمؤلفات غير كاملة وبمجلدات أصابها العفن وأخرى مهترئة".

كانت المستودعات في أغلبية الحالات غوغائية. واكتشف في بيريغو أن "مكتبات جميع المستودعات" قد جرى خلطها كلها" بينما "أُلقيت كتب المكتبات المختلفة على الأرض دون أي نظام في مخزن للغلال" في كاليه؛ وفي نيفر قال أحد الحرّاس: "تطلّبت عملية التنظيم مني الكثير من الوقت (...) وكان أحد المواطنين من بلدتي ضحية اندفاعه بالتفتيش في هذا المستودع القذر". أيد حارس مستودع بلفور[155] وجود مثل هذا الخطر عندما قال: "تصوروا كومة غريبة تضم أكثر من عشرة آلاف كتاب من كل صنف ولون ألقيت جملة دون عناية على الأرض مباشرة، وربما لم يتم فتح أغلبية تلك الكتب منذ أكثر من قرن وانبعثت منها سموم أرغمتني على الخروج باستمرار إذ أحسست طويلاً بأخطارها القاتلة".

عندما قرر وزير الداخلية في الخامس من الشهر السابع للعام التاسع للثورة الفرنسية ضم كتب مستودع فرساي إلى باريس، أي 127.100 مجلد لم يجلب مفتش الفرز سوى 30.000 بالكاد، وسلّم الباقي – كم بقي؟ – للتلف وللبيع بالوزن في عين المكان. وفي نهاية عام 1789 أمكن لأمين مكتبة باريس "إميلهون" الاعتماد على 162 دار دينية أو كنسية وإذا كان الرهبان لم يكذبوا

(إنهم يكذبون غالبا فمثلا قام الرهبان الشارتريون – من مدينة شارتر- بتوزيع محتويات مكتبة الدير في جميع الحجرات وأكّد كل راهب منهم أن المئة كتاب ونيّف التي تحتويها حجرته تعود له، لكن الحيلة أخفقت)، إذ كان هناك ما مجموعه 808.120 مجلد ينبغي ترتيبها في مواضع محددة، ووصل عدد المستودعات في باريس عند إضافة كتب المهاجرين إلى تسعة، ثم اقتصرت على اثنين في العام الخامس للثورة وإلى مستودع واحد في مطلع العام التاسع، واستغرقت هذه العملية الأخيرة مدة عامين. كانت حمولات عربات من المطبوعات والمخطوطات تترنح كل شهر على مدى أكثر من عقد في شوارع العاصمة ترافقها صيحات حث المطايا وربما صادفت أحياناً مالكيها الشرعيين. كم من الخسائر سببت تلك التأرجحات الهوجاء؟ لم يكن المسؤولون عن الأمر يبالون بذلك بل كانوا هم أنفسهم وكل من مارس أدنى مسؤولية أثناء فترة حكومة المديرين بعيدين عن أي وسواس، بل قام "دامبروفيل" الذي كان مسؤولا عن مستودع "لويس لاكولوتور" باصطفاء 9595 من أجمل الكتب وأخذها إلى بيته. كانت مجموعة الكتب تلك منتقاة بذكاء فعندما أعيدت إلى مستودع "كوردولييه" طلب القنصل الأول تزويده بها كمكتبة شخصية[156].

ومثلما يقال بأسلوب العصر تنافس كره الكتب مع الفساد والإهمال، ولا يُعرف أيهما سبب خسائر أكثر: الحماقة أم الغباء؟ في عام 1794 تحققت خطوة متقدمة عندما اعتبرت الكنائس أمكنة مناسبة لمخابر تحضير ملح البارود. وهكذا استقبل دير "سان جيرمان دوبريه" آنفاً مصنع "جيرمان" لملح البارود؛ "لقد أقيم خزّان كبير وسط جناح الكنيسة وفرن في الرواق ومستودع للفحم في قصر الدير" (نسي لويس ريو كومات العلف). كانت الكارثة محتمة تقريباً، وشبه مبرمجة. فخلال شهر أغسطس التهمت النيران الجزء الأكبر من 49.387 كتاب مطبوع و7072 مخطوطة كانت موجودة في المكتبة[157]. وحصل بيير

دوبروفسكي مقابل حفنة من النقود على كميات لا بأس بها من الكتب كانت ملقاة على الرصيف، دون عناية. وقد كان سكرتيرا في سفارة روسيا وتمرّس على فعل ذلك في أثناء نهب كتب الباستيل. هكذا عرفت بعض الكتب العائدة لفترة استهلال الطباعة والمخطوطات المزخرفة المكتوبة على ورق القضيم ذات الثمن الخرافي اليوم (مثل "وقائع سان دونيس الكبرى" التي كانت تعود لدوق بورغون فيليب لوبون أو "كتابات" القديس جيروم من الشعر الفرنسي والمزدانة بالرسوم من أجل لويس الثاني عشر عام 1509) طريقها سريعاً إلى بلاط كاترين الثانية في روسيا ووجدت مكانها بالقرب من مكتبات ديدرو وفولتير أو عديدين آخرين أقل شهرة مثل مكتبة لاموانيون في قصر بافيل. كانت القيصرة تعرف عملها جيداً وتملك ذوقاً عالياً، ودعاها اليعاقبة بـــ"عاهرة الشمال".

كلا، لم تكن جمهورية تلك السنوات القليلة بحاجة إلى علماء، بل كانت بحاجة متزايدة للكتب فالحرب ضد أوروبا استهلكت كميات كبيرة –صناعية– من عبوات البنادق الملفوفة بالورق وبالتالي أصبح شحّه مزمنا. هكذا سُحب من مستودع "كوردولييه" 15.000 كتاب نصفي خلال العامين السادس والسابع للثورة؛ ذلك أن صانعي عبوات البارود كانوا يفضلون الأوراق الكبيرة. وقصر "سوو" الذي بناه بيرّو من أجل كولبير هدمته حكومة المديرين ووفـــرّت سقوفه رصاص الطلقات كما خدمت صفحات المكتبة الرائعة التابعة لدوق دو بنتييفر في تغليف العبوات. توبعت في تلك الأثناء عملية تنقية الكتب حتى عودة النظام الملكي إلى الحكم. وجرى إجمالاً خلال سنوات 1789–1803 نقل وإعادة فرز وتخريب، هذا إن لم يكن إتلاف وفقدان ما بين 10 إلى 12 مليون كتاب.

أدّت الثورة الفرنسية، بفضل أفكار معطاءة دون شك وإنما خارجة عن السيطرة، إلى فناء "شبكة من المكتبات الخاصة، المفتوحة أحياناً للجمهور، كانت قد تشكلّت ببطءٍ على مدى قرون[158]". وأدّى اتساع تلك الكارثة،

كرد فعل معاكس[159]، إلى قيام نزعة تدخلية ثقافية لدى الدولة استمرت آثارها حتى نهاية القرن العشرين. لكن زال مثل هذا الخطر اليوم، أفلا يتم إبدال تلك النزعة المطلقة بالرعاية "السبونسر" في شتى الأمور؟

كان البارون جوهان كريستوف فون أروتين (1772–1824) "أحد أكثر الرجال مقتًا من قبل الطبقة المثقفة في ميونيخ"[160]. عرف هذا المؤرخ وعضو أكاديميات ميونيخ وغوتنجن، كيف يجمع طيلة حياته القصيرة الفضائح والنساء والكتب، بل كاد أن يواجه بعض الإزعاجات بعد طعنه، كما يبدو، أحد مناوئيه. كان معجبا متزمتا بعصر التنوير والثورة الفرنسية، وقد أمضى ثلاثة أشهر رائعة في المكتبة الوطنية بباريس عام 1801 إبّان حالة الهستيريا الكبرى لتجميع الكتب من كل مكان. وخرج من ذلك خاصةً بمفهوم حول ما لا ينبغي عمله وحاول تذكّر ذلك عندما كان مكلّفا باختيار أفضل ما تحتويه خزائن 73 ديرا جرت علمنتها في بافيرا. وها هو يقوم دون تردد على رأس أربعين من ناقلي الأثاث بـ"إخراج دماغ جثث الأديرة" بغية إثراء مكتبة دوقية ويتلباخ، وبعد فترة قليلة، مملكة ويتلباخ، أي بولينغ وشافتلارن وتيجيرنسي (كانت المخطوطات الميروفنجية مخبأة تحت أسرّة الرهبان)، الخ. وكانت قد شيّدت في دير 512 "بينيد كبورن" عام 1722 بناية صغيرة جميلة منفصلة للمحافظة على الكتب من أي حريق محتمل، وقد أبدى أروتين إعجابه بما توفره من راحة واختار منها 7.231 مخطوطة وكتاب تعود لفترة استهلال الطباعة ووثائق أخرى غريبة، واكتشفت فيها أيضاً مجموعة من 318 أغنية سريعة الإيقاع باللغة اللاتينية الشائعة تحمل عنوان "كارمن بورانا". أما الإثنا عشر ألف مؤلف التي لم تلق رضى البارون فقد تُركت للبيع في المزاد العلني، كما حصل في المناطق الأخرى. وقدّر عدد الكتب في المكتبات البافارية المصادرة بمليون ونصف كتاب من بينها 200.000 أضيفت إلى مكتبة بايرتش ستاتس لاحقاً. (سيجد من

يتحدث اللغة الألمانية المتعة في تصفح فهرس المعرض المكرّس لكل هذا التاريخ ومؤلفيه، الذي يُقام من شهر نوفمبر 2003 إلى يناير 2004.) وفي الوقت الذي عرف فيه عدد كبير من الكتب المطبوعة طريقه إلى جامعة لاندشوت انتهى ما يزيد عن نصف المجموع بالتأكيد إلى عجينة للورق وتكرر الأمر نفسه بالنسبة لمكتبة روتنبوخ كاملة.

إذا كان أروتين قد منع، مع الفارق، بناء مستودعات رديئة على الطريقة الفرنسية، وتحمّل عناء فرز الكتب بنفسه، فإنه لم يستطع تجنب احتقان مدينة ميونخ التي رزحت سريعا تحت وطأة الكتب بعيدا عن أي تنظيم أو جرد. استغل ذلك خصوم البارون من أهل العلم كي يشهّروا به، ثم انتهى كقاضٍ صغير في منطقة نائية. اختير في غضون ذلك بندكتيّ سابق لتنظيم الأمور وأخذ "مارتن شريتنجر"، الذي عمل مع أروتين وساهم في خسارته، القضية بجديّة، وأوضح عام 1809 "ضرورة فصل ذاكرة أمين المكتبة عن تنظيم الكتب وإلا قد تفقد مجموعة الكتب وظيفتها عندما يتغيّر وبالتالي تتوقف عن كونها مكتبة". أصبحت المسألة تتعلق للمرة الأولى إذن بـــ"علم". ولم يكن تعبير "اقتصاد المكتبات" المثير بعيدا عن الظهور. فهذه المرة سارت الأمور بشكل جيد.

جرت إحدى أشنع حالات إتلاف الكتب في باريس عام 1871 بينما كانت الأمة كلها تعيش لحظة من الترنُّح. ففي ليلة واحدة تحولت ثلاث مكتبات كبيرة إلى كومة من الرماد المبلل؛ كان الحدث بالغ الأهمية حتى لو كانت الخسائر قليلة إذ وجد المجتمع الفرنسي، خاصة الأدبي، مرآته فيه.

شهد ذلك الشهر – مايو- قمع الشرائح الشعبية الباريسية بالحديد والنار لأنها رفضت عار عام 1870 وشكلت جنين دولة داخل الدولة. وحاولت الكومونة خلال الأيام القليلة المؤاتية لها أن تسن القوانين كيفما اتفق لخدمة الثورة لكنها وجدت نفسها داخل فكي الكمّاشة بين الجيشين البروسي في

فانسين والفرنسي في فرساي. ربما كان التفكير بإمكانية الانتصار على الإثنين ممكنا إلا أنهما كانا ضالعين في التواطؤ. كثرت في ذلك الجو السريالي تماما الأعمال المفعمة بالحماس ووقع أهمها يوم 16 أبريل عندما أخرجت الكتيبة 137 للحرس الوطني المقصلة وحرقتها في ساحة فولتير المدعوة اليوم ساحة ليون بلوم. وجاء بتاريخ 16 مايو دور تحطيم نصب الـــ"فاندوم" التذكاري كما تنبأ الشاعر هنريش هاينه قبل 30 سنة. ساهمت تلك الأعمال، بقيمتها الرمزية، في إعطاء معنى ثابتا لجميع الأعمال الأخرى حتى تلك التي سببها الهلع. ولن يلاحظ أحد أن الكومونة "الزقاقية والساقطة"[161] لو كانت تحرص حقيقة على تدمير المكتبات لكان منها أن تفعل ذلك في وقت مبكر أكثر وليس بواسطة مؤسسات ثانوية.

لم تتأخر نهاية الحلم إذ اقتحم الجنود النظاميون المدينة. جرى الحريق الأول يوم 22 مايو في "وزارة المالية بعد أن أصابتها في النهار بعض قنابل الموالين للملك في فرساي عندما استهدفت مبنى الوزارة على رصيف حدائق التويلوري مما أدى إلى احتراق الأوراق المخزّنة في تخشيبات سقوفها". وفي ليلة 23 إلى 24 مايو كانت النيران تلتهم جميع الأبنية المدنية في مركز العاصمة بما في ذلك مجلس الدولة وقصر العدل وحدائق التويلوري وأخيراً دار البلدية. وإذا كانت عمليات القصف المستمرة لمدافع أنصار الملك قد سببت الحرائق، فإن الحريقين الأخيرين كانا، كما يبدو، من عمل أنصار الكومونة عندما كانوا يغادرون مواقعهم. وقد "قالت" ألسنة اللهب لـــ"المنتصر في باريس أنه لن يجد بعد الآن مكانه فيها وأن الصروح الملكية لن تؤوي بعد ذلك أنظمة ملكية"[162]. ولن تؤوي مكتباتها الهامة أيضاً، ولم يبق أصلا شيء من مجموعات كتب مجلس الدولة ودار البلدية وخاصة من 80 ألف كتاب، فريدة من نوعها ومجلدة بفخامة تنتمي لروائع الطباعة التي كدّسها في متحف اللوفر أولئك الذين تعاقبوا على الإقامة فيه من

ملوك وأميرات: "يا لها من روائع، كانت أفخم الطبعات وأجمل النسخ محفوظة بعناية هنا ولم يكن الوصول إليها أو مجرد تفحصها للحظة متاحًا للجميع. واضطر أكثر من محب شهير للمكتبات إلى الانتظار طويلا لمقابلة المسؤول عنها الذي لم تكن تفارقه أبدا مفاتيح الخزائن التي تقبع فيها تلك النوادر. وكان بينها كتب متقنة زاخرة بالزخرفات والرسوم ربما استنزفت مواهب وصبر فنانين كرّسوا حياة كاملة من أجل إنجاز كتاب واحد طلبه حاكم"[163]. لكن لم يكن جمال تلك المكتبة يقاس بتفردها اللامحدود إذ كانت أيضاً مكتبة الكثير من الأسرار، غالبا أسرار الدولة، إذ احتوت خاصة على الأعمال الممنوعة أو الملغاة بناءً على أمر. وللاكتفاء بمثال واحد كانت تلك حالة مجموعة الكتب الكاملة لــ"زئبق فرنسا" التي اشترتها عائلة "إيبرون" حيثما وجدتها وأتلفتها لمحو قصة إهانة علنية لحقت في القرن السابع عشر بالدوق آنذاك، حاكم "غويين"، الذي كان سبب تلك الإهانة. وإنما قبلها بنبل، لكن ورثته استاؤوا منها جداً. وفُقدت أيضاً فهارس التاج في 60 مجلد. وكان قد اتخذ قبل فترة وجيزة قرارًا بضم مجموعة كتب المتحف إليها لكن التكاسل في تحويلها أنقذها.

لم يبق إذن شيء من مجموعات الكتب الباريسية الثلاث باستثناء عمليات جرد مفصّلة قام بها سريعاً — سريعاً جداً – هنري بودريار، المفتش العام للمكتبات، ولويس باريس، مدير "المكتبة التاريخية" وباتريس سالان، مدير أحد المكاتب في مجلس الدولة. كان حجم الضياع مذهلا وغضب المقررين والرأي العام لا حد له. ولم ينج بالمقابل الثلاثون ألف رجل وامرأة وطفل الذين قُتلوا في الشوارع أو أُعدموا بالرصاص عشرين شخصا إثر عشرين في ساحة "شاتليه".

كتب سالان: "إنها لوحة مؤلمة لأعمال الغوغاء (...)، وشهياتهم الحيوانية (...) وأشكال رعبهم الغبية (...) ورعاع حمقى (...) يحرقون مكتبة اللوفر حارسة الكتب النادرة التي ضاعت اليوم إلى الأبد وقصر المدينة، مهد تقاليدنا

البلدية، الذي احتوت أراشيفه ومكتبته كنوزاً تاريخية ونسخاً أصلية فريدة ذات فائدة كبيرة لتاريخ المدينة". وقال المدعو "ميشيل كورنوديه" إن "هذه الوحوش الشرسة لم تكن سوى أدوات؛ فالفاعلون الحقيقيون هم في مكان آخر، في الصحافة والمحاماة والآداب وربما في المعهد(...) (المعهد هو مؤسسة فرنسية تضم خمس أكاديميات من بينها الأكاديمية الفرنسية). هؤلاء أفسدوا، بكتاباتهم أو بخطاباتهم، روح الشعب وحرّضوه ضد الإله وضد الوزراء، وعلموه النزعة المادية التي تستهدف المتعة بأي ثمن (...). لذلك ينبغي علينا الحذر منهم وحماية أطفال الشعب وأطفالنا إذا أردنا أن لا تؤدي الأسباب نفسها إلى النتائج بعينها". (مقتطف من كتابه "المعاصر").

انطلق القس "لاكروا" بحثاً عن أسقفه الأسير الذي أعدموه أصلاً رمياً بالرصاص. وحاول في غضون ذلك، وهو يتجنب قلب القواديس الخطيرة لـــ"ملح حامض البوتامسيوم" المكرّسة لنسف المدينة، إنقاذ أرواح بعض البشر. وبالفعل كانوا في منطقة القصر الملكي — باليه روايال- بصدد إعدام المشتبه به بحرق مجلس الدولة. كان شابا شاحب اللون جدا يصرخ باستمرار "أجهزوا علي". اقترح عليه القس أن يباركه؟ "لا أريد شيئاً كهذا"، أجاب الشاب قبل أن يتلقى رصاصة في جبهته. وفي منطقة التويلوري "كان حرق مقر ملوك فرنسا قد اكتمل. بعد أن نفـــّذ أعداء الداخل كلامهم المدنّس". أما من قصر البلدية فإنّه "لم يكن قد بقي سوى جمرة كبيرة. فكم من الثروات ومن الوثائق الثمينة أفنيت خلال بضع ساعات، وبأية أيدي!" هذا ما زايد عليه المستشار البلدي جيل بالقول: "قام أشقياء، خلال عدة ساعات تدفعهم غريزة التدمير، بإفناء الكتر الأكثر ندرة، وربما الأكثر نقاءً، والأكثر حساسية في قلب الفرنسيين الحقيقيين" أي 120.000 مجلّدا من بينها كتب قدّاس "جوفينال ديزورسان" التي كانت البلدية قد دفعت 36.000 فرنكا ثمنا لها منذ فترة وجيزة أو ثلاث

مجموعات لمخططات مرسومة باليد أعدّها لودر. مع ذلك قال أمين المكتبة جول كوزان بعد تعيينه في شهر سبتمبر 1870 إنه كان هناك "قدر أكبر من التوافه مما هو من الجواهر (...). نفاية من الكتب الحديثة، مجرد سلع مكتبة، استعباد وليس منفعة. وكل شيء ينبغي عمله من جديد في مكتبة أوجياس المهملة حيث قاد "نضالات بطولية من أجل استعادة الكتب التي استولى عليها المسؤولون الكبار كأنهم في سوق، ولم يفكروا أبدا بإعادتها". قدّم هذا المتحمس "الذي عزله أنصار كومونة باريس واستغنى الوطنيون عن خدماته" في شهر يوليو للمدينة مجلّداته الخاصة الستة آلاف كتعويض، كهبة وجد صعوبة كبيرة في قبولها لكنها شكّلت في النهاية جنين المكتبة التاريخية لمدينة باريس[164].

وقال سائح عابر هو السير ويليام أرسكين: "رأيت للتو قصر بلدية باريس بخرائبه التي تمدهدها أشعة شمس الغروب الزاهية (...). منظر رائع. إن أهل الكومونة أوغاد مخيفون. لا أنكر ذلك، ولكن كم هم فنانون! إنهم لم يعوا فعلتهم ولم يدركوا ما يفعلون! وهذا أكثر إثارة للإعجاب[165]". باستثناء هذه الشهادة الماكرة المكرّسة حصرا لتعكير العلاقات الفرنسية-البريطانية، سادت موجة من الغضب الشديد.

بدت موجة الكره العارمة ضد المدافعين عن الكومونة مشوشة دائما. وليس مثيرا للدهشة أن تأتي من بعض العجزة المتخلفين الراسخين جيدا في آليات عمل السلطة فالحقبة كانت أفضل ما يكون للبورجوازية "الطامحة إلى تحسين مواقعها — الانتقال من استخدام خشب الأكاجو إلى خشب البليساندر الفاخر ذي اللون البنفسجي[166]" وكان أكثر ما تخشاه حدوث أي اهتزاز في النظام القائم. وباستثناء بعض الأوغاد النادرين (رامبو، فولتير، فيلييه) و"كاتول مندس" الذي رأى كل شيء، لم يبد أي كاتب تأثره ولو من بعيد بالمصير المؤلم لأبناء باريس ويأسهم الذي وصفه إيلي روكلوز كما يلي: "كل شيء يحترق!

بدأ أنصار الملك القصف انطلاقاً من فرساي، وتابع أنصار الكومونة القصف(...). النيران تأكل كل ما هو قابل للاحتراق. إنه الوقوع في قعر الهاوية والغوص في لجّة الكوارث مع ثقب هذا القدر من الصدور الحيّة وسحق هذا العدد من العقول المفكّرة والاختناق في هذا البحر من الدم، فماذا يمكن أن تفعل لنا بعد هذه الصروح والتماثيل والكتب واللوحات والوثائق القديمة والنجود؟" ولوحظ على العكس أن طبقة الكتبة كلها اقتفت أثر الرجعية الأكثر صبيانية (دوقة سوغور وإيليمير بورج) أو سبقتها بالهيجان المبالغ به. هذا ما عبّر عنه إرنست رينان وشرحه بالقول: "إن الأغلبية العظمى من الأدمغة الإنسانية تقاوم الحقائق السامية الرفيعة قليلاً جداً". فهذا هو إميل زولا يمجّد العائلة والتجارة، وفلوبير المالك الصغير القلق يبدي قصر نظره ويحلم بفرنسا محكومة بـ"قبضة من حديد" بينما تزن جورج صاند كلماتها بعناية. هنا تكمن الخسارة الكبيرة للأدب الفرنسي وهنا يكمن أيضاً حريق المكتبة. لقد ساد الاعتقاد بوجود كتّاب كبار، لكنهم لم يكونوا سوى متشدقين خانعين. وكان أمثال غوتييه وغونكور وأناتول فرانس مجرّدين من أدنى حساسية ولم يكن يؤمل منهم أي تعاطف، وإنما على الأقل استقراء أن مستقبلا آخر كان يقرع أبواب منازلهم المترفة في الضواحي. وكان أسوأ من عدم امتلاكهم للرؤية افتقارُهم التام للكياسة.

ومرّة أخرى أثبت فكتور هوغو تفرده وجنى شهرته من اللعبة إذ اتخذ، من بروكسيل حيث كان، في مجموعته "العام الرهيب" موقفا مغايرا تماما لموقف أهل الأدب مما جرّ عليه إزعاجات إضافية وتلقى سيلاً من الشتائم من زملائه ("ساد الاعتقاد حتى الآن أنه فرنسي" كما قال عنه باري و"عجوز مجنون" كما وصفه سارسي). احتوت تلك المجموعة الشهيرة على قصيدة "من هو المخطئ؟" المكتوبة بعجالة فائقة ولا تستحق سوى السقوط. "لا أعرف القراءة" هكذا

أجاب مضرم النيران على الشاعر الذي أعاب عليه تدمير المكتبة بينما تستطيع الكتب وحدها إخراجه من وضعه الاجتماعي الشاق؛ ومن هذا الحوار جاء عنوان المجموعة. ورفض جميع كتّاب تلك الفترة، باستثناء جورج صاند، التعليم العام والإجباري والعلماني والمجاني الذي شكّل الفكرة الأساسية لكومونة باريس، ابنة الجمعية التأسيسية (زمن الثورة الفرنسية)، والذي ربما كانت رواية "مدام بوفاري" قد بقيت دونه عملاً صغيرًا يعرفه طلبة معهد المعلمين فقط.

لكن ما فائدة تعذيب النفس حول وجود أكثر مما ينبغي أو أقل مما ينبغي من الكتب، كما تندّر أصلاً لويس سيباستيان ميرسييه منذ عام 1781 قائلاً: تتلف يد البقالين والعطارين وبائعي الزبدة وغيرهم التي لا تكلّ ولا تملّ من العمل، يوميا من الكتب والمنشورات بمقدار ما تتم طباعته. ودون هذه الأيادي المدمّرة لحسن الحظ(...) كانت كتلة الورق المطبوع ستزداد إلى حد مزعج وتؤدي في النهاية إلى طرد جميع المالكين والمستأجرين من بيوتهم". هذه "اللوحة" الصاعقة لباريس أوحت فيما بعد بالجملة التالية: "سوف يخدم كتابي – كتاب الأناشيد – البقّالَ لصنع أقماع ورقية يصب فيها القهوة والتبغ بغية وضع السعر عليها خدمة لنساء المستقبل العجائز". عبّرت الجملة عمّا توقعه الشاعر هنريش هاينه عام 1855 حول ما قد تجلبه لنا "الطبقة العاملة الظافرة". وختم "ميرسييه" بنزعته الطاوية الطبيعية قائلاً: "يُلاحظ وجود النسبة نفسها بين تصنيع الكتب وتحللها، مثلما بين الحياة والموت؛ هذا عزاء أوجهه إلى الذين يثير تزايد عدد الكتب قلقهم أو حزنهم".

الفصل التاسع

مدمّرو المكتبات الجدد

أنتم من الورق وإلى الورق تعودون

والتر مهرنغ

أكّدت الولايات المتحدة أنها لم تكن أبدا عرضة للهجوم على أراضيها قبل الحادي عشر من سبتمبر 2001. هذا خطأ، فالبريطانيون كانوا قد هاجموها عام 1812. وكان الكونغرس الأمريكي ومكتبته قد أنشئا في واشنطن عام 1800 بعد أن حصلت تلك المكتبة على أول دفعة كتب من لندن تمثلت بـ740 عنواناً. وفي 24 أغسطس 1814 قام جيش الغزو البريطاني بإضرام النار في الكابيتول وفي الثلاثة آلاف كتاب التي كانت المكتبة الشابة تحتويها.

وقيل إنّ حريق موسكو الكبير بتاريخ 15 سبتمبر 1812 كان من فعل مطلوبين للعدالة حرّضهم حاكم المدينة الذي لم يكن سوى "روستوبشين" أب الكونتيسة (الكاتبة) دوسيغور. كان يراد بهذا الفعل التخلص من حالة التذمر، وقد تم التحضير له منذ فترة طويلة بحيث لم يبق على شيء من المدينة الكبيرة والرائعة. نجت عدة مكتبات بمثل تلك الطريقة "الحاسمة" من نابليون، وكانت

الأكثر قيمة بينها، مكتبة الكونت ديمتري بوتورلين (1763–1829) الذي يتم الخلط غالبا بينه وبين الشخص الذي يحمل الاسم نفسه من عائلته وكان مرافقا عسكريا للقيصر. لم تضعف همّة الكونت بوتورلين لاسيما وأن ثروته لم تُمس إلا قليلاً، وأسس فيما بعد مجموعة كتب متألقة جديدة في فلورنسة ضمّت العديد من الطبعات الإيطالية القيّمة جداً التي حصلت عليها مكتبة "البولديين" ما بين 1839 و1841.

دفع التقدم العلمي الذي شهده القرن التاسع عشر صناعة المدفعية والطيران إلى الأمام. وسمحت أخيراً عمليات القصف من بعد أو من أعلى بعدم اللجوء إلى المجازفات غير المحسوبة لحرق المدن المعادية بالوسائل اليدوية. لقد تغيرت قواعد اللعبة، وازدادت فجأة طموحات العالم.

كتب في الحرب

لا بد من الاعتراف أن الحرب الفرنسية–الألمانية كانت كارثة مرتين بالنسبة للكثير من المدن التي جعلها حظّها العاثر المشترك في عين المكان بفارق عدة سنوات. هذا بكل الحالات ما يعتقده أهالي أراس أو ستراسبورغ أو لوفان أو العديد من مراكز التجمعات السكانية الأخرى.

لتطمئن فرنسا نابليون الثالث، فمدينة ستراسبورغ كانت مستعدة لمواجهة الهجوم البروسي عام 1870. بواسطة مصدّاتها الجميلة والقوية كانت "المدينة جاهزة للدفاع عن نفسها طالما هناك جندي وقطعة خبز وخرطوشة"، كما أعلن المحافظ البارون "برون" في 10 أغسطس من تلك السنة، أي يوم مغادرة آخر قطار إلى باريس قبل العزل الكامل للمنطقة. لكن لم يترقب أحد للأسف المدى الطويل لقذائف المدفعية المعادية التي أخذت تدمر المدينة انطلاقاً من "هاوسبرغن". استمر القصف طيلة شهر كامل وبعد أن تلقت المدينة 193.722 قنبلة أُرغمت على الاستسلام.

وفي ليلة 24 أغسطس، أي يوم ذكرى مذبحة سانت برتيليمي، لم يكن دك المدينة قد توقف. احترقت المكتبة في تلك الليلة مع 400.000 كتاب كان بداخلها آنذاك. وكان في عداد الكومة التي يتصاعد منها اللهب مجموعة "راهبة مولشايم" التي تم الحصول عليها عام 1792 والمؤلفة من 4.133 مجلداً و486 مخطوطا من بينها كتاب كبير الحجم مزيّن بـــ344 رسم توضيحي هو "حديقة المباهج" لرئيسة الدير "هيراد دو لاندسبيرغ" (من القرن الثاني عشر). وامتزج رماد المئات من المخطوطات برماد الآلاف من الكتب المطبوعة قبل عام 1500، مع مرافعات محاكمة غوتنبرغ ضد ورثة شريكه السابق "دريتزن"، وكانت تلك الوثائق تسمح بإلقاء بعض الضوء على التصرفات الملتوية لأب المطبعة الأوروبية.

غدت المكتبة الفرنسية-الألمانية من متاع الماضي. تعرّضت ستراسبورغ للقصف من جديد خلال 1943-1944. وإذا كان القصف المستمر ليلاً نهاراً طيلة شهر قد أودى في المرّة الأولى بحياة 362 شخص، فإن ثلاث عمليات قصف بالطيران جعلت هذا الرقم يرتفع إلى 1.239 ضحية. إن أهالي مدينة ستراسبورغ سوف يفضلون لاحقاً نسيان روعة ذلك التقدم المنجز فالقنابل كانت تحمل ألوان حلفائنا. وما إن زال الوجود الألماني حتى خفّت المنطقة إلى حرق الكتب التي كان الألمان قد وضعوها مكان آلاف الأعمال باللغة الفرنسية.

كان الرسام "تومي أونجيرر" الطالب آنذاك في المدرسة الثانوية بمدينة "كولمار" أحد الأشخاص النادرين الذين تحدثوا عن ذلك، إذ قال: "مثلما كان الأمر في مشهد سابق، أُلقي بفرح كل ما هو ألماني في النار، وتحوّلت المكتبة الرائعة التي كانت قد ازدادت ثراء في عهد كيزر إلى رماد. عرفت نفس المصير أعمال غوته وشيلر وحتى التماثيل النصفية المصنوعة من الجص للفلاسفة اليونانيين والرومان[167]."

إن الموقع الجغرافي لمدينة لوفان (لوين كعاصمة منطقة باربان الفلامندية)

على بعد 26 كيلومتر شرق بروكسيل جعل منها مركزاً جامعياً أوروبياً منذ القرن الخامس عشر وكذلك هدفًا مباشرًا للتزاعات الكبرى. تأسست جامعتها عام 1426 ودرس فيها ايراسم وجوست ليبس وميركاتور. وتعلم فيها "فيزال" العلم العربي وأنشأ الطب الحديث عبر كتابة مؤلفه حول التشريح. وقام جانسينيوس، على غرار إيراسم، بالتدريس فيها مدة ثمانية وعشرين عاما تمّت خلالها طباعة كتابه "أغسطينيوس" الذي أثار ضجة كبيرة. لكن عملية التطوير الحقيقي للمكتبة بدأت عام 1636 حيث أن مطران مالين "جاك بونين" زوّدها بريع سنوي وعيّن أول أمين مكتبة لها، وفي عام 1723 انتقلت إلى مقر جديد مجاور لسوق الأقمشة، وبالإضافة إلى العطايا الثمينة كبرت مجموعاتها وازدادت ثراء عندما شملتها فوائد الإيداع القانوني عام 1759. قامت حكومة المديرين بإغلاق الجامعة عام 1795 واستأثرت المكتبة الوطنية في باريس بخمسة آلاف من أفضل مجلداتها، كما تعرّضت لعمليات نهب أخرى عام 1798 ولعمليات بيع عمومي عام 1807، لكن هذا لم يمنع إعادة فتح المؤسسة من جديد عام 1826 مما أدى إلى إعادة تنظيم المكتبة وإثرائها وزيادة كتبها، بعد أن أصبحت تدعى من جديد الجامعة الكاثوليكية، من 60.000 إلى 250.000 نسخة. هكذا جرى إتلاف 300.000 مجلّد في ظرف عدة ساعات يوم 25 أغسطس 1914.

استسلمت المدينة واجتازها الجيش الألماني بقيادة الجنرال "فون بوهن" ليلا، وكان لا يزال أمامه ما يتطلب جهدا أكبر. لقد انطلقت رصاصة بندقية من أحد النوافذ. ربما كان مصدرها أحد الجنود الألمان خطأ وليس قنّاصاً؛ لا يزال النقاش مستمراً هناك حول هذا الأمر حتى الآن. لكن قانون الحرب صارم فكل مترل يصدر منه عيار ناري بعد الاستسلام يتم هدمه وقتل ساكنيه. ساد جو من الخوف والهلع العام وجرى حرق ألف وخمسمئة مسكن وإعدام مئتي شخص رمياً بالرصاص ثمّ أُسر باقي سكان المدينة. لم تكن المدينة بعد سوى

كومة من الفحم. وكي يعطي الجنود العبرة للآخرين بدؤوا بحرق السوق الذي كان يحتوي على ألف من الكتب المطبوعة قبل 1500 ومئات المخطوطات. وانتهت النسخة الأصلية من كتاب "التشريح" لـ"فينرال" حول بنية الجسد الإنساني في تلك الكومة من حطام الجدران و"الأكداس الضخمة من الورق المحترق (...) بما في ذلك ميثاق التأسيس لعام 1426 (...). ولم تنتشل من الرماد الساخن إلا بعض الأقفال النحاسية لملفات قديمة"، حسب قول أحد الشهود. كان مثل ذلك الفعل "يعبّر عن حنق الألماني أمام مجرد مقاومة فكرة"، كما تجرأ هنري برغسون على القول بينما وجّه تيموم الثاني، "نيرون الحديث" حسبما جاء في بطاقة بريدية، البرقية المقتضبة التالية لوودرو ويلسون: "نالت لوفان العقاب الذي تستحقه".

لا بأس فالمؤسسة ستعود للانبثاق من العدم اعتبارا من عام 1928 بفضل ممارسة جديدة تدعى المساعدة الدولية. وبالإضافة إلى الجهد الألماني الجدّي الذي قدّم في إطار معاهدة فرساي ما بين 350.000 إلى 400.000 مجلد، ساهمت فيها إنكلترا أو اليابان إذ قدم الإمبراطور هيرو هيتو مؤلفات ثمينة من بينها مخطوطة من القرن الحادي عشر ومؤلفات تعود لما قبل القرن الخامس عشر وسابقة بمدة طويلة لمطبعة غوتنبرغ. وانبثقت خاصة بفضل مساعدة الولايات المتحدة التي قدّمت مجموعة أساسية من الكتب وأعادت إعمار المبنى. "تم تهديمها بفعل هذيان توتوني — نسبة إلى سكان جرمانيا الشمالية– وأعيد بناؤها بواسطة العطاء الأمريكي"، هذه هي الجملة التي نقشها المهندس المعماري "يانكي ويتني وارين" على واجهتها. فهل واجه الكاردينال العجوز "ميرسييه" هذا الكلام المثير بفتور؟ كان الأمر فضيحة جلية. اختلطت المشاعر الطيبة بالمشاعر السيئة إذ كان من الصعب في الواقع تصور إمكانية قيام تعاون جامعي لا مناص منه مع ألمانيا لفائدة مؤسسة تعلن عبارة منقوشة بهذا القدر من النبرة الجازمة. لكن من كان يتجرّأ على أن يجهر بأعلى صوت بمثل تلك المشاعر المقبولة تماماً؟ إنه للأسف

"ليون دوغريل"، الرجعي أصلاً والمتعاون المتحمس مستقبلاً مع النازية. كذلك لم يكن مدّاح "العمل الكاثوليكي" يفقه شيئاً في اللغة اللاتينية، إذ كان يشن هجوما على خطأ نحوي موجود في جملة (لكنه كان يخلط بين المؤنث والمذكّر) ليستنتج من ذلك أنه لم يتم عرض الجملة على الكاردينال، وإلا كان صححها. تم في غضون ذلك تكسير اللوحة الحجرية قبل وضعها من قبل معارضين ليلاً ثم أعيد عملها ونصبها دون ذلك التنويه الساذج.

بعد أن ترسخت مكتبة لوفان الكبرى واستُكملت وجُهِّزت غدت رمز الإخاء الغربي في حقل المعرفة واحتوت على ما يفوق المليون كتاب جرى تدميرها بالكامل في ليلة 16 مايو 1940 من قبل المدافع الألمانية. ويبدو أن برج السوق الذي كان ينتصب فوق المكتبة ويشابه كثيرا جرس "جيرلدا" في إشبيلية، قد سمح بتصويب عملية الرمي. عند الساعة الخامسة صباحاً لم تبق هناك أية كتب لم تُمس. نفت القيادة الألمانية هذه المرة أية مسؤولية لها مع سوء نيّة منذر بالخطر مفاده أن البريطانيين كانوا، بنتيجة التحقيقات، هم المذنبين مثلما كان الحال، دون شك، عام 1914. كانت بلجيكا حيادية لكن في أسوأ موقع في العالم من أجل الحياد، إذ حصلت لمجموعاتها الأخرى من الكتب كوارث رهيبة، مع أن ما جرى قبل فترة وجيزة في بولندة قد أعلن بوضوح عن المصير المشؤوم وكان يسمح باتخاذ بعض الإجراءات الاحترازية. المكتبة الملكية وحدها لم يتم المساس بها تقريباً، ولكن ليس مكتبات سان-تروند أو غاند أو تورناي (فُقد 71.546 مجلدا عمرها مئة عام من أصل 75.000 مجلد).

في أرّاس، قام رهبان كنيسة "سانت فاست" البندكتيون بإثراء مجموعاتهم من الكتب بكل بذخ، وضُمّت لها كتب الأديرة المجاورة مثل دير الأغسطينيين في جبل "سانت إيلوا"، وكذلك كتب أكاديمية أرّاس. وفي شهر يوليو من عام 1915 دمّرت عمليات القصف 50.000 عمل مطبوع بينما تمّ نقل معظم

المخطوطات في الوقت المناسب. لكن ما إن جرت بالكاد إعادة بناء سجل المحفوظات وتجديده حتى تعرّض للإتلاف من جديد عام 1940. إن قائمة عمليات القصف المدمّرة للمكتبات ما بين عام 1940 وعام 1944 مذهلة، فضلاً عن تكرارها كثيراً. وجرى تدمير 200.000 كتاب من المكتبة البلدية لمدينة تور و42.000 في بوفيه و110.000 في دواي و23.000 في شارتر... كان يوجد في هذه المدينة الأخيرة كثر من 2000 مخطوطة من بينها "هيبتا توشون" أو كتاب تعليم الفنون الليبرالية السبعة الذي أدخل إليه "تيري دو شارتر" (1100–1150) قليلاً من العلم (القادم من العالم العربي) في العالم الروماني، وكان قد تم وضع هذه المكتبة في مكان آمن لكن المحتل، مدفوعاً برغبة إظهار وجوده، أمر بإعادتها إلى حيث كانت في دار البلدية، وعندها دمرت قنبلة طائشة، إنكليزية ربما، سجل المحفوظات بتاريخ 26 مايو 1944. أُصيبت بعض الصفحات بالتفحم فقط، ولذلك تتم اليوم محاولة تطبيق الطريقة التي أظهرت نجاعتها في "هيركولانوم" في محاولة استظهار النصوص غير المطبوعة منها[168].

فقدت فرنسا وحدها 19 مكتبة بلدية، وفقدت مكتبتان جامعيتان مليوني مجلد[169]. وتلذذ الكابتن "أرنست جونجر" عندما قام يوم 12 يونيو 1940 برحلة ممتعة كبحّاثة وسط المخطوطات المتروكة في المكتبة المهجورة لمدينة "لاون" ذات "البوابة المتداعية". قال: "بحثت في ذلك المكان الهادئ مثل نحلة في نبات النفل الجاف حتى بدأ الظلام يخيم (...). قيمة مثل هذه الكنوز لا تقدّر، ولا يتم التخلي عنها إلا في حالة الهزيمة الكاملة. أريد إضافة القول إنّني عندما كنت أمسك تلك الأوراق بيديّ حلمت بالكاد أنها كانت تساوي الملايين إذ ربما كنت، دون شك، الإنسان الوحيد الذي يفهم قيمتها الحقيقية" في تلك المدينة. واعترف الشاعر ذو القلب القاسي بطريقة غامضة أنه فكّر بوضع الوثائق وأحرف الطباعة الرفيعة الممهورة باسم مخترعها في مكان آمن ثم غيّر رأيه: "لقد تركتها بالتالي دون قفل ولا مزلاج حيث كانت".

أما إيطاليا فقد تمتعت بالميزة النادرة المتمثلة في تلقي قنابل الألمان وقنابل الحلفاء بالوقت نفسه، والتي كانت تتآزر لتحقيق نتيجة لا تمايز فيها البتة، وهكذا اختفى مليوناً كتاب مطبوع وتسعة وثلاثون ألف مخطوطة. وزالت تماما، مثلا، مكتبة العلوم والآداب "كولومباريا" في فلورنسة عام 1944. لكن هذا الجبل من الرماد لم يكن يعادل إلا النزر اليسير بالقياس إلى بريطانيا حيث جرى الحديث عن حرق عشرين مليون كتاب في أثناء القصف أو تخريبها بمياه رجال الإطفاء. كان أكثر من ربعها قد تلف خلال شهر ديسمبر 1940 وحده في حي المكتبات بلندن الذي لم تغادره في أثناء الحريق الشهير لعام 1666. وسجّلت خسارة 150.000 مؤلّف في كوفنتري، كانت قيمتها هامة بالنسبة للجمهور إلى درجة أن اسم هذه المدينة التاريخية بالقرب من ستراتفورد-أون-أفون ولّد لفظة جديدة رهيبة بالرغم من أنها عابرة تدل على "دك" المكتبات. كان أدولف هتلر على قناعة أن حمم قنابله الكثيفة لا بد أن تدفع الإنكليز إلى التوبة. عنى ذلك أنه لم يكن يعرفهم جيداً، إذ حتى أثناء أقسى لحظات القصف لم توقف المكتبات نشاطها في إعارة الكتب. وروى أحد أمناء مكتبة لندنية أن سيدة عجوزًا جاءت البارحة وهي مضطربة جداً لأنها لم تجد الكتاب الذي كانت قد استعارته للتو، قالت: "أعتقد أنني كنسته مع حطام السقف".

جرى الأخذ دون تأخير بالفكرة المشوشة لهتلر إنما عكس صالحه؛ إذ لم يكن تشرشل يعرف ماذا ينبغي عمله فشجّع القيام بعمليات قصف كثيفة جداً و"شديدة التخريب"، ثم تبعه قرار شهر فبراير 1942 بـ"تهديم معنويات السكان المدنيين الأعداء وخاصة عمّال الصناعة". كان بريق النيران في درسدن يُرى على بعد 70 كيلومترا، وأدّت العشرة آلاف طن من القنابل الحارقة على هامبورغ عند الساعة الواحدة من صباح 27 يوليو 1943 إلى ارتفاع كبير بالحرارة على علو 2000 متر مما أرغم القوات الجوية الملكية بعد 20 دقيقة من القصف على

توقيف عملها. وبدأ دعم الطيران الأمريكي الذي كانت مساهمته هامة لدرجة أن الغارة تعمّدت للمرّة الأولى باسم عملية غومور[170] وفي الشوارع تجاوزت الحرارة الألف درجة.

احترقت عشرة ملايين من كتب المجموعات العامة الألمانية بفعل عمليات القصف وحدها، أي ما يمثل، بما في ذلك الخسارات الخاصة المتصوّرة، ربع أو ثلث الكتب التي كانت موجودة في البلاد آنذاك. ومن بين المدن الـــ131 المقصوفة تعرّضت 30 مدينة لضربات موجهة متكررة حيث خسرت 27 منها مكتباها المختلفة كليا أو جزئيا، ومن بينها درسدن ولايبزغ ودرمستات وبرلين وفرانكفورت وهامبورغ وميونيخ ومونستر وشتوتغارت وكاسيل. لم تكن قائمة المدن الـــ24 التي أعدها منظمة اليونسكو كاملة إذ ينبغي أن تضاف لها مدن بريسلو وغوتنغن وجانا، التي ذكرها "جوهنسون". كذلك بارن، حيث فقدت مكتبة "باديش لاندش" الثلاثمئة وخمسين ألف كتاب التي كانت تحتويها يوم 3 سبتمبر 1944 ولم تأذن البيرقراطية بتحويليها إلى مكان آمن، كما تشير "هيلرا ستوبينغ" في دراسة مكرّسة للمكتبة تحت القنابل. لكن هل يتحدّث هذا العمل عن نفس البلاد؟ إن "بادن" هي عملية التدمير الوحيدة في ألمانيا التي تذكرها الدراسة (باستثناء عملية الحرق في برلين عام 1933) بينما يتم التركيز بالمقابل على أشكال العناية الفعالة جدا التي قام بها موظفو المكتبات الألمانية للمحافظة على مجموعات الكتب.

إن الأقبية وحتى العميقة منها لا تنفع الكتب في شيء أمام القنابل الحارقة. في درسدن دمّرت عمليات القصف الإنكليزية-الأمريكية ما بين 13 و15 فبراير 1945 مركز المدينة بالكامل و70% من إمكانياها الصناعية وقتلت 37 ألف شخص. فكيف كان يمكن إنقاذ المكتبات الثلاث الهامة، أي مكتبة "ساشين لاندس"، في مقاطعة ساكس، ومكتبة "شتات" البلدية، ومكتبة "فيرين فور

إيركوند" التابعة للجمعية الجغرافية؟ وفي دخان الصفحات المحترقة اندسّت أشباح آلاف الكتب العائدة لفترة استهلال الطباعة، مثل أحد بواكير الكتب المصورة، المطبوع في باريس من قبل جاهان بوتوم، أي كتاب "تدمير طروادة" لجاك ميليت الصادر عام 1484. وكذلك النسخة الوحيدة الباقية من طبعة 1533 من "بانتاغرويل" لناشرها فرانسوا جوست.

بالإضافة إلى الخسائر التي تكبدها المكتبات البلدية والجامعية فقدت مدينة "لايبزغ" أيضاً الستين ألف مؤلَّف التي ضمّها متحف الكتاب، إثر هجوم جوي في شهر ديسمبر 1943. لا شك أنه كان ينبغي تكريس مقطع على الأقل للحديث عن فترة تكوين تلك الهيئات القتيلة. لكن الآلية غير الإرادية لعملية تكدسها خلال عدد قليل من السنوات ألقت ظلا من الشك حول جدوى مثل هذه المهمة. فما فائدة القراءة أو التعلم عندما يبدو العالم في نهايته، كما كانت الحالة للحظة أثناء تلك الحرب العالمية الثانية؟ هذا ما صاغه "كلود سيمون" بكتابه "طريق الفلاندر" في جملة جاء فيها: "أجبت بالمقابل إذا كان مضمون الآلاف من كتب هذه المكتبة التي لا تعوّض عاجزا عن منع أعمال مثل القصف الذي دمّرها، فإنني لا أرى ماذا تخسر الإنسانية إذا دمّرت نيران القنابل الفوسفورية هذه الآلاف من الكتب والوريقات العارية من أقل فائدة كما يبدو. وتأتي بعد ذلك القائمة المفصّلة للقيم المضمونة أي الأشياء الضرورية للاستهلاك التي نعرف أننا بحاجة لها هنا أكثر من كل مضمون مكتبة لايبزغ الشهيرة؛ كالجوارب والسراويل الداخلية والثياب الصوفية والصابون والسجائر والسجق والشوكولا والسكر والمعلبات المحفوظة)". وهذا ما ردّ عليه "لوسيان دالنباخ" مباشرة في ملحق الكتاب نفسه: "إذا تكشّف أن الكتب تافهة في مواجهة القوة العمياء للحاجات الضرورية، فما فائدة سرد وكتابة "طريق الفلاندر"؟ وأصاب الإحباط أيضاً "والتر ميهرنغ" أثناء القصف إذ قال: "وسط صراخ شياطين

الحرب التي كانت تصب علي حممها من عمق كل شارع صغير" فهرب من فيينا تاركاً مكتبته. وكتب: "ابتعدت إذن كي لا أتحول إلى تمثال من الملح، تاركاً ورائي ذلك الجدار الواقي المصنوع من آلاف المجلدات، والذي كان والدي قد أشاده من أجلي. كان كل عمل من تلك المؤلفات يحتوي على لعنة ألقتها تلك الشعوذة التي كان الرجل المتنور يعتقد أنه بفضلها، وهو الملحد المؤمن بالتقدم، محمي بالمقابل من ملكوت الشياطين والظلمات"[171]. بقي جونجر من جهته صامداً وكتب ما يلي: "كيرشوست، 9 أبريل 1944. نظراً للكميات الهائلة من الكتب التي دمّرتها عمليات القصف، ستصبح الكتب القديمة نادرة (...). وقد يكون لهذا محاسنه —مثل ترجيع العقول إلى ما هو أساسي(...) وبطريقة عامة، سيؤدي المظهر الجماعي للوجود الإنساني إلى تطوير كبير للمكتبات العامة[172]".

شكّل إلقاء الحلفاء لمليون ونصف طن من الحديد والنار على المدن الألمانية موضوعاً يحظر الخوض فيه بالنسبة للجيلين التاليين. قد يمكن بسهولة تصوّر حدوث مثل هذا الأمر في فرنسا أو لدى المثقفين الإنكليز، لكن كان ذلك هو الحال أيضاً في ألمانيا كما أشار إلى ذلك حديثاً وينفرد جورج سيبالد، قبيل وفاته إثر حادث، في دراسة أثارت بعض الهيجان فيما وراء نهر الرين (ألمانيا)، تحت عنوان "الحرب والأدب". ويبدو أن تلك العودة على فجوة في الذاكرة تطرح إشكالية قد أدّت إلى فتح جرح نازف، مع كل ما ترتّب على هذا من سرّاء وضرّاء. مثل دراسة الحريق لجورج فريدريش.

في اليابان، سحقت حرب المحيط الهادئ، (الاسم الرسمي للحرب العالمية الثانية) في غضون ذلك عدداً لا يحصى من المكتبات والكتب التي احترقت مثل الكتان إذا كانت تعود لما قبل عام 1800. وقامت طائرات العالم الحر على امتداد عام ونصف بأربعة آلاف غارة على طوكيو. تدمّرت تماماً ثماني مكتبات

بما في ذلك بناؤها، وأصيبت ثلاثة أرباع المكتبات بخسائر حيث لحقت أكبر الأضرار بالأكبر بينها أي مكتبة "هيبيا" المكتبة العامة، الواقعة بين القصر والفندق الإمبراطوري والتي أنشئت في عهد سلالة "ميجي" وكانت قد استفادت من بداية عملية نقل لموجوداتها بواسطة الشاحنات أولا ثم بواسطة عربات نقل صغيرة وأخيرًا بواسطة أكياس محمولة على الظهر، لكن هذا كله لم يكن كافيا إذ دُمّرت الـــ200.000 كتاب الأخيرة خلال غدة ساعات. وفُـــقد 40.000 مجلد في جامعة "وازيدا" و69.000 في وزارة الخارجية و15.528 في مكتب الشهادات و46.695 في مكتبة رئاسة الحكومة ومجمل كتب وزارة الزراعة والبحار. وعندما قام العدو الأمريكي بالإنزال عام 1945 لم يكن قد بقي في البلاد كلها خمسة ملايين كتاب[173]. وارتأى المحتل الذي ساهم في إعادة تعمير المكتبات والنظام التربوي، كتابة اللغة اليابانية التي أرعبه تعقيدها بالأحرف الرومانية؛ لكن صُرف النظر عن المشروع.

النازية، المحرقة (الهولوكوست)

إذا أمكن اعتبار الكوارث المذكورة أعلاه كحواشي لـــ"ما هو أساسي" مع ذلك الوابل من القنابل وقذائف المدفعية التي سقطت من السماء المجهولة مثل دمى بابا نويل، فإن عمليات التخريب التي اقترفتها النازية انطوت بالطبع على بعد آخر تماما وعلى دلالة لا مساومة فيها.

على المستوى الكمي يبدو أن هناك تعادلا مع المعسكر الخصم إذا تمّ قبول رقم الـــ100 مليون من المجلدات الضائعة في الاتحاد السوفييتي كما جاء في دراسة[174] أجريت عام 1985، وستتم العودة إلى هذه النقطة لاحقاً. أما بالنسبة لنوعية الخراب، فإنها تجد مصدرها المباشر في تبديات هذيان هتلر عام 1925 وفي قرارات 1933، أي في السنة التي شهدت بداية الحرب على "العدمية الثقافية"

وحرق الكتب مما قد يسمح بقيام إنسانية جديدة. وقد كانت هناك سابقة[175]، إذ في عام 1817 في "إيينا" نظم طلبة من مؤيدي النزعة الجرمانية عملية حرق كبيرة للكتب في قصر "وارتبورغ". لكن مع فارق هام هو أن الأمر كان يتعلق بمؤلفات مزيفة، جرى صنعها من دفاتر قديمة وكتبت العناوين الموصومة بالعار باليد على الصفحة الأولى منها.

أصبح هتلر مستشاراً بتاريخ 30 يناير 1933. واعتباراً من 2 فبراير مُنعت كل مطبوعة يمكن أن تحتوي على معلومات غير دقيقة. لم يكن هناك أسهل من عمل ذلك باستثناء شطب تعبير "غير دقيقة". هكذا بدأت في الحال عملية تحضير محرقة 10 مايو من قبل أمناء المكتبات بينما كانت "رابطة المعركة من أجل الثقافة الألمانية" تُصدر إلى جمعيات الطلبة التعليمات الرامية إلى تخليص البلاد من "السم اليهودي-الآسيوي". وكان ذلك ما أكّده فيما بعد الفوهرر في الأسرار التي باح بها لهيرمان روشنينغ عندما قال: "نحن برابرة وهذا ما نتمنى أن نكونه. فالكلمة تبعث للاحترام".

كان ذلك مجرد خديعة، فالعديد من المكتبات جرى نقلها بعناية إلى أوروبا كلها (352.000 كتاب مختارة بعناية لدى الجاليتين اليهودية والسلافية وحدهما في باريس) في حركة تتناقض بالكامل مع الدعاية القذرة التي روجتها العمليات الاستعراضية لحرق الكتب.

وبتاريخ 10 مايو 1933 عند الساعة العاشرة ليلا في ساحة الأوبرا ببرلين "سار وفد من الطلبة في موكب تتقدمه موسيقى فرق الهجوم(...). كان الطلبة يرتدون لباس مهرجانات اتحاداتهم ويحملون المشاعل بأيديهم. قام حملة المضخمات برش البترول على المحرقة وأولعوا النار فيها. عندها جلبت الشاحنات الكتب واصطف الطلبة في رتل لإلقاء الكتب في اللهب"، كما كتبت صحيفة "الزمن" *Le Temps* بتاريخ 12 مايو 1933. وكتبت مجلة

"إليستراسيون": "عند إلقاء كل رزمة جديدة من الكتب في النار كان نذير يعلن عاليا اسم المؤلف المدان ويذكر قرار الحكم بالتنفيذ:

- **النذير الأول:** ضد النزعة المادية وصراع الطبقات، ومن أجل وحدة الشعب ومفهوم مثالي للحياة ألقيت في النار كتابات ماركس وكاوتسكي.

- **النذير الثاني:** ضد الانحطاط الأخلاقي ومن أجل السلوك الحسن وذهنية العائلة وروح الدولة ألقيت في النار كتابات هنريش فان وإرنست غلازر وإريك كاستنر.

- **النذير الثالث:** ضد المشاعر الدنيئة والخيانة السياسية حيال الشعب والدولة، ألقيت في النار كتابات فريديريك ويلهالم فورستر.

- **النذير الرابع:** ضد الفساد الروحي والشطط وضد تعقيد مسيء للجنس، ومن أجل نبل النفس الإنسانية ألقيت في النار كتابات سيغموند فرويد.

- **النذير الخامس:** ضد تزوير تاريخنا وتدنيس الشخصيات التاريخية العظيمة، ومن أجل احترام ماضينا، ألقيت في النار كتابات إميل لودفيغ ووارنر هيغمان.

- **النذير السادس:** ضد الصحفيين الأجانب وضد توجهاتهم اليهودية-الديمقراطية ومن أجل عمل متيقظ وتعاون في عملية إعادة البناء الوطني، ألقيت في النار كتابات تيودور وولف وجورج برنهارد.

- **النذير السابع:** ضد الخيانة الأدبية حيال جنود الحرب الكبرى (الحرب العالمية الأولى) ومن أجل تربية الشعب على المبادئ السليمة، ألقيت في

النار كتابات إريك ماريا رومارك.

– **النذير الثامن:** ضد تشويه اللغة الألمانية ومن أجل المحافظة على التراث الثمين لشعبنا ألقيت في النار كتابات ألفريد كير.

– **النذير التاسع:** ضد السفاهة والغطرسة ومن أجل احترام وتقديس خلود الروح الألمانية ألقيت في النار كتابات توكولسكي وأوسيتزكي"

ألقيت ذلك المساء في النيران ما بين 20.000 إلى 25.000 نسخة لعدة مؤلفين آخرين من بينهم ستيفان زفايغ. وأشارت مجلة "إليستراسيون" أن الكلام المثير الذي حمل عنوان: "أقوال النار المأثورة" ربما كتبه "غوبلز" شخصياً إذ وصل إلى المكان في منتصف الليل وأعلن وسط صيحات الفرح: "ولّت الأزمنة التي كانت فيها نفايات وزندقات أدب الرصيف اليهودي تملأ رفوف المكتبات وحين كان العلم، المتخندق خلف المبادئ، معزولا عن الحياة!"

كان من الأهمية بمكان، من جهة، أن تكرّس "إلستراسيون" صفحة كاملة للحدث اعتبارا من 20 مايو مشيرة إلى أن تلك الأعمال جرت في الوقت نفسه في عدة مدن كبيرة أخرى وقالت: "اعتبارا من الآن فصاعداً لم تعد حرية التعبير موجودة" في ألمانيا، ومن جهة أخرى، نشرت في عددها بتاريخ الأول من يوليو صفحة كاملة ثانية حملت عنوان: "ما هي الكتب التي جرى إحراقها في برلين؟". قام المؤلف في هذا المقال الأكثر عمقا، على الرغم من بعض الهفوات الصغيرة، بالتقريب بين محرقة تلك الكتب وبين محاكم التفتيش الإسبانية والداعية الإيطالي سافونورال الذي حرقوه. ثم علق الكاتب بفطنة فريدة تصدر عن مجرد صحفي تحقيقات على الأعمال اليت أُدينت ثم ذكر للمرة الأولى جملة مأخوذة من مسرحية "مدعومة ماليا" لـ"هانس جوست" غدت مشهورة بعد تحريفها حيث تقول: "عندما أسمع أحدهم ينطق بكلمة ثقافة أقوم بتذخير مسدسي –

البراونينغ- بالرصاص". هنا يحوم سر صغير ، إذ لماذا، نشرت هذه المجلة الصغيرة الرائعة بالأحرى، ليست يسارية صراحة ولا فكرية بعمق، هذا العمل التحليلي الحقيقي الشبيه بصيحة إنذار موقعة باسم إيرين شيفروز التي لم يظهر اسمها — بالأحرى اسمها المستعار- مرّة أخرى بعد ذلك؟ فلننظر مثلا لمجلة "أنترازيجنت"، أي "المتشدد" التي اكتفت دون حماس بنشر رسم كاريكاتوري لهتلر وهو يرتدي ثوبا رومانيا قديما وبيده قيثارة وتحته عبارة "نيرون... من ورق". ولم يبد إلا القليل من المثقفين الفرنسيين، باستثناء رومان رولان وهنري باربوس، انفعالهم اعتبارا من عام 1933 حيال تلك الحركة التي كانت تعلن بشكل ما عن لونها؛ والأدهى والأمرّ أنها كانت تهدد حقوقهم كمؤلفين. بل كان سحرها قد فعل فعله دون شك، وصفق البارون الغامض روبير فابر-لوس، في الحال لتلك الضراوة وقال: "إن عمليات حرق الكتب يتم تقديمها كخطيئة ضد العقل، لكنني أراها على العكس رمزا لنهضة روحية بالنسبة لجميع أولئك القديسين والنبلاء والشرفاء"[176]. أما سيغموند فرويد فقد قال هازئا: "كتبنا فقط؟ فقديما ربما كانوا قد أحرقونا معها". كانت اللهجة أشد قسوة عند جوزيف روت: "نحن الآخرون، الكتّاب الألمانيون من دم يهودي، علينا قبل كل شيء في هذه الأيام التي يتصاعد فيها دخان كتبنا المحروقة نحو السماء، الاعتراف أننا مهزومون. كنا في طليعة الذين دافعوا عن أوروبا، لكنهم صرعونا أولا". أي تفكير رهيب تخاله معلقاً في الفراغ إذ توفي جوزيف روت بعد ست سنوات قبل أن يعرف التطورات الأكثر رعبا للحدس الذي تنبأ به.

تعاقبت أعمال متشابهة كثيرة ما بين العاشر من مايو والحادي والعشرين من يوليو، مما أدى إلى ظهور ثلاث "مكتبات للكتب المحروقة" في الخارج مختصّة بأعمال فولتير وانشتاين وفرويد وماركس وإنجلز وودمارك، الخ. كما ظهرت الدراسات الأولى حول الهتلرية وأيضا الصحف الألمانية المعارضة، في لندن أولاً

خلال شهر مارس 1934 تحت رعاية كونتيسة أكسفورد وإسكويتش، ثم باريس في الضيعة الصغيرة العذبة لورشات الفنانين المسمّاة بالمدينة المزهرة الواقعة برقم 65 في شارع أراغو؛ وتمّ تدشين "المكتبة الألمانية للحرية" يوم ذكرى عملية حرق الكتب في برلين تحت رئاسة هنريش مان وأندريه جيد ورومان رولان وهـــ.ج. ولز وليون فوتشوانغر. وكان ناشر الدعاية الأحمر ويللي مونزنبيرغ والكاتب الفريد كانتوروفيتش بين مقدّمي الاحتفال؛ انتهى الأول مليونيرا في موسكو وتحوّل الثاني للقتال في إسبانيا. ومن عبث التاريخ عند إعلان الحرب أن "قرار 18 نوفمبر 1939 الذي حدّد الإجراءات المطلوب اتخاذها حيال الأفراد الخطيرين على الدفاع الوطني" قد أدى إلى الإغلاق الفوري للمكتبة وحجز الشرطة الفرنسية على مخزونها المؤلف من 20.000 كتاب عرف 1400 منها على الأقل طريقه سرا إلى المكتبة الوطنية بعد شهرين بالكاد (لا يزال البحث جاريا عن الباقي). حملت هذه "الهبة المقدّمة من محافظة الشرطة" الرقم 335052 في جدول مقتنيات المطبوعات وانضمت لها مجموعات أخرى غير معروفة المصدر وكان الاختيار يجري عامة لما تمّ جمعه آنذاك تحت خانة البلشفية من أنصار كومونة باريس والثوريين والماركسيين والشيوعيين الفرنسيين.

أمّا المكتبة الألمانية الثالثة للحرية فقد كانت موجودة في نيويورك بـــ"مركز بروكلين اليهودي"، حيث استمع 500 شخص إلى خطاب أنشتاين يوم افتتاحها خلال شهر ديسمبر 1934، ومع ذلك كانت أغلبية الصحافة الأمريكية تؤمن إيمانا بليدا بالتفكير الإيجابي القائل إن النازيين سوف ينتهي بهم الأمر إلى التصرف مثل بالغين عندما يصلون إلى السلطة. من جهة أخرى قامت بعد عشر سنوات لجنة[177] مكلفة بدراسة وضع المكتبات الأوروبية المدمّرة والطريقة التي تستطيع بها الولايات المتحدة المشاركة في إعادة بناء النظام التربوي ("المشكلة الجديدة للعالم المتحدث") واعتبرت أن الألمان تصرفوا بذهنية "القيام بعمليات رد والعقاب"، كما لو أن الحياة كانت مدرسة حضانة طويلة الأمد.

تمّ القيام مرّة واحدة فقط بعمل ثأري صرف حيال الكتب، كان ذلك في نابولي عند نهاية الحرب تقريباً. عندما قتل أحد المقاومين الإيطاليين جندياً ألمانيا في الشارع المحاذي لمكتبة الجمعية الملكية. في يوم الأحد التالي، بتاريخ 19 سبتمبر 1943، وصلت عدة شاحنات محمّلة بالجنود من فرق الكوماندوس المزوّدة ببراميل مليئة بالبترول. ولجوا إلى داخل المكتبة ورشوا به بهدوء صالات القراءة والرفوف من الأرض حتى السقف ثم ألقوا قنابلهم وهم يتراجعون من صالة إلى أخرى كي يمنعوا رجال الإطفاء من الاقتراب. هكذا تحول مئتا ألف كتر من التاريخ القديم للبلاد خلال ثلاثة أيام كاملة إلى رماد ودخان.

وما إن خمدت بالكاد محارق 1933 حتى كرّس غوبيلز Goebbels وسط ضجة كبيرة مقولة "الكتاب، سلاح العقل الألماني"؛ لاسيما أن هيمنة الرايخ على المكتبات العامة كانت كاملة وكان عدد كبير من مدرائها المرموقين يريدون الاستمرار في منصبهم من أجل إطالة عملهم في خدمة القراءة أو من أجل عدم قطع أبحاثهم العلمية الخاصة[178]. لقد قام أدب الدعاية الأكثر حماقة إذن على بُنًى صلبة ومستمرة محاولا احتلال الفراغ الكبير الذي خلّفته عملية التصفية المنهجية لأعمال المؤلفين الذين استهدفتهم النيران. هكذا سخر الكاتب "ليو لوينتهال" عام 1983 من فكرة رؤية "طائر العنقاء النازي يصعد من الرماد الشيوعي واليهودي"[179].

كانت الأعمال التعسفية في مكتبات الأراضي المحتلة مباشرة وأكثر فظاظة أيضاً وبعيدة عن سمتها الاحتفالية. في شهر يناير 1934 تمّ تكليف "ألفريد روزنبرغ" بالرقابة على المطبوعات وعلى الدعاية وفيما بعد على السلب، فكل أمر من هذه يستدعي الآخر. لقد أظهر فعالية لا خلل فيها بالرغم من المنافسة المزدوجة التي كانت تضعه فيما يخص المطبوعات والدعاية بمعارضة "غوبيلز"، وبالنسبة للسلب بمعارضة "غورينغ" الذي لم يكن يرمي سوى إلى إثراء

مجموعات كتبه الشخصية، ومُنحت لجنة روزنبرغ[180] التي تأسست عام 1939 حق التفتيش على جميع المكتبات والمؤسسات الثقافية الأخرى ومصادرة كل شيء تحقيقا لأهداف الحزب. وعلى عكس "غورينغ"، اعتبر روزنبرغ أن الأعمال الفنية ثانوية وأمر بـــ"وضع جميع المحفوظات وأي ملكية علمية تعود لمعارضينا الإيديولوجيين تحت تصرفي[181]". كانت هذه الكلمات الجميلة تخبئ مع ذلك عمليات دنيئة جدا، بل حركات مشوشة. إذ لن يكون من السهل دائماً تمييز الرقابة عن الكسب ولا عن البهيمية.

كان هناك أيضاً دافع رابع هو قتل العبقرية الذي يفتك بعبقرية شعب مثلما تفتك الإبادة الجماعية بأبنائه. طبق الهتلريون قتل العبقرية وليس الإبادة الجماعية إذ كانوا بحاجة إلى يد عاملة بلا ذاكرة ولا اسم؛ أمّا مع اليهود فقد اختاروا، كما سنرى، الإبادة الجماعية، الأمر الذي يستدعي التفكير.

وفي تشيكوسلوفاكيا تلقى الطلبة الأوامر منذ عام 1939 أن يجدوا عملاً يدوياً خلال ثمانية وأربعين ساعة. وصدر في خريف عام 1942 مرسوم فرض على المكتبات الجامعية تسليم أي مؤلّف قديم وأية طبعة أصلية بحوزتها للمحتل. تركّز البحث بشكل خاص على أعمال الكتّاب التشيكيّين مثل الإصلاحي جون هوس من القرن الخامس عشر ولويس إيراسيك والشاعر فكتور ديك. ولم يقتصر الأمر على أعمال الكتاب التشيكيين واليهود فحسب وإنما طال أيضاً ترجمات المؤلفين الإنكليز أو الفرنسيين أو الروس إذ جرى سحبها أيًا كانت قيمتها من الرفوف التي خفّت موجوداتها فجأة في مجمل أربعمئة وإحدى عشرة مؤسسة لحقها الضرر. وأعلن وزير الدولة ومفوض الرايخ للوصاية ذلك أولا بأول قائلاً: "التشيكيون مولودون كي يخدموا فقط بصفة عمال أو أجراء في المزارع" مثل البولنديين.

في بولندة، وبتاريخ 13 ديسمبر 1939، أصدر الحاكم النازي أمراً يقضي

بالتصريح عن كل مكتبة عامة أو خاصة. وطالما أصبحت هذه المكتبات نظامية، تم الحجز على كل مجموعاتها وإخضاعها للتفتيش حيث كان خبراء يقومون طيلة النهار بفرز مليوني كتاب قصد إرسالها إلى برلين أو إلى بوزن (الاسم الألماني لبوزنان) بعد قرار إنشاء "مكتبة تابعة للدولة" غير بولندية، وأُرسل الباقي لإعادة تدويره صناعياً كورق مستعمل. كان ذلك هو مصير 102 مكتبة بكراكوفيا ووارسو وكذلك 38.000 مجلّد جميل تابعة للبرلمان البولندي؛ أما أراشيف أبرشية "بيولومين" الغنية بالمخطوطات العائدة للقرن الثاني عشر، فقد خدمت لتسخين أفران مصفاة لتكرير السكر. الحالة البولندية هي بالمقارنة الأكثر خطورة بين البلدان المنهوبة[182] إذ اختفى حوالي 16 مليون مجلّد، وما بين 70% إلى 80% من المكتبات العامة، وجرى تجميع الباقي في سجل محفوظات وحيد ضاعت هويته. وغدا نصف الأعمال المطبوعة غير قابل للاستعمال. كما لم يتم السماح بإصدار أي عمل مطبوع خلال خمس سنوات (ومع ذلك أمكن إصدار 1.200 كتاب سراً) وكتبت صحيفة "فيرور نونغسبالت" بتاريخ 5 نوفمبر 1940 بسذاجة عميقة أن ذلك كان من أجل "استجابة" أفضل لـــ"الحاجات البدائية للهواية والتسلية بهدف صرف انتباه دوائر المثقفين أقصى ما يمكن عن التآمر والنقاشات السياسية التي قد تشجع انتشار شعور معاد للألمان". كانت نهاية الانحراف أشد وقعا إذ ترتب على انتفاضة وارسو تحركٌ مجموعات الكوماندوس من الجنود الذين كان حرق المكتبات مهمتهم واختصاصهم. وفي شهر أكتوبر 1944 اختفت مكتبة "كرازنسكي" ومعها جميع الكتب التي تعود للقرون ما بين الخامس عشر والثامن عشر التي جرى جمعها في طوابقها الخمسة بالأقبية الأرضية بعد اجتثاث مؤسساتها الأصلية أو أيضاً مجموعة "رابرسويل"، أي المؤلفات العديدة الخاصة بتاريخ البلاد التي كان المهاجرون قد كدّسوها في سويسرة حتى اليوم المبارك عام 1918 عندما سمح لهم استقلال بولندة بجلبها إلى وطنهم. هدم الجنود المختصون بالحرق أيضاً المكتبة

العامة مع 300.000 مجلّد كانت فيها في شهر يناير من عام 1945. ونقل أمناء المكتبة الوطنية في غضون ذلك 170.000 كتاب إلى مكان آمن بأمر وبإشراف الضباط الألمان الذي أضرموا النار فيها عند مغادرتهم.

وفي سلوفينيا، جرى تفريغ جميع المكتبات واعتُبِر استخدام اللغة السلوفينية عملا تخريبيا. هكذا دُمّرت المكتبة الوطنية وتحولت مئات الآلاف من المخطوطات الصربية إلى رماد. وأضاعت أتينا القسم الأكبر من كتب الجامعة، وساهمت كتب المعاهد الأمريكية الثلاثة في تدفئتها. كانت الخسائر في هولندة هي الأقل إذ اكتفى المحتل بفرز القراءات غير المرغوب بها وحجر عليها في "قاعة السموم"، وكأنّه تكريم غير مقصود لشاتوبريان.

شابه فرض تعميم الصيغة الألمانية —الجرمنة— المنسّقة بعناية فائقة عملية تخريب فظّة للآثار الفنية كما حدث مثلا في "ياسناجا بوليانا" المُلكية-المتحف حيث وُلد ليون تولستوي وعاش. لقد احتلها الجنود لمدة ستة أسابيع كي لا يفعلوا أي شيء كما يبدو سوى إتلاف جميع الكتب والمخطوطات، بل جرى أيضاً استخراج رفاة مؤلف "آنا كارنينا" من الأرض. استهدفت نفس عملية التدنيس بيوت بوشكين وتشيخوف دون الحديث عن بيوت الموسيقيين. وعندما اقترح أحد العاملين في متحف تولستوي الذهاب لجلب الحطب من أجل المدفأة بغية تخليص عدة كتب من الحرق أجابه ضابط ألماني يدعى شوارتز بالقول: "لسنا بحاجة إلى نار الحطب، فسوف نحرق كل ما له علاقة مع اسم تولستويكم". يبدو أن الألمان كانوا يحترمون الكتب الروسية إلى درجة أنهم لم يتخلصوا منها بوقت مبكر، أو يرسلوها إلى رئيسهم إذا كانت تمثل قيمة تجارية واضحة كما جاء في شهادة الدكتور فوريستر: "جرى نهب مكتبة كانت تحتوي على ما بين 6.000 إلى 7.000 مجلّد باللغة الفرنسية وأكثر من 5.000 كتاب ومخطوطة باللغة الروسية من قصر الإمبراطور ألكسندر (...). وعثرنا على

حصاد جيد في مكتبة أكاديمية العلوم بأوكرانيا بوجود كنز من المخطوطات النادرة بالأدب الفارسي والحبشي والصيني ومجموعات أخبار من روسيا وأوكرانيا والكتب الأولى المطبوعة بيد أول طابع روسي "إيفان فجودورروف" (...). وفي "خاركوف" جرت مصادرة عدة آلاف من الكتب القيّمة في طبعات فخمة بمكتبة كورلنكو، وأرسلت إلى برلين. وكل ما تبقى أتلف"[183].
لقد رصف العسكر الشارع الرئيسي الموحل بعدة طبقات من الموسوعات بغية تسهيل سير العربات العسكرية. إنها رؤية للتخريب (على غرار ما شهدته مدينة إيبنال الفرنسية أثناء الحرب العالمية الثانية) ينبغي تصنيفها مع ما فعله المغول لبغداد عام 1258 والطنابر النمساوية لعام 1785.

إن الـ646.000 مجلد التي جرى حرقها في سمولنسك أو في المكتبات الأخرى تبدو يسيرة بالقياس إلى الأربعة ملايين في كييف. فأمام تقدم الألمان قرر ستالين أن يمارس في أوكرانيا سياسة الأرض المحروقة، فكل ما لا يمكن حمله ينبغي تدميره. لكن سرعة تقدم الهجوم الألماني منعته من تنفيذ تلك المهمة الكبيرة على أكمل وجه. أعطى هتلر بعد عامين نفس الأمر بالضبط، ليتم مثلاً حمل الصورة التي رسمها رامبرانت لنفسه وليس الـ19.200 مكتبة الموجودة في البلاد. نُفِّذ الأمر بفعالية كبيرة جداً هذه المرّة. مع ذلك وبتاريخ 28 أبريل 1995 استعادت ألمانيا حوالي 700 مجلّد غالية الثمن. هل يبدو هذا قليلا؟ ربما لم يكن قد بقي أكثر من ذلك في نهاية سنوات الأربعينات، وفي حساب الخسائر ينبغي عدم نسيان ما أتلفته قنابل الحلفاء من الكتب المنهوبة التي جرى نقلها إلى برلين. لا شيء يضيع تماما بصورة ما.

الخطة النازية للكتاب هي آلة لا شيء ينجو منها. وهناك مكتبات باريسية مهمة جرى اختلاسها بسرعة فائقة. وفي عام 1875 أنشأ الروس الموجودون في باريس مكتبة مهمّة دعمها "تورغينييف" كثيراً إلى درجة أنها تبنّت اسمه عند

موته. وعندما أصبحت ثرية بوجود مئة ألف مجلد حصلت من البلدية عام 1938 على مقرٍّ لها في قصر خاص يقع في الرقم 11 من شارع "لابوشري". بعد عامين قدّم جيش الاحتلال الألماني عرضاً لشراء تلك الكتب، لكن تمّ رفضه. وبالنتيجة سطا عليها كلها. في نهاية الحرب عُثر على القسم الأكبر منها في بولندة حيث وضع الجيش الأحمر يده عليها بدوره. أما المكتبة الغنية التي كان البولنديون قد أقاموها في باريس عام 1838 فقد وجدت مكانا جميلا لها بعد خمسَ عشرة سنة في قصر يعود للقرن السابع عشر على رصيف أورليان. وما أن دخلت قوات "الغستابو" باريس حتى وضعت يدها عليها لتعرف صناديق الكتب والمخطوطات والخرائط المجموعة خلال سنوات طريقها إلى بوزنان في شهر يونيو 1940. قبل الألمان اعتبارا من سنوات الخمسينات إعادة جزء منها، أي حوالي 45 ألف كتاب وتركت في الوقت نفسه في بولندة بموافقة إدارة مكتبة رصيف أورليان كمية من الكتب كانت انتقلت بين وارسو وموسكو من أجل ملء رفوف الكتب المخربة في البلاد.

وقد أثارت مجموعة الكتب الأوكرانية مطامع الرايخ كذلك، إذ كان لدى هتلر خطته الروسية. جرى اغتيال "سيمون بيتلورا" الرئيس السابق للقيادة الجماعية للجمهورية الأوكرانية في منفاه بباريس عام 1926 بيد يهودي فوضوي، لا شك من أجل الثأر لقتل يهود في أوكرانيا، لكن ربما أيضاً إثر عملية استغلال فرنسية-سوفييتية مدبّرة خفية. لقد أسس المهاجرون عندها مكتبة ضمّت سريعا حوالي 20 ألف عمل حول أراشيف الدولة الزائلة. حظي ذلك المركز العالمي لأوكرانيا بزيارة الجهاز السري الألماني "الغستابو" خلال شهر ديسمبر 1941 ووُضع تحت الحماية الألمانية ثم أرسلت محتوياته إلى ما وراء نهر الراين (ألمانيا) خلال الشهر التالي. وقد وجدتها السلطات الألمانية المختصة دون فائدة عملية فتُركت، كما يبدو، لمصيرها فتبعثرت أو جرى تخزينها جزئياً

في بلدة "راتيبور"، ثم طواها النسيان. لكن قد يكتشف أحد الباحثين من وقت لآخر كتابا منها في المحفوظات الكبرى بكييف أو مينسك أو موسكو. استمرت مكتبة سيمون بيتلورا الأوكرانية الموجودة في شارع فلسطين بالعمل وفيها سبعة وخمسون مؤلَّفاً جرى صونها[184]. ونُهبت بالتوازي مع هذه المجموعات الثلاث الهامة مئات المكتبات التي كانت تعود للروس المقيمين في باريس (سوفارين، بوكانوف، أوسّورجين، الخ)، والتي بقي مصيرها مجهولاً وكذلك مصير 71 صندوقًا من كتب المكتبة التشيكية و144 صندوقًا عائدة للمعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي الموجود في شارع ميشليه.

أرسلت المكتبة الوطنية الفرنسية الجزء الأكبر من مجموعاتها الأكثر قيمة إلى قصور منطقة بوردو، فأمكن لباريس أن تنام قريرة العين. وكانت المصلحة الألمانية المختصة بحماية الكتب قد جعلت مقر إقامتها في قصر لوفوا الفخم بمواجهة المكتبة الوطنية كي تمارس مهمتها في الرقابة بشكل أفضل، كما أنّ النهب المنوط بها لم يقتصر على شارع روشوليو فحسب (حيث توجد المكتبة الوطنية) ولكن شمل مختلف مجموعات الكتب العامة والخاصة. وتم إقرار قوائم منع وفرضها حتى على باعة الكتب على الرصيف (قائمة برنهارد التي طالت 143 عنوانا و700.000 نسخة، وقوائم أوتو الأولى والثانية والثالثة التي أعدت بالمساعدة القسرية حتما لداري نشر هاشيت وفيليباشي، وطالت 3.000 عنوان تقريبا). ولوحظ مروراً أن أية ترجمة لـ"ماين كامبف" كانت تسري عليها صفة الكتب الممنوعة، لا شك من أجل دفع القرّاء إلى تعلّم اللغة الألمانية. وباستثناء كتّاب مشاهير جنت عليهم شهرتهم خرجت "فرنسا الكتب" معافاة إلى حد مقبول من الاحتلال. إنه مصير يمكن مقاربته مع المصير الأكثر اضطرابا للمكتبات اليهودية.

لو كانت ولادة الشاعر هنريش هاينه قد تأخّرت مئة عام فلربما كان قد

كتب العكس، أي "هناك حيث يتم حرق البشر ينتهي الأمر أيضاً إلى حرق الكتب" كي لا تغدو جملته مقولة شائعة (تقول جملة هاينه "هناك حيث يتم حرق الكتب ينتهي الأمر أيضاً إلى حرق البشر"). لكن كونه يهودياً فاسقاً وزميلاً للشاب كارل ماركس، ربما ما كان لهم أن يتركوه يعبر عن رأيه طويلاً، فالمختارات الأدبية للحقبة النازية التي وجدت نفسها مرغمة على نشر أشعاره الغنائية ذات الشعبية الكبيرة زيّنتها بعبارة "مؤلف مجهول".

إن الشبه الذي يقفز للعيون بين محرقة اليهود وحرق الكتب انتهى إلى التباين بطريقة مثيرة للدهشة.

في مرحلة أولى اعتباراً من عام 1932 دفع الأثر السيئ للعنصرية الزاحفة أولئك الذين أحسوا أنهم عرضة للتهديد إلى حرق مكتباتهم قبل الأوان. لقد اكتشفوا كم كان ذلك صعبا وبطيئا حتى داخل جهاز تدفئة. وقام بعض أولئك الهواة بإلقاء كتبهم من فوق الجسور أو أودعوها مكاناً ضائعاً في الغابات أو أرسلوها بطرود بريدية إلى عناوين اخترعوها[185]. أدرك اليهود، أكثر من الشيوعيين ومن ذوي النزعة العالمية (الكوسموبوليتيين) والمفكرين الأحرار، حتى قبل ذبحهم (من قبل القياصرة) أن قراءاتهم ستفصح عن هويتهم. ففي الواقع كان من السهولة بمكان التعرف على كتاب باللغة العبرية حتى بالنسبة لرجال الشرطة (على الرغم من أنهم تشككوا أحيانا وصادروا أعمال هوميروس). لم يمر سُعار النازي حيال المكتبات دون إثارة السخرية لدى أهل العلم، فقد كتب حاييم آرون كبلان في يومياته[186] لعام 1939: "لم يسرق منا النازي ممتلكاتنا المادية فحسب ولكن أيضاً شهرتنا كأهل الكتاب!"

قبل عام 1939 كانت توجد في بولندة 251 مكتبة يهودية ضمّت 1.650.000 مجلّداً، أي أكثر من نصف الكتب اليهودية والعبرانية التي كانت موجودة في أوروبا. وإلى جانب المؤسسات الكبرى المختصة مثل الكنيس الكبير

في وارسو أو سجلّيْ المحفوظات في فيلنيدس، أي "ستراشون" (باسم مؤسسه) و"ياديشير"، كانت هناك كميات كبيرة من المخطوطات والمطبوعات باللغة العبرية في المكتبة العامة أو المكتبة الوطنية، خاصة في مجموعة رابيرسويل، ولم تقم النيران بالطبع بأية عملية انتقائية عندما التهمت تلك المكتبات، كما رأينا. كان الجنود والمكلفون بالحرق يعرفون جيدا ما يفعلون عند حرقهم المعابد اليهودية في بيلدزين وبوزنان، والكتب التي كانت تحتويها، كما في لوبلين. "كان القيام بتدمير الأكاديمية التلمودية مصدر اعتزاز خاص لنا (...). ألقينا المكتبة الهائلة خارج العمارة ونقلناها إلى ساحة السوق كي نضرم فيها النار التي استمرت عشرين ساعة. تجمّع يهود لوبلين حولها وأخذوا يبكون بحرقة إلى درجة أن صراخهم أصابنا بالصمم تقريبا. واستقدمنا الموسيقى العسكرية حيث استطاع الجنود بصيحات فرحهم أن يغطّوا على نحيب اليهود[187]". لوحظ في أمكنة أخرى أن الجنود ينتظرون بأمل أن يحاول أحد الحاخامين الدفاع عن توراتهم الخالدة من أجل أن يشدّوا وثاقه ويلقوا بهما معاً إلى الجمرة المشتعلة. وفي ستراشون فيلنيوس، فضل أمين المكتبة وحفيد مؤسسها الانتحار بدلاً من التعاون في عملية الجرد قبل المصادرة فتوجب إخراج عالمين من السجن كي يقوما بذلك عوضا عنه. كان المعيار سهلا ولكنه كان يتطلب خبرة ما فجميع الكتب العبرية المطبوعة بعد عام 1800 قابلة للإتلاف إلا إذا كانت تعالج تاريخ اليهودية وطبيعتها.

لكن الإفراط بالفعالية يؤدي إلى الإشباع. وكان هناك أكثر مما ينبغي من كتب التوراة في فرانكفورت، وقد تكدّست رزمها بسمك ثلاثة أمتار في قبو المعهد، وأشير باستخدام أوراق الرق لتجليدها. لم تدفع تلك التعليمات بدورها إلى حب المكتبات فذات يوم جرى إتلاف خمسة صناديق مملوءة بالكتب النادرة من أجل فسح المجال في أحد القطارات لنقل خنازير مشتراة من السوق السوداء.

إذا كان الفاشيون الإيطاليون قد قاموا بعملية حرق كتب مشهودة من كتب بني إسرائيل في مدينة تورينو عام 1938 بساحة كارلينا، فإن معاداة السامية لم تكن قلعتهم الحصينة حقاً. بل جرى بعد سقوطهم بتاريخ 16 أكتوبر 1943 تجميع 1.041 شخصا من الحي اليهودي (الغيتو) بروما — كانت المرّة الوحيدة التي ظهرت فيها تلك التعليمات مكتوبة- من أجل إبادتهم في أشفيتز بينما كان البابا يغمض عينيه، ربما كي يصلّي.

كانت القوات الألمانية المختصة قد انتهت قبل يومين من احتلال مكتبات الكنيس[188] أي مكتبة المعهد الحاخامي وخاصة مكتبة الجالية اليهودية التي كانت شهرتها تثير التخيلات الجامحة لاسيما أنها لم تكن مبوّبة واكتفى حرّاسها المتعاقبون بإعداد قوائم حسب تواريخ الحصول على الكتب. لكن بفضل اختبار قام به "إيزايا سون" عام 1943 سادت القناعة أن تلك المجموعات تعود إلى الفترات الأولى للمسيحية ولعهد القياصرة وأنها قد اغتنت كثيراً خلال العصر الوسيط وبعد طرد اليهود من إسبانيا وصقلية، وأن العصر الذهبي للنشر في روما والبندقية خلال القرن السادس عشر كان موجودا بوفرة فيها عبر تلمود مؤلف من 18 مجلدًا لدانييل بومبيرغ بين كتب عديدة أخرى. كذلك كان رجال الرايخ المختصون بالكتب موجودين في عين المكان منذ شهر وهم بحالة عصبية كما يبدو، وقد لوحظ أن ضابطا برتبة نقيب كان يتحسس ويمس ويداعب أوراق البردي والأعمال العائدة لفترة استهلال الطباعة، ويتصفح المخطوطات والطبعات النادرة ويتملّى الشهادات الجامعية والطروس (من طِرس: أي رق ممسوح ومكتوب عليه ثانية) "بيديه المتأنيتين والمفرطتين بالدقة مثل من يقوم بتطريز دقيق على القماش. تناسبت العناية في اللمس والاحتراس المدروس في الحركة مع قيمة المجلّد. وأغلبية تلك المؤلفات كانت مكتوبة بأبجديات مغرقة في القدم. وعندما يتم فتح صفحة كان نظر الضابط يتثبت ويبرق مثل بعض القراء

المتدربين جدا والذين يعرفون على الفور المكان المأمول والمقطع الموحي. نطقت الكتب بين يديه الأرستقراطيتين وكأنها كانت قد تعرّضت لتعذيب قاسٍ ودقيق، وسادي جدا وإنما ماهر. عُلِم فيما بعد، أن الضابط النازي كان أخصائياً حاذقاً بعلم قراءة النصوص القديمة وبفقه اللغة السامية[189]. ويوم 11 أكتوبر اتصل ذلك الرجل هاتفياً صراحة بشركة "أوتو وروزوني" للنقل ثم قال لأمين المخفوظات عندما أنهى حديثه أنه مصادر وأنه إذا غيّر مكان أي كتاب سيدفع حياته ثمناً لذلك. خف في الحال "أوغو فوا" رئيس الجالية اليهودية نحو الوزارات المعنية لمنع الكارثة. لكن عبثا. ففي 14 من الشهر نفسه وصلت عربتان تابعتان للخطوط الحديدية الألمانية مستخدمة سكة الحافلة الكهربائية "ترامواي" لتحمل كل ما أمكن إدخاله فيهما، أي أكثر من عشرة آلاف من الأعمال التي جرى تنضيدها بعناية وفصلها بعضها عن بعض بالورق المقوى. وفي الوقت الذي أخذ فيه الألمان أقصى إجراءات الحذر من أجل صفها في القاطرتين، كان "عمّال" الشركة الإيطالية المكلفين بإنزال الكتب من الطوابق يرمون بعضها من نافذة الواجهة الخلفية لأناس كانوا تجمّعوا هناك. عندما ابتعد الموكب قال الضباط النازيون منذرين: "سوف نعود لنأخذ ما تبقّى". لكنهم لم يعودوا، إذ بعد 48 ساعة قامت عملية إبادة اليهود *Judenrazzia*، وكأنها الأمر كان مرتّبًا بعناية، كما لاحظ المؤرخون.

أحيطت تلك الكتب بأكبر قدر من العناية خاصة عندما بدأت القنابل تنهمر على فرانكفورت؛ هكذا أمكن إعادة أكثر من نصفها إلى روما فيما بعد (لكن بالكاد أمكن إعادة 15 شخصاً من حملة اعتقالات اليهود). لم يتم التوقف عن إتلاف الكتب العبرية فحسب ولكنها أصبحت محط طمع النازيين الشديد إذ جرى جمع حوالي 400 ألف منها في المكتبة الجديدة ببوزنان وأنشئ مقعد لـــ"المسألة اليهودية". سلبت المكتبة المسماة بالقيادة العامة لأمن الرايخ في برلين

وكدّست وأضاعت حوالي ثلاثة ملايين عمل حول اليهودية والمواضيع الأخرى ذات الاهتمام بالنسبة للهتلرية مثل الماسونية. كانت تلك هي خاصة حالة كنوز الكبّالة Cabbala (تفسير يهودي رمزي وسحري للتوراة) التي أمر أدولف إيخمان بمصادرتها عام 1938 في فيينا حيث كان المهتمون بشؤون كتب الطقوس الإسرائيلية قد جمعوا خلال سنوات العشرينات ثلث مجموع الكتب المنشورة بالعبرية المعروفة قبل المطبعة. كذلك عرفت 625 مخطوطة باهرة للباحثين ولمحبي المكتبات طريقها إلى برلين في شهر مارس 1939 (تم العثور على ست منها وأعيدت إلى الجالية اليهودية بفيينا بنهاية عام 1950 تقريباً وصادرت مصالح الجمارك الأمريكية مخطوطة سابعة حديثاً بعد عملية بيع بالمزاد العلني عنوانها "كتاب التكوين" تعود للقرن السادس عشر. كما تدل البرقية الصادرة بتاريخ 2003/11/17). وفي عام 1939 عرف كل ما لم يتم إرساله إلى ألمانيا من بين المئتين إلى الثلاثمئة ألف مجلد العائدة للمكتبة طريقه إلى الإتلاف".

وتلقى "روزنبرغ" من جهته بتاريخ 29 يناير 1940 أمرًا مباشرًا من الفوهرر كي يؤسس، بعد الحرب، بالقرب من شيمسي في بافاريا، جامعة نازية، أي مدرسة عليا تشتمل أقسامها المختارة بعناية على دراسة اليهودية والماسونية والشيوعية والبيولوجيا العنصرية، الخ. وقد سمح له وقته على الأقل كي يقيم في فرانكفورت بتاريخ 26 مارس 1941 ركنا أساسيا منها تمثل في معهد الأبحاث حول الانتماء اليهودي مهمته هي "الدراسة النقدية للأسس الروحانية والتكتيكية لخصمنا الإيديولوجي". وبفضل السلطات النازية المسؤولة عن الكتب، سمحت المكتبات بتكديس 550.000 مؤلف عام 1943 (لم يصل سوى نصف ما كانت قد تمّت مصادرته)، وبطريقة "لا سابق لها". جاءت 700 صندوق مليئة بالكتب من التحالف الإسرائيلي العام الذي كان مقرّه في شارع "بروير" بباريس، ولم يعد إليه سوى الجزء اليسير من تلك الكتب. وجاورت خمس مكتبات خاصة بأسرة روتشيلد (كانت مجموعة إدوارد روتشيلد تضم

6.000 مجلد وغي دو روتشيلد 3.000 وموريس 6.000 وروبير 6.000 بالإضافة إلى 3.000 جرى إخراجها من سرايا الصيد العائدة للأسرة في منطقة أرمانفيلييه. بالإضافة أيضاً إلى 760 صندوق من سجل محفوظات بنك روتشيلد التي بلغ عمرها مئات السنوات) المقيمة في باريس مستودعات مكتبة "ليشوتز" (أي 20.000 مؤلف؛ وقد قدّم الناشر جوزيه كورتي الشهادة التالية: "لم يكن قد مضى على وجود الجيش الألماني ثمانية أيام في باريس حتى خفّت فرقه مكلفة بنقل الأثاث إلى ساحة الأوديون كي تنهب كل كتب هذه المكتبة القديمة وكأن ذلك أحد الأهداف الأكثر إلحاحاً لحرب هتلر. صحيح أن ليشوتز كان يهوديا وكان يمتلك كنوزاً مكتوبة باللغة العبرية") والمدارس الحاخامية ومجموعات كتب أخرى مختلفة جرى استقدامها من أمستردام (من مكتبتي الروزنتالينا والسيفاراد اللتين كان فيهما 45.000 عنوان)، أو من سالونيك أو كييف أو فيلنيوس أو ريغا[190].

وإذا كانت حكومة فيشي قد حاولت المطالبة بنصيبها فإن برلين اعترضت على ذلك بالقول إنّ ألمانيا عندما حررت أوروبا من السيطرة اليهودية حق لها أن تنال "التعويض القليل" الذي يؤمنه لها النهب؛ وجرى الحصول من جهة أخرى، على الممتلكات اليهودية نفسها بطريقة غير سليمة أصلاً: "فمثلاً، ثبت أمام التاريخ الأصل الألماني للثروة اليهودية لعائلة روتشيلد".

وفي المحصلة: "لا تشكل مصادرة الممتلكات الثقافية لليهود بالتالي سوى عملية رد تافهة نسبياً ضد اليهود، خصمنا منذ عشرات السنوات"[191].

تحركت السلطات النازية المختصة بالكتب بسرعة كبيرة إذ كانت مدة 15 يومًا كافية لها كي تفرّغ رفوف المكتبات الباريسية العامة والخاصة. كان ليون بلوم "يحب الكتب الجميلة والأفكار النادرة ومرافقة المثقفين، ويعيش في شقة جميلة جداً حياة هانئة"[192]. لكن فجأة لم يبق شيء في "مكتبته الجميلة

جداً". وحصل الشيء نفسه لجان زاي بتاريخ 10 يناير 1941 أو لجورج ماندل في الأسبوع اللاحق أو أيضاً جول موك أو جول رومان أو مارك بلوك أو تريستان برنار أو جوليان بيدا أو هنري ماسبيرو وغيرهم. أتقنت السلطات النازية المختصة عملها وجرى احترام التصنيف بقدر المستطاع. كما جرى مسبقا تصوير عشرات الآلاف من المؤلفات في مكتبة التحالف الإسرائيلي وهي على رفوفها مترا مترا قبل وضعها في الصناديق.

كان جوهانس بوهل هو رجل الموقف. درس هذا الخبير عن قصد في القدس وجال أوروبا كلها كي يختار شخصياً أفضل المكتبات اليهودية لحساب معهد الأبحاث حول الانتماء اليهودي؛ وقد أعرب عن أسفه إذ لم يكن الضباط يعرفون اختيار سوى الكتب ذات الأغلفة الجميلة حين كان يدير ظهره. ولوحظ في فيلنيوس اختيار 20.000 مؤلف فقط من أصل الـ100.000 التي كانت موجودة في الثلاثمئة كنيس يهودي. أما الباقي فقد جرى تحويله إلى عجينة من ورق. وها هو في سالونيك، عشّ محبي المكتبات وأصحاب المكتبات التجارية منذ أن أسس دون غيداليا فيها دار نشره باللغة العبرية والملّتنة (لغة رومانية ذات أصل لاتيني) حوالي عام 1513. ظلّت تلك المدينة طيلة خمسة قرون تقريباً نوعا من القدس المخبوءة بموافقة السلاطنة العثمانيين. وعلى الرغم من الحرائق السبع الكبرى التي التهمت مجموعات خرافية من الكتب كانت البيوت زاخرة بملفات ورزم المخطوطات القديمة والمنمنمات الملونة ولكن أيضاً بالروايات اليهودية-الإسبانية ومجموعات أخرى من الأعمال التي تعود للفترات الأولى للطباعة. ترك الدكتور بوهل تعليماته وثقته لفريق جرى تشكيله بعناية من شاعر وشرطي ومترجم أرميني. كانت الغنيمة عشرة آلاف نسخة أيضاً من الصنف الأول، أما الوجهة فهي فرانكفورت.

رفع بوهل حلم روزنبرغ بإيجاد "دراسات يهودية دون يهود" كشعار.

وتواجدت بفضل جهودهما في بوزنان وبرلين وفرانكفورت أبهى مجموعة غير مسبوقة من الوثائق باللغة العبرية أو حول العالم اليهودي. إن تلك المكتبة الخارقة، القائمة على الاغتصاب وإبادة مالكيها، وذات التبويب السيئ والتي لم تقم فعلياً، لن تخدم في شيء وسوف يتم تدميرها جزئياً بعد فترة وجيزة بعمليات القصف ثمّ نهبها من جديد. فأي سر فلسفي أو عزيز المنال (كحجر الفلاسفة) اعتقد أصحاب مبادرتها المولعين بالتفاصيل وجوده فيها؟ لم يدرس أحد كما يبدو هذا الجانب الغامض لدافع حب المكتبات لدى الحركة الوطنية-الاشتراكية (النازية)، والقائم ربما على توهم ودون شك على سوء فهم، مثلما يمكن استشفافه من تعبير "عدونا الإيديولوجي" لروزنبرغ. ومن جهة أخرى، ألا يمكن تصور أن يؤدي الغوص الدؤوب لهذا الحد في الثقافة اليهودية الغنية إلى عكس الهدف المطلوب، مثل نوع من التصدع في الموقف المعادي المسبق الذي يتخذه "طالب"؟

وعندما احتل أيزنهاور ورجاله فرانكفورت تم العثور على ثلاثة ملايين كتاب في أوفنباخ بمقرّات الكارتل الشهير الذي لم يخترع "زيكلون ب" فحسب وإنما أعطى دفعه للمستشار هتلر في بداياته.

أبدى الكابتن سيمور ج. بومرينيز وفريقه همة عالية في إعادة تلك الكتب لأصحابها حيث أمكن العثور على ثلثي مالكيها في نهاية عام 1946، أما بالنسبة للبقية، وبما أن الأمر كان يتعلق بمكتبات تعود لعهد روتنبرغ، فقد لوحظ وجود عدة وفود أمريكية تحوم حولها إذا كان معروفا أنه لن يطالب بها أحد. وقد كتب الأستاذ جيروم ميكائيل بصراحة إلى وزارة الخارجية الأمريكية: "لم تعد أوروبا مركز الثقافة والروحانيات اليهودية ومن المحتمل قليلاً أن تعود كذلك من جديد ذات يوم". قاومت المؤسسة الأمريكية لإعادة بناء الثقافة اليهودية قليلاً وكتبت حنّة أرنت أمينتها العامة: "في كل مرة سنعثر فيها على مالك ستة كتب

على الأقل، سوف نعمل كل ما نستطيع عمله من أجل إيجاده، هو أو ورثته"[193]. هكذا عرف بالتالي ما مجموعه 150 ألف كتاب لا صاحب لها (يتيمة) الطريق إلى المكتبات الأمريكية، وخاصة إلى مكتبة الكونغرس التي أوفدت أحدهم في مهمة إلى فرانكفورت اعتبارًا من مطلع عام 1946.

كان ذلك البحث عن المكتبات اليهودية من أجل إشراقة مزعومة مرهقا، وكان الواقع أكثر حساسة عند النظر إليه من باريس وقد كتب جان كاسو: "يهودي، هو الاسم الذي يُعطى لموضوع الاعتداء والسلب. أن يكون المرء يهوديا يعني أنه عرضة للنهب والتقطيع والحرق. عامة الناس من الرعاع عندنا يسمّون هذا مغفلا وأحمق. لكنهم لم يفكروا أبدا أن يقيموا منظومة هائلة للفكر ومدّها كي تشمل المصير الوطني كله". وفي واقع الأمر بالتوازي مع عمليات النهب المترفة التي قامت بها السلطات النازية المختصة التي غدت في النهاية مثل شرّاقة للأعمال الفنية، أنشئت في شهر يناير 1942 دائرة فرعية للقيام بعمليات النهب وصولا إلى الناس الفقراء، وهي "مجموعة العمل المكلّفة بالأثاث" أي بنهب جميع ممتلكات "اليهود الذين هربوا أو الذين سوف يرحلون أيضاً" في هولندة وبلجيكا ولوكسمبورغ وفرنسا. تولّى إدارتها بارون يدعى "كورت فان بيهر" الذي كان أصلاً لطخة عار لأسرته؛ كان بائعاً للأشياء القديمة — الأنتيكات— في شارع طوكيو ثم أصبح يرتدي زياً غربياً ويحجز طاولة في مطعم مكسيم كل مساء لمدة عامين. إنه "لص حرب" حقيقي كما جاء لاحقاً في شهادة السجين المكلف بفرز الكتب "مارسيل لوب"؛ وقيل إنه لم تبقَ في المنازل الـ69.619 (منها 38.000 في باريس) التي افتخر بتفريغها من محتوياتها ورقة ولا علبة حليب مفتوحة.

في باريس، جرى نقل المحتويات إلى "معسكر أوستيرليتز"، وهو بناء من أربعة طوابق يقع في الرقم 43 من رصيف المحطة حيث كان يوجد 400 معتقل

من بلدة درانسي جرى تكليفهم بفرز آلات البيانو والمجوهرات وأدوات المطبخ واللعب... كانت هناك "منصّات من كل الأنواع بحيث يمكن للمرء أن يخال نفسه بمتجر غالوري لافاييت الشهير"[194]. ومن وقت لآخر كان أولئك السادة يأتون لاختيار شيء لصديقتهم ولفّه بورق هدايا أو يتركون عنوانا لتسليمه فيه. وقد حدث مرّات ومرّات تكليف المساجين بتفريغ الشاحنات من ممتلكاتهم نفسها، كما قال أحد الشهود أثناء محاكمة إيخمان. ويُفترض أن تكون مجموعات كتب الباحث السياسي روبير ماركس والمؤرخ مارك بلوخ وابن إميل دركهايم قد توفرت في هذا المكان ربما أيضاً برفقة "469 كيلوغرام" من مجموعة كتب والتر بنجامن التي تمّت مصادرها في شارع "دومبال" بينما كان الكاتب يهرب إلى الأمام نحو موته[195]. ورأى الممثل المسرحي "روبير مانويل" الذي كان أيضاً "صاحب مكتبة" في أوسترليتز، بمجموعته الهامة من الكتيبات المسرحية العائدة للقرن التاسع عشر تمر أمامه ثم تختفي، وكذلك مكتبات غوستاف كوهن أو فرنان وورمس (كل ملفات لومير) أو رونيه بلوم. وقد تمّ الوصول إلى فرز 15.999 كتاب في أسبوع واحد، وجمع أجملها في مرآب كبير كان يقع في رقم 104 شارع رشوليو حيث كانت دار نشر فيرديه-دوفور تتولّى عملية الاختيار، بينما يعرف الباقي طريقه إلى الإتلاف. كان السجناء يقومون أيضاً بأعمال تخريبية دائماً بل تروي سيدة أنها ضربت بالمطرقة على مشد التناغم في أجهزة البيانو كي لا تصدر بعد ذلك أية ألحان صحيحة، وقام "روبير مانويل" بإتلاف جزء واحد من كل مجموعات الأعمال الكاملة وانتزع صفحة من كل مؤلف معزول. أما "مارسيل لوب" فقد كان ينحّي ويخبئ كل ما بدا له مهما على صعيد هواية المكتبات أو على الصعيد العلمي، مثل الأوراق الكبيرة في مجموعة الناشر "كرا" أو المذكرات والبطاقات العائدة للبروفيسور أسكولي، لكنه أضاف في شهادته أن النيران التهمت كل شيء واضعة بذلك حدًّا نهائيًا لـ"ذلك المشروع الفريد" وأضاف: "قبل الحريق جرت عمليات نهب

لمقرّاتنا (...) أولاً من قبل النازيين ثم من قبل أهل الحي"[196].

أُرسلت 26.984 عربة قطار في 673 موكب إلى المناطق المحتلة شرق ألمانيا من الثروات الهزيلة وغير القابلة للاستخدام غالباً كانت قد جمعتها مجموعة العمل المكلفة بالأثاث. بالمقابل بقي التراث الثقافي منوطا بالسلطات النازية المختصة بناء على أوامر الفوهرر (هتلر). ومن المعروف أنه جرى في بلجيكا، بتاريخ 12 فبراير 1943، إرسال 25 صندوقًا مليئة بالكتب إلى مستودعها الخاص في شارع ليفورن ببروكسل انطلاقا من مركز الفرز في "أنفيرس". وأُرسل 442 صندوقا من كتب المكتبات اليهودية الباريسية إلى الرايخ بتاريخ 8 أغسطس 1944 كما يشير التقرير النهائي لـــ"فون بيهر". لكن ما كان لقطارات العالم كلها أن تكفي إذ إن مئات الآلاف من المؤلفات بقيت ملقاة على الرصيف.

وما إن وضعت الحرب أوزارها حتى جعل الحاكم المؤقت لفرنسا من أولوياته تسوية مصير الكتب المسروقة. وتشكلت في شهر نوفمبر 1944 "اللجنة الفرعية للكتاب لدى هيئة الاسترداد الفني"، وحدد القانون الصادر بتاريخ 11 أبريل تدابير نقل الملكية بحيث تتم إعادة الكتب المنهوبة إلى الذين يثبت حقهم بها وإعطاء الباقي للمكتبات العامة التي تضررت في الحرب أو الاحتلال وخاصة المؤلفات ذات الطبيعة "المهنية". بدا أنّ عملية إعادة تجهيز البلاد بأسرع وقت تنطلق من مشاعر طيبة للمسؤول عن التسيير، لكن بدت الإجراءات المتخذة متعجلة ومثيرة للشك أيضاً. كان من المعروف أن السواد الأعظم من مالكي المكتبات بحوزتهم وثائق ملكية للكتب، خاصة أنهم ربما لن يعودوا أبدا. هكذا لوحظ مثلا أن المصلحة المكلفة بالممتلكات المنهوبة في ستراسبورغ، التي فاقت مليون كتاب جمعها الألمان و"لم يكن التوصل إلى معرفة مالكيها ممكنًا أبداً"، قد تساءلت بلغة فرنسية رديئة بقدر ما هي متعجلة: "ما هي القواعد العملية لمنح تلك الكتب أو لبيعها؟". الصدفة موضوعية إذ تمّ العثور في نفس علبة الكرتون

التي ضمّت المحفوظات الوطنية على شهادة شاردة تخص حارسة بناية في شارع "إيكوف" بباريس كانت، على غرار المئات غيرها، قد تملّكت أثاث غرفة نوم القاطنين الذين اعتقلتهم للتو عناصر الجهاز السري الألماني (الغستابو) إذ قالت لجارة لها رأت في تصرفها شيئاً من التسرع: "إن مصيرهم قد تقرر" (كتب أحد الموظفين بالقلم الأزرق على الرسالة التي تلقاها بخصوص هذا الموضوع: "للتحقق إذا كانت هي التي وشت بهم").

وقال أحد أعضاء اللجنة في شهر سبتمبر 1945: "هناك القليل من السلاسل الكاملة. فالألمان قاموا بعملية فرز أولى على رصيف محطة القطار وثانية في شارع روشوليو. بالإضافة إلى ذلك اشترى أصحاب مكتبات عددًا من الكتب. لا ينبغي الانخداع بنوعية الكتب. فمن المؤكّد أن الكثير من الكتب القيّمة قد ذهبت إلى ألمانيا". في غضون ذلك، ذهبت "اللجنة الفرعية للكتاب" إلى فرانكفورت لاسترداد المجموعات المسروقة، وجلبت معها مليون كتاب فقط بسبب تعقيد شبكات التخزين وعمليات التدمير تحت القنابل وعرقلات السوفييت. وكان من بينها 700 ألف نسخة لا مالك لها[197]. تضاف لها 300 ألف وجدها كامي بلوخ، عضو المعهد* ورئيس لجنة الاسترداد، في مرآب بشارع روشوليو وبدا فرزها مستحيلا تقريبا، لأن "ضحايا النهب" مقتنعون أن مقتنياتهم سوف تبقى بمجموعة ومحمية، "كتبوا اسمهم على المجلد الأول و لم يكتبوه على المجلدات التالية"؛ ثم لم يكن هناك من يقوم بعملية الفرز.

لوحظ عرَضًا أن الإدارة الفرنسية لم تستطع الامتناع عن تطبيق النظام الأخلاقي المستعدّ دائماً للتمسّك باللامعقول إذ جرى "منح الأعمال ذات السمة غير الأخلاقية أو الخليعة لجمعية المساعدة — النجدة الشعبية آنذاك- على أن تقوم ببيعها لصالح ضحايا النهب مع التأكيد أنّه سيتوجب إتلاف تلك الكتب". وفي الواقع، لم يأت ذكر أي عنوان ينحرف عن المعيار البورجوازي في المحاضر

المفصّلة والعديدة لإعادة المكتبات أو بالأحرى لإعادة حفنات من الكتب لأصحاب الحق فيها. بدأت عندها رقصة للأشباح شابهت قليلاً عملية توزيع الجوائز، هذا إن لم يكن السحب بالقرعة. هكذا استعاد "فلاديمير جانكيليفيتش" استعاد 45 مجلداً في الفلسفة وبعض الكتب باللغة الروسية أو حول الموسيقى، وكان الكاتب "جول رومان" بالتأكيد غاية في السعادة لاسترجاعه سجل محفوظاته الشخصي لكنه كان أقل سعادة بكثير فيما يخص عدد الكتب التي استردها والبالغ 18 كتاباً فقط؛ واستعادت مكتبة "تورغونييف" 2.682 مجلّدا قيمتها 390.100 فرنك واستعاد المجمع الديني اليهودي عدة مئات فحسب. كان من السهل أكثر بالطبع التعرف على ما يعود للمؤسسات مما هو على ممتلكات العباد الفقراء ومثل هذا السيد "لازار" الذي تأبط كتابا للتوراة من جزأين وستة كتب للصلوات قيمتها 200 فرنك، أو السيد "بلوخ" من مدينة ليون الذي تمثل كل ما استعاده بأربع روايات لكبلنغ و"**الفردوس المفقود**" لميلتون والأجزاء الأول والثاني والثالث للطبعة الكاملة من أعمال شكسبير الصادرة عن دار نشر كاسيل عام 1908 "ذات الجلد الأحمر والمهترئة".

تعفّنت في المستودع الموجود على شاطئ نهر السين بمعسكر أوسترلتز المهجور رزمات مجهولة من الكتب الضائعة والمسروقة بأبشع الطرق من بيوت بشر جرى إرسالهم إلى الموت أو هربوا وأياديهم خاوية. لقد خيّم صمت رهيب على المكان. وإثر عملية قصف بتاريخ 23 أغسطس 1944، شبّت النيران بسرعة كبيرة ولم يبق شيء من الدببة المصنوعة من الأنسجة المخملية ومقاعد الاستراحة وروايات "ديللي". ولم يبق شيء أيضاً من البناية التي احتوتها بعد أن كان المالك قد أعاد بناءها بسرعة فائقة. وليس هناك شيء لم يتم تعميده اليوم من جديد حتى رصيف محطة القطار نفسه باسم "بامارد ولوفاسور" فالسيارة في باريس انتصرت دون هوادة على السكة الحديدية. ويُلاحظ بالتالي أنه لم يعد هناك

اليوم أي أثر لـ"الذي كان أصلاً بحد ذاته عملية مسح للذاكرة[198]". إن الدولة لا تقوم بواجب الذاكرة إلا عندما يذكرها الرأي العام بذلك، لذلك اختيرت بقدر كبير من العبث المربك تلك المنطقة بالذات لتشييد مكتبة وطنية فرنسية جديدة عليها. وهذا ما قد يقول عنه من يؤمنون بالخرافات أنه لن يجلب لها الحظ السعيد. (أدخل هذا التلعثم الباريسي وينفريد ج. سيبالد في حالة اضطراب شديد جعلته يحدد موقع المستودع تحت موقع المكتبة الوطنية الفرنسية نفسها في كتابه الأخير الذي يحمل بالتحديد عنوان "أوسترليتز").

توجب بذل ثلاثة أشهر من الجهود الهائلة لحمل كنوز هتلر عبر دروب وعرة كانت الشاحنات تتزحلق فيها مما استوجب استخدام الثيران، إلى المخبأ الثلجي الذي اختاره لنفسه وهو عبارة عن منجم سابق للملح فوق "آلت أوس" في النمسا؛ وفي موقع غير بعيد من مدينة "ليتز" مسقط رأسه، حيث كان يفكر بإقامة متحف لنفسه مع مكتبة كبيرة للثأر من "فيينا" التي تعرّض فيها لما أثار نكده. هرب المكلّفون بنسف كل شيء عندما اقترب الأمريكيون من المكان فوجد القادمون فيه فضلا عن 6.755 لوحة لمشاهير الفنانين، 119 صندوق تحتوي على الكتب الشخصية للفوهرر (من أصل 16.000 كان يمتلكها – كما ساد الاعتقاد – وثلاثة أو أربعة آلاف مجلّد، بقي منها 1.200 من الكتب النادرة في مكتبة الكونغرس الموجودة دائماً في المواقع المتقدمة[199] و637 صندوق من المؤلفات المطلوب استكمالها من أجل مشروع ليتز التي كان "روزنبيرغ" قد جمعها. هناك ملاحظتان تستحقان الذكر. الملاحظة الأولى هي أن تلك المجموعات كانت تعود بأغلبيتها لعائلة روتشيلد ممّا سهّل إعادتها لهم بالتأكيد. والمثير للدهشة هو هل كان مناوئ السامية، على غرار المجرم الانتهازي الذي لا يتوقف عن لبس بابوج البورجوازي، يحيط نفسه بممتلكات اليهود؟ الملاحظة الثانية هي أن جميع التقارير والمذكرات والرسائل التي كان ينبغي على هتلر

قراءتها خلال السنوات الأخيرة من حياته جرت كتابتها بواسطة آلة كاتبة خاصة ذات حروف طولها 25 ميلمترًا إذ كان على حافة العماء. جالت تلك الكتب كلها إذن أوروبا بطولها وعرضها وجرى وضعها جانباً، بعناد خنفسة عمياء ومهزومة.

في اللحظة التي شُنِق فيها ألفريد روزينبرغ في شهر أكتوبر 1946، جرى جمع ثلاثة ملايين كتاب نجت من الإتلاف في إحدى ضواحي فرانكفورت بقصد فرزها وإعادتها كيفما كان إلى أصحاب الحق فيها. كان الرجل من "ريغا" في ليتوانيا. وبالإضافة إلى اسمه المثير للشكوك أصلاً سرت إشاعة في أروقة الرايخ مفادها أن جدّه لأمه كان يهوديا. وربما أن هذا دفعه وهو المنظّر للنازية إلى إقحام ملاحظة عداء السامية في افتتاحياته وإيصالها إلى مسامع الفوهرر (هتلر) الذي كان في غاية السعادة دون شك. بعد عدة سنوات تنفس بعض أمناء المكتبات بارتياح عند تصورهم أن الأفكار الثابتة لهذا الرجل المنظّم جدًا ساهمت في نهاية المطاف بعدم تدمير عدد لا يُحصى من الكتب التي وصلت إلى حافة نهاية العالم.

الفصل العاشر

جولة حول العالم في نهايات القرن

في الاتحاد السوفييتي

نجحت المكتبة البروسية في إخفاء ثلثي مجموعاتها من الكتب في 32 مستودعا قبل أن يجعل القصف من مبناها وقسم كبير من كتبها هيكلاً مترامياً يتصاعد منه الدخان. كانت حصة الجيش الأحمر منها في برلين 14 مستودعاً احتوت بظروف سيئة حوالي 800.000 مؤلّف (كانت هناك الكمية نفسها على الجانب البولندي والضِّعف لدى الأمريكيين) بقيت لأشهر طويلة تحت رحمة الأحوال الجوية السيئة وأخطار أخرى. كانت "كتائب الكتاب" التي تشكّلت للتحرّي عن مجموع الرفوف الألمانية تبحث بالدرجة الأولى في الواقع عمّا كان الهتلريون يعتبرونه "خطيراً إيديولوجيا"، ثم ما كان يمس النازية من قريب أو بعيد. كذلك وقعت عدة مؤسسات ألمانية أخرى تحت القبضة السوفييتية وتم الحكم على 80.000 كتاب قديم من مكتبة مارتن لوثر أنها "دون فائدة" بينما جرى تفريغ " سجل محفوظات نيتشه" عدة مرّات ووضعه في الخزائن باستثناء الأعمال الخاصة باليونان القديمة والمعتبرة دون شك كهوس غير هجومي لـــ"العدو اللدود للطبقة العاملة". ربما لم تكن السيدة المسؤولة العامة مرغريتا

رودومينو، رئيسة تلك الكتائب شخصاً سيئاً في العمق إذ انفرجت أساريرها عندما وضعت يدها على طبعة أصلية من "مغامرات السيد بيكويك" مرفوقة برسالة للمؤلف[200]. وأُطلق فيما بعد اسمها على مكتبة المؤلفات باللغات الأجنبية في موسكو، المكلفة أصلا بإشاعة الثقافة لدى الجماهير وربما عليها اليوم إعادة بعض الكتب التي يتراوح عددها ما بين 11.000 و 12.000 كتاب جرى نقلها من ألمانيا ويعود القسم الأكبر منها لفرنسا. لكن أمكن بالكاد للأسف التعرف على ثلث هذا الرقم وتحديد مكان وجودها؛ وكان لا بد لذلك من وجود باحثين شديدي العناد والحنكة من أمثال "باتريسيا غريمستد"، "جاسوسة المحفوظات"، كما أطلق عليها بغضب العديد من المسؤولين بعد أن نفذ صبرهم منها. ولم يتم التمكن من الوصول على مدى جيلين أو ثلاثة أجيال إلى أية معلومات حول الموضوع، بل لا تحصل وزارة الخارجية الفرنسية حالياً سوى على أشكال رفض مؤدبة عندما يتم التعرض للوضع الذي آلت إليه المفاوضات الفرنسية-الروسية بخصوص إعادة المكتبات، بل حتى حول حقيقة الأرقام ومحاولات الجرد من الجانبين، ويبدو أنه لم يتم حتى الآن تقديم أي طلب رسمي. كان من الملحّ أكثر دون شك، استرجاع أراشيف "المكتب الثاني" Le Deuxième Bureau أو الأمن الوطني أو المحافل الماسونية!

قامت موسكو، كما هو الأمر بالنسبة لمكتبة "سيمون-بيتلورا"، بتوزيع مجموعات كتب "تورغينييف" التي آلت إليها كاملة قادمة من باريس عبر بولندة، على عدة مؤسسات وصولا إلى جزيرة ساخالين. ومنذ عشر سنوات لم تعد روسيا ترفض الحديث عن التنازل لهذه المؤسسة — المكتبة- الباريسية الموجودة حالياً في شارع "فالانس" عن القليل مما كان يعود لها. هكذا عرف 118 كتاباً الطريق إلى رفوفها بعد مساومات طويلة وقال المسؤولون عنها أن ذلك يمثل انتصارا صغيرا على النازية والستالينية في آن. لكن القسم الأكبر من

مجموعات الكتب لن يعود أبداً، ذلك أن "القسم التالف" منها، أي عشرات الآلاف من المؤلفات، جرى حرقه عام 1955 بناء على أوامر أصدرها ضباط بدؤوا يدلون بشهاداتهم شخصياً، ولا شك أن المصير نفسه عرفته مجموعات مكتبة "بيتلورا". إنه موسم الاعترافات. لقد أقرّ مدير المكتبات في وزارة الثقافة الروسية أن ملايين الكتب من "الغنيمة الأدبية" تتعفن حاليا تحت فضلات الحمام في كنيسة مهجورة بمنطقة "أزكوي" بالقرب من موسكو. وتضيف باتريسيا غريمسندر أن مجموعات كتب ليون بلوم وإيمانويل بيرل وغيرها موجودة بكل بساطة في المكتبة الرئاسية بـ"مينسك".

تجاوزت عظمة الأعمال الستالينية الخيال كثيراً وبدأ الشهود بالظهور. ساد التصور أن اللجوء إلى النفي للمعسكرات والتصفيات والمحاكمات والإعدامات وعمليات الترحيل الكبرى قد ترافق بعملية إبادة منهجية للثقافة باعتبارها مصدراً للهوية أو بؤرة كامنة للانحراف. لكن لم يكن معروفاً مدى صحة ذلك.

أسس التتار من القبيلة الذهبية خانة كريمي في القرن الثالث عشر. وشهدت تلك الدولة التي ضمتها روسيا عام 1783 عمليات اضطهاد مستمرة إلى أن تم ترحيل سكانها عام 1948 على خلفية تعاطفهم مع العدو أثناء الحرب. أمر ستالين بإرسالهم إلى أوزبكستان مع منعهم المطلق من استخدام لغتهم بينما جرى تدمير كل صروحهم ومكتباتهم وأراشيفهم في بلادهم. ولم يتم السماح لهم بالعودة إلى هذا المكان الذي فقد ذاكرته إلا بعد عام 1990.

كانت إستونيا تُدار منذ 1220 من قبل عواصم أجنبية متنوعة، ونجح سكانها مع ذلك في المحافظة على لغتهم وثقافتهم. ظهر أدب باللغة الاستونية في القرن التاسع عشر. وأدّت عمليات الترحيل الجماعية التي نظّمها الاتحاد السوفييتي إلى إبدال أكثر من نصف السكان بمهاجرين آخرين جرى استقدامهم رغما عنهم أيضا. واعتُبرت خارجة على القانون جميع أدبيات 769 مكتبة عامة

عام 1940 التي قد تؤدّي إلى اضطرابات اجتماعية أو إلى أشكال من التحريض تبرر استغلال الإنسان للإنسان وتحث على الحقد أو على التزمت القومي أو على الصراع الديني. كانت النتيجة هي حرق 2,6 مليون كتاب و لم يبق أي أثر من الأدب القديم على الرفوف.

تأسست المكتبة الوطنية في ليتوانيا عام 1919 وضمّت 200.000 مجلد عام 1941، أتلف الجيش الألماني منها 19.175. ثم احتل الاتحاد السوفييتي البلاد من جديد وجرت عمليات تخريب في إطار عملية "تخليص المكتبات من المطبوعات الخطيرة إيديولوجيا". هكذا تم إرسال 37 طنًّا من الكتب المقروءة إلى مصنع لعجينة الورق في "بيترازيوناي" خلال عام 1950 وحده. أما في الأزمنة العادية فقد كانت الكتب تذهب مباشرة إلى مرجل التدفئة المركزية للمصنع كي يتمتع بها مستخدموه. بالمقابل لم يكن لدى هؤلاء سوى ملف صغير لما هو مصنّف لديهم، فالكتب غير المحروقة كانت تخزّن تحت الأقفال في أمكنة مسماة آمنة، أي عشرات الآلاف من الكتب. بالتوازي مع هذا، تنبغي ملاحظة أن ليتوانيا هي الجمهورية السوفييتية التي احتوت أكبر نسبة من الكتب المحروقة بالنسبة للفرد خلال سنوات الاضطهاد كلها.

يقال إن ستالين كان سينفي اليهود الموجودين في القسم الأوروبي من الاتحاد السوفييتي إلى عمق أعماق سيبيريا، لكن الموت منعه من ذلك في اللحظة الأخيرة. ومنذ عام 1936 كانت نزعة العداء للسامية لدى الدولة قوية إلى درجة أن اليهود الروس لم يعرفوا أي هدوء نسبي إلا أثناء سنوات الحرب حيث تم استخدامهم للحصول على شهادة معاداة للفاشية على المستوى العالمي. لكن عاد الاضطهاد منذ عام 1943 بأجلى صوره مثلما عاد نفي فكرة الانتماء اليهودي نفسها بحيث كان هناك أكثر مما ينبغي من اليهود في الاتحاد السوفييتي ولكن دون أي وجود للمسألة اليهودية. لذلك جرى إخفاء أي كتاب فيه أية

إشارة طفيفة لثقافتهم وحذف المقاطع التي تصب لصالحهم في خطابات لينين بل وحتى مُنِع تداول كتاب للهندسة فيه رسم لمثلثين منضدين واحدًا فوق الآخر بحيث يشكلان صورة نجمة سداسية ترمز بوضوح للدعاية الصهيونية. ومُنع التحدث باللغة العبرية في سنوات العشرينات ثم بلغة اليِدّيش (لغة عبرية ألمانية ينطق بها يهود أوروبا الوسطى وروسيا). وجرت اعتقالات عديدة للكتاب والصحفيين والفنانين اليهود. واختفى مجمل نتاجهم من مكتبات البيع والمكتبات العامة، كما شنت الصحافة هجوما شديدًا ضد من "لا وطن لهم" و"أنصار النزعة الكونية" ربما من أجل التحضير لنفيهم. لكن خف التوتر فجأة يوم 5 مارس 1953، وفي اللحظة التي تم فيها أخيرا خلع الحذاء العسكري لجثة "المرشد"، خفت أغلبية شخصيات النظام مثل خروشوف وأندروبوف رئيس جهاز ك.جي.بي إلى حرق وثائق تتعرّض للشبهات. ولم يتم عمليا العثور على أي شيء في موضوع الكتب "التالفة التي لا مجال لاستخدامها من جديد"[201].

"حصلت أكبر كارثة في القرن بعالم المكتبات" (لا يُعرف أية لجنة تحكيم تقرر الترتيب) في أكاديمية علوم الاتحاد السوفييتي عام 1988.

كان ذلك مساء يوم الأحد عند الساعة الثامنة، بتاريخ 14 فبراير. بدأت النار في الطابق الثالث في صالة الدوريات. وعندما تم إخمادها في اليوم التالي عند بداية الليل كانت أربعمئة ألف كتاب قد غدت رمادًا وتلفت 3 ملايين وستمئة ألف كتاب آخر نهائياً بسبب المياه والحرارة المفرطة والدخان. وعرف أمناء المكتبة بسرعة أن قسمًا كبيرًا من مجموعة كتب باير (مجموعة من المؤلفات العلمية الأجنبية) قد ضاع نهائيا؛ أما الباقي فكان خاصة من أعمال تعود إلى القرن السابع عشر. كان تأثير ذلك رهيبًا على الروس، الهواة الشغوفين بالكتب، لكن الكارثة آلمت أكثر منهم أولئك الذين كانوا يصرّون بعناد على أوهامهم حول كفاءة الدولة.

نُشر مقال أول بعد أربعة أيام على الصفحة الرابعة من "سوفييتسكايا روسيا" وأشار إلى العدد الكبير وغير الطبيعي للحرائق في جزيرة "فاسيلفسكي" حيث كانت تتمركز الأبنية الجامعية والمؤسسات الحكومية، فريسة التهاون المطلق للموظفين فيها. ورد فلاديمير فيلوف، مدير المكتبة، بطريقة سوفييتية تماماً في مقال رسمي متشدد في اليوم التالي أكد فيه أن بضعة حفنات من الجرائد هي وحدها التي احترقت وربما بعض الكتب القليلة التي تعود لسنوات الثلاثينات. لكن الأزمنة تتبدل ولغة الخشب الجامدة بدأت تعتريها التصدعات إذ عُلِم بنفس الوقت بعد عدة ساعات أن ذلك الرجل كان قد دخل إلى المستشفى فجأة لأسباب صحية و لم تر المصالح التابعة له أنه من المستحسن طلب المساعدة ولا إرشادات المكتبة الوطنية القريبة بل طلبت "بلدوزرًا" لرفع كومات الكتب الطافحة بالماء مع الركام. هرعت الجماهير نحو الساحة وقفزت فوق الحواجز لمنعها على الرغم من تطمينات القائمين على العمل الهالعين أنه ليس هناك أي كتاب يستحق الإنقاذ. انتزع سائق البلدوزر عندها مفتاح تشغيل الآلة ولزم جانب الناس مثل "بوتمكين" عندما سحق مفاعل تشيرنوبيل.

أسهم جميع سكان لينينغراد (سابقًا) إثر نداء بثته الإذاعة في تجفيف الكتب عبر نشرهـــــا على حبال نشر الغسيل في المترل؛ وهكذا أعيد 800.000 كتاب (600.000 حسب رواية أخرى) إلى مجموعاتها بينما أخذ أحد نواب رئيس أكاديمية العلوم المبادرة الغريبة بطلب مساعدة موظفي المكاتب الأمريكيين الذين كانوا قد عايشوا الكارثة في لوس أنجلس قبل عامين. ومع ذلك، كان لا بد من تدخل "أرمان هامير" الشهير، وقطب "أوكسيدنتال بتروليوم" الذي جمع ثروة كبيرة بتعامله مع الماركسية-اللينينية، كي يتم إرسال ثلاثة خبراء دون زيادة بعد تسعة أيام. كان 250.000 مؤلَّف قد جرى إرسالها أثناء ذلك إلى مجمّدات مصانع السمك في المناطق المحيطة.

في الصين

كانت الصين لا تزال في القرن العشرين هي صاحبة الرقم القياسي في التشنجات والمآسي في مجال تاريخ الكتب وقد حازت هذه المرتبة نتيجة عملية طويلة الأمد.

خرّبت عمليات القصف والحرائق والنهب والمصادرات الناتجة عن العدوان الياباني المناطق الشمالية-الشرقية كثيرًا إذ كانت ثلاثة أرباع المكتبات الكبرى العامة والجامعية والخاصة متمركزة في مناطق المعارك. هكذا جرى تدمير أو سلب أكثر من نصف كتب المنطقة مثل الأربعمئة ألف مجلّد لمكتبة "دونغ نانغ توشوغوان" التي أنشأها وكالة "كويريسال برس" في شنغهاي والتي أُحرقت مع هانفونلو حيث كانت تتكدس الكتب النادرة لـــ"صونغ" و"ياوان" ومن بينها الكتب الناجية من "تيانيانغ"، أو أيضاً أثناء نهب "نانكين"، حيث تعرّضت المخطوطات التي لا تقدّر بثمن في المكتبة المختصة بشؤون الصين لـــ"جيانغ سو" للسطو عدة مرات قبل تدمير البناء. وما بين عام 1925 وعام 1936 ازداد عدد المكتبات العامة الصينية من 502 إلى 4.041 مكتبة، لكن سنوات الحرب الثلاث التالية أدّت إلى زوال 2.500 منها. كذلك أصابت عمليات القصف بالفعالية نفسها مجموعات الكتب الخاصة.

لكن لم تكن القذائف وعمليات النهب هي وحدها المسؤولة، فالكثير من المكتبات الشخصية حرقها أحيانا أصحابها. إذ كان امتلاك كتاب باللغة الإنكليزية أو "أدب معادٍ لليابان" يمثل جريمةً عقوبتها الموت في الحالتين. أليس شكسبير والإنجيل مكتوبين بلغة الأعداء؟ كان من المعروف عن رجال الشرطة اليابانيين في الأراضي المحتلة عنادهم المخيف إذ ربما كانوا "يبحثون عن هر أسود في غرفة مظلمة مع علمهم أنه ليس موجودا فيها"[202]. وأرغمت حالة الركود

والضنك مالكي الكتب على بيعها من أجل تحويلها إلى "ورق عائد إلى الحياة". ثم إن أصحاب المكتبات لم يكونوا يبيعون أصلاً آنذاك الكتب إلا بالوزن. شملت إعادة التدوير تلك "أطناناً من المجلدات ذات الطباعة الجيدة وكتبًا كلاسيكية وموسوعاتٍ وأعمالاً شعرية، الخ. وكانت نتيجة تلك "العودة للحياة" ندرة الأعمال العائدة لنهاية عهد السلالة الماندوشية والسنوات الأولى من عهد الجمهورية بعد أن كانت متوفرة بكثرة (...). وحبّذا مثلاً معرفة أي كتاب تقمّصت فيه مختارات كونفوشيوس"[203]. تأخر اليابانيون كثيرا، عند هزيمتهم، في التفكير بتحويل بقية المجموعات الكبرى من كتب الصين، إذ لم تكن لديهم بعد وسائل النقل الكافية، لكنهم نجحوا مع ذلك بأخذ ألفي صندوق من مخطوطات "المدينة الممنوعة". ومئة وسبعة من الكتب الثمينة للمكتبة الوطنية المركزية[204] لنانكين. ولتجنب ذلك تحديدا اجتازت المؤلفات ذات القيمة المرجعية والأعمال باللغات الأجنبية العائدة لتلك المكتبة الصينَ عام 1937 كي تتبع الحكومة إلى "شونغ كينغ" في منطقة "سيشوان" ثم عادت إلى البلاد بعد ثلاث سنوات. كان "جيانغ فوكونغ" هو أول مدير لها قبل ذهابه إلى تايوان إثر هزيمة "ميندانغ" حيث حمل معه قسمًا كبيرًا من مجموعات الكتب. كان ذلك الرجل رمزا صافيًا لنزعة كونية ثقافية، أي حالة نادرة في الصين إذ عندما أشار إلى أن المعرفة يمكن أن تعني باللغة الصينية "رائحة الكتب" إنّما قارب هذه الفكرة إلى كلمة "ريشار أنغرفيل دوبوري" في القرن الرابع عشر عندما تلذذ بالبحث في المكتبات الباريسية "الأكثر عبقاً بالروائح من متاجر التوابل". لقد تباهى جيانغ أنه ضمّن خطابه الكثير من الاستشهادات اللاتينية أو الفرنسية، وهكذا يُفهم لجوؤه إلى "تايبي" حيث أصبح مديرا للمتحف وربما أيضاً لم يحقق في الصين الجديدة.

وعلى الرغم من العطايا الكبيرة بالكتب التي قدمتها الولايات المتحدة[205]

بقيت بالكاد في القارة (الصين) 940 مكتبة عامة وجامعية في أواسط عقد الأربعينات وعدد أقل أيضاً من الكتب عام 1949 بوجود الابتزاز القومي[206]. لكن تردّى الوضع أكثر بعد ثلاثين سنة من نهاية الحرب باتجاه يدعو للرثاء إذ شهدت تلك الفترة خرافة ماو ونزعته للمغامرة وأشكال تخريبه.

بدأت الصين بطريقة كلاسيكية جدا "تحرير" التيبت عام 1949. وقوبلت انتفاضة "لاهاسا" عام 1959 بقمع شرس قضى على 87.000 نسمة من التيبيتيين. وأعقبت ذلك عملية إبادة جرى فيها تدمير 6.000 معبد كان معظمها يحتوي على مكتبة تم إتلافها على الفور. ولجأت بكين حديثاً، كما في مستعمراتها الأخرى (تشينغ يانغ ومنغوليا الداخلية) إلى آليات ترويض أقل ضجيجا إذ يوجد عشرة صينيين مقابل كل فرد من أبناء البلاد الأصليين. لذلك ينبغي البحث بالأحرى عن مجموعات الكتب باللغة التيبيتية في الهند.

"من حالة فوضى عظمى ينبغي استخراج نظام يساويها في العظمة"، هكذا كان يردد باستمرار المراوغ ماوتسي تونغ عندما أطلق الشبيبة في الشوارع خلال شهر أغسطس من عام 1966 للتخلص بطريقة غير مباشرة من "ليو شاوكي". ضجّ طلاب المدارس الثانوية والجامعات في البداية على أساتذتهم ثم على السلطات الجامعية وكان يمكن للمسألة أن تتوقف عند ذلك الحد، لكن بتاريخ 18 أغسطس ارتدى ماو نفسه شارة الحراس الحمر. ثم هنأهم، بتاريخ 23 من نفس الشهر، صحيفة "يومية الشعب" على صدر صفحتها الأولى لأنهم "يكنسون غبار الأفكار العتيقة والعادات الثقافية للمستغلّين". كان ذلك يعني إعطاء الضوء الأخضر للفوضى إذ جرى بعد شهرين تخريب 4.922 موقع تاريخي من أصل 6.843 في بكين، كما جرى اقتحام وتفتيش 33.690 منزل بحثاً عمّا ينمّ عن موقف بورجوازي وخاصة الكتب أولاً ثم اللوحات القديمة ثانياً. جاء بعد ذلك دور المناطق. وبعد معاقبة الفئات المسماة "سوداء" من

الفلاحين الأغنياء أو معادي الثورة على جرائمها انصبّ الاهتمام على "المناطق الرمادية"، أي المثقفين حيث تعرض 140.000 من سكان بكين للاضطهاد وتوفي 7.682 منهم. جاب الحرّاس الحمر الذين كانوا يسافرون على نفقة الدولة كل أرجاء الصين من أجل ضمان التطبيق الحازم لأفكار ماوتسي تونغ بمثابة "توجيه أعلى". كان باستطاعته أن يستعرض من شرفته في ساحة تيانانمن مرور 13 مليون شخص خلال ثلاثة أشهر. لقد سعى فقط إلى إبعاد منافس سياسي، لكن وجب تدخل الجيش لاحقاً من أجل إزالة الكارثة الوطنية التي أثارها، واستمرت حالة الصخب السياسي إثرها لسنوات عديدة كما تعرّضت الثقافة الصينية للتخريب لمدة أطول جداً مما يُعتقد.

كان ماو عام 1919 أمين مكتبة في بكين. هنا اكتشف ماركس، كما يقول مجمّلو سيرته باعتزاز. وربما من هنا جاء كرهه للكتب وللمثقفين، لا شك إثر إحساس بالحرمان أو إثر عملية إذلال تعرّض لها ولا تزال مجهولة. واعتبارا من عام 1950، جرت عملية حرق الكتب التي اعتبرت رجعية ومعادية للشعب؛ رأت صحيفة "نيويورك تايمز" ذلك "مؤشراً على الضعف"، وكانت عمليات التدمير خجولة أيضاً أو لم يذع صيتها. أصبحت زوجة ماو "جيانغ كينغ" اعتبارا من عام 1963 أحد مساعديه الأقوياء وتخلّى لها عن الثقافة على اعتبار أنها كانت مملة وهكذا ألغيت الدوريات العلمية وغيرها من المطبوعات واحدة بعد الأخرى. كانت تردد باستمرار "من الأفضل وجود عمال جهلة على علماء مستغلّين". وقالت في اجتماع لأمناء المكتبات: "يمكن وصف الثقافة في الفترة الواقعة بين النهضة والثورة الثقافية في الصين أنها كانت فراغاً كاملاً". وقال شريكها المقلق "شانغ شنكياو" في مكتبة شنغهاي: "من بين ملايين الكتب الموجودة هنا يمكن الاحتفاظ برفّين فقط". وقال "ياو وينياوان"، العضو الآخر العجيب من مجموعة الأربعة: "من يحصل على المعارف يصبح بورجوازيا".

هكذا جرّوا من يملك مجموعة كتب في الشوارع وعلى رأسه قبعة الكسول – بأذني حمار– كي يضربه الجمهور إلى أن يعترف بأخطائه ثم يتم إرساله للقيام بأردأ أنواع السخرة لدى المزارعين المغتبطين حيث ينبغي عليه أن يعلن أمامهم كل صباح أنه مذنب إذا أراد تناول الطعام. لا يمكن للإنسان إلا أن ينكر ذاته في هذا المستوى، إذ بعد عشر سنوات من العذاب كتب "با جين" بوضوح كيف دارت رأسه؛ لكن إذا كان "با جين" قد تكلم فكم من الآخرين أصابهم الجنون دون أن يتفوّهوا بكلمة؟ يقال سعيدٌ ذلك الذي لا أطفال له يحميهم، فهو يستطيع على الأقل أن ينتحر. (يمكن قراءة شهادة با جين في مجموعة الوقائع التي يكتب عنها في كتابه "على حد الريشة"، وآلاف التفاصيل المخزية الأخرى حول هذه الفترة التي هي بصدد الاختفاء في كتابات يان جياكي وبربرا بارنوان. أراد با جين تأسيس متحف. واستجيب له بالنهاية ولكن بأبشع الطرق. ففي أحد أزقة بكين أصبح مترل رائع قديم مقر دعوة الأجانب الأغنياء لتناول كوكتيل حيث كانوا يجلسون على الأريكة التي كان قليل الجاذبية لين بياو قد جلس عليها أو من أجل التلذذ بوجبة –ممتازة للأسف– تقدمها مومسات رائعات الجمال بلباس الحرس الأحمر. وتكتمل الدعابة المشبوهة باسم المطعم: "الموقف الأحمر الجديد". ولا حاجة للقول إن مثل هذا المكان ما كان له أن يفتح أبوابه ويبقى مفتوحا إلا بموافقة أعلى هرم الإدارة.)

لم يكن مأمولا "من نظام معادٍ إلى تلك الدرجة من تكلس المعرفة، حرصه على المكتبات[207]". ففي الواقع عندما أصبح المثقف حتى في طور التكوين صانع خطاب في خدمة الجماهير، أي في خدمة الحزب، تدنّت المكتبة إلى مستوى آلة–أداة. وتتلخص أفكار "شانغ شونكياو" في القول إنّ جميع الكتب الصينية، قبل 1949، كانت، باستثناء الماركسية، إقطاعية، وما بين 1949 و 1966 كان معظمها رجعيا، أما كل ما يُطبع في الخارج فهو رأسمالي بالضرورة وبالتالي

رجعي. هكذا سُحبت ملايين الكتب النادرة أو الأقل ندرة من مؤسسات القراءة العامة أو الأكاديمية إذ لم يعد لها ما تفعله فيها وانتهت إلى الحرق. ولا يبدو أن أحداً قد تساءل آنذاك من أين جاء ورق الكتاب الأحمر الصغير الذي تمت طباعته على الأقل بعدد السكان من الشباب والعجائز في بلاد كانت بحاجة حتى إلى الأرز.

سُمعت الرسالة بدرجة أكثر وبجذرية أكبر في المناطق البعيدة عن المدن الكبيرة حيث جرى حرق كل شيء وحالاً، مثلما حدث في يونّان (تم إتلاف 400.000 من الكتب والدوريات)[208]. وأضاعت منطقة ليونينغ 2,5 مليون مؤلّف اعتبارا من شهر مايو 1966 "حسب إحصائيات لم تكتمل بعد"[209]. وفي لوزهان، بمنطقة هيانغسكي جعل الحرّاس الحمر من المكتبة مهجع نومهم مما اضطر العاملون لتغيير مهنتهم؛ أما الكتب فجرى تكديسها في مستودعات رطبة لتقتات منها قوارض صغيرة متنوعة، وعندما أصبحت رائحة العفن لا تطاق حرقوا كل شيء. تمكن قراءة العديد من شهادات الحراس الحمر القدامى مثل القائلة: "كان هناك على الخصوص أصنام وكتب، أي كل الكتب — الصفراء والسوداء والسامة – التي جرت مصادرتها من مكتبات المدينة في مطلع شهر يوليو، وإيداعها في قصر ثقافة العمّال. كانت أغلبيتها قديمة ومجلّدة باليد. وكانت أعمال مثل "الزنبقة الذهبية" و"حلم المترل الأحمر" وعلى "شاطئ الماء" و"قصة الممالك الثلاث" و"الحكايات المرويّة في مركز عمل" تنتظر حرقها. وصُبت بعد الساعة السادسة بقليل كمية 50 كيلو من الكيروسين على كومة من الأشياء ثم أضرمت النار فيها... ارتفعت ألسنة اللهب إلى علو طابقين (...) إن شعلات صراع الطبقات لن تنطفئ أبداً"[210]. بقيت الصور الرسمية جداً التي التقطها المدعو "لي تسينشينغ" في "هيلونغ جيانغ" طي السرية لفترة طويلة مثل غيرها ثم انتهت إلى الظهور لتقدم أخيرًا بعض وجوه تلك "الأمة الزاخرة

بالمتواطئين وبالضحايا الصامتين". إنما تُظهر الحقد الكبير والرغبة المعلنة في الإذلال والتخريب، إذ تناوبت "حلبات الصراع" مع حرق الكتابات البوذية التي كانت دون قيمة خراط كلاب" والمكتبات المقلوبة رأساً على عقب، كانت الكتب العالقة بالأسلاك هي وحدها المرئية أما الباقية فقد خدمت كمقذوفات"[211].

كان مسموحًا لجنود ماو إتلاف أية كتابة تقع تحت أيديهم من أراشيف أو كتب قديمة أو كتب أجنبية أو تخطيطات فنية، الخ، لكن لم تقعِ أيديهم على كل شيء. فمن جهة انجرّت تلك المجموعات من الحمقى أحياناً للخوض في نقاشات إيديولوجية أدّت بهم إلى الابتعاد عن هدفهم المباشر، كما حدث ذات يوم في بكين حيث أيّدهم أمناء المكتبات في النقاش وأخذوا يرددون شعارات: "نعم فلنقم بفهرسة جميع الوثائق السيئة!" مما ترك لهم الوقت الكافي للمحافظة عليها. وذات يوم آخر خطرت للمسؤول فكرة امتصاص طاقة الهائجين بعرضه عليهم تأسيس قاعة لـــ"التوثيق للثورة الثقافية" جمع الشباب فيها بحماس مئتي صندوق من المناشير ما بين سبتمبر 1966 وأغسطس 1968. بنفس الطّريقة، تعرضت المكتبة الشهيرة ذات المئتي ألف مجلد لليسوعيين في كزوياهوي، للهجوم عام 1966 من قبل عصابة شرسة كانت قد تمرّست حديثاً عبر نهبها مدرسة ثم كنيسة في الجوار وحرقت كل الكتب التي وجدوها فيهما، لكن العاملين في المكتبة أخذوا مواقعهم عند الأبواب والنوافذ ودافعوا عن المؤسسة بإخلاص (هؤلاء العاملون جرى تعذيبهم بعد فترة بل وقتلهم. لكن وُضعت خلال الوقت المستقطع مجموعة الكتب في مكان آمن)[212].

لم يكن أمناء المكتبة وحدهم الذين يدافعون دائماً عن أنفسهم فقد كانت هناك حمايات من الدوائر العليا للسلطة حيث تطلّب الأمر بالضرورة إدارة الفوضى التي خلقها ماو. قال "تان شيانجين" الذي كان مديرًا لمكتبة بكين: "لو

لم يصدر شوان لاي الأوامر للجيش من أجل الدفاع عن المكتبة ضد هجوم الحراس الحمر، فإنني أخاف من تصور ما كان يمكن أن يحدث"[213]. كان ذلك يوم 7 ديسمبر 1967. بقي العسكر في المكان سنة كاملة قبل أن يتم استبدالهم بـ"كتائب دعاية العمال والجنود"[214] المكوّنة من ميليشيات تأسست لقمع الشبيبة الحمر الذين كانوا يرفضون العودة إلى دراساتهم. ووُضع قسم كبير من مجموعات الكتب الأكثر قيمة في صناديق بناء على أوامر من وزير الثقافة اعتباراً من شهر مايو 1966 قبل بداية الاضطرابات ونقلت إلى مؤسسات غانسو ومنغوليار الداخلية. وكان من المنتظر نشوب حرب مع الاتحاد السوفييتي أو أنّ الدوائر العليا على علم بما سيجري. وتدل التقديرات عامة، أن أغلبية مكتبات المدن الكبرى ظلت مقفلة ما بين ثلاث إلى ست سنوات وممنوعة على القرّاء كما على المشاغبين. وبقيت أبواب بعضها مفتوحة كأفخاخ كما يقال، إذ كانت الدائرة المختصّة بالمطبوعات الغربية تنتظر المتهور الذي قد يأتي لطلب كتاب أجنبي من أجل الوشاية به حالا. لكن الدقة صعبة بهذا الصدد فالفترة المعنية من التاريخ الصيني محظورة ولا يزال من المستحيل دفع آخر الشهود للكلام وعددهم يتضاءل كل يوم. ومن المؤسف جدا أنه ليس هناك من اطلع على أسرار الرجل الاستثنائي "غو تيانغلونغ" الذي كان رئيساً لمكتبة شنغهاي وتوفي وهو يقارب المئة سنة من العمر عام 1998، وكان قد دار مع مساعديه خلال سنوات الخمسينات على مصانع عجينة الورق من أجل أن يستعيد في اللحظة الأخيرة شجرات نسب عشرات الألوف من العائلات الصينية (تشكل اليوم 47 ألف مجلد لا تقدّر بثمن بالنسبة للباحث). كان يعلّم موظفيه كتابة الخط أثناء استراحة الظهيرة كما كان دون شك شاهدًا مثيرًا حيال عملية التخلص من غير المرغوب بهم في المؤسسة من قبل "شانغ شونكياو" الذي أنهى، بعد أن اتّسع نفوذه بسبب الثورة الثقافية، وجودَ 50 من أصل 300 أمين مكتبة ربما اطلعوا على النص المناوئ للشيوعية الذي كتبه سابقاً تحت اسم "دي كي" المستعار.

في عام 1976، اختفى بنفس الوقت ماوتسي تونغ وعصابة الأربعة. وبينما أظهرت السلطات لبقية العالم صورة الصينيين والدموع تملأ مآقيهم لموت رئيسهم، كانت البلاد كلها تبتهج فرحاً وتقيم الاحتفالات بمناسبة سجن عصابة الأربعة، ولم يبق في بكين كلها قطرة كحول بعد ثمانية أيام. مع ذلك أعقبت الدفن الرسمي للثورة الثقافية فترة طويلة لزجة من النزعة الظلامية. ففي عام 1979 انتقلت الصين مباشرة من "محاربة العجائز الأربعة" إلى "النضال من أجل عمليات التحديث الأربع" وأكّد الرئيس الذي تمّ نسيانه سريعاً "هو غوفينغ" دون أن يبتسم أنه سيتم بناء مكتبات "في خدمة البحث العلمي والجماهير" بينما سرت دعاية لا يمكن التحقق منها مفادها أن "إدارة المتاحف والمنشآت الثقافية أعادت مليوني كتاب لأصحابها السابقين"[215].

بلغت تعاسة الصين نهايتها على الرغم من استثارة الأزمنة الجديدة التي ولّدها الشعار الجديد للقائمين على السلطة الذي تمّ اختراعه بعد مذبحة تيانانمن عام 1989، والقائل "اجمعوا الثروات" (وبالطبع ضمنا "دعونا بسلام").

كانت البلاد محرومة خلال عشر سنوات من المكتبات العامة أو الخاصة ومن التربية والقراءة. احتاج تجديد هذه النشاطات إلى 10 سنوات إضافية من أجل استعادة ما يشبه الفعالية. لقد عانت المكتبات العامة ومكتبات البحث كثيراً في تلك الفترة التي لم تعرف النشر الحقيقي، ولا الشراء من الخارج أو التواصل معه، ودون أي تكوين أو فهرسة. وثانوياً اعتمد الغباء الوطني، إذا أمكن القول، على تحقير جميع المثقفين الذين لم يكن أمامهم سوى الموت أو ترميم أنفسهم بأنفسهم. و لا يمكن للمرء إلا أن يُصعق اليوم أنه من بين النتائج الأخرى لتلك الفترة الغريبة التدني الهائل للمستوى الثقافي للشبيبة الصينية المقطوعة، للمرّة الأولى في تاريخ البلاد، عن ماضيها إلى حد كبير لا يستطيع الطالب معه قراءة دراسة تعود إلى سنوات الثلاثينات إلا بصعوبات كبيرة بل

تُسمع وشوشات تقول: "لم يكن لدى آبائنا شيءٌ يعلّمونه لنا".

لقد نجح "كين شي هوانغدي" بعد 22 قرن، في أن يضرب صفحا عمّا مضى.

في كمبوديا

إذا كان المنطق المتشدد لجنود ماو الحمر الصغار قد أسهم في التخريب الوطني، فإن تعقيد المجتمع الصيني التقليدي واتساع البلاد لم يسمحا لهم بالذهاب بعيداً في مسيرة رعبهم كما ذهب نظراؤهم في "انغكار".

تلاشت السلطة في كمبوديا بسبب الدسائس الأمريكية وعدم كفاءتها الذاتية، فمارست عصابات الخمير الحمر فجأة اعتباراً من عام 1975 حكماً دموياً مطلقاً خلال ثلاث سنوات عرفت مقتل ثلث السكان في مناخ من الهذيان ترقـــى الأطفال فيه إلى مصاف "أدوات دكتاتورية الحزب". نجا المعلمون الذين عرفوا كيف يظهرون كبلهاء، أمّا البقية فكان مصيرهم داخل كيس من البلاستيك. تمثلت إستراتيجية "سالوت سار"، المعروف بـــ"بول بوت" أو "كيو تيريت" وزير "العمل الاجتماعي" في تشكيل جيش من المراهقين المشبعين بالحقد ضد كل مرجعيات المجتمع القديم كالأجداد والبوذيين والأساتذة وحتى أهلهم. ترتب على هذا المبدأ تدمير 5.857 مدرسة و 1.987 معبد بوذي و108 مسجد وكنيسة و796 مستشفى. وأُعلنت الحرب ضد الورق إذ ألغيت العملة ووثائق الهوية؛ وأصبح امتلاك صورة عقوبته الموت. وبالطبع أُشيرَ بالبنان إلى الكتاب على أنه عدو قاتل من السهل التعرّف عليه كمخطوطات على أوراق نخيل المحيط الهندي بالنسبة للثقافة القديمة أو ككتب مطبوعة في الخارج، ومنذ الأيام الأولى لتلك الواقعة المذهلة الفريدة في العالم والمتمثلة في الجلاء القسري عن "بنوم بنه"، انقض الشباب ذوو الثياب السوداء على المكتبات، وفي مقدمتها

المكتبة الوطنية. "كان في الساحة جبل من الورق المحروق الذي تبرز منه جلود كتب حمراء أو خضراء أو بيضاء لم تحترق بشكل كامل. وكانت هناك أوراق منفصلة تغطي الأدراج وأرض مختلف الغرف. وكانت الوثائق الثمينة التي كان أهل العلم يأتون من مختلف أنحاء العالم ليتعرفوا على ما فيها تحت الأقدام. وكانت تبللها مياه أمطار الأيام السابقة، ومعفرة بالوحل وممزقة، ومبعثرة في الحدائق وفي الشارع أمام واجهة المبنى. (...) أمّا في المعهد البوذي، أحد أهم مراكز الدراسة في البلاد، فقد تحوّل 70.000 مجلّد من الوثائق المكتوبة بلغة الخمير وباللغة الباليّة إلى رماد وفتات. والحال نفسه بالنسبة لكليات الآداب والعلوم والتربية عندما أحرقت أكداس هائلة من الكتب بالقرب من قاعة محاضرات شاكلوموخ".

تعود هذه الرواية[216] المباشرة إلى عام 1976 وعندما فهم فيه الرأي العام الدولي أن أسوأ المبالغات كانت دون الواقع، بُدِئ بنسيان كمبوديا.

في سريلانكا

يترك الاستعمار خلفه دائماً بعض القنابل الموقوتة. هكذا استورد البريطانيون أعداداً كبيرة من الأيدي العاملة من التاميل في القرن التاسع عشر للعمل في مزارعهم للقهوة والشاي في سيلان.

وبتاريخ 31 مايو والأول من يونيو 1981 قامت شرذمة من رجال الشرطة بقيادة وزيرين حسب رواية البعض وبقيادة جماعة من المشاغبين غير معروفي الهوية حسب مصادر الحكومة بالهجوم على مكتبة "جافنا" وحرقت مبناها المؤلف من طابقين بمجلّداتها الـــ97.000 المكتوبة على الورق وعلى الألواح من بينها 150 دراسة حول تاريخ جافنا اختفت كلها في اللهب مع المكاتب وتجهيزات الصحيفة الداعية للاستقلال "تاميل أكلامادو".

بعد 20 سنة، أطلقت السلطات حملة وطنية تحت شعار "كتاب مقابل لبنة من القرميد" مما سمح بإعادة تعمير وتزويد المكتبة بالمؤلفات لكن النمور (التاميل) عارضوا إعادة فتحها إذا لم يصبح هجوم 1981 موضوعاً لمعرض دائم. هكذا قدّم المجلس البلدي التامولي (المعتدل) استقالته.

كان الجيش في شهر مارس 2003 لا يزال يقوم بحراسة المبنى المغلق من باب التعقل إلى أجل غير مسمّى.

في كشمير

نُظر غالباً إلى الوادي الجبلي الرائع الذي يوحي لنا اسمه خاصة بالترف والأناقة كصورة بليغة للجنة على الأرض. اقتسمته الهند وباكستان تحت أنظار الصين الحريصة على التمسك بحياد حذر يكمن خاصة في تزويد إسلام آباد بالأسلحة؛ ولقد أصبح بالفعل جنة العنف الدامي والقتل في الشوارع وتهديم المكتبات. ولهذه الظاهرة هنا خصوصية أنها مستمرة تقريباً.

توجد كشمير في أعلى مناطق العالم على السفح الغربي لجبال الهملايا، وقد استمر احترام الخصوصيات الإثنية فيها طويلا من قبل الفاتحين العرب حتى تحوُّلِها المتأخر للإسلام مع قدوم المتصوف علي همذاني عام 1372. أما الرعب فقد انطلـــق في القـــرن الخامس عشر مع وصول السلطان اسكندر إلى العرش (1394–1416) وقسر الهندوس على التحول عن دينهم من أجل إنهاء نفوذ العلماء والبحّاثة في الثقافة السنسكريتية القديمة لـــ" شاردا بيت" (أو "بوتقة المعرفة" الاسم المقدس لكشمير).

قام اسكندر بـــ"حرق الكتب كما تلتهم النار الهشيم (...)، وعرفت كل أشياء المعرفة الوضاءة تدميرها مثل أزهار اللوتس عندما يجتاحها الجليد في الشتاء[217]" كما قال الشاعر سريفار. ومُنع استخدام اللغة السنسكريتية ثم اللغة

الفارسية التي كان البنديتيون يتقنونها كلغة ثانية. تكدست الأساطير وتزاحمت وروي أن أرصفة الشحن حول بحيرة أنشار زخرت بكومات الكتب المدانة.

لم يلعب هنا الاحتكاك على مدى قرون دورَهُ الملطّف المعتاد إذ استمرت هجمات الإسلاميين المتطرفين على المكتبات تحت الضغط الدائم للعملاء الباكستانيين. واتسع مجالهم الفكري إلى حد كبير والتقت كتابات برنارد شو وميلتون وشكسبير، وكذلك، الأكثر مقتاً من بينهم، داروين وسط النيران بكتابات الكتّاب القوميين مثل جونراج وسوماناند واتبالديف وكشمندرا.

منذ عام 1998 أصبحت إساءات الجماعات الإسلامية تجري في وضح النهار بالجامعات عامة، أو حتى في المكتبات مثل تلك التي تعرّضت للتخريب في باتامالو وكانت مختصة بأعمال ماركس وإنجلز، كما كان جان بول سارتر يحظى بحضور جيد فيها.

تدل التسمية الرسمية الجديدة للبلاد على أن "جامو وكشمير" لن تكون أبدا في حالة سلام، وتنبغي تسميتها "بوتقة الشرور". ويوجد في سريناغار المدعو عبد الرحمن كوندو الذي أسس حديثا مركزا للأبحاث الإسلامية مجهّزا بكتبه الخاصة للتعويض عن عمليات التدمير ويبدو أنه الوحيد الذي يجلبها من مكتبات مدينة العلوم في حضرتبال والمعهد الإسلامي في سريناغار.

كان يمكن لصدام القرآن ضد رأس المال (كتاب كارل ماركس) أن يبدو مثل موقع متراجع. لكن الأمر ليس كذلك[218].

فـــي كوبـــا

خلال صيف 2001 طلبت مجموعة صغيرة من أصحاب المكتبات الثملين في كوبا قراءة أي كتاب من تأليف جورج أورويل. العناوين الثلاثة، والنسخ الثلاث الوحيدة في الجزيرة موجودة في المكتبة الوطنية ولا يمكنهم الاطلاع عليها

كما أجابوهم. ذلك أن المدير ينوي كتابة دراسة عن هذا المؤلف ويحتفظ بها بالتالي في مكتبه. إن كوبا في ذروة التقدم فصاحب الإنترنت الوحيد هو الدولة.

قال فيدل كاسترو للمثقفين منذ أكثر من أربعين سنة كل ما كان لديه ليقوله لهم: "داخل الثورة، كل شيء. خارج الثورة، لاشيء!" ظهرت النتيجة في المكتبات الخاصة وفي الثلاثة ملايين مجلد في المكتبات العامة حيث يقتصر العالم المعروف إجمالا على حياة إرنستو جيفارا أو من يلف لفه سياسيا. وفي شهر نوفمبر 1999 قال صحفي محلي وشوشةً أن مئات المؤلّفات التي قدمتها إسبانيا جرى إتلافها عند وصولها.

اقترفت السلطة الحالية في بداياتها الخطأ الخطير المتمثل في تعليم القراءة والكتابة لجميع الكوبيين. وبالتالي أصبحوا يطالبون بهما. بالنتيجة توجد اليوم شبكة من أصحاب مكتبات الهواة الذين يتزودون بطريقة غير معروفة ويقدمون الكتب لقراءتها سرا مع ما يحمله ذلك من خطر كبير على أمنهم الشخصي وعلى الرغم من المضايقات والحجز والسجن، كان عدد هؤلاء الذاهلين 18 عام 1999 وهم يقاربون اليوم 60. هكذا يمكن للأوروبيين الذين يمضون العطل في كوبا التأكد أنهم يستطيعون إيجاد نسخة من "مزرعة الحيوانات" -لجورج أورويل- للتمتع بقراءتها على حافة المسبح.

في فرنسا

لم يكن الزوافيون (العسكر الفرنسيون بلباس أهل المغرب) بقيادة لاموريسيير قد سمعوا أبدا بسوء سلوك الصليبيين في طرابلس عام 1109. مع ذلك تصرفوا مثلهم تماما في قسنطينة، عام 1837. " ألقيت مؤلفات المكتبات الخاصة في الشارع وديست بالأقدام وتدنست من قبل عساكر هائجين دفعهم حقدهم إلى أن يروا "المصاحف" في كل ما هو مكتوب باللغة العربية بما في ذلك

نسخة من الترجمة الثمينة لأحد كتب جالينوس (...). وانتهت بعض الكتب التي فرزها ضابط مثقف وأرسلها تحت الحراسة إلى الجزائر إلى حرقها في الطريق من قبل جنود لمقاومة برودة الشتاء القارس!" هكذا عبّر صادق هجرس، القائد الشيوعي السابق، وأضاف أن هذا كله يتماشى مع الوصايا الحكيمة لعالم الاجتماع طوكفيل القائلة بضرورة تخريب أي بلد محتل.

بالمقابل كانت رؤوس "مجموعات كوماندوس دلتا" التابعة لمنظمة الجيش السري محشوة بمفاخر لاموريسيير وغيره من زمرته من المتسلطين عندما فجّروا مكتبة جامعة الجزائر والمكتبة البلدية في وهران غداة يوم "6 يونيو 1962" عندما أصدر "جوهو" الأوامر للجنرال "سالان" بوقف عمليات الاعتداء، وكما لو أن موت الكتب كان يمثل بالنسبة لهم مزايدة على موت البشر أو الطلقة الأخيرة قبل مغادرة البلاد. ويعتقد سمير حشاني، الأستاذ المساعد لاقتصاد المكتبات في جامعة الجزائر أنه يستطيع تقديم رقم 252.257 مجلداً أتلفها الحريق، أي حوالي نصف مجموعة الكتب المتوفرة (قدّمت الصحافة فقط رقم 60.000). ويرى أن السلبية في مكافحة النيران ليست أقل إجراما من إشعالها؛ كان تفكير الشارع آنذاك هو: "إننا لا نستطيع المغادرة وترك ما كان آباؤنا قد أشادوه". لكنه يضيف بحميّة أنه حسب ما توصل إليه في أبحاثه تم سرّاً نقل عدة آلاف من الكتب النادرة بينها مخطوطات تعود إلى نهاية القرن الخامس عشر ووثائق قيّمة أخرى إلى فرنسا منذ أن بدأ العد التنازلي لنيل الاستقلال، وربما أن هذه الأعمال قد ذهبت إلى مركز سجل محفوظات ما وراء البحار في مدينة أكس أون بروفانس[219] الذي صرّح أنه لا يعرف شيئاً عن الأمر وليس معنيا به.

بعد 30 سنة من ذلك الصيف الجزائري فاز الحزب المسمّى بالجبهة الوطنية (Front National حزب يمثل اليمين الفرنسي المتطرف أسسه ويتزعمه جان ماري لوبن) برئاسة عدة بلديات في جنوب فرنسا وبدأ بتشويه فهرس —

كاتالوغ- المكتبات العامة وحذف منها "الأدب الاستوائي" أو الاتجاهات الداعية لـــ"الأفكار المتسلطة" وألغى الاشتراك في صحيفة ليبراسيون (اليسارية). "لقد حان وقت التكنيس جيداً في المكتبات"، كما صرّح رئيس بلدية مدينة "أورانج" — التي تعني البرتقالية- التي أصبحت رمادية إذ ظهرت فجأة، بضربة عصا سحرية، على رفوف المكتبات وثائق كان يتم تجنبها حتى آنذاك كالطاعون[220]. وندد جيل لاكروا في حينه بالمظهر الديمقراطي لـــ"تعددية مشوهة" طالبت، تبعا لخطاب الجبهة الوطنية، بـــ"وجود كتاب عنصري مقابل كل كتاب مناهض للعنصرية[221]".

جرى إيفاد لجنة للتفتيش وأعدّت وزارة الثقافة تقريرين ترتبت عليهما آثار نظرية بحتة والتمسا من جميع العاملين في حقل المهنة التفكير بالسؤال التالي: هل تتضمن حرية التعبير حق قول ما هو معيب؟ كانت الإجابة هي 18% بالإيجاب من مجموع الإجابات لكنها لم تتحقق عملياً سوى عام 2002 بعد اضمحلال قوى اليسار إذ اعترف فرنسي من أصل كل خمسة فرنسيين عملياً بانجذابه إلى اليمين المتطرف. تسلطت عندها الأضواء على المدن الثلاث التي بيعت للشيطان. ولوحظ عندها في المكتبات البلدية لمدن أورانج وفيترول وماريتيان "شبه اختفاء العاملين المؤهلين "وانخفاض كبير في الميزانيات وفي الزائرين (8% من سكان أورانج مقابل 60% في كافيون مثلا)، وتطبيق "نظام أخلاقي" يؤيد قراءة هولبيك (ميشال هولبيك روائي فرنسي له مواقف عنصرية خاصة ضد العرب والمسلمين)[222] ومناهضة كاترين ميليه، كما وضّح أحد مساعدي رئيس بلدية فيترول. وإذا كانت رفوف المكتبات قد أعطت مكاناً مرموقا للمنظّرين وللناشرين الذين يستهويهم اليمين المتطرف فإن أدبهم شبه الماجن جذب عددًا من القراء أقل مما هو شائع. وتعرف المكتبات الموالية له من جهة أخرى أن ناخبيه ليسوا مجموعة من القراء وهي تلجأ إلى تنظيم "عمليات تنشيط" حول موضوع يجري اختياره بدقة كما لاحظ جيل إيبولي مثل

"إعصارات الأطلسي أو مقاومة الألم والميغاليت – حجر غير منحوت مستخدم في الآثار الراقية ما قبل التاريخ – أو الرقم الذهبي أو نزعة غرال الرمزية" أو أيضاً لغات الجن. في هذا اللجوء المنهجي لهذه الترهات الرنانة يكمن "الخطر الذي يثقل على مهمة المكتبات العامة نفسها"[223].

بالنتيجة خصصت جمعية محترفي المهنة ملفًا لـ"مصادر الحرية" على موقعها www.abf.asso.fr؛ وجعلت مهمته تركيز التعبئة وتنشيطها بعد الفراغ الذي عرفته المكتبات في المدن الثلاث. تجمّد الموقف بالتالي فخادمو القراءة اضطروا إلى الرحيل بينما تعلن البلدية أسفها لجذب غير الأكفّاء دون سواهم. لقد تحقق هدف التوتاليتارية في حصر العدو داخل تناقض لا يمكن الخروج منه.

في إفريقيا

حان وقت تسوية مصير الجملة المتهورة التي نطق بها قديما أمادو امباتي باه المفرطة في إشاعة فكرة تقول إن موت عجوز في إفريقيا يعني احتراق مكتبة. فأولا تمتلك إفريقيا نصيبها من العجائز الجهلة، ثم وخاصة لأن هذه الجملة ترمي إلى بعث الطمأنينة فكل شيء يسير على ما يرام هناك والعبد الجيد ليس بحاجة إلى مكتبة، على حين أنه يحتاج إليها أكثر من أية بقعة أخرى في العالم ضمن المقياس الذي تعاني فيه البنية الأساسية من الفاقة أو أنها غير موجودة أصلا وجرى تخريبها حيثما وُجدت حديثا بفعل النزاعات الإثنية والأطماع الخسيسة ووجود أزمة اقتصادية مستمرة. فقدت أنغولا في غضون جيل واحد ما بين 80 و90 مكتبة عامة مع محتوياتها؛ وهناك واقع سلبي أيضاً في رواندا والكونغو والسودان. وبشكل عام، باستثناء الكاتب، فإنّ الطفل الذي يذهب إلى المدرسة يُمثّل الإفريقي الوحيد الذي يعرف ماذا تعني مكتبة ويتردد عليها إذا سنحت الفرصة.

فهل يُنتظر صدًى، ولو صدى واحد، من عالم يصمّ الغرب عادة آذانه حياله تماماً؟ "لقد تداعى المنزل إلى درجة يمكن القول معها دون مبالغة أنه منكوب" كما قال عام 2000 "تيبورس كوفي" المدير الجديد للمكتبة الوطنية في ساحل العاج، أي أحد البلدان الأقل سوءاً في هذا الميدان. فهل يمكن لعلاج الوضع أن يأتي من أية جهة غير الحكومة؟" أجاب وزير الاتصال والثقافة الكابتن هنري-سيزار ساما داملان: "كفى تيبورس، فيما يخص حكايتك عن نقص الكتب. فإذا لم تكن هناك كتب من المكتبة ماذا يفيد هذا ساحل العاج؟"، لكن عندما لاحظت دائرة الصحافة التابعة للوزير مدى الغضب الذي أثارته إجابته ذكرت أنه كان يريد المزاح[224].

فماذا يمكن للكتاب أن يفعل إذا تداولته العامّة في بلدان فقيرة إلى درجة أن الكلمة التي تعني "نقطة المطر" مثلاً قد أعطيت للعملة الوطنية ("بولا" في بتسوانا)؟ الإجابة هي بالطبع: كل شيء من الحلم الفردي إلى التلاحم الاجتماعي. لذلك يلحق الضرر المكتبات أولا عند قيام أي انقلاب وبما أنه لا يمكن الإسهاب كثيرا في الحديث عن محاولات إعادة البناء في هذه الصفحات الفيّاضة أصلا (تبرز في إطار هذه الجهود عمليات إنقاذ "شينغين" وأوادان" حيث لعب جان ماري آرنو دورا متميزا. لكن الجمهور العريض يهتم بسهولة بمخطوطات تعود إلى القرون الأولى للهجرة فُقدت ثم عُثر عليها أكثر مما يهتم بمشاكل مكتبة للإعارة في قرية بزمبابوي)، وسوف يكون من المفيد قراءة تقرير شيّق حول الواقع المشؤوم ولكن غير اليائس، أعدته آسيا إيساك التي تعمل في مابوتو، وليس الأقل أهمية فيه هو العثور على أحد النسخ المطلوب اقتفاء أثرها في كاجاماركا بالبيرو، وهي بلدة مدقعة في الفقر وُجدت المكتبة العامة فيها بفضل إرادة السكان دون مبنى أو مواعيد عمل أو فهارس أو دفع مرتبات؛ والملف المعني موجود باللغة الإنكليزية في المكتبات وعلى الإنترنت مع الأعمال

التي شرعت بها أيضاً مؤسسات متنوعة وجمعيات غير حكومية في محاولة للتعويض بطريقة واقعية غالباً عن العجائز الذين يحترقون.

في البوسنة بالبلقان

كان الدوق فرانسوا فرديناند قد غادر للتو مبنى البرلمان ذا الطابع الإسباني-المغربي الجديد عندما اغتيل، مما دفع مدينة سارايفو إلى ذروة الشهرة. وقد عُرف منذ القرن العاشر أن هذه المنطقة كانت إحدى مناطق التفجر في العالم، لكن أُريد تجاهل أنها قد تكون كذلك دائماً.

أشيد البناء (البرلمان) عام 1896 في قلب الحي العثماني السابق بأسلوب فيه من النزعة الشرقية لمدينة فيينا في نهاية القرن أكثر مما فيه من الهندسة المعمارية الإسلامية. وأصبح بعد الحرب العالمية الأولى دارًا للبلدية مع احتفاظه بتسمية "فيتشنيتسا" لدى عامة الناس حتى بعد أن أقام فيه تيتو مكتبة وطنية. لقد غدا رمزا دوليا وشعبيا لمدينة سرايفو في ظل تلك التسمية المزدوجة.

يتألف البناء من أربعة طوابق وتبلغ مساحته 6.000 متر مربع وفيه 420 مقعدا للباحثين و108 عاملين ومليونا كتاب ودورية. لا تدل هذه الأرقام على ظاهرة أخرى تتمثل في الخلط بين اللغات والثقافات التي انتهى المكان إلى لمّها. وكانت الكتب العائدة إلى فترة استهلال الطباعة والمخطوطات —لم تصل المطبعة إلى البوسنة سوى في عام 1866 وبالتالي كان النسخ باليد والتخطيط أمرين طبيعيين حتى نهاية القرن التاسع عشر- كانت مكتوبة في الواقع باللغات اللاتينية والإنكليزية والروسية والعربية والألمانية والإيطالية والإسبانية والتركية والعبرية والفارسية. وكانت الكتابة باللاتينية بمقدار ما هي بالسيريلية (أبجدية سلافية قديمة) أو العربية أو العبرية أو الغلاغوليتيكية، وكان العديد من الكتب مكتوباً بالالهاميجادو أو الالزاميجسكية، ذات الجذر العربي من أجل تدوين لغات البلاد

من صربية وكراوتية وبوسنية. ويشكل هذا الواقع المتنوع – الموزاييك– وجهًا آخر لبرميل البارود.

دكّ الصربيون بقنابلهم الفوسفورية من المواقع الأربعة التي كانوا يحاصرون منها في التلال المجاورة مدينة فيجكتيكا يوم 25 أغسطس 1992. وأطلقوا في اليوم الثاني أربعين قذيفة إضافية على المحيط المجاور للمدينة كي يعلوا سيـــارات الإطفاء، لكن لم يكن ذلك ضروريا في الحقيقة لأنهم كانوا قد قطعوا الماء أيضاً.

استمر حريق المكتبة ثلاثة أيام كاملة، وكان الناس يخرجون من بيوتهم رغم الخطر المحدق للمشاركة في درء المأساة وتقديم المساعدة ومحاولة إنقاذ بعض الأعمال القليلة من ألسنة اللهب. هكذا قُتلت أمينة المكتبة المدعوة عايدة من قبل أحد القنّاصين.

"غدت السماء قاتمة بسبب الدخان المتصاعد من الكتب المحترقة؛ وكانت صفحات هشة من الرماد الداكن تتساقط في كل أنحاء المدينة كالثلج المندوف. كان يمكنكم التقاط إحداها واستنشاق رائحة الحريق وقراءة النص المكتوب للحظة بلون رمادي على أسود مثل مسودة صورة، إلى أن تزول الحرارة لتتحول الصفحة بين الأصابع إلى هباء"[225]. لقد تحولت الأعمال المعجمية والأوراق الشخصية لـــ"جوبوزاك" وأراشيف الشاعر كرانجسوفيك والناقد الأدبي "كرازيك" والمواد الدبلوماسية لنهاية القرن التاسع عشر عندما سقطت السفارات في سراييفو إلى غبار؛ واختفت في تلك الجمرات الملتهبة رفوف الكتب الكرواتية والصربية، ذلك أن المعتدين لم يكونوا يأبهون، كما يبدو، بكتبهم نفسها. بل على العكس، أكّد بنوع من الدعاية المثيرة القوميُّ الصربي المتشدد رادوفان كارازيك أن المسلمين أنفسهم هم الذين أحرقوا المكتبة "لأن هندستها المعمارية لم تكن تروق لهم".

لم تكن دقة القصف التي اتسمت بها قواته وليدة المصادفة، ففي 17 مايو دكت تماما المعهد الشرقي وأتلفت محتوياته، أي 5.475 مخطوطة إسلامية وعبرية ومئات آلاف من الوثائق الخاصة بخمسة قرون من الوجود العثماني و 10.000 كتاب مطبوعة باللغات التركية والفارسية والعبرية والعربية. ولأي سبب؟ لأن خزائنه لم تكن تحتوي على آثار محتلين غير صربيين وتشكل رمزًا للتعايش فحسب وإنما، وبوجه خاص، لأنها تقدم البرهان على أن أعدادًا كبيرة من السلافيين اعتنقوا الإسلام على مدى قرون وعاشوا بسلام في البوسنة.

هكذا خرّب الصربيون-الفيدراليون بشكل منهجي وحاقد كل مجموعات الكتب في البلاد التي أرادوا "تنظيفها". وعرفت المئات من المكتبات البلدية أو الجامعية أو مكتبات المتاحف أو مكتبات أحياء الذكرى أو الرهبانية الحرق كليًا أو جزئيًا، إذ تكرر تعدادها كثيراً بحيث لا حاجة لذكرها هنا[226]. كانت كميتها كبيرة إلى درجة يمكن التأكيد معها أن الصرب هم الذين ربحوا تلك الحرب. إن منظمة الأمم المتحدة هي التي ساعدتهم في ذلك بمنع خصومهم من الدفاع عن أنفسهم، وهذا لغز ينبغي ترديده على مسامع الأطفال. من جهة أخرى، تحدثت التقارير كثيراً عن عمليات التدمير المتشابهة من حيث حجمها وطرقها وبواعثها في كوسوفو وألبانيا[227]. وسوف يُذكر طويلاً مثال مدينة "زادار" في دالماتيا إذ عندما انسحب الجيش الصربي من المنطقة في شهر سبتمبر 1991 لم يعرف ما يصنعه بآلاف الكتب التي لم يمسّها أي ضرر بسبب غياب عمليات القصف. لذلك قرر الضباط إضرام نار كبيرة ألقوا فيها عشرات الآلاف من الكتب والمخطوطات المكتوبة بلغة ذات أصل لاتيني، أما معيار الاختيار فقد تناظر مع مستوى فهمهم. ظلّ الدخان باديًا لمدة عشرين يومًا عن بعد عدة كيلومترات بينما كان الجنود يفككون بالفؤوس 60 حاسوباً إلكترونياً كانت المكتبة تحتويها.

وما إن ذرت الرياح بالكاد رماد فيجكنيكا، حتى خفّ جمهور من أصدقاء الكتاب إلى سراييفو وأدانوا بصوت واحد رياء المجموعة الدولية وكل الأسباب التي جعلت الأمور تصل إلى ما وصلت إليه. إن الحظ العاثر للآخرين سوق رابحة، ولحسن حظ من يعرف كيف يسحب الغطاء الإعلامي لناحيته هناك دائماً مأساة في مكان ما من العالم. لكن للأسف عندما تغادر عدسات التصوير المكان لا يجني المنكوب أية فائدة إلا نادراً من التصريحات حتى الأكثر رسمية بينها. واجهت مكتبة سراييفو الحكم بالموت مرّة ثانية. لقد دفعت التمسا لإصلاح السقف عام 1997 حيث كانت الجدران نفسها ستتداعى دون عمل ذلك، وكان ينبغي عندها على مديري المكتبة والعاملين فيها أن يعوا واقع ما يجري وهو أن المساعدات الموعودة لن تأتي أو لن تأتي إلا قليلاً. الأمر الذي يمكن تفسيره بطرق عديدة: فإمّا أن تستحوذ نزاعات أخرى على الأموال أو قد يجري استخدامها في مشروع يحظى بإجماعٍ أكثر (جسر موستار في هذه الحالة) أو يُدرك فجأة أن ما يُطلب ترميمه ليس مبنى وإنما رمز. وكانت الصحفية "إيلين باري" قد وضعت يدها على الجرح في المجلة الممتازة للهندسة المعمارية "ميتروبوليس". ففي عام 1991 كان 501.000 شخص يقطنون في سراييفو نصفهم من المسلمين و28% من الصرب و7% من الكرواتيين و15% "آخرين"، أي عشرات الآلاف من اليهود. واليوم هناك 87% من مجموع 360.000 شخص الباقين من المسلمين ولم يعد هناك يهود. فكيف يمكن أن تستعاد بضربة واحدة السمة الكونية التي جمعتها المكتبة العظيمة خلال قرون حياتها وأشكال استعمارها وما عرفته من مهاجرين؟

لوحظ بعد 10 سنوات، أن الجدران، رغم استبدال القبة، بقيت مشرّبة بالمياه وأكثر هشاشة بعد أربعة فصول شتاء مثلجة وممطرة، مما يجعل مستقبل المكتبة متأرجحا من جديد. ومن جهة أخرى، تقلّصت ميزانيتها بنسبة 60٪ ولم يبقَ في الحكومة وزير للثقافة.

تعود أصول يهود البوسنة إلى عائلات طُرِدت من إسبانيا عام 1492. وقد اجتازت إحداها أوروبا وهي تتأبط كتاب "هاغاداه" يعود لعام 1314، ويتألف من 109 صفحات ذات خطوط وزخرفات رائعة وساذجة. ظهرت آثار هذا الكتاب في إيطاليا عام 1510 وانتهى به المطاف في سراييفو. وفي عام 1894، أخذه الطفل "كوهين" إلى معلّمة المدرسة وقايضه ببعض الدراهم من أجل تأمين القوت لأهله. تقدّر قيمته اليوم هناك بـ"حوالي مليار دولار". والهاغاداه كتاب عن الطقوس والقصص التوراتية والصلوات المرتبطة بعيد بيساه، لذلك تحمل هذه النسخة آثار استخدامها المرح خلال المآدب الفاخرة المتعاقبة فغدت ملطّخة بالنبيذ خاصة. ذهب الكتاب إلى المتحف الوطني وأصبح شهيراً إلى درجة أنه عندما دخلت القوات النازية إلى المدينة في شهر أبريل 1941 توجه جنرالها كي يصادر شخصيا الكتاب الثمين. أجابه أمينها آنذاك الكرواتي جوزو بيزيسوفيك بالقول: "لقد سلمناه البارحة لأحد عقدائك. — ما اسمه؟ – لم يكن مأذونا لنا أن نطلب منه ذلك". أمر الجنرال بتفتيش المكان واكتفى بالحصول على حوليات اليهود الشرقيين التي تعود إلى خمسة قرون خلت وصادرها كما كان قد فعل سابقا في "دوبروفنيكا". كان جوزو الماكر قد عهد خلسة بكتاب "الهاغاداه" إلى صديق مسلم كان إمام منطقة فخبأه تحت حجر عتبة مسجده حيث بقي هناك حتى نهاية الحرب. في نهاية عام 1991 قام كمال باكارسيك — المسلم أيضاً وإنما الملحد، كما يحدد هو نفسه القول- ومدير مكتبة المتحف الوطني في البوسنة آنذاك بمبادرة شريفة تمثّلت في نقل 250 ألف كتاب من مجموعات الكتب سيرا على الأقدام مع زملائه الذين تخالهم "ظلالا صامتة". هكذا تمّ حفظ كتاب "هاغادا" سراييفو رهن القفل في الخزائن تحت الأرض لبنك البوسنة قبل عمليات القصف. أعلن المتحف الوطني أخيرا بعد عشر سنوات أنه يحضّر معرضا لهذا الكتاب التائه الفاخر الذي يشكل رمزًا كاملاً للاختلاط ولكن ربما أيضاً صاعقاً لتفجير الصراعات لاحقاً، إذ ما إن تم توقيع اتفاقيات دايتون حتى أعلن صربيو

البوسنة أن ثلث الملك الثمين يعود لهم. لكنهم لم يصلوا إلى حد المطالبة بتقطيعه إلى ثلاثة أجزاء متساوية وإنما بتدوير المعرض بمعدل سنة من كل ثلاث سنوات في العاصمتين الاثنيتين بانجا لوكا (صربية) وموستار (بوسنية).

بقي كتاب "الهاغاداه" نتيجة هذا، رهن حجرة تمّ بناؤها خصيصاً في سرايفو حيث يشاهده فقط من يحصل على إذن السلطات الثلاث وتحت رقابة المسؤولين الثلاثة عن الطوائف الذين يملك كل واحد منهم مفتاحا.

في أفغانستان

لم توقّع المنطقة اتفاقية حقوق النشر مما أتاح طباعة جميع الكتب بلا حدود وازدهرت بالتالي مكتبات أفغانستان خلال سنوات السبعينات.

كان كل مترجم كاتبًا والعكس أثناء الحقبة السوفييتية. ولم تستمر عمليات تنقية الأدب "البورجوازي" وفرض تمجيد البروليتاريا ما يكفي من الوقت من أجل إفساد العقول ثم غيّر **طالبان** هذا كله (وعلى عكس ما يُكتب غالبا فإن هذه الكلمة ليست جمعا وإنما هي مفرد منصوب (طالبًا)، أمّا الملاّ والتي هي تدوين تقريبي ولكن مناسب لـــ"مولى"، فليس هناك أي سبب يدعو كي تنتهي بحرف "هــ"). إن أي كتاب غير القرآن هو بالنسبة لهم أقل قيمة من الموسيقى التي هي أصلاً في أدنى مراتب سلم القيم. وفي حيرات، العاصمة الثقافية للبلاد، رأى شاعر ووزير سابق للثقافة مكتبته تتعرض للتخريب بالتزامن مع تخريب مكتبة الجامعة. ثم جاء دور المكتبة العامة في كابول عام 1996.

أسس سعيد منصور نادري، وهو ابن شاعر صوفي قدّم العشرات من الكتب، في كابول مركزاً ثقافياً إسماعيليًا عام 1986 سمّاه حكيم ناصر خسرو البلخي. كانت نشاطاته متنوعة وأصدر عددًا من المجلات وكرّس سنويًا جائزة للحرفيين والباحثين والفنانين. واشتهر هذا المكان خاصةً بمكتبته الكبيرة التي لم

تكن البلاد قد رأت مثلها من حيث نوعية وكمية محتوياتها. عندما وصل المجاهدون غدا حي تايماني، حيث كان نادري قد اختار الإقامة بسبب أغلبيته الإسماعيلية، في قلب الحرب الأهلية التي انفجرت فجأة. قرر نادري سريعًا نقل مؤسسته إلى بوليخمري. وكانت تطلق آنذاك تسمية "موسكو الصغرى" على تلك المدينة الصناعية التي يقطنها 300 ألف ساكن والتي كانت تؤمن للدولة 40 % من مداخيلها. وكان من المألوف أن يُصادف فيها الشباب والشابات مرتدين الملابس الأوروبية وهم في طريقهم إلى الجامعة. وكان أغلبية المثقفين الذين لم يغادروا البلاد قد قدموا للإقامة فيها عندما سيطر طالبان على كابول عام1996.

عندما وصلت قوات طالبان إلى أمام مزار الشريف في السنة التالية، نقل نادري — الذي كان قد أطلق النداء الدولي الأول ضدهم وضد الباكستانيين— أيضاً المكتبة وخبّأها في الجبال. كانت تحتوي آنذاك على 55 ألف مؤلّف. واجه نظام طالبان مقاومة عنيفة في مزار الشريف واستطاعت مجموعة صغيرة منهم أن تظهر في بوليخمري ثم اختفت. ساد الاعتقاد أن الأمر قد انتهى فأعيدت الكتب. كان نادري قد أهداها رسمياً لبلاده كي لا يستطيع ورثته تشتيت مجموعاتها. (كان ابنه "جيف" آنذاك معروفا في كاليفورنيا كهاوٍ لمجموعة AC/DC وللجعة ولهيلاري دافدسون، ومنذ سقوط طالبان عاد إلى البلاد للشروع بمسار جديد كأحد أسياد الحرب واستعاد اسمه سعيد جعفر.) كان المركز يمتلك آنذاك مطبعة مع ستوديو تلفزيوني وورشات للنحت ولصنع الزرابي. وكان يشغل منزلاً كبيراً وجميلاً شغلته سابقاً البلدية، موجوداً وسط حديقة كبيرة على ضفاف النهر.

اجتاح رجال طالبان بعمائمهم السوداء، وبأوامر من الملا عمر، المدينة يوم 12 أغسطس 1998 عند الساعة 10.30 بعد ليلة من المعارك مع القوات المتحالفة مع القائد مسعود. توجهوا مباشرة نحو مركز حكيم وأطلقوا نيران رشاشاتهم

على الأبواب الموصدة وخربوا محتوياته. ألقيت المنحوتات من النوافذ والكتب في الماء وشبّت النار في المطبعة كي لا يبقى شيء في غضون ثلاث ساعات. هكذا روى لطيف بيدرام، نائب مدير المكتبة الذي اختبأ في منزل مجاور واستطاع ملاحظة كل مراحل الكارثة.

كان المكان مريحا فأقام القادمون الجدد مركز قيادتهم في الحديقة ورموا الأوساخ فيها. وليس معروفا السبب الذي دعاهم لقطع الأشجار أيضاً.

أُتلفت في ذلك اليوم مجموعات كاملة من الصحف والدوريات الأفغانية والإيرانية التي تعود إلى القرن التاسع عشر. وكذلك كتب في ميادين مختلفة مثل التاريخ والفلسفة والأدب والدين. وكان من بينها عدد كبير من المخطوطات القديمة القرآنية والعامية (لشعراء من القرن السابع عشر ونسخ نادرة من الشاهنامه الفارسية، أي كتاب الملوك) وجميع مراسيم آغاخان ومراسلات القادة الإسماعيليين. من المؤكد إذن أن قدرًا لا يستهان به من ذاكرة البلاد قد اختفى ولن تكون كتابته ممكنة بعد ذلك.

ينبغي اعتبار ذلك مثل انتصار حقيقي لأولئك الذين كانوا يتمنون الخلاص من سيطرة اللغة الفارسية (داري) في ثقافة أفغانستان (الباشتو هي لغة فقيرة وأدبها القديم محدود ولذلك تعاني، كما يقول لطيف بيدرام، من عقدة نقص[228])؛ وهذا أيضاً نجاح للسنّة الذين يريدون نهاية المذهب الشيعة في المنطقة. سعى طالبان مثل من سبقوهم من متلفي الآثار الفنية إلى "سحق الماضي"[229] كي لا يبقى ما يمكنه أن يشكك بهم أو ينافس "خطابهم البلاغي" المحدود. بدؤوا بتغيير أسماء المكان، لكن تُمكن العودة عن ذلك. على أن المصيبة وقعت على تماثيل بوذا في باميان (تمّ الحديث عنها أكثر من المكتبات الأفغانية مع الملاحظة في النهاية أنها لم تكن جميلة جداً، خاصة إذا تمت مقارنتها بما يمكن رؤيته في أماكن أخرى، مثلاً في "فينغ سيان" بالصين.) وعلى كنوز متحف كابول[230] ومكتبة بوليخمري.

عند سماع أخبار الكتب المتلفة، تنهدت عجوز إيرانية قائلة: "لقد سبق وحصل هذا لنا، يا بني"، إذ لا تزال تفوح في بلاد فارس أسطورة الخليفة عمر الذي أمر بتسخين الحمامات بالمخطوطات غير المرغوب بها. السؤال الوحيد الذي يبقى مطروحا هو: لماذا فكر الملاّ الصغير الذي يحمل نفس الاسم (عمر) في قندهار القيام بهذه المقاربة التاريخية؟

في العراق

تحت عنوان "تراث محكوم عليه من قبل منظمة الأمم المتحدة"، أشارت مجلة "أركيولوجيا" على صفحتها الأولى من عدد يناير 2001 إلى خروج مئة من الألواح المسمارية كل يوم من البلاد طيلة فترة الحظر المضروب على العراق. ألحقت حرب 1991 أضرارا ببعض المواقع الأثرية ثم أدّت، مع عقوباتها، إلى تعميم عمليات التنقيب العشوائية والسرقة من قبل مواطنين جائعين ليظهر ما أسماه جامعو التحف الأثرية الغربيون بـــ"عصر ذهبي". هذا ما كتبته بتاريخ 24 يناير 2003 الصحفية ذات الرؤية الثاقبة إليزابيت نوفير (لاقت إليزابيت نوفير حتفها بتاريخ 9 مايو من السنة نفسها) في "بوسطن غلوب" قبل أكثر من شهرين على الغزو الجديد للبلاد؛ لقد تحدثت في مقالها عن الفوضى وأشكال التخريب التي جرت مباشرة بعد العمل العسكري الأمريكي قبل عشر سنوات (جرت سرقة 4.000 عمل من بينها 2.000 من الكنوز استعيد 12 منها) مما سمح بوصف ما سيجري من جديد إذا لم يتم عمل أي شيء. انطلقت آنذاك نداءات عديدة من المجموعة الدولية لعلماء الآثار والباحثين وأمناء المكتبات أو من قبل هيئات متنوعة حتى صاحبة الحظوة منها مثل الدرع الأزرق (المعادلة للصليب الأحمر في المجال الثقافي). كانت النتيجة الوحيدة لتلك الحملة جدلاً عنيفاً بين العلماء "الوطنيين" المنضوين وراء البيت الأبيض وبين معارضي الحرب المعلنة. وانفجرت فجأة الشتائم على الإنترنت حيث يتم عادة تبادل المعلومات الثاقبة

حول كتب عصر استهلاك الطباعة أو حول إدارة المتاحف وكشفت مدى عدم التسامح الذي قد يتواجد حيث يتم انتظاره بأقل ما يكون، إذ إن قسمًا كبيرًا من المشتركين الأمريكيين أظهروا عداء سافرًا لأي ذكر للموضوع، وصفقوا الباب بقوة. ولن تكون الدهشة أقل عند اكتشاف عمل مجموعة الضغط (اللوبي) المتمثلة في جمعية أصحاب المليارات وكبار تجار الفن الذين دعموا البيت الأبيض بأمل إلغاء أو تلطيف القوانين العراقية الواقعية جدا التي تمنع تصدير الأشياء الأثرية. وكون أن الولايات المتحدة وبريطانيا لم توقعا اتفاقية لاهاي لعام 1954 حول حماية الملكيات الثقافية في البلدان التي تحل التعاسة فيها، فإن قادتهما كانوا يتصرفون حسب ضميرهم، أما الجنود فحدث ولا حرج...

نُهبت المتاحف في شهر أبريل 2003 ببغداد أو الموصل في ظل الرقابة المتغاضية على الأقل لجنود المارينز وخسرت آلاف الأعمال الفخارية من بينها دون شك مكتبة "سيبار" التي هي بالكاد أقل قِدَمًا من مكتبة "أشوربانيبال" المكتشفة عام 1986، أي منذ زمن قليل، ولم يسمح بتحليل سوى 24 فقط من ألواحها الثمانئة وترجمتها ونشرها (من قبل جيمي بلاك مثلاً في أكسفورد. وإذا كانت قد تفسّخت بسبب المعاملة السيئة العائدة لعدم الكفاءة أو للحظر أو أنها تشتتت أو كسرت من قبل اللصوص، حسب الأخصائيين بالدراسة الآشورية في عين المكان، فما الفرق؟). سمح سقوط النظام بكل أنواع الشطط، وتصرف البشر في عشرة آلاف موقع أثري تمتلكها البلاد على هواهم وتخرّبت نيبور ومعبد أنيل أو إيزين خلال شهر. لقد نُهب العراق.

تأسست المكتبة الوطنية العراقية عام 1961 وضمّت في سنوات الثمانينات بوصفها مركزًا للإيداع القانوني للمطبوعات 417.000 مجلد و2.618 مجموعة من الصحف والدوريات و 4.412 كتاب نادر؛ وقُدّرت مقتنياتها عشية الغزو بـــ2 مليون مطبوعة مرقّمة من بينها "أكبر مجموعة في العالم من الصحف

العربية". تأسست المحفوظات الوطنية بعد ذلك بـــ11 سنة في المبنى نفسه بباب المعظّم، وضمّت وثائق الحكومة الهاشمية (1021–1958) والعثمانيين (1534–1918) وكذلك وثائق الطائفة اليهودية الهامة جداً تاريخياً.

إن رياح الجنون والغموض التي هبت على بغداد ما بين 14 و 21 أبريل 2003 أشعلت أو أججت، كما يبدو، حريقين غلّفا النهب بينما كان الحيّ مطوّقا بالقوات المتمركزة في مواجهة البوابة الرئيسية (حسب الملاحظات التي قدمها إدوارد ميتييه من المعهد الفرنسي للشرق الأوسط وتقرير نبيل التكريتي من جمعية أصحاب المكتبات في الشرق الأوسط وحديث جان ماري آرنو – المفتش العام للمكتبات– العائد آنذاك من بغداد.) تماما بعد فرض التجول عشية الرابع عشر من ذلك الشهر. لّمح البعض إلى أن اختفاء جميع وثائق سنوات الثمانينات كان مصدر راحة لأكثر من شخص، وأشارت صحيفة "وول ستريت" في عددها الصادر يوم 28 أبريل إلى استخدام الفوسفور الأبيض في العملية. وكان أمناء المكتبة قد نقلوا ما بين 150.000 و 200.000 مؤلّف من بينها نصوص عبرية ووضعوها في جامع الحق عدة أيام قبل الكارثة[231]. لكن بدت عملية نقل 2 مليون مجلد و 20 مليون وثيقة مؤرشفة كبيرة إلى درجة عدم قدرة العراقيين القيام بها، ولو كانوا فعلوا ذلك لكان المراقبون العديدون الموجودون عام 2002 لاحظوا ذلك بالتأكيد وبالتالي لم يبق من أغلبية كتب المكتبة الوطنية "سوى طبقة سميكة من الغبار يمكن لليد أن تلجها دون أية مقاومة" (آرنو).

وتعرّضت للنهب والحرق في الوقت نفسه مكتبة الأوقاف الواقعة على بعد 500 متر، التي كانت تضم بالإضافة إلى المطبوعات مخطوطات بُدئ بجمعها منذ عام 1920 من مساجد بغداد. مع ذلك أمكن نقل ثلثي مجموعتها الأكثر قيمة ووُضع الباقي في 32 حقيبة معدنية حرسها شخص مسلح خفّ الأمريكيون إلى

قتله لتسري بعد ذلك إشاعة تقول إن الصناديق المحكمة الإقفال تحتوي على دولارات نهب 22 منها أشخاص كتبوا على صدورهم وظهورهم إشارة "تلفزيون" بواسطة أربطة لاصقة حمراء. أمّا الحقائب العشرة الباقية فكان مصيرها الحرق بما فيها.

دُمّر في نفس الحي وبذات المساء بيت الحكمة، حسب التسمية المجيدة التي تعود إلى زمن العباسيين، الذي تأسس في الثمانينات كمركز لدراسات العلوم الاجتماعية والاقتصادية، إن الكثير من الكتب التي لم تحترق مع المبنى بيعت بلا وجل في الحديقة المقابلة. وإذا كانت المكتبة المركزية لم تتعرض للحرق والسلب فإن مكتبة أكاديمية العلوم حُرقت ونُهبت بعد أن حطّمت دبابة أمريكية باب الدخول ونزعت العلم ثم اختفت لتفسح المجال أمام المتطفلين كي يأخذوا ما يريدون، وليست هناك معلومات موثوقة عن المخطوطات العشرين الأخرى. بالمقابل أُغلق دار صدام للمخطوطات الذي جمعت فيه السلطة 27 ألف قطعة قديمة كانت مصادرة أو مسروقة غالباً (من الأمكنة الشيعية المقدسة في النجف وكربلاء مثلاً) في شهر يناير 2003 ونُقلت مجموعاته بهمة مدير نشيط إلى ملجأ مضاد للأسلحة الذرية. وأطلقت عليه فيما بعد تسمية دار المخطوطات العراقية.

وعندما يعاد نصب الرفوف العراقية كلها قد تقوم سلطة أكثر أصولية من الرئيس البغيض صدام حسين وتعتبر من حقها اختيار الكتب التي يتم وضعها عليها، فهل مقابل دكتاتور دكتار ونصف؟

بعد أشهر من التحضيرات والتهديدات والتحذيرات من الصحافة ومختلف الأخصائيين، كانت خمسة أيام كافية لتحقق كل المخاوف واختفاء نصوص حضارة وذاكرتها في بغداد والموصل من الألواح الآشورية إلى المخطوطات العثمانية. علق صحفي بريطاني[232] آنذاك على ذلك بالقول: "هذا هو العام صفر بالنسبة للعراق". تبعت ذلك حالة من الهرج وغدا من الصعب التمييز بين

الانفعال والتضليل (لم يتم تدمير شيء ولم يُنهب تقريباً شيء كما نطق عقيد خلط بين مخطوطات دار صدام وكتيبات المتحف)، وبين لغة اليونسكو الخشبية واقتراحات معيدي البناء الكثيرين. كان الصوت الوحيد غير المسموع هو صوت المثقفين المحليين الذين شجبوا طويلاً قبل سقوط صدام حسين بل ومنذ قرون (تذكروا لايار) الجشع الاستعماري بعلم آثار الشرق الأوسط وبمفهوم بلاد ما بين النهرين كمهد للإنسانية، وذلك في أوروبا ثم في الولايات المتحدة[233]. بالمقابل تحدثت وسائل الإعلام عن التدفق المعهود لأولئك الذين يجذبهم ضياء الشمس. كانوا يزرعون المكان جيئة وذهاباً بين كابول وسراييفو ويخرجون ببياناتهم المؤلفة من ثلاثمئة سطر ومن خبر جديد واحد يقول: "كنت هناك". إنهم مشاهير مآسي العالم.

ينبغي القول إنّه كان حفلاً جميلاً بلغت كلفته 100 مليار دولار. (قد يمكن بحفنة إضافية من المليارات التزود بتجهيزات فندقية جديرة باستقبال السائحين في بغداد مدينة الألف حرب وحرب، أي الوجهة التي تبعث الرعب.)

لكن عليكم أن تعيروا انتباهكم في المرّة القادمة إذا اقتصرت المعلومات في الساعات الأولى على ثلاث كلمات هزت العالم هي "إن المكتبة تحترق". في اليوم التالي كان المبعوثون الخاصون للصحافة في عين المكان وأسهبت البرقيات في الحديث عن الكتب المفقودة والمسؤولين عن الكارثة والعلماء الذين تملأ الدموع مآقيهم، الخ. في الأسبوع التالي وصل الخبراء بمهمات مدفوعة بسخاء على نفقة هيئات غامضة وازداد حجم التقارير عبر الحديث عن مسائل الجرد والمساعدات وإعادة البناء؛ كذلك ماع الخطأ وتدفقت الوعود ثم قيل في الشهر التالي إن المكتبة لم يطلها الحرق كثيراً، بل بدا أنه لم يقع أبداً بعد عام، وبالتالي يمكن الانتقال إلى المأساة التالية.

أستطيع التأكيد أن هذا الكتاب لا نهاية له. ففي شهر مارس 2001 حرق

أعضاء المجلس الأعلى لكنيسة الربانية بالقرب من بيترسبورغ جميع مؤلفات مكتبة اعتبروها منافية لمعتقدهم، أي مؤلفات إرنست همنغواي وجبران خليل جبران (كما ذكرت صحيفة بزنس جورنال بتاريخ 23 أبريل). وبتاريخ 28 مارس جاء دور مكتبة شهود يهوه في جيورجيا ومكتبة روسيا ثم بتاريخ 15 مايو 2001 قام قوميون متعصبون ومسلمون بحرق رفوف كتب اعتبروها شيوعية. وقد صمّم موقع "أدليبتوم" الإلكتروني التابع لجمعية المكتبات الأمريكية بابًا يُعنى بحرائق المكتبات في العالم يوما بعد يوم.

لكن لم يتم أبداً أي ذكر للعراق حتى شهر يوليو 2003.

بدأت عملية التقصّي الخاصة بهذا الكتاب غداة حريق مكتبة سراييفو واكتملت، إذ ينبغي دفعه للمطبعة، مع حريق بغداد. لم تكن مدة العشر سنوات كثيرة لتأكيد خطورة مصير البحث الطموح والبريء للمعرفة في بداية هذا القرن الحادي والعشرين بينما وصل إلى قمة السلطات الكبرى رؤساء طفوليون أكثر فأكثر، أحاطوا أنفسهم بخبراء جهلة (لا يستخدمون أكثر من 30 كلمة طيلة حياتهم) ويغلفون بأكثر أشكال الجدل الفارغ سذاجة شهية جيواقتصادية بحتة.

"نحن في حرب عالمية ضد الإرهاب وأولئك الذين لا يوافقون على ذلك هم بأغلبيتهم إرهابيون"؛ وهذا ما يبرر ضم الآخر (أنشلوس، على غرار ضم ألمانيا للنمسا عام 1938) حتى الجار واتخاذ إجراءات متنوعة خرقاء مثل الإيعاز لأمناء المكتبات كي يشوا بالقارئين ذوي السحنات والقراءات المشبوهة[234]. قد لا يثير هذا إلا قلقًا كبيرًا محدودًا لو لم يترافق مع التراجع الثقافي المعروف. انطلقت عملية الإفقار منذ خمسين سنة على مستوى القاموس المستخدم والفكر ولن تتراجع بالتأكيد قبل زمن طويل؛ وقد ترسخت عبر تبسيط إن لم يكن ابتذال وسائل إعلام كانت شديدة الاحترام سابقاً. وغدا غياب الدعابة والعمق

سمة أساسية في الكتابة الصحفية في كل مكان تقريباً إلى جانب تلك الخفة الفكرية في مكتبة زاخرة ضمناً، لكن قد يجد الكاتب الفرنسي فرانسوا مورياك صعوبة في إيجاد مكان لـــ"مذكراته" فيها.

فهل ستلجأ الحياة الحقيقية إلى المجلاّت الأكاديمية؟ يبدو أن هناك في الجو ما يشبه منظمة عالمية للتفاهة يغتبط كل فرد بتقديم مساهمته كل صباح فيها والعمل على الظهور بأقل قدر ممكن من العمق والدقة والعلم. كان هناك "دونالد" البارحة وها هو اليوم "سامبليه" (الساذج). ولا يمكن لتنسيق الحياة على أساس إعطاء الأهمية للسلعة البلهاء وللعلاقات المتدنية إلا أن يسهّل دفع ما كان دائماً في الكواليس والجاهز دائماً لتعبئة فراغ العقول إلى مقدمة المسرح، أي المعتقد الديني الذي أصبحت مظاهره الخارجية سلعة أيضاً وأعيد تعميدها بتسمية "روحانيات". وسوف نرى لاحقاً (في الفصل الحادي عشر)، كيف يمكن لمستقبل المكتبات الكبرى أن يخضع، كما يبدو، لهذا البزوغ الجديد.

الفصل الحادي عشر

خسائر السلام

"ستروق لروما طيلة شبابك، لكن عندما يتم استعمالك ودعكك وتوسيخك، سيضعونك جانبا وستأكلك الديدان التي، هي، لا تعرف القر ة".

هوراس

وُلِد كورنيليوس والفورد يوم 2 أبريل 1827 في لندن. كان يعمل في التأمين، وكان علاّمة عصامياً وهكذا ألّف كتاباً عن تاريخ التأمين على الحياة. تبعثرت الثلاثون ألف كتاب التي احتوت عليها مكتبته عند موته عام 1880 إثر إصابته بالملاريا في أمريكا حيث كان يحضر اجتماعاً دولياً حول الاختزال Sténographie. أثار فضول هاوي المكتبات فرناند دروجون بعنوان المحاضرة التي كان مدعوًّا لتقديمها في المؤتمر السنوي الثاني لجمعية المكتبات في المملكة المتحدة المنعقد في مانشستر عام 1789. كان العنوان: "حول إتلاف الكتب حرقا من وجهة نظر عملية وتاريخية". حمل دروجون معه إلى القبر حسرة عدم معرفته هذا النص الذي كان يرمي إلى بيع عقود التأمين مثلما يرمي إلى تسلية

هاوي المكتبات. كان يكرر باستمرار: "من الصعب جدا حرق كتاب أو إتلافه بطريقة أخرى، فهذا يتطلب الوقت والصبر؛ وتستطيع مجموعات الكتب أن تتحمل حريقا كبيرا طالما أنها تشكل كتلة كتيمة. إن الخطر الحقيقي على الكتب يأتي من محيطها، ووضعها في غالب الأحيان في أبنية غير ملائمة البتة لحفظها". إن نوعا جديدا من البناء مصنوعًا من الحديد المطلي والأردواز والقرميد مع رفوف مثبتة في الجدار ينبغي تكريسه للمكتبات الجديدة مع الانتباه جيدا للمكان الذي توضع فيه المدافئ وأنابيبها "فهي تمثل خطرا دائما". وتأتي الأخطار بالنسبة للبيوت الأفضل تصميماً وبناءً، أي في الريف، من إهمال العاملين والخدم بفعل التدخين والشرب والقراءة في السرير وأحداث أخرى تعرفها الحياة اليومية (...). وبالتالي أصبح وجود "مطفأة" أو "مطفأتين" في كل منزل كبير هو القاعدة وليس الاستثناء (...). وربما تتوصل الكيمياء إلى جعل الكتب غير قابلة للاحتراق. وقد توفرت وصفة لأستاذ يدعى فولبار لصيانة الخشب تتألف من "كبريتات الزنك، 55 ليبرة (500 غرام)، والبوتاس الأمريكي، 22 ليبرة، وحجر الشب الأمريكي، 44 ليبرة، وأكسيد المنغنيز، 22 ليبرة، وحمض الكبريت بدرجة 60، 22 ليبرة، والماء، 55 ليبرة". وأرفق كورنوليوس والفورد بالنص المطبوع لمحاضرته قائمة كبيرة بالمكتبات المدمّرة في تاريخ أوروبا وتوصل إلى تقديم نصيحة بهيجة تقول: فلنكتب على الفخّار فطالما استطاعت المكتبات الآشورية الصمود طيلة الزمن الماضي، لماذا لا نعود إلى استخدام تلك المواد من أجل مطبوعاتنا؟ وهي "متوفرة بشكل رائع"!

كانت المكتبة الجميلة في الأزمنة القديمة تضاء بالمصباح وتتدفأ بمداخن مفتوحة وتكدس آلاف الصفحات القابلة للاحتراق بين ألواحها الجميلة المصنوعة من الخشب الجاف. وكان شارل الخامس المدعو بالحكيم (1338–1380)، الذي أسس الباستيل ورمم السلطة الملكية أثناء حرب المئة عام، قد بنى

مكتبة ملكية في متحف اللوفر عام 1367. وبما أنّ الحكمة كانت تعوزه رغم كل شيء، فقد أمر أيضاً أن تضاء مكتبة الجامعة طيلة الليل بثلاثين مصباحاً محمولا وثريّا مركزية من الفضة كي لا يقطع الطلبة دراستهم بحجة حلول الليل. جعل الخطر الناجم عن هذه الممارسة القيّمين على المكتبة يرتجفون هلعا؛ فالغالبية العظمى من المكتبات العامة في التاريخ منعت بشكل قاطع أية إضاءة وأية حرارة من الدخول إليها. وكانت المكتبات لفترة طويلة تغلق أبوابها في ساعة مبكرة.

لا يبدو مع ذلك أن الحرائق قد تراجعت أمام اختراع الاسمنت والرفوف الحديدية. وقامت شركات التأمين في القرن الماضي بالتحقيق في 359 حريق هام ما بين عامي 1911 و 1961 في الولايات المتحدة. ووضعت الإحصائيات على رأس قائمة أسبابها الإهمال في صيانة الأمكنة والمنشآت الكهربائية، ونددت بسلاّت المهملات الموضوعة في الأقبية، والمدافئ الفردية المكرّسة لتحسين رفاهية المكاتب باعتبارها تشكل أكبر المخاطر. بقي إيقاع حرائق المكتبات الأمريكية صاعقا، هذا وتمتلك اللغة الإنكليزية كلمة جميلة لا تمتلكها اللغة الفرنسية هي كلمة "arson" (الحرق المتعمّد) المشتقة مباشرة من الفعل اللاتيني الذي يعني "حرق"، والقريبة بشكل غامض من كلمة "ardeur" (حميّة أو رغبة شديدة) الفرنسية. وتدل المفردة الإنكليزية على الحريق الإرادي لملكية الآخرين دون رضاهم، كما تقول القواميس البريطانية، أو من أجل الحصول على قيمة التأمين، كما تحدد القواميس الأمريكية.

مع ذلك، تخرّب المياه الكتب أكثر من النار بالتأكيد. لم تتوقف الطوفانات منذ طوفان نوح عن جرف المعرفة وحلّها، وتقوم مرشّات رجال الإطفاء بالباقي على الصعيد الإحصائي. هذا ما يتم نسيانه بسهولة لأن الماء رمز ضعيف الوقع بشكل ما. و"كتاب تلتهمه النيران" يصعق بالطبع أكثر من

"صفحة مبللة بالمياه". لكن قد تحين الفرصة ليأخذ الماء ثأره ويصعق بقوة الحساسيات، إنها لحظة الغرق الذي لم تكن المكتبة بمنجاة منه، كما سنرى لاحقاً.

تعود ممتلكات أية مكتبة عامة للأمة، وكل من يستخدمها يعدّ نفسه بحق مالكا شرعيا لها. تأتي المشكلة من اعتقاد البعض أن استخدامهم لها أكثر أهمية من استخدام الجار وقد يصل بهم الأمر إلى حد أخذ الكتب معهم أو تقطيعها. وتنبغي الإشارة هنا بالتأكيد إلى أن كبح السرقة أحرز تقدما ملحوظاً أكثر من مكافحة الحريق إذ لم يتم التوصل إلى وسيلة لمحاربة النار بشيء آخر غير الماء (جرى التفكير حينا باستخدام رذاذات ديوكسيد الكربون، وهو غاز يطفئ النار، لكنه يقطع أيضاً أنفاس الكائنات الحيّة، فوَقَعَ الاختيار على مضخّات المياه).

بدت عوامل الطبيعة أو البحر أو السرقة معادية للمكتبات في زمن السلام. لكن العدو اللدود لمجموعات الكتب الخاصة، هو اختفاء مالكها. وهذه هي بعض الأمثلة عن كوارث مختارة بعناية.

عوامل الطبيعة

التهم حريق لندن الكبير عام 1666 بلقمة واحدة المكتبات التي كانت في طريقه. "أيها اللهب إلى أين ستمضي؟". كان أصحاب مكتبات منطقة بيتر نوستر رو قد احتاطوا بتخزين كتبهم في قبو كنيسة القديس بولس (سان بول). لكن النيران وجدتها مع ذلك والتهمتها كلها. تقع منطقة بيتر نوستر رو بين منطقتي آمن كورنر وأيف ماريا لين "حيث ازدهر منذ زمن طويل خرّاطو الأحرف الصغيرة، وتجمّع فيها بالتالي باعة القرطاسية والنسّاخون وأصحاب المكتبات عام 1403. ورغم الحرائق المتكررة ظلّت هي دائماً أكبر سوق للكتب عام 1838.

وُلِد الإيسلندي أرن ماغنوسون في 13 نوفمبر 1663، وتعلّم اللاتينية وهو في السادسة من عمره واليونانية في العاشرة. كان يمتلك بالتأكيد مكتبة جميلة عندما وصل إلى جامعة كوبنهاغن عام 1683، وقد أسند له ملك الدنمارك مهمة العودة إلى بلاده "كي تزود مكتبتنا الخاصة ببعض المخطوطات القديمة والنادرة"، انتهت الإرسالية الأولى في قاع البحر عندما كانت في طريق العودة. كانت أيسلندا بالنسبة لهاوي المكتبات في القرن السابع عشر منجماً للمخطوطات التي تعود للعصر الوسيط، إلا أنها كانت في حالة يُرثى لها منذ ظهور الإصلاح الديني والمطبعة، إذ تمّ استخدام الصفحات المنتزعة كنعول داخلية وكأجزاء من الثياب وكمخططات (بترونات) للخياطين، وكانت أوراق القضيم (المصنوعة من جلد العجول) المزخرفة تستخدم أغلفة للمطبوعات الحديثة. أعاد أرن ماغنوسون بالتالي بناء جميع الكتب نتفة نتفة كي يجلب معه إلى كوبنهاغن بعد عشر سنوات بمجموعة هامة من الكتب احتفظ بها لنفسه. وعندما شبّ الحريق الكبير الذي دمّر نصف المدينة عام 1728 احترق منزله أيضاً مع قسم كبير من المكتبة الاستثنائية. كان ماغنوسون على قناعة أن الاحتياطات التي اتخذتها البلدية ستحميه فعهد لها بعربته القديمة المحمّلة بالكتب. كانت 30 دقيقة كافية من أجل إفناء "الكتب التي لا يمكن العثور عليها في أي مكان بالعالم"، لقد سقط مريضا، وقضى نحبه.

– كان اشبرنهام هاوس، الذي يُفصح اسمه أصلا عن اللعنة، قد خبأ في وستمنستر كتب ملك أنكلترا عندما، امتدت النار عام 1731، من أنبوب المدفأة إلى السقوف الخشبية في يوم سبت عند الساعة الثانية صباحاً. ألقى القيّمون على المكان من نوافذ الصالات العابقة بالدخان كل ما استطاعوا قبل أن يلوذوا بالفرار. وكان السير هنري كوتون قد وهب في عام 1700 تلك المكتبة المهمة بعد أن كان جدّه روبير قد جمع كتبها وتوفي بسبب

منعه من الدخول إليها بأوامر من شارل الأول الذي رأى بها خميرة للتخريب. قبل الملك وليام الثالث بمجموعة الكتب على مضض باسم الأمة ولم يستفد منها أي إنسان أبداً. وكانت بمجموعة غنيّة مع ذلك بوجود مئتين وخمسين من المنمنمات الشهيرة المصنوعة في الإسكندرية في القرن الخامس أو القرن السادس والتي لم يبق منها اليوم سوى حفنة من المقتطفات التي كساها السواد؛ نجت منها بالمقابل مخطوطة "لندسفران غوبيل" الشهيرة. كانت التسعمئة والثمانية والخمسون مخطوطة الغريبة من نوعها موزّعة في 14 خزانة تعلوها تماثيل فضية لـ12 من القياصرة بالإضافة إلى كليوباترة وفوستينا، الزوجة العنيدة لمارك أوريل. هكذا نجت الملحمة الشعرية الكبيرة الأولى باللغة الإنكليزية (Beowulf) من تصفيات هنري الثامن، إذ كانت في الموقع الخامس عشر على الرف الأول تحت التمثال النصفي للإمبراطور فيتيليوس. كانت تلك الحكاية عن معركة ضد الوحوش مضغوطة بإحكام بين دفتي غلافها الجلدي، لذلك خرجت من ذلك الحريق بحوافٍ مفحّمة وضمّت إلى الآثار القليلة المتبقية من مجموعة الكتب عام 1753 في المتحف البريطاني دون عمل أي شيء لمنع استمرار تردّي حالتها ببطء حتى عام 1845. وكان قد ضاع آنذاك ألفان من حروفها.

- خرّبت حملة "لا للبابوية" لندن وحرقتها خلال أسبوع في شهر يونيو 1780 وحرقت جموع الدهماء المكتبة الثرية للورد مانسفيلد، الرجل الذي اعتبر أن أي عبد يصل إلى شواطئ أنكلترا يصبح إنسانا حرّا (لكن ليس إلى شواطئ مستعمرة من مستعمراتها).

- كان توماس جيفرسون (1743-1826) هو الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية من عام 1800 حتى عام 1809. اعترف بشهية "شديدة"

للكتب وكان محاطاً بها دائماً ولم يضعْ أبداً أية دقيقة في انتظار وصول المدعوين للعشاء. كان يمتلك ثلاث مكتبات. بدأ بتكوين الأولى منذ سنوات الطفولة واحترقت عام 1770 مع منزل جدّه لأمه. المكتبة الثانية، باعها الرجل النبيه دون أناقة مفرطة عام 1815 للحكومة (6487 مجلّد مقابل 23.940 دولار) وشكّلت نواة مكتبة الكونغرس، التي كان البريطانيون قد دمّروها قبل فترة وجيزة. لم تمر تلك الصفقة، حتى لو كانت جيدة، دون صعوبة، إذ أن العديد من أعضاء الكونغرس أصابهم الرعب من المضمون "الراديكالي" لعدة نصوص، كنصوص فولتير على سبيل المثال. كانت المكتبة الأخيرة لجيفرسون شغله الشاغل خلال سنوات التقاعد. وكان يفضّل "متع حقائق الرياضيات" على الروايات، تلك "الجبال من القمامات". كانت الرفوف التي صنعها له نجّار الأثاث في قصره الصغير بمونتيسيللو وحدات مستقلة يمكن تصفيفها حتى السقف، وكانت تنقفل بواسطة غطاء مثل نعش، في حالة الانتقال.

– ما إن تعافت مكتبة الكونغرس بالكاد من الحريق الذي أصابها أثناء حرب عام 1814، حتى تلفت من جديد في ألسنة اللهب الأقل عدائية عام 1820. ثم حدث حريق ثالث عام 1851 أنهى ثلثي موجوداتها التي وصلت إلى 55 ألف مؤلّف. تجهّزت المؤسسة هذه المرّة بأرضية من الحجر وبرفوف من المعدن.

– كانت توركو هي العاصمة الأولى لفنلندة وقد أُعيد تعميدها باسم "أبو" عندما أصبحت البلاد تابعة لفترة من الزمن للسويد. ومهما يكن من أمر احترقت مكتبة أكاديميتها المؤسسة عام 1640 داخل القصر بتاريخ 4 سبتمبر 1827 مع بقية المدينة الجميلة التي جعلها التاريخ مزدوجة اللغة.

– عندما بيعت مكتبة "أوفور" في مزاد "سوثبي وولكنسون" عام 1825،

خرّبت النار المكان خلال الليل. ولم تعد المؤلفات التي كانت مضغوطة بإحكام على الرفوف سوى مجرد صفحات بيضاوية الشكل ومؤطرة بالسواد. عرض صاحب مكتبة شجاع شراء الكمية كلها وحصل على ذلك مقابل حفنة من النقود ثم عرض بعد عام ألفًا من هذه الكتب على الهواة من جديد، بعد قصّها من أطرافها وتجليدها، لدى "بيوتيك وسامبسون". التهم الحريق نفسه 17 ألف مجلّد من مجموعة هومبوك برمّتها، وكان عقد التأمين الخاص بها قد انتهى مفعوله في ذات اليــوم ظهراً.

– قام أندرو ويلي رئيس جامعة إنديانا بإرساء أسس تلك المؤسسة عام 1828 وأشرف بنفسه على تزويدها بالكتب. إن ملف تصنيفها "كاتالوغ" متوفر اليوم وهو مطبوع عام 1854، أي قبيل اختفاء كل شيء في ألسنة اللهب يوم 11 أبريل. لا بأس، فالمكتبة أعيد بناؤها وضمّت 13 ألف مجلّد احترقت بدورها عام 1883. لكن تمّ التوصل إلى إنقاذ مجلّدين منها.

– في ليلة 24 يناير 1904 التهمت ألسنة اللهب المكتبة الوطنية لجامعة تورينو. لم يتّضح السبب، بل "جرى مرّة أخرى تجريم الكهرباء وداراتها القصيرة المعتادة"، لكن يبدو أن جميع مبدّلات التيار كانت في وضع قطع التيار. تكبد سجل المخفوظات الشهير مصيبة خطيرة عام 1659، لكن موجوداته زادت كثيرا منذ ذلك الحين. مع ذلك "لم يظهر ذلك في الفهارس". كانت المكتبة تضم غداة المأساة 38 قاعة و 1095 كتاب تعود لفترة استهلال الطباعة من بينها "قصة لانسولو البحيرة" بثلاثة كتب نصفية كتبها على الرق فيرار (باريس 1491) و10.321 ختم (استمبة) مطبوعة بأحرف بارزة و1.500 من طبعات دار نشر الدين (حوالي عام 1500) و621 كتاب بالعبرانية و 4.138 مخطوطة من بينها 4 مخطوطات لــ"قصة الوردة" تعود

للقرن السادس عشر وواحدة تعود للقرن الخامس عشر، ورواية "الفارس الشريد" للمركيز دوسالوس و"كتّاب التاريخ المقدّس" المزيّن بمنمنمات تُعزى إلى بيزانيللو، وخاصة كتاب أيام يوحنا، دوق بيري، مع سبعة نقوش ملونة تعود دون شك للأخوة فان أيك، وهذا كتاب من القطع الكبير لمصلّى مكرّس للقراءة فوق درج مخصص لتلك الغاية، وقد غدا "مجرّد ثلاث رقاقات سوداء من الدخان". وبالنسبة لما أمكن إنقاذه، جرى استخدام الجيلاتين عند بداية التعفن العائد إلى تخمّر الجلود، وهذا عمل دقيق. تمكن أيضاً المعالجة بالبخار أو بالغراء، لكن ستكون المخطوطات مثل "كتل حقيقية من قطن البارود" في الحريق القادم. يشار من جهة أخرى إلى استخدام الفاتيكان "لمسجلات كهربائية دقيقة جدا يمكنها أن تخطر المحافظ نفسه بواسطة جرس إنذار عن أي ارتفاع لدرجة الحرارة". ولهذا الحديث بقية.

- دمّرت الهزّة الأرضية بتاريخ 18 أبريل 1906 المكتبة البرّاقة لجامعة ستاندفورد التي أشيدت دون أخذ رأي أمينها الأول أو حتى عرض الخطط عليه. تلا ذلك حريق عام لسان فرانسيسكو أطلقوا عليه تسمية "نار شرائح لحم الختزير والبيض" لأنه فاجأ الأهالي عند إفطار الصباح قبل أن يتلف المئتي ألف كتاب للمكتبة العامة. إن ثلاثة أرباع الهزّات الأرضية تؤدي إلى قذف الكتب من رفوفها أمام الغضب الصامت للعاملين. وتوجّبت مثلاً إعادة ستمئة ألف كتاب إلى موضعها في جامعة كاليفورنيا "نورثبريدج" وعشرين ألف لتجليدها بعد هزّات سان فرانسيسكو القوية عام 1971. وقد تؤدي بعض الهزّات الأرضية إلى انهيار أبنية مصممة مبدئيا من أجل مقاومتها.

- كانت كل مدافئ طوكيو العاملة على الفحم الخشبي مشتعلة، كما

يُفترض، قبل دقيقتين من ظهر الأول من سبتمبر 1923 من أجل تحضير طعام الغداء عندما حدثت أحد كبرى الهزّات الأرضية في التاريخ (7,9 على مقياس ريختر و140.000 قتيل في منطقة كاتانو) تبعها حريق استمر ثلاثة أيام أفنى 70% من المدينة تقريبا، بما في ذلك العديد من المكتبات. وتمتلك المكتبة الوطنية 248.000 أطروحة دكتوراه حول الهزّات الأرضية أعدّت كلها بعد 1923، ذلك أن جميع الأطروحات السابقة لهذا التاريخ قد احترقت.

– أعـــادت البيرو بعد الهول الذي استهدف المكتبات أثناء الاحتلال الشيلي (1881–1883) إعمار مكتبتها الوطنية التي فنيت في ألسنة اللهب يوم 10 مايو 1943. وأصبحت الشيلي بعد ذلك إحدى تلك الدول المثيرة للدهشة التي صادر موظفو الجمارك فيها الكتب حول التكعيبية بحجة أنها دعاية لكاسترو.

– احترقت مكتبة الجمعية الوطنية الفرنسية ذات التوجه الموسوعي، والآلاف من كتبها بتاريخ 22 أغسطس 1944 بينما كانت قوات الجنرال لوكليرك (محرر باريس) تحاصر قصر البوربون (مقر الجمعية الوطنية) المحتل من قبل البيروقراطية الألمانية. وتتوفر اليوم في المكتبة الوطنية الفرنسية قائمة كاملة للكتب المفقودة. جرى بقرار حكيم إنقاذ ثمانين مخطوطة تعود لفترة استهلال الطباعة بإرسالها إلى ليبورن ومن بينها "اعترافات روسو" وأيضاً رزنامة أزتيكية (نسبة إلى شعب الأزتيك في المكسيك قديما) مشتراة بسعر 1.300 فرنك عام 1826 أثناء فترة اسكوريال المجدبة التي تبعت جعل إسبانيا نابليونية التوجه. وانصب الاهتمام على التاريخ البرلماني حول المجموعة الكاملة لـــ"الجريدة الوطنية" أو "المرشد الكوني"، أي الصحيفة التي أنشأها بتاريخ 24 نوفمبر 1789 "شارل بانكوك" صاحب المكتبة الشهير من مدينة ليل ، وتضمّ المكتبة اليوم حوالي 1.900 مخطوطة.

- انتظر أحد الطلبة، بغية تجنب الانخراط في الجيش، ساعة استراحة الظهر وألقى عود ثقاب في سلة مهملات الورق الموجودة في الطابق السابع للمبنى الإداري لولاية ميشيغان في لانسينغ بتاريخ 8 فبراير 1951 حيث كانت توجد المحفوظات والملفات. استمرت النيران مشتعلة خمس عشرة ساعة، وضخّ رجال الإطفاء 6.000 غالون من الماء في الدقيقة قبل أن يسيطروا عليها. كانت مكتبة ميشيغان تقع في الطابق الأول ومخازنها في القبو. ولم تكن النيران تهدد بأية لحظة الـ22.000 كتاب المفقودة.

- تعددت في نهاية سنوات الستينات المنصرمة حرائق المكتبات الجامعية في الولايات المتحدة خاصة في نيويورك وواشنطن، واحترق بعضها عدة مرّات متتالية في السنة نفسها، كما حصل في إنديانا. كانت عبوات مولوتوف المتفجرة متوفرة بكثرة خلال تلك الفترة.

- كان الحريق الذي حوّل 70.000 كتاب تعود لحلقة البحث اللاهوتية اليهودية في نيويورك في شهر أبريل 1966 إلى رماد مجهول المصدر. وهناك صورٌ لعشرات الآلاف من الكتب المشرّبة بالماء المنشورة في الباحة المشمسة خلال الأسبوع التالي بغية تجفيفها.

- بلغ ارتفاع الطوفان أرنو ستة أمتار بتاريخ 4 نوفمبر 1966 واجتاز فلورنسة بسرعة 80 كيلومتر في الساعة حاملا معه كل ما صادفه في طريقه ومخلّفا وراءه 500 مليون طن من الوحل المختلط بالمازوت وجثث الحيوانات والسيارات ومحتوى المجاري في جميع الأقبية والطوابق الأرضية، ومن بينها مكتبات تلك المدينة الثقافية، مثل مكتبة كولومباريا التي تدمّرت أصلا عام 1944. وكانت المكتبة الوطنية المركزية تحفظ في طوابقها تحت الأرض 1,2 مليون مؤلّف وكتب تعود لفترة استهلال الطباعة بينما كانت المخطوطات موجودة لحسن الحظ في الطوابق العليا. لم يغادر مديرها

الدكتور إيمانويل كازاماسيما المكان خلال شهر. وقام بمساعدة آلاف المتطوعين الذين اقتاتوا القهوة والسندويش والنبيذ اللذيذ، بعمليات التنظيف والتجفيف الضرورية للمؤلفات ولثمانية ملايين من بطاقات الفهرس (احتاج هذا العمل لسنة لكن جرت الاستفادة منه في الميكروفيلم). ويبدو أن القائمين على مكتبة كلية الآداب والفلسفة لم يتحلّوا بالدرجة نفسها من الصبر ولا تلك الدرجة من التفاني إذ تخلّصوا سريعا من 35.000 مؤلّف أصابها الوحل ورائحتها كريهة. بعد 40 سنة أو تقريباً من طوفان أرنو، وصل فريق مؤلف من 120 شخص كانوا يعملون في مركز ترميم المكتبة الوطنية إلى درجة الإنهاك الكامل وبقي 35.000 مجلّد بحاجة للمعالجة، أي ما يتطلب ما يزيد على عقد من العمل.

- يُحرص على إعطاء أسماء فتيات للأعاصير والزوابع التي تخرّب دوريًا قسمًا كبيرًا من الأرض الأمريكية كي تردد الصحف فيما بعد جُمَلاً من نوع "لم تكن سيليا رحيمة مع المكتبة. لكن يلاحظ أن تعبير "ذهب مع الريح" هو العنوان الأكثر تردداً.

- في عام 1986، دلّ تدمير 400.000 كتاب بحريقين متعاقبين خلال أربعة أشهر والخسائر الكبيرة التي أصابت 700.000 بسبب مياه رجال الإطفاء في المكتبة العامة بلوس أنجلوس على أن تحضيرات الدرء من الكوارث كانت ما تزال حلماً. هذان الحريقان (29 أبريل و 3 سبتمبر) قد يكونان مفتعلين قصدا. وليس هناك أية معلومات إضافية.

- كان تسرّب الغاز ثم قيام عامل بإشعال شرارة كافيا كي تأكل النيران المئة ألف كتاب يوم الأول من أغسطس 1994 في "فورويتش" بشرق أنكلترا. كانت بعض المخطوطات العائدة للقرن الحادي عشر مخزّنة في القبو حيث أصابها بعض الأذى من الفيضان الذي أعقب تدخل رجال الإطفاء وأُرسلت إلى ورشة التجفيف.

- بتاريخ 28 يوليو 1997 سقطت سبع بوصات من مياه الأمطار في "فورت كوليتز" بكولورادو خلال عدة ساعات. كان قد جرى ترميم مكتبة الجامعة وتوسيعها قبل فترة وجيزة. انهار جدار غير متقن الصنع وغرق نصف مليون مؤلّف في ميدان العلوم الاجتماعية كانت مصفوفة في القبو خلال الأشغال وقُدّرت الخسائر بـــ 22,5 مليون دولار أو 36 مليون حسب بعض المصادر. تعرّضت تلك المكتبة للفيضان عام 1938 ثم عام 1951. وقيل كل مرّة "لقد استخلصنا النتائج". جرى ترميم قسم كبير من الخسائر بواسطة التجفيف، وقدّمت مؤسسات أمريكية أخرى مئة ألف كتاب بديلٍ وجرى تحويل العدد نفسه تقريباً إلى اللغة الرقمية كي يتوفر حصرا على الشاشة.

- بتاريخ 16 أغسطس 1998 دُفع 65 مليون دولار قيمة تحسين المكتبة العامة في بوسطن، ونفّذ لوحاتها الجدارية "بوفيس دوشافان"، و"سارجان"، ولكن دون ترميم أنابيب المياه في القبو السفلي. انفجر أنبوب من الحديد المصبوب عند الساعة الواحدة صباحا وغمرت أطنان من المياه القذرة المخازن ومحتوياتها.

سيتم لاحقاً التعرض إلى حريق مدينة ليون بتاريخ 12 يونيو.

- بتاريخ 21 مايو 2001 شبّ حريق في مركز زراعة الحدائق والجنائن المدينية في سياتل، وهو معهد للبحث في ميدان علم الوراثة الحيوية، أدّى إلى إتلاف كتب علمية قيمتها 2 مليون دولار. لقد حامت الشكوك حول النشطاء من أنصار البيئة المنضوين في جبهة تحرير الأرض. "إننا لا نرمي مع ذلك إلا إلى تحسين البيئة المحيطة"، اشتكى باحث مختص في مجال الموادّ المحوّلة وراثياً.

- احترق بتاريخ 29 مايو 2002 مستودع ناشر وموزع دار نشر "لي بيل

ليتر" (الآداب الجميلة)، بطريقة غير مفهومة البتة ومعه ثلاثة ملايين كتاب مطبوع من بينها بمجموعات تابعة لجامعات فرنسا ومعروفة أكثر بلقب "مجموعة بودي" وكتب يونانية ولاتينية كلاسيكية وسلاسل أخرى علمية نادرة حول العوالم الصينية والهندية والعربية... أي ما يمكن أن يقال عنه بالفعل "الآداب الجميلة". كان اختفاء تلك المؤلّفات المنشورة والمخزّنة بعضها منذ عام 1960 مأساة مطلقة في سياق من الانحطاط العام للمعارف، رغم أن الأمر لا يتعلق بمكتبة. ذلك أن منطق التسيير الإداري يمنع إعادة طبع بعض العناوين – الكتب- نظراً لقلة عدد مبيعاتها، فإذا أحسّ ناشر نموذجي للدراسات الكلاسيكية أنه مرغم أخلاقياً للإشارة لها في فهرس أعماله، حتى دون مردودية في القرن الماضي (القرن الأخير للثقافة؟) فلا بدّ أن يطويه النسيان اليوم، ويتخلّى المستقبل عنه وعن كتبه التي تتركها المكتبات الكبرى تنزلق نحو الموت بسبب ندرة قرائها. يشكّل التخلص من المخزون الذي لا يباع متنفّسًا لكل ناشر لكنه يمثل فجوة إضافية في مشهد النصوص المكتوبة باللغة الفرنسية. فهل يراد اكتشاف الثرثرة المرعبة لـــ"بروكوب" حول "تيودورا" أو "غريزة الجنس لدى المراهقين"؟ يقال لكم إنها طبعة جديدة بلا تاريخ. لكنها إعادة طبع بالتأكيد. ومن حوالي 1.600 عنوان هناك 1.200 سوف تنبعث من رمادها بحلة أكثر تواضعاً كما هو مفهوم عبر سحبها رقمياً وتجليدها بلون يذكّر بالأغلفة القديمة ذات اللون الزهري المحلّي. وماذا عن الأعمال الأقل أنسًا مثل "مراسلات" نيسيفور غريغوراس، أو حتى الغبية مثل "العلاقة بين الصين والهند" المكتوب عام 851 من قبل أبو زيد الحسن حسب روايات بعض الرحّالة؟ بقي إيجاد مكتبات تمتلك هذا المؤلّف.

– غطّت المياه الموحلة نصف أوروبا في شهر سبتمبر 2002 واختلطت سترات السائحين الواقية من المطر ذات اللون الأصفر البرتقالي، بعد أن

فسدت عطلاتهم الصيفية، مع سترات أصحاب المكتبات الواجمين. طفا عدد لا يحصى من الكتب في إطار حدث غير مفهوم لا يزال تقييم نتائجه جاريا.

- كان قصر لونيفيل في منطقة "مورت وموزيل" يعود للدفاع الوطني الفرنسي. وقد دمّره حريق يوم الخميس 2 يناير 2003. وبما أن التلفاز لا يحب الروائع إلا إذا ضربها الشؤم فقد غدا هذا القصر الذي يشابه "قصراً رئاسياً" في منطقة اللورين قضية وطنية خلال عطلة نهاية أسبوع كاملة. وفقدت مكتبته ثمانية آلاف كتاب ذي فائدة عسكرية.

- بتاريخ 2 فبراير 2003 التهمت النيران خلال أربعين دقيقة بمجموعة الستمئة منصّة في معرض كتاب كلكوتا. كان ثلثا العارضين من الناشرين الصغار جداً الذين اقترضوا المال وقدموا مع كل مخزونهم لأنها مناسبة يحققون فيها 50% من رقم مبيعاتهم نظرا للعدد المتواضع للمكتبات في البلاد. كان الناشرون البريطانيون الحاضرون (22) هم وحدهم الذين أمّنوا على معروضاتهم ضد الحريق. وأسّسوا صندوقا للمساعدة.

ما تحق تسميته اليوم "قضية مدينة ليون" يستوجب معالجة على حدة فالمدينة ليست أبداً، والحق يقال، في حالة حرب تماماً وليست في حالة سلام كامل، فمثلاً دمّر حريق إجرامي يوم الأحد 16 فبراير 1997 المكتبة الفوضوية "لا بلوم نوار"، أي "الريشة السوداء" مع مخزونها كاملاً؛ ومن جهة أخرى، لا تزال ماثلة في الذاكرة، لكن دون أية علاقة مع الحدث السابق، تلك الهجمات بسيارات صادمة وحرائق المعابد اليهودية في مينغيت ببلدة فينيسو (14 أكتوبر 2000) وبلدة لادوشير (23 مارس 2000). انفجر فجأة في شهر يونيو 1999 وسط الجو المشوش كثيراً بسبب قضية بلانتان التي كشفت عن التساهل المتكرر لجامعات ليون الثانية وليون الثالثة حيال مسألة نفي وجود أفران الغاز

النازية[235]، حريق المكتبة الجامعية الموجودة على رصيف كلود برنار. تأسست عام 1886 وضمّ سجلّ المخفوظات الشهير في الأصل عدة مجموعات تمّ الحصول عليها بعد الفصل بين الكنيسة والدولة (من كنائس تورنون الصغيرة، ومدرسة دينية كبرى وأبرشيات) من بينها 17.000 مجلّد تعود لما قبل عام 1800 ومخطوطات وكتب تعود للطباعة في بداياتها. أصبحت الأبنية التي أشادها أبراهام هيرش ميدان اختصاص كليتي القانون والآداب عام 1930، ووصل عدد كتبها نتيجة عمليات الإثراء المتتابعة إلى 460.000 كتاب عندما شبت النار فيها يوم السبت 12 يونيو عند الساعة الواحدة والنصف؛ وكانت كامنة منذ عدة ساعات، كما قال العقيد سيرج دوليغ، كي تنتج عنها مفاجأة "الاشتعال الشامل للسقف الخشبي". شاهدت المدينة آنذاك ألسنة اللهب الهائلة الناجمة عن احتراق 300.000 كتاب وهي تحمل معها السقف في الليل الحالك. فُتح بعد شهر تحقيق حول ذلك الحريق الإجرامي إثر اكتشاف آثار للمحروقات النفطية في نقطتين متزامنتين في الاحتراق. لاحظت الصحافة عَرَضًا أن عشرات الآلاف من الأطروحات القديمة التي تمّت المرافعة عنها في جامعتي ليون الثانية وليون الثالثة قد فنيت. يقول الخبراء: "من الصعب جداً "تعويض" هذا التراث العلمي[236]. جرى إرسال الكتب الناجية كي تلقى المعالجة المناسبة وكانت لجان مختلفة تعمل من أجل تعويض مجموعات الكتب وإعادة بناء قبّة هيرش بينما راوح التحقيق في مكانه. مرّ الزمن ليشب بتاريخ 31 يوليو 2000 حريق في أراشيف قصر العدل، ولم يستطع رجال الإطفاء الولوج إلى المستودع إذ كان مغلقا بباب حديدي مقوّى تعطّلت آلية فتحه بفعل الحرارة. وبانتظار نشره كانت آلاف الملفات المختومة بالشمع الأحمر قد تحولت إلى رماد[237] من بينها منشورات تتهم "اللوبي اليهودي أنه وراء إشعال النار في المكتبة الجامعية" وأوراق ربما كان منها أن تؤدي إلى ملاحقة جامعيين احترقت أطروحاتهم قبل عام. مرّ زمن قليل بعد ذلك ليصدر يوم الاثنين 3 ديسمبر 2001 قرار بعدم

وجود وجه لإقامة الدعوى. فرغم ثبوت المصدر الإجرامي تخلّت النيابة العامة عن الملاحقة نظراً لغياب نتائج التحقيق. طوى النسيان أيضاً في شهر ديسمبر 2001 القضية لدى أولئك الذين أثارت اهتمامهم باستثناء بعض المقربين منها. وأضيف بذلك على الجريمة السياسية "جرم اللامبالاة(...) فعدم وجود وجه لإقامة الدعوى لا يعني أنه لم تكن هناك مأساة ولا عمل إجرامي ولا حتى حدث. هكذا يتضاعف الاعتداء ضد الفكر باعتداء ضد الذاكرة"[238].

لاحظ أهالي ليون أن وزارتي الثقافة والتربية آنذاك لم تُظهرا ولم تبرهنا عن رغبة في الحديث طويلاً حول المعنى العميق لتلك المأساة. وفجأة طوى النسيان حتى الأسماء. ثمّ حُسم المغزى التاريخي اليوم بواسطة موسوعة جامعة على الإنترنت لا تخشى التأكيد أن حريق مكتبة ليون كان مجرد حادث عرضي.

إنها ملاحظة لا تبشر بأي خير[239].

المكتبة إلى البحر

تحمل الرفوف العريضة لقطع الأثاث العالية المصنوعة من الخشب الفاخر ذي اللون الأسود والمرصعة بالنحاس عدداً كبيراً من الكتب ذات التجليد الموحّد. إنها تلحق منحنى الصالة وتنتهي عند جزئها السفلي بأرائك واسعة مكسوة بالجلد ذي اللون البنّي وذات الجلسة المريحة (...).

قلت لمضيفي المستلقي على أريكة: "كابتن نيمو هذه مكتبة ترفع الرأس أكثر من قصر على اليابسة، إنني منبهر حقاً أمام فكرة إمكانية أن تتبعك إلى عمق أعماق البحار".

بالفعل، لا تساوي فخامة القاعة ذات الاثني عشر ألف كتاب مجلد التي تقع تحت ناظري "أروناكس" شيئاً إلى جانب امتياز القراءة في غور البحر. فها

هو التكدس الهش للورق، أداة السيطرة الأفلاطونية على العالم، موجود هنا كما لو أن الإنسان بمنزله في قلب الظلمات. عبّر "جول فيرن"[240] في هذه الصورة المقلوبة لقلعة "ألاموت" عن تخيّله الأكثر قوة، أي تدجين المحيط. وانتصر على القلق الذي تثيره فكرة الانطواء في القاع بنفس الوقت الذي استخفّ فيه بالخسارة النهائية والقاسية جداً للكتب التي ابتلعتها الأمواج.

كانت الأذية كبيرة إذ غزا الشيب دفعة واحدة شعر التاجر غوارينو فيريتري عندما رأى الباخرة التي تقل جميع المخطوطات الفريدة التي اشتراها بعد الاستيلاء على القسطنطينية عام 1453 تغرق في مياه البحر الأبيض المتوسط. طالب ورثة جيان فانسيترو بينيللي النابوليتاني (نسبة إلى نابولي) بمكتبته الثرية عند موته عام 1601. وبما أنها كانت موجودة في "بادو" جرى تحميلها مع بقية الممتلكات على ما لا يقل عن ثلاثة سفن. وصلت اثنتان إلى المرفأ المطلوب. أما الثالثة فخطفها قراصنة أتراك ثار حنقهم عندما اكتشفوا محتواها العلمي فقط، فما كان منهم إلا أن ألقوا الثلاثة وثلاثين صندوقا في البحر، وقال بيرسك صاحب النزعة الإنسانية: "كانت تلك المكتبة البائسة عاثرة الحظ إذ أضاعت لا أعرف كم من الصناديق في البحر الأدرياتيكي عند مرورها من البندقية إلى أنكونا بناء على أوامر الورثة". لكن لم يضع كل شيء. وحسب قول تيرابوشي، كما ينقل وولفورد، انتشرت الكتب على الشواطئ واستُخدمت من أجل سد الثقوب في المراكب. ومن المعروف أنه جرى شراء العديد من المخطوطات التي أُنقذت من المياه أو جاءت من المركبين الآخرين من أجل مكتبة أمبروزيين (في ميلانو) عام 1609. وقد أظهر البحر قسوة أكبر حيال الهولندي المدعو هودل الذي يروي وولفورد أنه بعد أن جنى ثروة انكبّ بشغف على دراسة الصين ولغتها وآدابها، إلى درجة أنه أصبح مثقفاً متنفذاً فيها. وعندما كان في طريق العودة إلى بلاده بعد ثلاثين عاماً رأى مكتبته الصينية تغوص في المياه. كان الغرق أمراً يتكرر

كثيرا، ويبيّن تاريخ الحملة الموحّدة لبلاد الهند الشرقية أنها خسرت ثلث سفنها مع كل ما كانت تحمله.

كانت السفينة "أليبون" هي "السفينة التجارية الأولى التي امتلكت مكتبة" في عام 1819 وكانت بالتالي المكتبة الأولى التي ابتلعتها مياه البحر (في شهر أبريل 1822 أثناء عاصفة مقابل الشواطئ الأيرلندية). وكانت مكتبة "لابيروز" على متن السفينة "لابوسول" تحتوي على 119 كتاباً من بينها "أسفار كوك" لمؤلفه جون هاوكسوورت وكتب علمية. "اختفت" فجأة "دون أن تترك أي أثر في البحر". بقيت عملية الغرق محاطة بالغموض لفترة طويلة مما ألهب مخيلة القرن التاسع عشر. هناك أيضاً حالة القارب الشراعي "بيكوك" الذي انشطر إلى نصفين يوم 18 يوليو 1841، لم يؤدِّ ذلك الحادث إلى غرق فريق البحارة لكن مجموعة من مئة وخمسين كتابا علميا "آلت إلى القبر الذي يعرفه البحّارة"[241].

تشكّلت المكتبات العامة الأولى على متن السفن التجارية من كتب تقاسمها البحّارة مع مسافري الدرجة الأولى. واكتسبت شركة هامبورغ-أمريكا شهرة في سنوات الستينات من القرن التاسع عشر على أساس امتلاكها "مكتبة صغيرة" على كل سفينة من سفنها. وعندما تحوّلت تلك السفن إلى فنادق عائمة بُدئ بتوسيع الصالونات بما في ذلك تلك المكرّسة للقراءة. هكذا بلغت مساحة مكتبة "كامبانيا" للسفينة كونارد عام 1891 خمسة وستين مترا مربعا، وكان سقفها مزينا بمصباح كهربائي في كل تجويف. كانت الأعمدة التي تحملها مغطاة بالمخمل الأزرق والجدران ملبّسة بخشب الأكاجو، والكتب موجودة خلف واجهة زجاجية من أجل المحافظة عليها أثناء الطقس الرديء. وجدت سفن "سيتي أوف نيويورك" وتيتونيك Teutonic "الراسية وفيها كتب عامة جيدة" بالقرب من جسر النزهة، وموريتانيا كونارد "أحد الأكثر ثراء" نفسها مسبوقة من قبل سفن هامبورغ، المسماة "كالفن والتر" التي تحتوي على

المكتبات "الأكبر والأكثر اكتمالاً" بين سفن النقل مع وجود مكتبة لكل درجة من درجات المسافرين فيها مؤلفات بأربع لغات بمعدّل ما بين 1.600 و 1.700 كتاب في كل سفينة. كانت تلك هي أيضاً حالة سفينة "كوين ماري" عام 1936 بواقع "2000 مجلّد بالنسبة لدرجة المقصورات — الدرجة الأولى– ربعها من عيون الأدب المعاصر و 1600 مجلد بالنسبة للدرجة السياحية و 1000 كتاب للدرجة الثالثة"[242].

أصبحت حيازة الكتب وترتيبها بعناية على رفوفها الفارهة تسلية إجبارية ورمزاً اجتماعياً راسخاً في تلك الحقب التي كانت تفتقر للسينما، وجزء من ذلك العالم العائم الذي يجازف في مخر البحار مع ارتعاشة جديدة عند كل إبحار ويتهاوى، بين فترة وأخرى، في أعماق المياه الباردة. كانت سفينة "تيتانيك" تحتوي على مكتبتين. مكتبة المقصورات الأولى الواقعة على الجسر "أ" والمزيّنة حسب طراز لويس الخامس عشر مع تفاصيل مأخوذة من قصر فرساي. حُمّلت الكتب في سوثامبتون وشكّل اختيار نادي كتب "مكتبة التايمز" جزءاً منها ومن بينها كتاب "السيد العجوز" لمؤلفته ماري جونستون، الصادر عام 1899 ويروي قصص هروب في لندن أكّد ضابط نجا من الغرق أنه قرأه ثم أعاده قبل عدة ساعات من الكارثة. ووُجدت في الدرجة الثانية، على جسر القنطرة "سي" مكتبة عرضها 12 مترا وطولها 18 متراً ومكسوّة بالجميز حسب الأسلوب الاستعماري وأثاثها من خشب الأكاجو وكتبها في خزائن زجاجية مرصوفة في أحد الجوانب. أمّا بالنسبة لمسافري الدرجة الثالثة الذين كان يتم إغلاق الأبواب عليهم بالمفتاح ليلاً، فلم تر الشركة التجارية الدولية البحرية بالطبع أية فائدة من تزويدهم بمكتبة.

"زال أخيراً ذلك الزخم الكبير من الدفقات الكهربائية، واستقرّت السفينة نوتيلوس التي غدت نعش القبطان نيمو في قاع البحار".

السرقة

لا يمكن فصل مغامرة المكتبة المفتوحة للجميع عن تاريخ الجريمة أو على الأقل عن الاختلاس الذي يفتح غالبا الباب لما هو أسوأ، أي التخريب. فإذا كان سارق الكتاب يرى فيه أداة فكرية لا يمكنه الحصول عليها بوسيلة أخرى (مثل حالة الطالب في العصر الوسيط) أو طريقة فاسدة لإثراء مجموعة كتبه الخاصة أو أن يكون وسيلة لتأمين قوته بواسطة إعادة بيعه، فإنه، أي الكتاب، هو الفريسة الأكثر سهولة في العالم. إذ يكفي اليوم في بعض بلدان أمريكا اللاتينية الدخول وأخذ ما يُراد. ثم إن القرون العشرة التي عاشتها مكتبة كنيسة نوتردام في باريس زاخرة بمشتريات السلاسل الجديدة وعمليات الجرد المذهلة والتحقيقات والمواثيق والعقوبات ضد عدم أمانة القارئ أو إهمال القس الذي كان يقوم بعمل أمين المكتبة.

لكن الفرنسيين يظلّون مجرد هواة في ميدان الشغف المرضي بالكتاب.

أمضى جون باغفورد (1650–1716) صانع الأحذية وهاوي المكتبات ومؤسس "جمعية المقتنيات الأثرية"، طيلة حياته في مكتبات أنكلترا وهو ينتزع صفحات عناوين 3.355 كتاباً قديماً بقصد نشر مؤلّف لم يرَ النور أبدًا ولكنه وزّع عام 1707 كتيّباً صغيراً حمل عنوان: "فن الطباعة". ضمّت مجموعته بلا تمييز جميع الرسوم المرافقة لعناوين كتب شيشرون المطبوعة عام 1606، وكتب أوفيد وبوكاتشيو وسويفت وبيبيس والكتاب المحيّر "العلاج السريع ضد الفجور الروحاني" وكتاب روبرت جينتيليس "التنافر بين الفرنسي والإسباني" (1641). كان ذلك الموجز المكثّف للكتب النادرة مجلّداً في مئة كتاب نصفي تشكل اليوم، رغم كل شيء، موضع افتخار المكتبة البريطانية، وموضوعاً هاماً للدراسات. رسم "هاورد" صورة "بورتريه" لباغفورد، ونقشها "فيرتو".

ما كان لمثل ذلك الشغف بالكتب أن يمر دون خلق منافسين سريعاً.

هكذا نشر جوزيف أميس (1689–1759) عملاً تحت عنوان: "الطباعات القديمة" وافتخر به قائلاً: "لم أشأ صنع عملي انطلاقاً من فهارس مطبوعة — كاتالوغات– وإنما انطلاقاً من الكتب نفسها". جمع في الواقع مزقاً وصل عددها إلى14.428 راقت له من مؤلفات تعود للفترة الواقعة بين عام1474 وعام1700".

إذا كانت سرقة الكتب قديمة قدم المكتبات العامة والتجارية، فإن الأولى تنفر أكثر من الحديث عن ذلك كي لا تعترف بهشاشتها وتجذب بالتالي الجسورين من غير الأمناء. وتؤكد المكتبة الوطنية الفرنسية لكل من يتحرّى عن ذلك أن السرقة غير موجودة، فكل ما تمكن ملاحظته بالكاد هو "بعض النقص في عين المكان" و"غياب ملحوظ لبعض الكتب إثر عمليات الجرد" مع الإيحاء أن الكتاب موجود تحت رقم معدّل أو في غير مكانه وبالتالي سينتهي الأمر إلى ظهوره من جديد بعد جيل أو جيلين، وعلى المتحرّي أن يعود آنذاك.

وماذا عن نسختي كتاب "الحرب والأدب" لمؤلفه "سيبالد" الغائبتين عن رفوف الطلبة والباحثين لمدة تقارب العام من أجل تجليدهما؟ كان تبليغ ذلك للسلطات العليا بعد ستة أشهر من إبلاغ السلطات الوسطى كافيا لظهورهما من جديد بمكانهما، دون تجليد، وربما تمّ شراء نسختين جديدتين. أجريت مع ذلك دراسات حول السرقة في المكتبات العامة توصلت إلى نتائج محددة، وهي دراسات أنكلوساكسونية بما يشبه الصدفة. فهل تتم المجازفة وقول ذلك لجامعة تولبياك؟ إنهم سوف يجيبونك أن إحصائيات هؤلاء الدارسين، بتفضيلهم عملا جاهزا على عمل متقن، تثير الشك بالضرورة وهي، على الأقل، ليست قابلة للتعميم. إن فرنسا إجمالاً وحدها هي التي تعرف، وفرنسا تفضل الغموض. أُنفقت الملايين في جامعة تولبياك من أجل محاربة السرقة مما أثار ضحك السارقين النادرين وغيظ القرّاء العديدين.

تعود إحدى هذه الدراسات المثيرة إلى عام 1935 حيث أعلن رالف مون،

مدير مكتبة كارنيجي في بيتسبورغ، عن سخطه حيال الاختلاس الملاحظ لـ134 مؤلّفا خلال عام 1933 وقد توصل إلى تقليص هذا الرقم إلى 43 عندما فرض وجود رقيب عند الخروج. لكن واقع ضبطه خلال سبعة عشر شهراً لـ291 كتاب أُريد اختلاسها يعني أن الظاهرة كانت أكثر عمقا مما يُظن. وجّه مون أصابع اتهامه بهذا الصدد إلى فقدان الحس الأخلاقي بسبب الانحسار الاقتصادي الذي "أشاع لدى عامة الشعب فكرة إمكانية أخذ كل ما هو مسمّر في الأرض أو على الجدار". التحقيق الآخر الأقل طرافة قام به القسم المختص في الشرطة البريطانية عام 1992. قُدّر آنذاك عدد مجمل كتب المجموعات العامة في المملكة بمئتي مليون نسخة. كانت الطريقة الوحيدة لمعرفة أن "غياب كتاب عن مكانه" لا يعود لمجرد عدم إعادته له هي إجراء عملية جرد فعلي كاملة، لكن ثلث المكتبات العامة لم تكن تمتلك إمكانيات القيام بذلك الجرد الكامل. وبلغت نسبة الكتب "الغائبة" نهائيا في المكتبات التي استجابت لمطالب التحقيق 4,4% من مجموع الكتب أي 8,8 مليون مؤلف تبلغ قيمتها 185 مليون جنيه استرليني. لوحظ مع ذلك أن تلك النسبة تضاءلت إلى 1,9% بالنسبة للمجموعات التي يقل عدد كتبها عن عشرة آلاف كتاب وزادت بالنسبة للكتب المشتراة قبل أقل من سنة وهي أعمال غير روائية. وتتمثل الحقول المفضلة لسارقي الكتب في المملكة المتحدة حسب نظام تنازلي كما يلي: الجنس ثم التخاطر من بعيد، ثم اللغات الأجنبية ثم السحر الشيطاني ثم الموسيقى والأدب والفنون. ولوحظت سرقة كتب الجنس في المدن الكبرى والسحر الأسود في المدن الصغرى. يتفق الجميع على فاعلية الـ"تاغ" أو الترقيم الإلكتروني لكن 36% فقط من المكتبات العامة تمتلك إمكانية استخدامه عندها؛ وتمنع جميعها إدخال الحقائب المحمولة على الظهر أو محافظ الكتب لكن ليس بينها أية مكتبة تمنع القارئ من الاحتفاظ بمعطفه كما هو الحال في 8% من المكتبات المختصة و4% من المكتبات الأكاديمية.

ويستفيد محترفون منظّمون جيداً من المجموعات العامة للكتب النادرة لتلبية طلب متزايد لم يعد الحياء يكبحه كثيراً بينما تساعد وسائل الاتصال عليه، إذ إن قسّا وأستاذا إسبانيين سرقا 460 كتابا ثمينا من أبرشية زامور وباعاها ما بين عام 1994 وعام 1996 لمؤسسات ولجامعي كتب في سان فرانسيسكو أو ميلانو أو بوغوتا أو باريس، بينما اختفى من كنيسة تيريزيانا في مانتوفا 500 كتاب قديم أثناء أشغال ترميم عام 2001 ، ومن بين المئتي وستين نسخة من كتاب "حول ثورات المدارات السماوية" لكوبرنيك، يقوم جهاز الشرطة الدولية — الأنتربول– دائماً بالبحث عن نسبة هامة (كان الرقم هو 7 عام 2002)، وذلك على غرار مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي بالنسبة للـــ39 كتاب صيني قديم التي يزيد عمر بعضها عن 1000 سنة، واختلسها مجهول، عارف أو عدة عارفين بمكتبة هارفارد.

ظهر كتاب "تكوين الجسد الإنساني" لمؤلفه فيزال (1552) المسروق من معهد كنيسة المسيح عام 1954 من جديد في مكتبة كلية فن الأسنان بمدينة نيغاتا في اليابان حيث وهبه أحدهم لها وتطالب أكسفورد به بإلحاح. انتقل المؤلّف آنذاك بين أيادي خمسة أو ستة أصحاب مكتبات إنكليز وأمريكيين من الأكثر استقامة من بينها دار "سوثبيز"، وبالتالي تتعلق المسألة بحالة خاصة[243]. كان السارق أخصائيا بموسيقى الباروك في إذاعة "بي بي سي" وكان يلقي بشكل منتظم محاضرات في الجامعة، أمضى عامين في السجن. ولعلّ ذلك ينفعه في إتقان اللغة اللاتينية بشكل أفضل.

إن كل من أسعفه الحظ وزار مكتبة لندن يعرف تلك التجربة الفريدة المتمثلة في أن يصبح لعدة لحظات أو ساعات أمينها في بناية جليلة بساحة سان جيمس؛ ذلك أن من يريد الاستعارة عليه أن ينقب هو نفسه في الأروقة الضيقة لسبع طوابق عن الكتاب المنشود، أو عن أي كتاب آخر. تأسست عام 1841

من قبل ديكتر وبعض معارفه، وهي أهم مكتبة للإعارة الخاصة في العالم حيث تحتوي على أكثر من مليون مجلّد، ولا تتجاوز قيمة الاكتتاب السنوية فيها 150 جنيهًا استرلينيًّا. كانت الملكة الأم هي "الحامي الملكي" لها، الأمر الذي لم يمنع وجود أرقام أربعين من كتب ليون تروتسكي أو ذات علاقة به، من بينها سيرتان لحياته باللغة الفرنسية. كانت الأجواء جميلة إذن وكانت السمعة الطيبة للمكان تقوم بشكل رئيسي على التربية الممتازة للثمانية آلاف وخمسمئة عضو حتى عام 2002 عندما ضُبط وليام جاك الذي نهبها طيلة أربع سنوات كما نهب قبلها المكتبة التي لا تقل إثارة للإعجاب منها، أي مكتبة جامعة كامبريدج حيث كان طالبا. هكذا عرفت مئات الطبعات المختارة بدقة والعائدة للقرن السابع عشر طريقها إلى صالات البيع مثل "الرسول السماوي" و"الحوارات" لغاليليو و"دراسة حول أصل السكان" لمالتوس، وكذلك كتاب لكوبرنيك وكتاب مبادئ نيوتن. كان حكم القضاة شديداً جداً كما يبدو لدرجة أن الشاب لم يقرأ أيا من الكتب التي سرقها.

كانت تلك هي تقريباً أيضاً حالة ذلك الأستاذ المؤهل بمادة الميكانيك ابن الثانية والثلاثين من عمره ووقع لسبب مجهول بحب الكتاب القديم وتعلم اللغة اللاتينية وحده وغدا سارقاً تورط عام 2002 بقضية، على طريقة غاستون لورو، في جبل سانت أوديل. كانت المكتبة ذات القبة في ذلك الدير الذي تأسس في القرن الثامن – حيث أُنجز كتاب "حديقة الإمتاع" الذي رأينا كيف احترق في ستراسبورغ عام 1870– تفقد بانتظام كتبها الأكثر روعة دون أن تستطيع الصلوات والأقفال الجديدة أن تفعل شيئاً حيال ذلك. كان السارق مهذبا يحرص على أن يترك وردة حيث يمر. أمام ذلك القدر من التصميم، تخفّى رجال شرطة واختلطوا بنزلاء الدير، كما نُصبت آلات للتصوير إلى أن لوحظ أخيراً خيال داكن ينسلّ من داخل خزانة كان عمقها المتحرك يفضي إلى باب سري

ومنه إلى حجرة معتمة عُلّق فيها سلم من الحبال. اكتشف هاوي تاريخ العصر الوسيط ذلك الممر في مجلة للآثار. وبعد أن تصفح عشرة من الكتب بسرعة، أعاد الألف مجلّد التي من بينها كتب من فترة الطباعة الأولى ومخطوطات كان قد سرقها بواقع 200 كتاب كل مرّة. وقديما ربما كانت الصحف قد كتبت: "ما هو الحد الذي لا يمكن لارتياد الكتب القديمة أن يوصل إليه؟ تحسّر الشاب في زنزانته". كان القاضي حساساً لفرحه الطفولي أمام الكتب وخاصة أنه أعاد كل شيء، فجنّبه دخول السجن. تساهل ما قبل شانيل وقسوة ما بعدها.

لا يعادل هذا الهاوي، رغم براعة حيلته، شيئاً أمام مدرّبين متمرسين مثل ستيتن بلومبيرغ في الولايات المتحدة الذي جمع في بيته 23.600 مؤلفاً من 268 سجل محفوظات عام وخاص وجامعي من 45 ولاية أمريكية بالإضافة إلى مقاطعتين بكندا[244]. وقام بسرقاته في أغلب الأحيان ليلاً مثل اللص العادي وسعى أيضاً إلى كسب عيشه بواسطة ذلك، لكنه كان يمضي ساعات أثناء افتتاح المكتبات كي يستبدل علامة المكتبة بدمغاته، لذلك قام بابتلاع خاتم دمغته عندما أُلقي القبض عليه. استرجع المالكون كتبهم عندما أمكن التعرف عليها، لكن بما أن السارق كان قد أخفى أو أزال ما يدل على اسم صاحب الكتاب انتهى الأمر في أغلب الحالات بغنيمته الاستثنائية إلى البيع بالمزاد العلني تحت إشراف مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي في مطلع سنوات التسعينات.

لم تكن أغلبية المكتبات تعرف حتّى أن كتبها قد تعرّضت للسرقة، بينما تكرّر حريق المؤسسات العامة الأمريكية لذلك بدت فرائس سهلة للمحترفين. وكشفت عملية جرد مكتبة الكونغرس عام 1998 أن ثلاثمئة ألف عنوان مفقودة أي ما يكفي لتأسيس مكتبة كبيرة في مدينة متوسطة، ويقدّر أن 27 ألف رسم توضيحي اختفت من كتبها للرحلات وعلوم النبات العائدة للقرن التاسع عشر.

اكتشفت المكتبة الوطنية الأرجنتينية بعد أن قبضت على المدعو لويس ألبرتو فيديلا بالجرم المشهود وبحوزته ثماني خرائط كان قد قطعها من كتاب "مسرح الأرض الدائري" أن هناك على الأقل 120 وثيقة لا تقدر بثمن تعود للقرون 17–19 قد اختفت. توجهت أصابع الاتهام للمافيات، وأشير إلى عدم كفاءة العاملين (كان الأمر يتعلق هنا بالأحرى بمكتبة شبح فيها أربعة عشر حارس لأربعين ألف متر مربع كانوا يتناوبون على أساس ثلاثة فرق يوميا، أي أربعة حرّاس بنفس الوقت؛ هذا وقد سمحت تلك القضية لبيونس أيرس — عاصمة الأرجنتين– المرعوبة أن يكتشف أن المليوني كتاب الموجودة في المكتبة الوطنية ليست مصنّفة ولا مؤمّنة، وبالتالي لن تُعرف أبدًا فداحة الخسائر)[245].

تقدّر مصالح جهاز الشرطة البريطاني — سكوتلانديارد– من جهتها أن 4500 من خرائط ومخططات قديمة مفقودة من مجموع المحفوظات الأوروبية. هذا وقد تباع ورقة واحدة من مرجع هام بمبلغ قد يصل إلى 10.000 جنيه استرليني. يقدّم نازعو الخرائط أنفسهم على أنهم علماء يثيرون الضحك دائماً بمعاطفهم الواسعة ويستخدمون ببراعة مباضعهم على حساب التراث، مثل المدعوّ بيتر بيلوود من مدينة "ليدز"، أو خاصة مثل بائع الخرائط القديمة جيلبير بلاند الذي عرف كيف يرتقي أيضاً بفن تقطيعه للخرائط إلى مصاف صناعة في الولايات المتحدة وكندا وربما في المكتبات الأوروبية. وقد روى ميلس هارفي قصته المخزية [246].

تغدو الجريمة أكثر فداحة عندما تستهدف المكتبات المتواضعة. هكذا أصبح الأطلس الكامل المطبوع منذ عدة عقود في عداد الكتب الأكثر انتشارا عندما جرى تقطيعه إلى أجزاء وخرائط ثم عرضه على مواقع مثل "ebay" الذي اكتسب صفة تاجر المسروقات الكوني ببيعه الألواح المسمارية للموصل أو المربعات الصغيرة من أوراق القضيم القديمة المزيّنة بالخطوط التي غدت مثل

جواهر. يبلغ سعر الورقة من أطلس متوسط العمر 50 دولاراً بسبب إعجاب مصممي "ديكورات" المنازل بها. وبصورة عامة، قد تعرف يوما ما الكتب ذات الورق الأصلي (أي المصنوع باليد) وذات الطباعة الجميلة نفس المصير وسينتهي الأمر إلى تقطيعها لصفحات مؤطرة بصفة أنها مخطوطات. بل ربما سوف يأتي ذات يوم دور صفحات أي كتاب مادي بما يمارسه من قوة جذب سامية في عالم فقدت المعرفة فيه طبيعتها المادية.

الـــموت

إذا كان الإنسان قد خلق الإله على شاكلته، فإنه يحق عندها للفيلسوف أن يتساءل: "أليست الجنة مكتبة كبيرة"؟[247].

الميزة الواضحة لمثل هذا الاعتقاد هي قدرة كل إنسان على إقامة فردوس في بيته. من لم يحلم بمجلس للحريم لا خصيان فيه وجدران الحجرة مكسوّة بالكتب حيث يطيب التهام بعض الكلام الجميل بقرب مدخنة وظلال ألسنة النار تداعب بحبٍ ودون ضجيج جلود الكتب؟

لم يكتف ماتياس كورفان أو والتر بنيامين أو أيضاً خانفير خوجا أو شاوشيسكو[248]، بشراء الكتب حسب هواهم فحسب وإنما أيضاً بحفظها حسبما أرادوا من نظام أو فوضى. فهل حياة المرء مجرّد مسودّة لمكتبته؟ نعم دون شك لأنها سوف تتهدّم معه إلا إذا بقي كل كتاب أبديا في موضعه. وكما يذكّر والتر بنيامين: "مثلما قال هيغل تبدأ بومة الحكمة طيرانها بحلول الظلام فقط، وبحلول لحظة انطفاء حياة جامع الكتب يتم فهمه". لم تكن تلك هي حالة "مونتين" إذ قدّمت ابنته كتبه إلى خوري بلدة "أوش" الذي خفّ لبيعها. لقد ضاع كل شيء بنفس الوقت، الكتب والفهرس وأجواء البرج الذي عاش فيه المؤلف "كملك".

يفصح اختيار الكتب عن توجه صاحبها وتدل عليه أكثر طريقة تصنيفها.

قد يستسلم جامع الكتب للحياد اللذيد، ويحكي بروست أن السيد غيرمانتس قام بتجليد جميع كتبه بنفس الطراز حيث رأى دون شك "تقاربًا أكبر بين أوجيني غرانديه وكونتيسة ميرس (كتاب صغير يتألف من 287 صفحة كتبته الكونتيسة ليونيل دوشابريان، منشور عام 1881 لدى دار نشر كالمان ليفي. وكان يمكن معرفة أوسع عن هذا الكتاب لو لم يصبح أسير الميكروفيلم في المكتبة الوطنية الفرنسية) مما هو بين أوجيني غرانديه ورواية لبلزاك ثمنها فرنك واحد".

المثال الأفضل المعكوس مثلته مكتبة واربورغ التي تصل أوصافها أحيانا إلى تخوم العجب العجاب.

كان "آبي واربورغ" هو الابن البكر لمصرفي كبير في مدينة هامبورغ. قال إن اكتشافه لثقافة "الهوبيس" في عين المكان 1895-1896 سمح له أن يغوص ويعلق بشكل أفضل على القرن الخامس عشر الذي كان أصلا قد عرفه جيدا. امتلكه الشغف بالكتب منذ ولادته تقريبا، إذ عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره اقترح على أخيه ماكس أن يتخلّى له عن حقوقه بصفته ابن بكر مقابل التزامه بدفع فاتورات الكتب التي يشتريها. أخلّ ماكس بذلك الاتفاق. وعندما بلغ "آبي" بالكاد سن البلوغ عام 1889، حصل من والده على مساعدات كافية من أجل تأسيس مكتبة للبحث أمضى حياته كلها في تطويرها... وتصنيفها.

امتلك "واربورغ" في عام 1911 خمسة عشر ألف مجلد أنهكه "نقلها دون توقف". لقد دفعه كل تقدم في نسقه الفكري، وكل تفكير جديد حول تداخل العلاقات بين الأحداث إلى تغيير مواقع الكتب بالتناظر مع ذلك"[249]. ورأى أن "الكتاب الذي يجري البحث عنه ليس بالضرورة هو الكتاب الذي تدعو

الحاجة له". كانت جميع منظومات التصنيف تتبنّى عندها النظام الذي أسسه باكون (1605) وتبنّاه "جامع الكتب" نوديه في عمله الشهير "أدفيس" وبعده دالامبير ثم برونيه عام 1810. أو على العكس تتبنّى التصنيف العشري لـ"ميلفيل ديواي" الذي ظهر في نهاية القرن التاسع عشر (أصبحت الكتب المصنفة بأرقام تبدأ بـ100 تخص الفلسفة وبـ200 الدين و300 العلوم الاجتماعية...)، وهو نظام "باكون" مقلوباً ولا يزال ساري المفعول في العالم اليوم لأنه يدل بنفس الوقت على نوع الكتاب ومكان وجوده (قامت مكتبة "هوتيل ليبراري" التي فتحت أبوابها حديثا بالقرب من مكتبة نيويورك العامّة بتصنيف الكتب الموجودة في طوابقها العشرة حسب هذا النظام). جعل آبي واربورغ من حياته عن وعي عملا فنيا كمن في إعطاء دلالة أكبر للكتب من خلال تجاورها إذ كانت "كتب الفلسفة إلى جانب كتب علم التنجيم والسحر والفنون الشعبية-فولكلور، والأقسام الخاصة بالفن بالقرب من الأقسام المختصة بالأدب والدين والفلسفة. كانت دراسة الفلسفة لا تنفصل بالنسبة لواربورغ عن دراسة الذهنية المسماة بدائية ففي دراسة اللغة المصوّرة للدين والأدب والفن، كذلك لا يمكن فصل أي من هذه المشارب عن غيره"، حسبما قال المدير الأول لمكتبته "فريتز ساكسل". وهذا ما زاود عليه الفيلسوف إرنست كاسيرر بالقول: "برزت من تعاقب الكتب بوضوح أكبر وباستمرار سلسلة من الصور والمواضيع والأفكار الأصيلة التي استطعت أن أميّز في النهاية خلف تعقيدها الصورة الواضحة والغالبة للإنسان الذي أسس تلك المكتبة ولشخصيته بصفته باحثًا واعدًا بنفوذ عميق".

أصبح منزل واربورغ الواسع خلال سنوات العشرينات دهليزًا من الكتب المحشورة حتى في أصغر الزوايا. وتوجبت إشادة بناء جديد مصمم خاصة من أجل إبراز التوجه الفكري الذي مثّلته تلك المكتبة ومسارها. فتحت المؤسسة في عام 1926 أبوابها للباحثين بمحتوياتها التي قاربت مئة ألف مجلّد موزّعة بين أربعة

فروع تخص الفعل والكلمة والصورة والتوجه. توفي آبي واربورغ بعد ثلاث سنوات. ثم حدث بعد ثلاث سنوات أخرى حريق كتب برلين. لكن أمكن بفضل البراعة الحازمة لمديرها وللعائلة اليهودية إنقاذ مجموعة منتخبة من 60.000 كتاب في اللحظة الأخيرة ووُضعت في 531 صندوق رحّلت على عجل إلى لندن ونقلت من مستودعات (أثناء الحرب) إلى أماكن ملائمة إلى هذه الدرجة أو تلك، وعرفت بذلك الكثير من الحل والترحال. ويزعم اليوم معهد واربورغ في ساحة ووبورن أنه يعكس "الفكر الحي" للمؤسس بوجود 350.000 عنوان، مصنّفة حسب الأقسام الأصلية الأربعة بينما لم يودع آبي واربورغ جسده في البناية المنمّقة التفاصيل فحسب ولكنه أودع أيضاً مخيلته مثلما قيل في "الحرية الكبرى"، اشترمّا بعد ذلك بلدية هامبورغ من أجل معهدها لتاريخ الفن.

يحطم تشتت مجموعات الكتب وثاقها ويلغي قيمتها المضافة إذ عندما باع صلاح الدين كيفما اتفق المكتبة الفاطمية في القاهرة لاحظ أحد معاصريه أولا بأول اختفاء النظام الرائع الذي كان يميّزها. وعينك ترى المكتبة المدمّرة لأندريه بروتون الذي نجح في الجمع بين كتب لا يمكن التوفيق بينها مثل كتب غراك وغوركي أو كتاب "المدفع الصغير" والدكتور غروك، الابن. لم يكن الأمر يتعلق سوى بتقارب حسب التسلسل الأبجدي؛ وكان يلتقي دائماً لدى الكاتب الشهير القديمُ مع الرفيع خلفه، أو العكس. زد على ذلك أنه لم يظهر سوى الجزء المذهّب من جبل الجليد أثناء عملية البيع الشهيرة عام 2003 إذ شكّلت كمية كبيرة من الكتب التافهة في شارع فونتين، ستارًا صارخا لما كان الخبراء قد استخرجوا منه ما هو ثمين بنظرهم. وربما أن ابنة الكاتب، المساعدة الاجتماعية حسبما كتبت الصحف، قد أهدت قبل قيام الخبراء بتفتيشهم الدقيق صناديق كاملة من كتب الجيب من بينها كتاب "الدليل الأزرق لمنطقة بروتانيا" المجرّد من أية دلالة على مالكه. فمن يقرأه اليوم وقد أصبح عتيقا مرتين؟ لقد

أكّد الشاعر رونيه شار بطريقة فيها شيء من الهزل أنه "يعيش حيث كان كتابه العتيق موجوداً".

قد تكون المكتبة الوطنية المصرية هي الوحيدة في العالم التي تقترح على الباحث مكتبة مهداة، إذ بدلاً من ضم مؤلّفات المكتبات الموروثة من الكتّاب الكبار إلى مجموعات الكتب العامة، تقوم بعرض كل واحدة من المجموعات الثلاثة والثلاثين كما هي للباحث على رفوف تشبه الصوامع وتحمل اسم المؤلف الراحل. يسمح مثل هذا الإجراء بزيارة مكتبة المكتبات وتجوال النظر فيها بالتتالي بين مجموع من جلود الكتب الرائعة المصقولة، وصفوف متوازية من الظهر يكسوها قماش قطني أسود دون عنوان لكنها مرقّمة بشكل واضح، أو على العكس بين مجموعات من الكتب المربوطة بأسلاك وبالية بسبب كثرة تصفحها وتعلوها الصفرة نتيجة التشرب بدخان التبغ. تمثل كل مكتبة منها صورة كاملة لصاحبها السابق. وتتواجد غالبا نفس المؤلفات في مكتبة وأخرى، لكنها مع ذلك ليست نفس الكتب. ولا شك أنها فُهمت بشكل مغاير.

بالمقابل قد يأمر جامع الكتب، الذي سوف تذوب ذراته غدا في ذرات الكون الأخرى، بخلط المؤلفات التي امتلكها دون أية علامة مميزة مع كتب أكبر مكتبة في البلاد، مثل رماد الميت عندما يذرّ فوق تربة البساتين. بهذه الروحية تخلّص الراوي في "كتاب الرمل" دون أن يدري به أحد من كتاب أربكه على رف من رفوف المكتبة الوطنية "محاولاً عدم النظر على أي علو كان أو على أية مسافة من الباب". وكان هذا ما أمر به "جورج لويس بورخيس"، مؤلف الأقصوصة المعنية – كتاب الرمل– كاتبه العدلي المكلّف بتنفيذ وصيته المتعلقة بمجموع مكتباته المتواضعة والمبعثرة، كما جاء في إحدى الإشاعات العديدة التي أحاطت به.

على النقيض من ذلك تماما كان مثال أبو حيّان التوحيدي[250].

ولد فـــي بغداد وتوفي في شيراز احتمالاً عن عمر يناهز المئة سنة (عام 1023)، بعد أن أمضى حياته في إجادة استخدام القلم وكان نسخ عشر صفحات يؤمن له عشرة دراهم أي ما يكفيه قوت اليوم التالي. كان الوزراء يتقربون منه ويترددون عليه ثم ينتهي الأمر بهم إلى طرده. يجدر القول إنّ نقاشاته كانت من بين الأكثر عمقاً وسرعان ما كانت لهجتها تحتدم بعد تبادل عدد من الأفكار والجمل. درس التوحيدي في الواقع العقيدة الإسلامية والأفكار الصوفية والفلسفة، وبكلمة واحدة أصبح "زنديقا" في فترة كانت الزندقة فيها تعني الموت. وكانت لباقة خطابه المثير للإعجاب قد أخّرت لفترة طويلة المساء "الذي ستغرب فيه شمس حياته"، على حد قوله.

ألّف العديد من الكتب من بينها "الإمتاع والمؤانسة". وكان محبوباً جداً فكتب في صدر مقدمته حول الصداقة الكلمات التالية: "من الأجدى الاقتناع أولا أنه ليس هناك صديق، ولا ما يشبه الصديق". وعندما طعن به السن أكثر من جميع أصدقائه الحميمين الذين فارقوا الحياة، أضرم النار في مجموع مكتبته وكتب ما مفاده: "يعزّ علي أن أترك هذه الكتب لأناس قد يسخرون منها، ويمسّون شرفي بقراءتها وقد يثلج صدورهم أن يجدوا فيها، وهم يتصفحونها، نقصا أو خطأ".

الفصل الثاني عشر

عوائق الحداثة

"الحالة المثالية هي منع مستخدمي الكتب من الدخول إلى المكتبة" .

أمبرتو إيكو

كان منقار الغراب الدامي ينبش في أحشاء الحمامة المختلجة. ذلك هو المشهد القاسي الذي كان يتفرج عليه من خلف زجاج رواق المكتبة الوطنية في باريس، دون إمكانية فعل شيء، جمع يضم طالبتين يابانيتين شاحبتي الوجه وعجوزًا أمريكيًا بنظارتين واسعتين من البلاستيك الأصفر وطالبين أو ثلاثة طلبة أحدهم تزين وجهه لحية. كانوا باحثين في المكتبة صرفهم عن اهتماماتهم العلمية ذلك الحدث الصغير لعصفور يصارع الموت بعد أن صدم الكوّات الكبيرة التي تحيط بأشجار الأيكة المركزية وكأنها مرابط للدراجات في أحد أحياء الضواحي (يلقى 200 عصفور مثل هذا المصير سنويا كما تقول الإدارة. خطرت فكرة إنشاء أبراج للصقور الجارحة في أعلى المكتبة على أساس أنها مصدر رعب كبير للغربان والحمائم والزرازير. لكن من سوف يرعب الصقور لاحقاً؟). أُلصقت

أخيراً على الحواجز الزجاجية للحفرة هياكل نوارس زرقاء كي لا تقع الطيور في فخ الشفافية فيما وراء الجذوع. فهل ستتنبأ الحمامة في المرة القادمة بالخطر الكامن أمامها بعد الصنوبرة الأخيرة وظلالها الوافرة؟ وهل ربما كانت هياكل الأسماك الحمراء أكثر فاعلية؟

يترك المهندس المعماري دائماً بصماته بما هو جيد وما هو سيئ، سواء كان ذلك في الإسكندرية أو مونريال أو تولبياك (في فرنسا) أو سان فرانسيسكو. وقد أشار مؤرخو البناء كلهم إلى أن البعد المعماري قد يتم على حساب وظيفة البناء المعني. لكن يمكن لهذا البعد أن يصل إلى حد الجريمة عندما يتعلق الأمر بالمكتبة. ومثلما ينسى القارئ وجوده المادي في القراءة والتفكير ينبغي أن يتم رسم محيطه بعناية فائقة (باستخدام الممحاة أكثر من القلم) فالوهم يقتل الفكر. هكذا صُممت وبُنيت مكتبة "تولبياك"، ليس بإقصاء مستخدميها وأمنائها وقرّائها فحسب، وإنما أيضاً بإقصاء وزارة الثقافة وأبسط مثقف. كانت النتيجة مفرطة في السوء منذ المجسّد الأول، فهل يُعقل أن لا يكون هناك أحد المالقين كي يلاحظ أن رؤية كتاب بوضعية الوقوف ومفتوح مثلما ترمز له الأبراج الأربعة، هي أمر مؤرق لمحب المكتبات؟ ويمكن عندها تخيل حوار مغلوط وزاخر بأشكال سوء الفهم بين صاحب القرار المريض الذي فقد صوابه بسبب قراءة "الجبل — الكتاب– المماثل" والمهندس المعماري الذي شعر أن تلك كانت هي فرصته الوحيدة كي يتجاوز ذاته بينما هو الذي سيتم تجاوزه بعد حين بسبب تقلب الرأي لدى الدولة. بدا أن الجميع قد اتفقوا على نقطة واحدة هي أن من يتطلع إلى المعرفة إنما هو هنا كي يعاني منها. إنهم سيبنون له سجنًا بالإضافة إلى مخاطر مدخله (يشكّل الاستحسان الإنساني للوسط المعادي قوة لا تستطيع الهندسة المعمارية فعل أي شيء حيالها. فعل هذا التبدل الطبيعي فعله في تولبياك ابتداء من الأسفل إذ جرى تبديل جميع أحواض المراحيض من الفولاذ الباهظ الثمن والمكرّسة للتذكير بسجون الإصلاح ذات الأمن العالي بأحواض

من السيراميك الأبيض البورجوازي بامتياز). وفوق كل شيء تقع أقرب محطة مترو له، وذات التسمية التي تقارب الدعاية الكاذبة، على بعد 712 خطوة بالنسبة لشخص يمشي بخطى كبيرة ومعه مقياس سرعة العدو، وأثناء طقس جميل.

روي الكثير عن هذه القصة المأساوية للأزمنة الغابرة مثلما فعل جان مارك ماندوزيو وآخرون وكان وصفه أهون من الواقع على الرغم من مسحة مرية قليلاً من البغض الشخصي برزت أحيانا؛ ورواها أيضاً فرانسوا ستاس بطريقة مغايرة تماما أو تكاد تكون[251].

شهدت مكتبة "تولبياك" لاحقاً وجود قاعة كبيرة مضاءة جداً للقراءة مثلما أوصى جاك فرانسوا بلونديل وتلميذه "بوللي" بدلاً من الأشجار الميتة منذ زمن طويل في المستوى المسمّى "أعلى الحديقة" على طريقة القرن السابع عشر، فعاد الطلبة إلى المكتبات الجامعية عوض الاستيطان في مكان تدّعي الأساطير أنّه بُني من أجل الشعب ولم يتصفحوا فيه أي كتاب، وأنقذت قبة عاجية رائعة رسمها أحد تلامذة نورمان فوستر الفراغ المهدور والمتوازي السطوح بين الأبراج الأربعة كما لطّفت من الهيكل العام. يذكّر هذا قليلاً باسطنبول. وتستقبل هذه القاعة الفرعونية ذات الثلاثة آلاف قبة، والمزخرفة والمزينة وفق الذوق اللابروستي الجديد **néolabroustien**، الطالب الحريص حقيقة على الكتاب أو الباحث عن نبش الفكرة النادرة. إن عشرات الملايين من مجلّدات المكتبة الوطنية مجموعة اليوم في عدة هكتارات على مستويين تحت قاعة القراءة، كما ينبغي. هكذا يمكن للكتب أن تنتقل في الاتجاهين خلال أربع دقائق عبر المخازن المركزية. ويتم الدخول إلى الموقع، من الشارع مباشرة، بسبب عدم توفر الطريق المنحني عبر أبواب موجودة على جوانب دكة المبنى، مثل الرواق الأمامي الموجّه أصلا باتجاه الرصيف لاستخدام العربات الخاصة للموظفين. وتحتوي الأبراج التي

استعادت شفافيتها اليوم المكاتب ومصالح المعلوماتية التابعة للمكتبة الوطنية الفرنسية على الإنترنت. ويجري أحياناً تنظيم معارض ورود الجيرانيوم (من فصيلة الغرنوقيات) على المدارج الخشبية المواجهة لنهر السين، أمام دهشة أوروبا.

تبقى ميدالية أكبر فضيحة في تاريخ المكتبات العامة هي من حظ مدينة سان فرانسيسكو وبفارق كبير قياسا إلى المكتبة الوطنية الفرنسية. إن ذلك المبنى الجديد، المقلّد للأسلوب الجامد والمتحذلق المسمّى "فنوناً جميلة" باللغة الإنكليزية والذي بلغت كلفته 126 مليون دولار، قد أوفى بوعوده عام 1996 أن يكون طليعيا في تاريخ القراءة. ذلك أن الإدارة، بسبب عدم قدرة استيعاب الثلاثة ملايين كتاب، أمرت سراً بإرسال جميع الكتب التي لم يتم تصفحها منذ ست سنوات إلى أحد مراكز جمع القمامة واستأجرت عدة مستودعات في الأقبية لتخزين ثلث مجموعات الكتب المتبقية بانتظار وضع أفضل. أشارت بعض المصادر[252] إلى أن عدد الكتب التي أتلفت عشية تدشين المكتبة يتراوح بين 200.000 و500.000 مؤلّف. لكن سوف تحظى بالإعجاب هنا عملية التوفيق المخيف بين القوتين الفتيتين المتمثلتين في الإبداع المعماري وحب الكتاب الذي نُفي عنه بُعده المادي. وعندما عرف العالم كله بذهول كبير أن المكتبة البريطانية قد فعلت الشيء نفسه عُرف أن الإبادة الكبرى للمكتبات قد بدأت.

إذا كانت مدينة سان فرانسيسكو لم تستطع مقاومة تزويد نفسها بأداة غريبة تحت رعاية أحد الرموز الروحيين للخيال العلمي (كينث و. داولن الذي ألّف منذ عام 1984 كتاب "المكتبة الإلكترونية" المهملة أصلاً) بينما ربما كان البناء على "الطريقة القديمة" أقل كلفة بعشرة أضعاف، فإنها ساهمت حتما برغبة هوليودية بالظهور. ليس هذا فقط، بل هناك في العمق روتين أمريكي محض لميل لا يزال قليل الشيوع (أو مخبأ بعناية) لدى بقية أصحاب المكتبات، هو "عدم

الحيازة"، أو كيف تتخلص من الكتب.

إذا كانت كلمة "الحيازة" ***accession*** تعني باللغة الإنكليزية زيادة موجودات المكتبة بكتاب فإن كلمة "عدم الحيازة" ***deaccession*** تعني إنهاء هذه الزيادة وحذف عنوان هذا الكتاب من الفهرس "الكاتالوغ"؛ ومن الشائع أن يُقرأ في فهارس باعة الكتب الأمريكيين أن هذه النسخة أو تلك "ليست في الحيازة" بل وهناك باعة متخصصون في الكتاب المُشترى من المؤسسات العامة حيث تبيّن الدمغة التي يحملها مصدره بشكل ما. وبما أن الكلمة الفرنسية لـ"الحيازة" ***accession*** هي "الاقتناء" ***acquisition*** فقد يجوز اقتراح عكسها كلمة "عدم الاقتناء"، وتميل بعض المكتبات إلى استخدام كلمة "غير مملوك" أو "غير مخصص". إن التردد اعتراف بالواقع بحد ذاته.

المكتبات في الولايات المتحدة هي مؤسسات تلتمس المساعدات والتمويلات بصورة مستمرة. ويتمثل أحد مشاغلها الرئيسية في إثراء مجموعاتها من الكتب، وبينما يشكّل عدم توفر المكان الكافي لتخزين المجموعات الكبيرة من الكتب شاغلاً آخر، ويزيد ثمن المتر المربع من تعقيد الوضع. تقود هذه العوامل مجتمعة إلى فكرة بسيطة هي بيع الكتب أو إلقاؤها؛ ويتم إعدامها عند ذاك بواسطة التمزيق، وهذه كلمة من عالم صناعة الورق تعود إلى زمن الخرق (كان يقال في فرنسا "نسل الخيوط" ***défilage***). وتنفر مؤسسات عديدة من الحديث عن ذلك التصرف مع أنه يظهر في حساب البيانات النهائية إذ في موقع غير بعيد عن الرقم الدال على العدد الإجمالي للكتب المحصّلة خلال السنة يدل رقم آخر على المؤلفات المفهرسة، والفرق بين الرقمين هو عدد الكتب الضائعة[253]. وتعترف جمعية المكتبات الأمريكية ذات النفوذ أنه ليس هناك من يعرف أين ومتى بدأت الظاهرة وليس هناك أية إحصائية، وهناك لدى المكتبة عدد هام من الطرق موجهة للمبتدئين للتخلي عن الكتب. وكان المدعو دافيد

ج. أندرسون قد اضطلع بإيجاد الذريعة مثلما تدل أراشيف الجمعية التاريخية الغليغانية الأصل، إذ قال: "ينبغي على كل مؤسسة (أو جامع كتب) تبنّي سياسة التخلص من الكتب من أجل تنقية مقتنياهَا من الأعمال الثانوية أو السطحية وإعادة استخدام الأموال المحصّلة في تطوير مجموعة الكتب أو صيانتها. هذا مجرد إدارة جيدة". ولا داعي للتنقيب طويلاً في الإنترنت لاكتشاف أن جامعات إيلينوا أو بيرمنغهام أو ألاباما أو المكتبة العامة في سياتل (ما بين 75.000 إلى 100.000 نسخة معروضة كل مرّة) ومكتبات أخرى دون شك، تعرض في نهاية شهر أكتوبر بيعًا سنويًا للنسخ المزدوجة أو التي عفاها الزمن (اندثرت موجتها. اختار موقع WWW.librarybookssales.org شعارا له: "الجميع رابحون"). لكن يُستشف من تعليقات دافع الضرائب الأمريكي امتعاضًا أكيدا. بكلمة واحدة، من سيجد الرغبة في التخلّي عن مكتبته العزيزة لمثل هذه المؤسسات؟

تخلّى "با جين" عن مكتبته ومخطوطاته إلى ثلاث مؤسسات هي: متحف الأدب الحديث ومكتبة شنغهاي والمكتبة الوطنية في بكين. وقام بتسليم حوالي 30.000 جزء على دفعات عديدة بواسطة سيارة ابنته ما بين 1980 و1982. حملت النسخ كلها توقيعه إذ كان كلما اشترى كتابا يُخرج من جيبه قلم حبر ويبلّ ريشته بلعابه كي يدوّن اسمه عليه. وذات يوم من خريف 2002 وقع "لي هوي" الصحفي في جريدة "رينمن ريباو" على نسخة من مجلة قديمة تعرّف فيها على التوقيع المخطوط. فاتصل هاتفيا بابنة "باجين" وكانت جميع نسخ تلك المجلة قد أُعطيت للمكتبة الوطنية. في اليوم التالي اتصل بها عشرة قرّاء ليخبروها أنهم قد استطاعوا هم أيضاً شراء كتب كانت تعود لـ"باجين".

كانت المكتبة الوطنية قد تلقّت من الكاتب 3274 مؤلفاً (منها مثلاً مجموعة فريدة من الأعمال الكاملة لتولستوي) ومخطوطات من بينها المجلّد

الخامس الأخير من الوقائع الشهيرة لـــ"سويغز يانغلو"، بخط الريشة. أراد الأبناء الحزينون استعادة كل شيء بغية إعطائه كما يبدو لشنغهاي. كان "با جين" ابن المئة عام تقريباً في المستشفى آنذاك و لم يجرؤ أحد على أن يفاتحه بما جرى. تردد "لي هوي" منذ شهر ديسمبر 2002 على مكتب مدير المكتبة الوطنية الصينية كي يسمع رأيه لكنه لم يجده أبداً. حلّ عندها الوباء الرئوي القاتل "سراس" في اللحظة المطلوبة كي يحرمنا من بقية المسلسل وكي يعطي درساً رهيباً للسلطات الصينية التي كانت ترى في المحافظة على السرّ أحد المكونات الضرورية للإدارة الجيدة[254].

هل ترمي المكتبات الفرنسية كتبها أم تبيعها؟

تقسم المكتبة الوطنية أنها لا تفعل ذلك إذ إنها محصورة بين نزعتها نحو الموروث والإيداع القانوني، وليس أمامها سوى أن تحتفظ بالكتب وتتضخم حتى الانفجار أو تهب النسخ المزدوجة لشريكاتها في المحافظات. ويتم بهذا الخصوص الحديث عن التخلص من الكتب الرديئة أو ما يسمّى "تعشيب" *désherbage* فيما وراء بحر المانش (إنكلترا) وما وراء المحيط (أمريكا)، وهذه كلمة تدل بشكل عفوي غير مألوف على أن الكتب التي يتم تقديمها تعادل الأعشاب الضارة. يبدو بالمقابل أنه يحق لمؤسسات البلاد الأخرى أن تجني بعض المال من العملية بعد قيامها بنزع الملكية حسب الأصول وبعد البحث الدقيق حول كل عنوان من قبل لجنة مختصة؛ هذا ما تلتزم به جامعة غرونوبل بينما لا تفعل بواتييه أو برست أو شامبيري؛ بكل الأحوال المسألة ليست سوى مجرد جعجعة لا طائل منها. أخذ القسم الخاص بالتخلص من الكتب الرديئة أربع صفحات محشوّة جيدا في التقرير السنوي الذي أعدّته المفتشية العامة للمكتبات حول نشاط عام 2000 حيث اعترف أحد محرريه المصاب بحساسية حيال الكتاب قائلا أن المكتبات التي زارها: "أثارت دهشته مراراً وتكراراً من حيث

تراص رفوفها وما تعرفه من ضغط". ويُقرأ في نفس التقرير: "لا تزال الإجراءات القانونية المرتبطة بعدم ملكية الوثائق المتلَفة غير مطبقة عامة إلا بشكل سيء"، وما بين عمليات الإقصاء في المخزن والتلف والهبة والبيع "ربما كان البيع هو الأقل شعبية"[255]. لكن هذا ليس أكيداً.

لا تنفر المكتبات النادرة التي لا تزال تمارس عملية الإعارة (تبددت كتب المكتبات الجامعية كثيرا بسبب ذلك)، مثل مكتبة بلدية غرونوبل، من الخوض في الموضوع وتُعدّ أثناء المداولات في المجلس البلدي قوائم بالكتب المهترئة بسبب الاستعمال أو التي يتم اعتبارها مهملة قبل القيام بعملية البيع السنوي أو الإتلاف أو الهبات (مثلا لجمعية معنية بالتطوير الثقافي في بلد معوز معيّن). وتحدد السعر بالنسبة للجمهور العام من 0,15 يورو للكتيب إلى 7 يورو للموسوعة ومرورا بـــ0,80 يورو للروايات الحائزة على جائزة الغونكور. يتجمع الزبائن في صفوف منذ الصباح، ويبدون ميلا كبيرا نحو سلسلة "ماذا أعرف؟" *Que sais-je?* ويحصل كل شخص على أربع مجموعات من الرسوم المتحركة تحديدا كمحاولة لردع بائع الكتب. يثير هذا النوع من البيع فضيحة عندما ينظّم في مقرات المكتبات نفسها، بينما تكون الفضيحة أقل كثيراً في الأمكنة الأخرى؛ وينبغي إغراق المدينة بالمنشورات من أجل شرح الحدث الطارئ أكثر مما هو من أجل الترويج له. لذلك تفضل غالبية مكتبات البلاد، دون شك، إرسال كتبها مباشرة إلى الإتلاف الذي يتطلب عملاً أقل بمئة مرة ويحاط بكتمان شديد وكأنه عمل معيب.

قد يمكن التعرض لفضيحة بواتييه بملء الحرية إذ "عرضها التلفزيون". ففي شهر أغسطس من عام 1989 مليء فجأة صندوق قلاّب موضوع في الباحة بين المكتبة البلدية وكلية الحقوق بعدد كبير من المجلدات العائدة للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر. أخذ منها المدرسون فيها ما يريدون بفرح كبير. كان يمكن

للقضية أن تظل في تلك الحدود لو لم يقم صاحب مكتبة معاد لرئيس البلدية بإخبار الصحف المحلية أن بلديته قد تخلّصت من الكتب من أجل نقل سجل المحفوظات قريبا. أثار ذلك ضجة كبيرة. وكان على مديرة المكتبة التي عادت على عجل من عطلتها، قبل أسابيع فقط من إحالتها على التقاعد، أن تواجه الصحافة والإجابة على موفدي السلطات العليا بينما عُيّن أمين عام بسرعة لإعادة النظام إلى المؤسسة. لزم عام كامل من أجل العثور على بعض الكتب "الشاردة" واسترجاعها من أساتذة القانون الذي كانوا يتصرفون على هواهم وكأنهم في بيوتهم، بكتب تحمل دمغة "مكتبة بواتييه" و"ملك للبلدية" فيما يشبه السرقة. قال جان ماري كومت الأمين العام الموفد على عجل: "إذا اكتشفتم كتابا ممهوراً بمثل هذه الدمغة لدى أحد بائعي الكتب ولا يحمل الخاتم الذي يدل على حذفه رسمياً من الفهرس، فيمكنكم أن تضعوه تحت إبطكم وتخرجوا به دون أن تدفعوا ثمنه مبدئياً". فما الذي جرى في بواتييه؟ هل أصيب نائب المديرة بنوع من الاحتقان الحروري مثلما يحدث غالباً في الوظائف العمومية خلال شهر أغسطس؟ هل كان يتمنى العمل واستباق المهمة الخارقة، كما تصور، لنقل الأمكنة مستقبلاً؟ لم يكن محبوباً، وتركه زملاؤه عرضة للخطر دون أن يقولوا شيئا. وأشار تقرير الخبراء إلى عدد من مواطن الخلل في طرق العمل وفي النفسيات. وبرّأ تقرير "هوشيه" رئيس البلدية من أية نية سيئة. كل شيء جيّد عندما ينتهي إلى ما آلت إليه الأمور، إذ لم تعد هناك مكتبة بلدية في بواتييه وإنما مركز فرانسوا ميتران الإعلامي، الذي لا يقارن بتلك المكتبة. ثم إن إدارته لا تجيب أبدا على طلبات المعلومات الخاصة بالقضية.

تدرك المكتبات الآن أنها فانية، وما تخشاه فوق كل شيء هو الانفجار.

وتوضع الإصبع هنا على وباء جديد هو التضخم الاستثنائي للنشر. إذ هناك مئات الآلاف من العناوين تضاف كل سنة لعناوين السنة المنصرمة ولا

تتبدّى فائدتها وضرورتها بوضوح إلا للناشر وقليلاً للموزع وأحياناً للمؤلف (يُقرأ في فهرس "ستاس" أن المكتبة الوطنية الفرنسية تستقبل كل عام 50.000 نسخة بواسطة الإيداع القانوني وتشتري نفس الكمية من الخارج. هذه الكتب الأخيرة يتم اختيارها بعناية جادة إذ إنها مدفوعة الثمن، فهل يمكن تخيل أن تصبح مجموعة الكتب الفرنسية ذات يوم مرادفة للفاقة إلى جانب مجموعة مفيدة وذكية بلغات أخرى؟ هناك عزاء بسيط هو أن المسألة قد تُطرح بشكل معكوس في لندن أو غيرها). لكن الاستعراض مستمر كما جاء في دراسة عام 1982 اعتبرت أن 100 مليون كتاب جيب (صغير) يتم إتلافها سنويا من قبل الناشرين الأمريكيين: "هناك صناعات قليلة أخرى تعتمد على الإتلاف الروتيني لنصف إنتاجها من أجل توسيع السوق."[256] ولا يمكن وضع العناوين الجديدة على رفوف المكتبات وأعمدة الصحف والفهارس، في المكتبات إلاّ على حساب مؤلفات أخرى كانت قد عالجت وبشكل أفضل الموضوع بعينه. هذه المكتبة المتضخمة تتغذى بشكل ما من المكتبة المتضائلة المؤلفة من كتب ربما كانت أفضل للقراءة من عمل حاز على جائزة أدبية أو دراسة نُشرت ذات يوم. وكلمات "العاصفة" التي أُطلقت على شبكة إنترنت المكتبة الوطنية الفرنسية أسقطت أكثر من 120 رقمًا من أرقام الوثائق ذات النزعة المعاصرة قبل أن تبرز أعمال شكسبير من الأوساخ وأعمال كاليبان من الهراء.

هل غدت المكتبة مجنونة أمام ما تنبغي تسميته بالكارثة؟ تقرع قضية المكتبة البريطانية خاصة ناقوس الخطر من خلال الضجة الكبيرة التي أثارتها اعتبارا من صيف عام 2000 عندما كشفت الصحافة أن 80.000 كتاباً على الأقل قد رُميت[257]. وكانت هذه المؤسسة العريقة التي بلغ عمرها 340 سنة قد وجدت صعوبة كبيرة في قبول عملية مغادرتها مبنى المتحف البريطاني الرومانسي ذا القبة الدائرية إلى مكان آخر لا يملك نفس الرفعة، مما أثار موجة من العداء

ووصفتها الصحافة على صدر صفحاتها الأولى مثل صاحب جاه ملكي عادي يبيت خارج المنزل. زاد الطين بلّة الاستعاضة عن مديرها بامرأة على خلفية إشاعة حول خصخصتها. وإن كل مواطن بريطاني يحرص حتى لو كان جاهلاً على أن تبقى مهمة هذه المؤسسة هي "مكتبة الملاذ الأخير" بحيث لا يغيب عن رفوفها أي مؤلّف موجود في المملكة المتحدة. يبدو أن باحثاً عنيداً إلى حدّ ما وكاتباً معروفاً قد وجد خمسة كتب ممهورة بعبارة "مهملة" وطالب العودة إلى تطبيق التوجيه القاضي بكتابة تعبير "اختير ليبقى دائماً" كما جاء في عنوان أعده عام 1989 أمين مكتبة جامعة نيوكاستل. زاد الحنق كثيراً عند معرفة أن مهمة تنقية الكتب قد عُهد بها إلى أمناء مكتبات مبتدئين وتعاظم أكثر أمام موقف الإدارة الجديدة التي كانت وراء إشاعة مفادها أنه جرى التخلي عن تلك الممارسة بسبب نقص العاملين. لم يكن ذلك كافيا بالفعل. وانتهى الأمر بمدير مجموعات الكتب، المدعو لأسفه رتشارد برادبَري، إلى إخراج المكتبة الوقورة من تحفظها عبر بيان مقتضب من ثلاث جمل جاء فيه اختصاراً أنه لم يتم إهمال أي كتاب نادر أو مصدره الإيداع القانوني. ثم هدأت موجة الغضب التي أثارتها أوهام قديمة.

انفجرت في عام 2001 ، انطلاقاً من الولايات المتحدة، فضيحة الصحف الأجنبية العائدة لبداية القرن العشرين ومفادها أن المكتبة البريطانية قد تخلّصت من تلك الصحف دون ضجة كبيرة في عام 1997 أيضا. كان وراء الكشف المقلق عن الخبر نيكلسون باكر، الكاتب المعروف بأشكال غضبه حيال النوايا الظالمة وذات الدلالة، مهما كانت قليلة وصغيرة، على انحرافات الحداثة — مثل نافذة النار البلاستيكية الأخف من قشّة والتي لا تستطيع بالتالي الغوص وحدها في الكوكاكولا—، وهو أيضاً كاتب معروف بفضل أعمال أخرى من بينها كتاب جريء أكسبه ثروة وشهرة. لقد كشف أن لندن احتقرت 60.000 مجلّد "بسماكة أحجار القرميد" من الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية المجلّدة التي

تضم صحفاً روسية ثورية أو ألمانية تعود لسنوات العشرينات أو فرنسية من زمن الاحتلال، كما تضم أوراقا أمريكية رائعة من عام 1900 من ملاحق نهايات الأسبوع مطبوعة بأربعة ألوان مثل ورلد "*World*" أو "شيكاغو تريبيون" ***Chicago Tribune*** من زمن المافيوزي آل كابوني **Al Capone**؛ وأثبت تحقيقه أن جميع أراشيف الولايات المتحدة قد خلّصت مخزوناتها من تلك الكتب النصفية المربكة بعد أن صورتها على أفلام بالأسود والأبيض، لذلك اشتراها باكر كي يؤسس بالقرب من سكنه في "نيوهامبشير" مخزن الجرائد الأمريكية.

دُفع ثمن مجموعة إصدارات "شيكاغو تريبيون"خلال سبعين سنة 36.000 دولارا، بينما بيعت السلسلة كاملة على ميكروفيلم بمبلغ 177.000 دولار. كتب باكر: "نعيش لحظة غريبة من التاريخ إذ يمكنكم الحصول على الشيء العياني بمبلغ أقل كثيراً من السلسلة السخيفة من الصور بلون واحد التي تمثله على فيلم ولا تمكن أيضاً قراءتها دون آلة". كانت المكتبة البريطانية واضحة جداً بالنسبة للباقي إذ كان سيتم إرساله للإتلاف وتحويله إلى عجينة للورق. ويبدو أنه ليس هناك أية مكتبة في العالم قبلت المجموعات المقترحة عليها حتى مجاناً.

كان دوستويفسكي يرى في تنوع صفحة الجريدة وخليطها أفضل صورة للطبيعة المتعددة للحياة. أمّا عملية استكشاف النيويورك تايمز لعام 1945 على ميكروفيلم في المكتبة الوطنية الفرنسية فتدفع للتفكير فعلا بعملية تشريح في الظلام.

طُبعت مليارات الكتب بين عام 1850 و1960، أي في أوج الإنتاج الأدبي، على ورق رديء حيث يؤدي الصمغ الحامضي إلى تآكل المادة المتخشبة التي لم تكن وسيلة إزالتها معروفة. هكذا كان تفاعل داخلي وراء تبدّل اللون — مما قد يؤدي إلى تحسين الورق المفرط بياضه دائماً — وأيضاً وراء ضعف النسيج وتصلّب الأوراق مما يجعلها قابلة للانكسار. ويؤكد المبدأ الثابت السائد لدى ذوي النزعة المحافظة أن الورق يدمّر نفسه ذاتيا لذلك ينبغي نزع المكوّن

الحامضي منه أو تصوير محتواه على أفلام، وأحياناً العمليتان معاً. كلفة عملية نزع المكون الحامضي باهظة جداً ومتطلبة ونتائجها ليست معروفة على المدى الطويل. قامت بعض المكتبات الكبرى بحملة واسعة لنزع الحموضة بغية كبح تطور الأوراق الرديئة؛ وهكذا قد يمكن للمنشأة الجديدة للمكتبة الوطنية الفرنسية نظريا بمعالجة 300.000 مجلّد سنويا. لكن لم يجد هذا التصميم أي فعل جدي إذ لم تقرر أية حكومة فرض استخدام الورق الدائم في عالم النشر مما أفسح المجال أمام تفاقم المشكلة (تم فرض ذلك حسب معايير حددت نوع الورق المكرّس للاستمرار بحيث تتقيّد بها دور النشر فيما يخص الحفظ في مكتبة أو بالنسبة للوثائق المطلوب أرشفتها. كذلك ينبغي فرض استخدام عجينة في البداية خالية من الكلور، هذا ما لم يتم حتى الآن. يقول الخبثاء إن العالم الفرنسي للكتاب يحترم بشكل رئيسي معايير "بعدنا ليكن الطوفان"). أمّا فيما يخص نقل مضمون الكتب على ميكروفيلم فيبدو أن بعض المحفوظات تلجأ إليه من أجل التخلص من النسخ الأصلية، لاسيما أن الطريقة المتبعة تؤدي غالباً إلى تقصّف أوراق الظهر؛ وهذا أمر سائد حكماً بالنسبة للجرائد المطوية، التي تصبح بالتالي مهترئة.

ويرى باكر أن "حرب الورق هذه" تقوم على خلفية مشوشة إذ من الخطأ القول إنّ الورقة تتابع مسيرة تدهور حالتها عندما تؤدي عملية التخشيب إلى اصفرارها؛ والعقليات المشبوهة، بل المأجورة، تتجرأ وحدها على التأكيد أن الورقة ستغدو غباراً، فهذا يمثل عاقبة مضخّمة أطلقها صانعو الميكروفيلم البارعون في التضليل الإعلامي. لقد نجحت شركات بيل وهويل وكزيروكس وكوداك وغيرها من صانعي الأفلام بسهولة منذ البدايات حيث أنها وُلدت في عالم التجسس وكان لأصحاب المكتبات الأمريكية الكبرى خلال فترة الحرب الباردة علاقات وثيقة مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية هذا إذا لم يكونوا قد عملوا بها أصلاً.

في عام 1973 اشترت مكتبة الكونغرس وأخرى غيرها 24 آلة تصوير قادرة

على إنتاج 2,5 كيلومتر من شرائط الميكروفيلم في اليوم؛ وكانت تغذيتها مطلوبة. وبالتالي وثب أصحاب المكتبات في البلاد كلها على الكتب ليختبروها عبر طي زاوية ورقة بخبث إلى الأمام ثم إلى الوراء فإذا انكسرت الورقة ينبغي عندها تصوير الكتاب على ميكروفيلم، ولن يراه القرّاء بعد ذلك. وتقدّر الكلفة الحالية لإعادة إنتاج الكتب الموصوفة أنها "معرّضة للخطر" في المكتبات الكبرى بــ358 مليون دولار بالنسبة للولايات المتحدة وحدها. ويرفض أمناء المكتبات في واشنطن أو لندن أو باريس الاعتراف لكنهم يعرفون كما يعرف القرّاء رعب الميكروفيلم (ميكروفيلم أو بطاقة إلكترونية) إذ إن قراءته تتطلّب آلات خاصة تصدر ضجة ومشغولة دائماً مع وجود لطخات متنوعة على الشاشة بالإضافة إلى أن تحديق النظر إليها يشكل سخرة حقيقية، فإذا كان تصفح نص على ميكروفيلم ممكنا خلال عدة ثوانٍ للتحقق من اقتباس أو تدوينه فإنه يصبح غير مقروء كلية بسبب التضاد المتعبٍ عبر الانتقال من الأسود إلى الأبيض أو لأنه عادة مشوش، هذا إذا لم يكن ممحواً. ويحتوي كل جزء من أجزاء "مجموعة وثائق التاريخ المكسيكي" على ثماني بطاقات على فيلم بينما يوجد فهرس الــ37 فصلا في النهاية مما يبدو مثل نوع من لعبة خفة اليد ببطاقات مخلوطة بسرعة. غير أن صورة هذا الفهرس مشوشة تماما مما يجعل الــ112 صفحة غير قابلة للاستعمال. يمكن اعتبار ذلك الكتاب تالفا مثل كتاب "الإمبراطورية الاشتراكية لحضارات الأنكا" من تأليف لويس بودان مع "أفلامه الميكرو الخمسة الاسيتات ذات الــ60 صورة ثنائية الآزوت قياس 148x105ميلمتر"؛ ثم إن غياب هذا الكتاب من الفهرس يجعل قراءة الميكروفيلم بالكامل إجبارية، وهذا عمل فوق الطاقة الإنسانية في الحالة التي هو فيها. تمتلك المكتبة الوطنية الفرنسية (توليباك) 76.000 ميكروفورم وحوالي مليون ميكروفيلم، أي كمية من المؤلفات لن يطّلع عليها الباحث إلا قسراً، ولا يمكن الوصول إلى الأصل الورقي إذ يمنعه النظام الداخلي من ذلك. وقد تجرأت عاملة شابة على القول وهي تنظر شزرا: "الدور الأول لهذه المؤسسة هو الحفظ" وأضافت: "الأغلبية هنا يعملون على كتب حديثة".

مع ذلك، إذا تمّ التوصل عبر وسائل ملتوية ومتأنية إلى إيجاد مؤلّفين أو ثلاثة مؤلفات في نسختها الأصلية – إذا تمت المحافظة عليها دائماً – فسيُلاحظ أن لون الصفحات ربما مال نحو البرتقالي الخفيف أو الأمغري (الصلصالي) وأن الحواف تتجه نحو التقصّف قليلاً في بعض الحالات، لكن أخذ الكتاب باليد وتصفحه ببعض الحيطة (ولنقل تحت الرقابة الحذرة لأمين المكتبة وفي جزء من القاعة مخصص لتلك الغاية يدعى "القبة" تيمنا بذكرى الأزمنة القديمة) لن يؤدي إلى سقوطه حطاما؛ ثم إن حجة الخطر الناجم عن التكرار هي أيضاً مجرد توهم إذ كم هناك من القراء يحتاجون تصفح كتاب "إدوار شافان" الذي يحمل عنوان: "الكتب الصينية قبل اختراع الورق"؟ لا شك أقل من عشرة قرّاء خلال قرن وبينهم عدد قليل من لاعبي كرة "الركبي"! طُبع هذا المقتطف من "اليوميات الآسيوية أو مجموعة الذكريات ومختارات وتعليقات خاصة بتاريخ وفلسفة ولغات وأدب شعوب الشرق" – هذا عنوان من الفترة التي كان لدى البشر فيها الوقت لصياغة مثل هذه العناوين وقراءتها، وهي الغريبة الآن– عام 1905 على 75 صفحة ثمن قطع على ورق مقوّى وممتاز من القضيم اللامع الجيد اليوم والذي سيبقى بأفضل حالة لمدة قرون باستثناء أن الهوامش أضحت بُنيّة قليلاً بسبب الغبار والتلوث المخيف على حافتي الطريق المسمّى "شارع ريشيليو". وتتمتع الصفحة بوجود حلّة من الطباعة تندمج فيها بشكل جميل الأحرف الصينية الشهيرة التي تختص بها المطبعة الوطنية. ويبدو أنها طُبعت بعدد قليل من النسخات على نفقة المؤلف، وغُلّف الكتيب الصغير بجلدة مؤقتة لم تجد أمانة المكتبة الوطنية (الإيداع القانوني سين رقم 2022 لعام 1905) إنه من المجدي القيام بتزويدها من جديد بجلدة أقوى وانتهى الأمر إلى تشقق نهائي وتصوير النص. هكذا يغدو الكتاب مريضاً.

وتتمثل أسوأ معلومة حول هذه الطريقة في حفظ مجموعات الكتب في أن الحوامل البلاستيكية، على الرغم من تطمينات المنافقين الذين كانوا وراء اختيارها، هي أيضاً قابلة للتلف بل إن حالتها بدأت بالتدهور أصلاً. لا بأس أن

لا تصمد فهذا ابن تاجر الميكروفيلم يعرض "السيديروم" وسوف يتم اختراع ما هو أفضل. ليس هناك حاليا أي من الحلول المستخدمة أو المتصوّرة موثوق به حقيقةً ومضمون ضد الزمن؛ ثم إن تحويل المعطيات على أقراص راهنة لا يمنع التطور الحتمي للأجهزة ولا شيء يدل على أنه سيكون هناك دائماً قارئ لنظام وقاية يُعتبر كاملا اليوم. فهل يتم تذكر الأمر الغريب وغير المستقيم قليلاً المسمّى "القرص اللّين-فلوبي ديسك"؟ سينبغي إذن الانطلاق مع كل تجديد تكنولوجي كبير إلى نقل المعطيات مع ما يترتب على ذلك من نفقات كبيرة والقيام دون انتظار بعمليات التحقق من ثبات المعطيات بواقع خمس سنوات بالنسبة للسيديروم العادي المستخدم في نشر الكتاب على الإنترنت و20 سنة بالنسبة لـــ"سنتيوري ديسك" المصنوع من الزجاج مع قشرة من الآزوت الممزوج مع التيتان أو أسلاك النحاس والمفروض أنه يحفظ الأصل. من المعروف أن المؤسسات العامة لا تمتلك أبداً ميزانية للصيانة مكرّسة لأبنيتها وبالتالي يمكن تصوّر أنها ستواجه بعض الكوارث الكبرى قبل أن تقوم بتلك الصيانة في ميدان ما لا يُدرك باللمس (الدقيق جداً).

هكذا يتم الوصول إلى تلك المفارقة الباهرة المتمثلة في أن إقرار الاستعاضة عن الكتاب الورقي بنسخه على مادة أخرى يعني الغوص في دوامة من النفقات التي لا تنتهي ولا ترقى أبدًا إلى مستوى تذوق الأصل بالإضافة إلى غياب الأمن فيما يتعلق بالحفاظ على الكتاب.

لكن المراهنة على العلم الإلكتروني تتقدم ولا شيء سيوقفها.

"كان أجدادنا الطيبون يقرؤون الروايات ذات الستة عشر جزءًا، ولم تكن طويلة ما يكفي لسهراتهم. وكانوا يتابعون بالتناقل العادات والفضائل ومعارك الفروسية القديمة؛ أما نحن فلن نقرأ قريباً إلا على الشاشات" كما قال ذلك العفريت ميرسييه عام 1771.

الفصل الثالث عشر

معرفة منع قابلية الاشتعال

لا يمكن استهلاك الكثير إذا أمضينا الوقت جالسين نقرأ كتباً

ألدوس هكسلي

إذا تخلّصت المكتبات الأمريكية من كتبها فبقصد تقليص كمية الشراء، إذ تُعطى الأفضلية للتجهيز الإلكتروني. وتمثلت إحدى نتائج ذلك في القول: "إننا نسمّي في قسم مجموعات الكتب المختصّة الكتب الصغيرة – صغيرة-. وكانت تدعى سابقا ثُمن قطع Octavo لأسباب لا تبدو واضحة بالنسبة لي حتى الآن". والساذجة التي طرحت مثل هذا التساؤل على الإنترنت عام 2002 هي أمينة مكتبة وتحمل شهادة في الأرشفة[258]. فهل ينتهي الأمر إلى مكتبة دون ماضي؟

يبدو أن مجموعة الكتب الافتراضية، بمعنى غير الملموسة والمرئية على شاشة الحاسوب قبل طبعها المحتمل، تضاعف مئة مرة تأكيد الآفاق الواسعة التي كانت

قد أثارها عند طبعها على الورق مثل قول بورخيس "أؤكد أن المكتبة لا حدّ لها". إنها، وبغية المضي قدما نحو هذا الأفق اللانهائي السهل حيث لا يبقى الكتاب وحيداً - فالصور والمخططات والموسيقى تشارك بسهولة في الموكب-، تتغذى أولا بكل ما وُجد قبلها وتمتص مؤلّفات كاملة بهيئة نصوص أو نسخ طبق الأصل متعددة أكثر فأكثر مثل مجموعة "غلّيكا" Gallica في فرنسا التي يصل عدد مؤلفاتها قريبا إلى 100.000 أو "مشروع غوتنبرغ" The Gutemberg Project (6.267 كتابا في نهاية 2002) وأمريكان ميموري (مكتبة الكونغرس) باللغة الإنكليزية، بالإضافة إلى ما يمكن اكتشافه لدى مكتبة يونيفرساليس (مجموعة المكتبات الوطنية، للدول الأكثر ثراء) أو مكتبة غابرييل (مجموع مكتبات أوروبا).

من الطبيعي أن تقتصر القراءة المجانية الإلكترونية على المجال العام. لا تتشابه حدود هذا المجال في كل مكان، لكن الفأرات "الإلكترونيات" الصغيرة يجدن الجبن بسهولة (يجدن ما يبتغين)؛ فالكثير من الطلبة ياركون الفرنكوفونية التي تمثلت إحدى نتائجها الملتوية في تمكّنهم من أن يشحنوا على حواسيبهم دراسات حديثة من مواقع إلكترونية جامعية مختلفة المشارب.

مصدر الثراء الثاني للمكتبة التي هي بصدد التكوّن هو ازدحام النصوص والأصوات والصور المتولّدة مباشرة كل لحظة عبر أصابع مستخدميها الأخصائيين المدرّبين والهواة المتجمعين في نقطة الانطلاق أمام لوحة التشغيل؛ وما إن يتجمهروا في زوايا الدماغ الكوني (لكن لم تعد هناك زوايا) حتى تعمّ حالة من الحبور دون أيّ نقد ذاتي أو حقوق مؤلف. إن نشوة "المورد الإلكتروني"، أي التسمية الجديدة المفروضة على مكتبة المستقبل، تأتي مما يقترحه ذلك المورد، هذا إذا لم يقدّمه؛ وحلّت لمسة "نسخ - لصق في مكان آخر" محل قلم الحبر، وأصبحت طقّة (الآلة الكاتبة) مجرد عرّة (عادة متكررة). وسيحل

بالتأكيد عالم الفهرسة الإلكترونية لدى أغلبية البشر مكان المكتبة التقليدية ذات الكلفة العالية وبسرعة أكبر مما هو متوقع[259]، لكن هل سيحل مكانها بالكامل؟ إن الإنترنت، وعلى غرار الكون الذي يتوسع، يمثل صيرورة لا يمكن وصفها. وهو بنظر المحترف، الذي يتعمّق فيه طيلة اليوم مثل عامل منجم بأصابعه الدامية، مؤلّف بأكمله تقريباً من عمليات مكر وانتحال وجلود ميتة لمواقع تبدّلت، وبرهان مخيف على الحماقة والابتذال. ليس لهذه الملاحظة أية فائدة بذاتها ضمن المقياس الذي قد لا تكفي فيه حياة كاملة لاستثمار معلومات المستوى العلمي الذي تسمح الخمسة بالمئة الباقية بالحصول عليه. لكنه يبرهن على أن المجرّة الجديدة المختصّة بالكتاب لا تنفذ فوق كيان المكتبة الموسوعية الكونية القديمة التي يمكن استخدام كل شيء في داخلها حتى ما هو سيئ.

المشكلة التي تطرحها عملية تخزين كميات هائلة من الوثائق في الذاكرة ستجد حلاً. ربما. وبسعر مرتفع، مثل عملية حفظها. وليس واضحاً كيف يمكن لسعر التكلفة أن ينخفض طالما يتم الانطلاق من الورق. ذلك أن معاملة صفحات كتاب هشّة غالبا تتطلب يدا عاملة دقيقة المهارة. لكن تُطرح في نهاية العمل مسألة جودة النسخة. إن عمليات تحويل إلكتروني لمؤلّفات تتم انطلاقا من ميكروفيلم، وهذه عملية مكلفة تعطي نتيجة مشوشة بعض الشيء لكن مع ضمان عدم نقص أية كلمة. الأمر يختلف عندما يراد العمل على النص الحاصل لاستخراج اقتباسات تحتاج إلى برنامج للتعرف على الحروف. التجربة سهلة ومسلّية في التصوير الضوئي –سكاناج– للصفحة 547 مثلا من كتاب إريك أورسونا الذي يحمل عنوان "المعرض الاستعماري" بواسطة نظام جيد المستوى[260]. هكذا تتحول جملة "حب الأخوات" إلى حب "الأشياء المملحة" (بسبب خطأ في الكتابة تبعا للفظ). وقد تتحول كلمة "ديست" إلى كلمة "ديسك". بالطبع يمكن شراء برنامج تصحيح لمقارنة النسخة مع الأصل فالتبذير

لا سعر له. وعندما بدأت المكتبة الوطنية الفرنسية بنسخ مخزوناتها رقمياً عام 1992 تقرر القيام بحملة أولى تشمل مئة ألف مجلد أي 30 مليون صفحة خلال ثلاث سنوات. لكن لم يتم إنجاز سوى 80 بالمئة من النتيجة المأمولة عام 1998. تبلغ كلفة الصفحة حوالي 0,12 يورو انطلاقا من الورق و0,20 يورو انطلاقا من الميكروفيلم، وبكلفة تزيد عشرة أو عشرين ضعفاً من صيغة النص المفيدة وحدها حقيقة للباحث. وتبلغ كلفة نسخ كتاب متوسط عدد صفحاته 350 صفحة 42 يورو أو 72 يورو قبل وضعه على الإنترنت، دون حساب نفقات النقل والفرز وجدول ترقيم الصفحات؛ ولا تُعرف كلفة حضوره الدائم على أثير الإنترنت. وإذا تصورنا أن أمناء المكتبة الوطنية — الحاليين على الأقل- لا يعترضون على قص ظهر الكتب أو كسر جلودها، فإنها تحتاج إلى أكثر من مليار يورو لجعل محتوياتها مقروءة فقط على الشاشة — لا حاجة للقول أن هذه مسألة محرّمة في كل مكان بالعالم — وبحيث تكون هذه الخدمة مدفوعة. لن تُطرح على الأقل مشكلة حقوق المؤلف.

ما سيجري لاحقاً حصل سابقاً. لقد أعلن بيزيسترات، طاغية أثينا المتوفى عام 527 قبل الميلاد أنه اشترى كتابات هوميروس بالمتر وبسعر كذا لكل خط. يمكن تصور أنه اخترع الكثير منها فجأة. هذا ما حاول علماء القواعد النقّاد ثم زينودوت تعديله في الإسكندرية بكل ما ملكوه من فقه اللغة أو حسب أفكارهم عن النصوص القديمة. يقول إستاتيوس[261]: "وضعوا الإلياذة بين أيديهم جميعا ونقّحوها حسب ذوقهم ووزعوها على عدة أقسام بسبب طولها وبسبب شيء من الملل تبعثه في النفوس". وكان ديموقريط أصلاً قد أحسّ بحاجة تجميع معجم لكلمات هوميروس يضم الكلمات النادرة والقديمة لتسهيل قراءته. ليس هناك إذن ما يثير السخرية في إجابة تيمون على شخص كان قد طلب منه إمكانية العثور على نسخة مقبولة لهوميروس في القرن الثالث قبل الميلاد عندما

قال: "تستطيع ذلك إذا وقعت على إحدى النسخ القديمة وليس نسخ اليوم المصححة".

إن التحويل السريع لمجمل المعارف قد لا يكون سوى مجرد تبدّل في أدوات الاتصال. لقد استطاع المكتوب الصمود أمام عدة معابر لم تمر دائماً دون أن تترك بعض الآثار السيئة. هذا ما حدث عند الانتقال من اللفافة إلى شكل الكتاب الذي نعرفه، وسمح تقطيع الوثيقة إلى أوراق مستطيلة بنفس الحجم يمكن تصفحها بالاطلاع على النصوص دون عناء؛ استوحيت تلك الفكرة من اللوحة المزدوجة المكسوّة بالشمع (استخدمها اليونان والرومان).

كان التجديد مرادفًا أولا للسرّية. وثمّن المسيحيون، إذا أمكن قول ذلك، الشكل المسطّح للكتاب (إذ كيف يمكن تخبئة لفافة كبيرة تحت القميص!). وعندما أصبحت المسيحية دين الدولة في عهد الملك قسطنطين عام 306 فرض الكتاب نفسه بصفته معيارا واهتم القرن الرابع بنقل النصوص على صفحات من الجلد أكبر وأكثر مقاومة من ورق البردي. طفق الشروع عندها بعملية تصفية بحيث لم يُنسخ إلا ما اعتُبر أنه يستحق ذلك، مثلما حدث في الإسكندرية قبل عدة قرون أو في "شيان لونغ" في الصين خلال القرن الثالث عشر أو أيضاً في موقع غير بعيد من هناك حيث "لم يتوقف تقليد مخيف مستلهم من نزعة كونفوشيوسية محدودة عن تخريب الأعمال البائسة الناجية بالصدفة من جميع عمليات التدمير". ومثل ذلك العمل هو الذي عرفه إميل غاسياردون عندما كتب فهرسة (بيبليوغرافيا) أنامية (نسبة إلى بلاد أنام) كبيرة ووجد نفسه مرغماً على إضافة تعبير "لم يعد موجوداً" على كل هامش من خمسة هوامش. وطالت عمليات تنقية الصفحات بكين وروما. تجاوزت القاعدة هذه المرّة الاهتمامات اللغوية والطائفية والسياسية كي تصبح مشروطة بالمادة، إذ إن المجال اللامحدود نظريا، في أحد أبعاده على الأقل، لأوراق البردي الملصوقة بعضها مع بعض

توجّب تقطيعه للدخول في الصفحة المحدّدة من الجهات الأربع. لذلك لم يتم فقدان القسم الأعظم من الصور القديمة في العملية – الناسخ ليس رساما– فحسب ولكن قطع الكتاب قلّص الأعمدة المتعاقبة دون نماية إلى عمودين أو أربعة في الحد الأقصى. هكذا بُترت النصوص وظهرت النسخ الموجزة. وهكذا أمكن بحسن نية، افتراضاً، القيام بإعادة تفسير نص مقتطع من الماضي من أجل جعله مفهوماً أكثر للمعاصرين. "الأعمال الصادرة في القرن الرابع والقرن الخامس جديرة وحدها بالقراءة لأنها بدت راهنة وحالفها الحظ في التحول من اللفافة إلى شكل الكتاب فحافظت بالتالي على بقائها (...). إن اتساع أو ضيق ذوق الحقبة قرراً أفقنا الثقافي[262]". يُلاحظ أيضاً في هذا الشأن أن ميوعة إمبراطوريات الغرب والغزو الإسلامي أجهضا مشروع الإنقاذ وكان لا بد من انتظار عصر النهضة من أجل استرجاع ما أمكن من الأزمنة القديمة.

تتمثل الورقة الرابحة الأكثر روعة للإنترنت إن لم تكن الوحيدة مع وفرة النص في إمكانية تحديث المعلومات باستمرار. فهمت الصحف ذلك جيداً واندفعت فيه بصورة كبيرة إلى درجة التنافس فيما بينها وحضّرت احتفاءها هي نفسها عبر جني عائدات الدعاية والخدمات خاصة، مثل بيع كل شيء هنا وهناك انطلاقا من المقالات المؤرشفة (الأمر السيئ صراحة لكن لا تمارسه كل الصحف لحسن الحظ) وحتى أرشفة بطاقات الدخول إلى المسرح. كان منتظرًا القدر نفسه من النشاط لدى جميع المواقع المهنية ذات العلاقة بالثقافة والإعلام. فلنتغاضَ عن العديد من الهيئات والإدارات التي تبيّن نشاطاتها الإلكترونية مدى واقعها المصاب بالتصلب، أمّا مصادر المعلومات مثل الموسوعات العامة فعليها أن تكون في طليعة التقدم المنجز. من المفهوم أن تكون أجزاؤها الـ28 أو الـ32 الورقية لا قيمة لها جزئيا عند وصولها إلى مرحلة الطباعة، أوحتى أيضاً قرصها الإلكتروني – سيديروم– السنوي، لكن ينبغي تحديث أية معلومة يتم الحصول عليها بواسطة اشتراك مدفوع منذ اللحظة التي يصبح فيها أي معطى معلوم

رسمياً. الأمر ليس كذلك كما يبيّن أي مثال فمنظمة المؤتمر الإسلامي مثلاً تضم 57 بلدا وليس 45، ومقال موسوعة بريتانيكا عفاه الزمن منذ 1984. واكتفت الموسوعة -مثل فرعها الفرنسي "يونيفرساليس"- بوضع المعلومات المدوّنة في نسختها الورقية على الإنترنت دون رؤية أن الشاشة تبرز أخطاءها المتمثلة في معطيات قديمة أو آراء خاصة أو جمل جوفاء على طريقة رولان بارت أو جمل عليها خلافات صريحة (مثل حريق مكتبة ليون). ينبغي أن ينقشع هذا كله عبر عملية تحديث جيد مستمرة رغم مخاطر فتح النوافذ أكثر لرياح التضليل الإعلامي.

إذا كان مثل هذا المشروع معرّضاً للخطأ فماذا يُنتظر أن يصدر عن صناعات أخرى يبيّن تاريخها اهتمامها بالدفع (أو بمخاتلة) للمساهمين أكثر مما هو بإنتاج المعرفة أو تقاسمها؟ ويبقى شراء قواميس وموسوعات ومراجع من ناشرين محترمين بقصد مضاعفة الأرباح فجأة عبر وضعها على الإنترنت ما زال أمرا مقبولا، حتى لو كان دنيئا بصورة ما، لكن يمكن التساؤل عمّا إذا كانت الصرامة العلمية ذات الأولوية عند ولادة تلك الأعمال سوف تتابع نهجها مع اللغة الرقمية وستساهم في ضبط محتويات جديدة بينما يقال إنه يتم التوجه بالأحرى حتى الآن نحو التبسيط الفكري للموجة الإلكترونية الكبرى بواسطة تقصير المقاطع والجمل والكلمات. وسينتهي الأمر إلى تلخيص الكتب، كما يفعل فوتيوس، التي ليس لدى الناس الوقت لقراءتها أو إمكان فهمها. وكان لويس سيباستيان ميرسييه قد وصف أصلاً هذا الفن في التحديث وحدد نتائجه في أفق القرن الخامس والعشرين. ومثلما عدّل "وينستون" عام 1984 التوقعات السابقة لـــ"الأخ الأكبر" على ضوء النتائج المحصّلة، سيكون من السهل تبديل معنى ومدى بعض الأحداث التاريخية، إذ عندما يحل التعليق أو التلخيص مكان ما كان يسمّى حتى الآن وثيقة، يصبح المجال حراً أمام التزييف المتستر. هذا ما يفصح عنه جيّداً معنى كلمة "لغة الأصابع" التي تترلق غالباً في الصحافة الفرنسية

بدلاً من "اللغة الرقمية"، وهذا نوع من تقطير جوهر سام مأخوذ مما هو رقمي عبر الأصابع.

إن اللغة الرقمية تفعل ما تشاء في الواقع و لم تكن أصلاً سخيّة جداً وهي تتغذّى من جهلها. وكل شيء يجري كما لو أن الالتواءات والمقاربات تسهّل السيطرة على المجال المحتل. لقد قطعت الأيقونة (الإلكترونية) صلاتها مع روسيا وحلّت صفة "افتراضي" مكان لا مادي بينما لم تكن سوى مجرد مرادف متواضع لصفة "كامن أو محتمل" قبل فترة وجيزة. هكذا تغدو النصوص الأكثر عادية بصدد اكتساب أشكال من الغموض بالنسبة لقراء ما بعد الغد الذين سيتوجب عليهم أن يكونوا أكثر حنكة منا بمرتين للتمكن من فهمها. ويمثل هذا كتابة عدة سطور إضافية من قبل واضعي المعاجم، هذا إذا لم يقرروا حذف المفاهيم الأولى.

ستتقاسم ثلاثة أو أربعة تجمعات غير عيانية قريباً حقوق نشر جميع المؤلّفات الأساسية للتربية وأوقات الفراغ ولا تستطيع فيَلَتُنا (تجمعاتنا الضخمة) العجائز المتحجرون إلا أن يصبحوا مصادر تزويد من بعيد للمحتوى من أجل البحث والدراسات المتقدمة. فلنتغاضى عن التصريحات المتناقضة للمؤسسات واللغة الخشبية العامة والبطء المزعج لنظام PDF لدى بعض المزودين مما يسمح للقارئ أحيانا بشرب فنجان من القهوة بين صفحتي كتاب رقمي من 500 صفحة، إن هذه الإزعاجات كلها سوف يطويها النسيان بعد فترة وجيزة مع أشكال العناء المبكرة الضائعة مثل اختراع الكتاب الإلكتروني. وإذا تصفح المرء اليوم سريعاً أشكال الحماسة التي أثارها النشر والقراءة الإلكترونية عام 2000 فإنه يُصعق من الرائحة القوية المنبعثة من الإنترنت لأجساد تتفسخ وروابط تنقطع ومخازن تنغلق. إنه امتحان يمكن للجميع أن ينخدعوا فيه لاسيما عندما يدفعهم نحوه أقوياء على رأسهم ميكروسوفت وأدوب سيستيم. تُستشف مع

ذلك بين الجثث بعض الأجساد المختلجة مثل ناشرين أو ثلاثة لوثائق تقنية مكرّسة لخبراء المحاسبة أو لجرّاحي الأسنان وأطبائها، وخاصة لحشد كبير من الدراسات حول الأطباق الطائرة والمصير "الحقيقي" مما يؤكد جيدًا الميل الطبيعي نحو انحلال الفكرة نفسها التي لا قيمة لها سوى على الورق، مثلما يمكن أن يقال. ولنُعد النظر في الكتاب الإلكتروني بعد 20 سنة!

تبدو عملية وضع كل مجموعات الكتب تقريباً على الإنترنت هي المهمة الوحيدة التي يطرحها المستقبل؛ هذه هي قناعة لندن على الأقل. وتتمنى المكتبة البريطانية اليوم تحويل نحاس الماضي إلى ذهب المستقبل بفضل وظيفة مستحدثة هي: رئيس التسويق. تكمن مهمته، بمساعدة فريق من مئة شخص، في خلق صورة حديثة والدعاية لها وتسريع فتح المجموعات الافتراضية على أكبر عدد من مستخدميها في العالم. إن مواجهة المستقبل بحفاوة تعني اتخاذ قرارات جذرية إذ في الوقت الذي تتم فيه عملية كبيرة لنزع الصفة المادية عن الكتب والصحف تستعد شركة "أي.بي.ام" للحصول على عشرات الملايين من الجنيهات الاسترلينية الأقل انتساباً إلى العالم اللامادي.

إنّ المكتبة البريطانية الجديدة متواضعة من وجهة النظر المعمارية. ويفصح ذلك أصلاً عن المستقبل بقاعات عملها المريحة والعذبة ذات الإضاءة الجيدة من أعلى ومقاعدها التي تجمع بين الكرسي والأريكة بعيداً عن اهتمامات مجلات الديكور وأشكال الرقابة البشريّة الفعّالة فيها. وسيحلو إمضاء الساعات فيها. وستكون المكتبة الوطنية في كل بلد مفتوحة (بواسطة الحجز بسبب ندرة العاملين في القاعة على عكس اكتظاظها بتقنيي المعلوماتية) لأولئك الذين يلاحقون دقائق العلم وسرّ نص اعتُبر غير جدير ما يكفي بالحالة العالمية المتطيرة (المعلوماتية) وجميع أولئك — هم أنفسهم غالباً — الذين يطالبون على غرار كفيفي البصر بلمس الكتب القديمة وتحسس صفحاتها مع تلك الرائحة الخاصة وعملية التصفح الحقيقية.

ومثلما هو الحال بالنسبة للتجارة الصغيرة في العالم كله، فإن المؤسسات المختصة وحدها ستبقى وتنتعش بينما سوف تختفي المحفوظات المتوسطة التي تلبي حاليا بطريقة مشرّفة أذواق وحاجات "الجمهور العريض"، ذلك أن هذا الجمهور سيكون قريبا مجهّزا جداً بما هو مطلوب للتواصل الإلكتروني. تعرف فرنسا كيف تستخدم لغتها إذ أعادت تعميد مكتبات البلديات باسم "ميدياتيك" Médiathèque ذلك أن الكلمات التي تبدأ بـــ"ميديا" (أي وسائل الإعلام والاتصال) تنبئ عن التطلع غير الطموح لما تدل عليه.

يمكن بسهولة التنبؤ عن أيهما من القارئين — الباحث سيرًا على القدمين عن الكتب أو ذلك الذي يشحن قراءاته وبطاقة اعتماده المصرفي وهو جالس على أريكته — سوف تنطلق الشرارة. لكن سوف يولد أدب آخر بالطبع وسوف يبدو جديداً لكنه لن يكون سوى مجرد ترجمة إلى نظام رمزي مختلف.

سوف يتوقف صنع الكتاب الورقي ذلك أن المبادلات غير الملموسة قد تعممت فالنقود اختفت من جيوبنا، والصحيفة تلاشت. وسيقال للطلبة عام 2100 أن هذا يفيد في العملية الكامنة في اقتلاع غابات مورڤان ثم الأمازون (تصورها مغطاة بالأشجار) وتشغيل مصانع كانت هي الأكثر تعقيداً و لم تعرف أبدًا كيف توقف ما تصدره من غاز الديوكسين، من أجل إنتاج ورقة مؤلفة من الصمغ والطبشور أكثر مما هو من عجينة الورق لتغذية مطابع زاخرة بالآلات على طريقة "شارلي شابلن" حيث كان يجري نقل ألواح تحميل من الكتب تزن طنًا إلى مستودعات التخزين ثم إلى بائعي الجملة الذين كانوا يرسلون الجديدة منها إلى أحد أصحاب المكتبات، والذي كان يعطيها بدوره من جديد لأحد الناقلين لإعادتها. وقد يحدث ويغادر مؤلَّف ما المستودع مرّة أخرى للعرض لدى صاحب مكتبة آخر وربما انتهى إلى أحد المنازل أو إلى الإتلاف. ويقهقه الشباب الجاحدون: هذه العملية المعقدة كلها من أجل 10 إلى 30 وحدة نقدية

متداولة في حينها. إنهم يدونون ملاحظات عبر حروف هجاء صوتية على كتاب مرن من صفحتين جرى شحنه بكل مؤلفات العالم بصورة مستمرة ممزوجة بالموسيقى والأفلام والمشاعر والروائح والحرارة. وقد يحدث أن يستحضر أحد الهامشيين منهم نصًّا على الشاشة مثلما كان الأمر قديمًا ثم يترك سريعاً هذه الجحافل من النمل التي تسمّى حروفًا والتي تبدو علاقتها مع الأفكار والوقائع حاليًّا قليلة الوضوح إلى درجة تثير معها صداع الرأس.

ملحق بديل: عودة إلى الإسكندرية

ستبقى مدينة الإسكندرية إلى الأبد رمزا للآداب ولانفتاح العقل بفضل رباعيات لورانس داريل عن الإسكندرية.

دليل سياحي قريب العهد

تعوّد الأستاذ العبادي عندما يستقبل زائرين أن يقودهم بشيء من التحايل إلى شرفة منزله المطلة على موقع الحريق الذي أمر به قيصر في المرفأ ودمّر نهائيا المكتبة الكبرى. يبدو أن هذا الحدث ما زال يضخّ سرًّا ويتخلل الحديث باستمرار؛ وخلال عدة دقائق يتم المطلوب ويصاب الزائر بـــ"الفيروس" الإسكندراني. كرّس هذا المؤرخ المتحمس حياته لهذه المؤسسة الأسطورية وأطلق أثناء محاضرة له عام 1972 بشكل عفوي تقريباً فكرة ضرورة إعادة بنائها الآن؛ قبل رئيس الجامعة لطفي دويدار الفكرة على الفور وتمّ تبني المشروع رسمياً عام 1974 بمساعدة عرّاب ثالث هو فؤاد حلمي. قرر الثالوث، على قاعدة معرفة قصور الإدارة المصرية الكبير، التخلّي عن أيّة مساعدة من الحكومة (في القاهرة). بدت القضية بسيطة فالجامعة تمتلك الأرض الثمينة التي هجع الجيش عليها وحلمي أصبح محافظاً وأهل العلم صفّقوا للمشروع. لم يكن القدر مؤاتيا لهم للأسف. إذ وجّه رئيس جامعة جديد الملفَّ نحو إقامة مركز ثقافي حيث كان حلمي قد واجه السادات حول قصة مفاعل نووي لم يكن يريد قيامه؛ لقد

خسر منصبه وخاب أمل الدكتور العبادي وذهب للتدريس في بيروت. عند عودته عام 1984 دعاه رئيس الجامعة الجديد لإعادة تشكيل لجنة وبفضل المساعدة المعنوية إنما النشيطة جداً لمختار أمبو رئيس منظمة اليونسكو آنذاك الذي كان يميل لتأييد المشاريع لصالح العالم الثالث (لذلك تمّ توفير مبلغ زهيد من المال)، وُضعت الحجرة الأولى عام 1988 وتمّ تنظيم مسابقة للهندسة المعمارية وإطلاق طلب عروض دولية. توجب أن يتحوّل مشروع المكتبة الجامعية مهماً كان كبيراً وكونياً، عندما وصل إلى ذلك المستوى، إلى مشروع تابع للدولة. وهنا تحديداً نُسفت الفكرة المعطاءة وغير الواقعية بالضرورة عند نقطة الإطلاق.

أرسل الأمير فيصل من المملكة العربية السعودية صكاً (شيكا) مصرفياً بقيمة 20 مليون دولار. وما إن سمع صدام حسين ذلك حتى وقّع شيكا بـ21 مليون دولار. ثم تدفقت الأموال واختير طرف معماري ممتاز لتغدو القضية أكثر جدية مما ينبغي بالنسبة لمختصين باللغات الرومانية واليونانية. هكذا أصبح محسن زهران، أحد أعضاء اللجنة، السيد الحقيقي وأعاد إحكام ضبط الورشة التي غدت وطنية إن لم تكن دولية. في عام 1993 بدأت البلدوزرات عملها في الأرض ليلا ما بين الساعة الواحدة والخامسة صباحاً وأُلقيت بقايا قصور البطالمة بعربات قلاّب كاملة في بحيرة مريوط[263]. بذل عالم الآثار الفرنسي جان إيف أمبيرور والمهندس المعماري ومحب الآداب محمد عواد أقصى جهودهما من أجل إخطار الرأي العام العالمي لكن الأذى كان قد حصل إذ كانت قاعة القراءة الكبرى أدنى من مستوى البحر بـ15 متراً مما يعني أنه لا حاجة للقول إن المؤسسات قد ذهبت بذلك أبعد من كل ما أشيد هنا في الزمن القديم. وسمحت عمليات تنقيب عُهِد بها إلى بولندة باستخراج لوحين مربعين رائعين من الموزاييك في اللحظة الأخيرة ثم أضيف في النهاية متحف بقبو المكتبة لعرضهما والبرهان على السمة الملكية للأرض. وبما أنّ في الإسكندرية نبعاً لا ينضب

للتهويمات، فقد قال أحدهم إن المكتبة الجديدة تمصّ دماء جثة "القديمة". الفكرة ساحرة لكن أغلبية الشائعات التاريخية تميل إلى تحديد القديمة في موقع أبعد غرباً، ليس بعيدا عن تقاطع شارعي النبي دانييل والحريّة دون التدقيق أكثر. وقد يسمح علم الآثار بوضع حد لهذا السر لو أمكنه التدخل بصورة طبيعية؛ لكن الأمر لا يزال بعيدا عن ذلك إذ على مدير التنقيب أن يمضي وقتا أطول في المسائل الإدارية للحصول على حق القيام بالعمل مما يمضيه في حفرة مع فرق عمله. فكيف والحالة هذه يمكن للموظفين المصريين الأسطوريين ولمقاولي البناء أن يسمحوا بعمل ما لم يسمح به موقع سامي في العلم والتاريخ؟ مع ذلك ألم يتم اكتشاف حجر الرشيد من قبل منقبين نابليونيين أوقفوا ورشة بناء عسكري؟

لكن هذه الإضاءة الصغيرة قد لا تكون سوى مثال إضافي على العبودية الكونية أمام المصلحة العقارية التي ترفع صوتها احتجاجاً هذا إذا لم تلقِ وميض شؤم على سجل المحفوظات الوليد. (لم يعد يحق لفرنسا إعطاء أي درس منذ تقليصها المدهش للاعتمادات الممنوحة لعلم آثار الإنقاذ المقرر عام 2002).

هنا تتموضع مسألة الكتب. لقد عولج هذا الموضوع الطبيعي بالنسبة لمكتبة بأكثر الطرق قانونية، هذا إذا لم يكن بأسوئها في المراحل الأولى حيث التمسوا ورحّبوا بكل العطايا؛ هكذا قدمت السعودية ثمانية مليون من المصاحف. عرفت نفس الفترة بيع عشرة آلاف كتاب تخص الجامعة بثمن زهيد. كانت تلك الجامعة قد أقامت مكتبتها خلال سنوات الثلاثينات في مدرسة إيطالية قديمة "ليتوريا" بدا مجالها مرغوبا فجأة للعميد خلال سنوات التسعينات من أجل سكن العاملين المتزايدين في المكتب. سرت الإشاعة سريعا في الإسكندرية كلها أن أطنانا من الكتب معروضة في مستودع بسعر 3 جنيهات (ما يعادل دولار أمريكي آنذاك) للكتاب الواحد مهما كان حجمه وعمره ونضارته. هكذا تزودت مكتبة مركز الدراسات الإسكندرانية بخزانة

صغيرة تضم حكايات الأسفار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وتحمل دمغة (استمبة) الملك فؤاد الأول، مؤسس الجامعة؛ هذا على الرغم من أنها كانت بين أواخر الذين عرفوا بالبيع واستطاع آخرون الحصول على ثروات من المؤلفات الأكثر ندرة. وإذا لم يتم تصنيف تلك الحالة من "فرز الأعمال السيئة" المطلق في الفصل المعني بهذه المسألة، فإن هذا يعود إلى أن الجامعة اقترحت منح مجموعات الكتب لمكتبة الإسكندرية الجديدة، لكن هذه الأخيرة رفضتها[264].

فلنتغاضَ عن هذه الأحداث الطارئة التي هي بصدد النسيان ولا تؤدي إلى تجنيب إسماعيل سراج الدين، نائب مدير البنك الدولي السابق ومدير مكتبة الإسكندرية عام 2003 الورطات المزعجة. أحاط به أناس ومستشارون جيدون وامتلك بوضوح فن التوصل إلى تعايش الأضداد وإنقاذ جميع الاحتمالات. لقد أبدوا له ملاحظة تقضي بعدم ظهور بعض الكتب في فهرس المكتبة مثل "الآيات الشيطانية" وكتاب "محمد" لمكسيم رودنسون وأولاد حارتنا (النسخة الأصلية التي تلقى نجيب محفوظ بسببها عدة طعنات بالسكين في رقبته – بالمقابل الترجمتان الإنكليزية والفرنسية موجودتان في المكتبة)؛ و"وليمة لأعشاب البحر" للكاتب السوري حيدر حيدر. نُشر هذا الكتاب عام 1983 لكن إعادة نشره عام 1992 تسببت بمظاهرات عنيفة عام 2000 قام بها طلبة الأزهر في الشوارع بعد أن اتهمه إمام متزمت بالكفر. المشكلة التي طرحتها هذه القضية بالنسبة لمكتبة الإسكندرية هي أن وزير الثقافة ورئيس الجمهورية برهنا على ما يشبه الجبن المذهل بنظر باريس (هناك مثال آخر على مثل هذا الجبن في منع وزير الثقافة لعشرة مؤلفات وسجن أحد مؤلفيها على الأقل يوم افتتاح المعرض الدولي للكتب في القاهرة يوم 24 يناير 2001). وأعاد هذا النوع من المنع إلى الذاكرة ما كان يقوم به فقهاء قرطبة منذ ألف عام وقد تتكرر التجاوزات في أوروبا في يوم قادم. يكفي أن يعلن أحدهم أن نجيب محفوظ مرتد كي يعتبر كل

مؤمن أن من واجبه قتله. وكانت دراسة أشرف عليها مصطفى الأحنف[265] في إطار نشاطات مركز الدراسات الاقتصادية والقانونية والتوثيق في القاهرة (سيديج) قد بيّنت كيفية مقاومة هذا كله في المجتمع القاهري على الأقل. (بالنسبة لفرنسا هناك بوادر على هذا عبر روابط الفضيلة وجمعيات الدفاع عن الأسرة الموحّدة والتي قدمت شكاوى ضد روائيين، سرّهم هذا الاعتراف غير المأمول).

أصبحت مثل تلك المؤلفات، وإن لم تكن جيدة جداً كلها، تشكل جزءًا من تاريخ الإسلام. هكذا قبل الدكتور سراج الدين أنه لا يمكن لمكتبة كونية في الواقع أن ترفض أي كتاب؛ فكيف يمكن دحض أطروحات الكتب المعنية إذا استحالت قراءتها، حسب قوله، فهذه هي أيضاً مهمة المكتبات[266]. إنها موجودة بالنتيجة، كما قال، وإنما في المستودع ولا يمكن الوصول إليها إلا بناء على طلب خاص مع بطاقة هوية، تجنبًا لعمل سيئ قد يقوم به أحد المنحرفين. يمكن الاطلاع بكل حرية على جميع الكتب، ما عدا المخطوطات والكتب النادرة (عددها 6.500 جاءت بأغلبيتها من المكتبة البلدية). وتسمح ضخامة قاعة القراءة وقلة عدد مجموعات الكتب (250.000 مجلّد، أمّا الصحافة العالمية فالحديث يدور حول 8 ملايين يمكن تخزينها احتمالاً) بمثل الرخاء المتوفر. إسماعيل سراج الدين رجل رائع ولا يُطلب منه جلب الكتب الأربعة (الممنوعة) للتحقق من وجودها. وقد ترافق انخراطه في العمل مع التصديق على قانون خاص سمي "القانون واحد لعام 2001" تبعه المرسوم 76 اللذان جعلا مكتبة الإسكندرية متعلقة حصراً برئيس الدولة مما وضعه في مأمن من جميع وزرائه وموظفيه كي يتفرغ بهدوء لطموحه في إنشاء "بؤرة للإشعاع الفكري والثقافي متعدد اللغات". هذا جيد جداً، لكن هل هو في مأمن من الشارع أيضاً؟

يعاني جمال الغيطاني، مؤلف "متون الأهرام" و"رسالة البصائر في المصائر" من الرقابة، لأنه يخاطر، حسب قوله، بالنضال صراحة ضدها على صفحات مجلته الأدبية[267] الأسبوعية، ثم إن السلطة بصفته رئيساً للتحرير منحته رسمياً وظيفة الرقيب. إنه ذو إيمان معتدل لكنه علق قبالته بمكتبه طبع حجري ملوّن متألق للحسين بن علي، أي ما يشكل خرقاً مزدوجاً للممنوع. ويكشف بالتالي، بنوع من الصفاء الغامض، الطريقة التي تثقل فيها الأفكار الظلامية على مصر من كل الجهات. فالفساد موجود في كل مستوى من مستويات السلطة ابتداء من القمة (تصل المساعدات الأمريكية السنوية إلى 2 مليار دولار كي تبقى البلاد بعيدة عن حالة الاضطراب الإقليمي) ويصيب كل آليات الإعلام (عندما يغلو مدير الصحيفة غنيًّا لا يبحث مستقبلاً عن عمل أي شيء سوى المحافظة على دخله مع إمكانية كبح تطور صحيفته) وهناك أيضاً استغلال الضعفاء بحيث يتم تنظيم "رقابة" عامة "للأجواء". يقول الغيطاني في نص مدح فيه ذلك "النجاح النموذجي" لمكتبة الإسكندرية[268] إنها تستطيع أن تساعد البلاد كثيراً بمثالها الإيجابي بصفتها مؤسسة دولية مفتوحة على جميع التيارات الفكرية والموضوعة بمأمن من الأخطار. ويذهب تفاؤله المسكّن للغضب قليلاً أبعد من ذلك ملاحظًا استحالة أن يقوم أحد بالرقابة على الإنترنت الذي سيقتل الرقابة، حسب رأيه، خلال عشر سنوات.

يُدعى الحي المجاور لمكتبة الإسكندرية الجديدة رشدي فهل تنبغي رؤية هذا كمؤشر ما؟ (المقصود رشدي باشا رئيس الوزراء قديماً، وتدل صفة "راشدون" على الأرثوذكسية الدينية للخلفاء الأربعة الأوائل، وهذا الاسم مشتق من "رشد" أي أن يكون الإنسان في الطريق القويم. هناك إذن حياد ميسور في أصل الفعل).

انتقلت مكتبة الإسكندرية الجديدة من نمط الإدارة الستاليني إلى أجواء

أكثر انفتاحا، فهل ستتقدم في أي اتجاه رغم الأثقال الجهنمية التي تنوء تحتها؟ إنّ توفر عدة ظروف جعل منها مكاناً رائعاً كلفته 200 مليون يورو، وقليل الازدحام، كما يبدو، بالكتب وبالقرّاء؛ وهذا أمر طبيعي بالنسبة لمؤسسة حديثة مثلها، لكن ألم يكن ممكناً التقليل من الكلفة وشراء مجموعة وافرة من المؤلفات المفيدة أولاً بأول؟ مثلما كان حال المكتبة الوطنية الفرنسية، فإنّ أي مشروع ثقافي غير محدد جيداً يتحول دائماً إلى ورطة يصبح الهروب إلى الأمام معها مخرجًا معقولاً. ويبدو أن زوجة رئيس الدولة ذات السلطة الحقيقية على مكتبة الإسكندرية قد بذلت جهودا أكثر في حملات تشجيع الأطفال على القراءة أو تزويد عشرة آلاف قرية في البلاد بمكتبات صغيرة بينما تبلغ نسبة الأمّية 50 بالمئة. وإذا أُريد فعلا إعادة تجربة المجلس الأسطوري للمكتبة القديمة لا ينبغي إعطاء الأولوية لتزويد الرفوف بالكتب بدلاً من تنظيم حفلات الموسيقى والمعارض فحسب ولكن أيضاً التحديد الدقيق لنوعية الباحثين المطلوبين. ثم لم يعد أغلبية العلماء اليوم (وجميعهم تقريباً في الغد) بحاجة للانتقال للقيام بتقصّياتهم فشاشتهم "تقول" لهم كل شيء.

وسيجلب الكثير من السرور إلى قلب الكثير من فقهاء اللغة إمضاء شهر أو أكثر في هذا المكان الرائع لعلم الأصوات - إلاّ أصوات احتكاك أقدام الكراسي (يوجد هنا 2.000 كرسي) تتزاحم وتتسع، لكن يُفترض أن يكون هناك علاج لذلك- والإضاءة الممتازة لدراسة تاريخ مصر ومخطوطات البردي وحضارات حوض المتوسط والأديان بما فيها الإسلام... الخ (كما ينبغي أيضاً توظيف أمين مكتبة جديد عالي الكفاءة). إن كميات مهمة من الوثائق التي تعالج هذه المواضيع لا تزال قابعة في غبار المساجد والأديرة وفيها بالتأكيد كنوز مخطوطة لجميع السلالات، وقد يكفي للبحث عنها وجود أحدهم فيها مثل إمبراطور ألمانيا جوزيف الثاني (1765-1790). وأُكتشف أيضاً في المكتبة البلدية

400.000 مجلّد مطبوع من بينها 55.490 باللغة الفرنسية (خاصة) والإنكليزية واليونانية والإيطالية جاءت من المجموعات العلمية أثناء فترة انفتاح المدينة على مختلف الأجناس. كانت أغلفة الكتب حتى عام 1950 مصنوعة من الجلد ثم من القماش القطني المزغّب ومفهرسة بشكل صحيح. وقد ضمّت مثلاً كتاب "وصف مصر" الشهير، وإن يكن في حالة ليست جيدة جدا إذ منذ أن بدأت المحافظة بتمويل المكتبة العملاقة الجديدة تضاءلت الأموال اللازمة للعناية بالمكتبة البلدية بحيث تبقى نوافذ المخازن الثمانية مفتوحة دائماً بسبب نقص التهوية. لقد وُضعت مخطوطاتها الـــ5.000 أصلا في ظروف جوية وحرارية أكثر أمنًا في المكتبة الجديدة ولم يبق سوى نقل الباقي، دون نسيان مجموعة مهمة من الصحف العائدة للقرنين التاسع عشر والعشرين بلغات متنوعة. ينبغي أيضاً تذكّر أن بناء المكتبة البلدية هو مقر الإقامة السابق للبارون "إيلي دوميناس" اليهودي.

كانت هذه المدينة القريبة من مصر (القاهرة)، بؤرة المعرفة، أفلم تكن المكان المنشود لتقدير وزن التاريخ والإحساس بوجهة الحياة؟ لا يمكن للمرء إلا أن يتمنى أن تعود المكتبة الجديدة لتصبح ذات يوم منارة مكتبات العالم من جديد وأن تقاوم جميع الزوابع. لكن أخذها على محمل الجد حقًّا سيتطلب أولاً سماع أصداء "رسالة أرسطين" من القرن الثاني قبل الميلاد تصدح فيها. وجاء فيها:

"سمعت من يقول إن كتب اليهود تستحق أيضاً إعادة الإنتاج وأن تكون جزءًا من مكتبتكم، قال مدير المكتبة.

فماذا يمنعكم من عمل ذلك؟ قال رئيس الدولة".

ملحق 1

الكتّاب الكبار يُجمعون: ينبغي تدمير المكتبة

ليست المعرفة التي اكتسبتها سوى قطعة صوفان جافة.

فتعال أيها اللهب والْتهم كل هذه البضاعة الزهيدة.

فريدريش جورج يونغر

يعود الموقف الداعي لتدمير المكتبات إلى بدايات الكتابة ويدافع عنه حتى المؤلفون أنفسهم. فبعد أفلاطون وسينيك ولوسيان الذين اعترفوا بداية بتحفّظهم، نطق إيراسم وكرونوليوس أغيربا ورابليه وحتى مونتين بكلمات صريحة ضد مجموعة الكتب. وسخر لابروير من الوصوليين هواة أغلفة الكتب الجلدية الجديدة، وكان أحدهم قد دعاه لزيارة "مدبغة دعاها مكتبته". وصفّق عدد من رجال الأدب، بالمعنى الفلسفي، لحريق الإسكندرية وكانوا من المجهولين أحيانا مثل لويس لوروار عام 1575 في عمله (حول الرذيلة أو تنوع الأشياء) أو من المعروفين مثل "المتنورين"، أو توماس براون في كتابه الصادر عام 1646 والمترجم في باريس عام 1733 تحت عنوان "دراسة حول الأخطاء الشعبية" والزاخر بالأفكار الساحرة والمتنوعة مثل قول "لا تعترف إمبراطورية الحقيقة

بالحدود وتمتد حتى جهنم بينما يجد الشياطين أنفسهم مرغمين دائماً على تكريمها".

ويمكن، تبعا لدرجة الإخلاص في القناعة، رؤية المسألة على أساس تيارين: أحدهما يخص المثيرين مثل سرفانتس، الذين يعتقدون بقوة أنه لا يمكن للبطل تحقيق ذاته إلا بعيداً عن الكتب، والكهنة الذي يتصنّعون قليلاً ويلعبون بكل الحالات بالنار.

المثيرون

على المرء أن لا يكون لديه أبداً خوري ولا حلاّق ولا ابنة أخ ولا مربية، وإلاّ يكون استقلاله مهددا. وإذا حصل وامتلك الأربعة لسوء حظه فعليه أن يخفي جيداً المكان الذي يصفف فيه كتبه. ولا يزال الفصل الرابع من "دونكيخوته" بعد أربعة قرون من صدوره مصدر عذاب مبرح للقارئ أمام رؤية تلك الشخصيات الأربعة وهي تقوم بما يشبه المحكمة مستفيدة بدناءة من خلود "النبيل الإسباني" إلى الراحة التي استحقها جيدا. لقد "دخلوا جميعاً" إلى مكتبته "ترافقهم المربية حيث وجدوا مئة مجلّد ضخمة رائعة التجليد وعدة مجلدات صغيرة أخرى". قدّم المعلم "نيكولا" عنوان كل كتاب للخوري الذي كان يعلّق عليه ويقيّمه ويصدر الحكم القاطع بينما كانت تلح ابنة الأخ على ضرورة حرق كل شيء أما المربية فقد أخذت ترمي الكتب من النافذة. تنطوي هذه القضية على رذيلة بالطبع، إذ استأثر الخوري بأفضل الكتب لنفسه، مثلما كان الأمر في ظل محاكم التفتيش. "اعطوه لي، أيها الشركاء، فإنني أقدّر أكثر الحصول عليه مما لو وهبوني جبّة من نسيج فلورنسة الصوفي". وهكذا "قامت المربية في تلك الليلة بحرق جميع الكتب الموجودة في الباحة وفي البيت كله". دون أي نقاش حول هذه الكتب فإنّ عددها غير معروف، ذلك أن "الصالح

يُؤخذ غالبا بجريرة الطالح". وفي اليوم التالي جرى إغلاق الغرفة وكأن المكتبة لم تكن موجودة أبدًا وقالت الامرأتان الشريرتان للرجل النبيل إن ساحراً قد قدم راكباً على ظهر أفعى وأخذ معه كل شيء، الكتب والمكتب. ولم يبق أمام الفارس الشارد ما يفعله بعد ذلك سوى أن يتابع تشرده.

"إذا كانت جميع الكتب قد قتلتني فيكفي واحد كي أعيش شبحا في الحياة وواقعا في الموت".

ألكسندر أرنو (1884–1973)

في "أغنية موت دونكيخوته"

يبدو أن جان جاك روسو قد أغاظ القرن الثامن عشر في كتابه: "خطاب حول العلوم والفنون" عندما أعلن عن اغتباطه بالنار التي خربت مكتبة الإسكندرية الأسطورية، "نظراً لأشكال الفوضى المرعبة التي أثارتها المطبعة في أوروبا، وعلى ضوء التقدم الذي أحرزه البشر من يوم إلى آخر". لقد حذا صديقه دونيس ديدرو حذوه على هذا المضمار المثير وأيّد ما فعله "أباطرة الصين". سمع الحالم الكبير "لويس سيباستيان" أكثر من أي شخص آخر ما في هذا كله من طوباوية فاندفع في الثغرة الثقافية التي انفتحت. إنّه مؤلف أقاصيص عديدة و60 عملاً مسرحيًّا، ونال شهرة كبيرة اليوم بفضل كتابه "لوحة باريس" الصادر عام 1781. إنه يصفّي حسابه فيه مع مجموعة كتب الملك حيث "يزداد العقل جهلا في هذه الكثرة من الكتب التافهة التي تحتل مساحة كبيرة ولا تخدم سوى في تشويش ذاكرة أمين المكتبة الذي لا يعرف كيف ينتهي من تصفيفها. ثم إن عدم تصفيفها يعني أن الفهرس الذي يتم إعداده منذ 35 سنة لن يصلح إلاّ في مزيد من التشوش في إطار هذه الفوضى المظلمة". ويقول ما هو أفضل فـ"المحارة في قوقعتها الراكنة بهدوء على صخرتها تبدو أرقى من هذا المتعلّم

الذي يهذي عبر ستة آلاف صفحة ويفتخر أيضاً أنه عرف العلم الكوني (...). وقد يميل المرء لأخذ أحد كتب مونتين باعتباره مضادًّا للسم والهرب سريعاً". وكان قد وصف قبل 10 سنوات، حيث لم يكن قد بلغ سن الثلاثين، في كتابه "العام 2440" ذلك السجل للمحفوظات الأميري بأنه يُختزل إلى "مقصورة صغيرة فيها العديد من الكتب التي بدت لي أنها لا شيء سوى أنها ضخمة". ينبغي القول، حسبما شرح له أمناء المكتبات المستقبليون، "إننا جمعنا في سهل واسع جميع الكتب التي اعتبرناها سخيفة أو غير مفيدة أو خطيرة (...). كان ذلك بالتأكيد برج بابل جديد (...) مكوّن من خمسة أو ستة آلاف قاموس ومئة ألف مجلّد في القانون ومئة ألف قصيدة وستة عشر من مئات الآلاف من أدب الرحلات ومليار من الروايات. وأضرمنا النار في هذه الكومة المخيفة بصفة تضحية استغفارية مقدّمة للحقيقة وللحس السليم وللذوق الصحيح". بالنتيجة سيرغب القرن الخامس والعشرون في الاكتفاء بحفنة من المؤلفين الضروريين من بينهم، مع ذلك، هوميروس وأفلاطون وفيرجيل وبلين وسالوست وشكسبير وتوركانو تاسو، وبالطبع، مونتين. وروسو أيضاً بعد حذف الكثير من هرائه الذي يدّعي الشعر.

إن نوعًا أدبيًّا جديدًا قد وُلِد.

الكهنـــة

يمكن بتخفيف حدة الأحكام المطلقة درجة، اعتبار الرأي الفلسفي القائل بتدمير المكتبة قابلا للاختزال إلى مجرد متعة أدبية.

وقد عبّر غاستون باشلار عن رأي مؤيد لذلك عندما قال: "ينبغي التخلص من الكتب والمعلّمين بغية العودة إلى البدائية الشعرية". إن الشعراء الرمزيين أو بواكير التحرير الأخلاقي الذين تظاهروا بتطبيق هذه الحكمة درسوا

الآداب القديمة. بالمقابل يبدو أن هناك اليوم استغلالاً متعاظمًا للقوة الانفعالية للمفهوم في إطار نزعةِ التقديس المحيطة وجعلها أكثر فأكثر موضوعاً للكسب. ولكن بسبب فرط النجاح يمكن لصورة مدفوعة القيمة أن تجنح نحو ما هو تافه وتتفرّغ من معناها مثلما هي حالة مونتالبان.

أما الكهنة حسب التسلسل الأبجدي (اللاتيني) فهم بورخيس، برادبيري، كانيتي، كورتازار، إيكو، فرانس، جيد، هوغو، هكسلي، أورولِ، شواب، شكسبير أو شو. وهذه هي بعض الأمثلة المصنّفة تقريباً حسب تاريخ صدورها.

لم يكن الحالم بالضجيج والهيجان شكسبير فاقدًا للحس حيال القوة البلاغية للمكتبة المحروقة. وقد قال إن الطريقة الوحيدة للإطاحة بدار "بروسبيرو" هي إزالة سورها الورقي. جاء على لسان كاليبان: "لكن لا تنسَ أن أول ما ينبغي عمله هو سلب كتبه فهو دونها ليس سوى مجرد أبله مثلي عبر تجريده من أية إمكانية للقيادة. إن الجميع يمقتونه مثلي. فأحرق كتبه (مسرحية "العاصفة"، الفصل الثالث، المشهد الثاني، ترجمها للفرنسية بيير ليريس).

نُشرت الرواية الأخيرة لفكتور هوغو التي تحمل عنوان "ثلاثة وتسعون" عام 1873 وتأثرت كتابتها بحداد عائلي (وفاة زوجته أُديل وولدين) أو بحداد وطني (السنة الرهيبة). تُظهر هذه الحكاية المضطربة والمفككة لعام 1793، حيث كانت منطقة "فاندي" محطة انتقال لكومونة باريس، مؤلفًا أكثر فأكثر تشنجًا ولم يعد يكتب سوى شعارات وعقدة شديدة التبسيط لرؤاه الفريدة مثل المدفع المفكوك في حوض كليمور والحديث الغريب بين مارا وروبسبيير ودانتون في الحانة الصغيرة وكذلك الوصلة الطويلة عن تدمير الكتب بأيدي الأطفال الثلاثة المحبوسين في المكتبة والمكرّسين للاحتراق معها والذين يلعبون بإتلاف "كتاب ربع قطع رائع ويستحق الذكر". وكان هذا الكتاب — *سان برتليمي*- قد أصدره في كولونيا الناشر الشهير لإنجيل عام 1682، "بلوو". صُنع بواسطة

مطابع (مكابس) للعلب والأسواط وطُبع، ليس على ورق هولندي، وإنما على ذلك الورق العربي الجميل الذي نال إعجاب الإدريسي والمصنوع من الحرير والقطن وذي البياض الناصع دائما؛ أما غلاف الكتاب فكان من الجلد المذهّب وكانت المشابك من الفضة".

قد يخطر على البال أن عملاً بهذا القدر من الذوق السقيم يستحق العقاب أصلاً لكن هذا قد يكون خيانة للمؤلف. ما رآه الأطفال خاصة هو أول نقوش المؤلّف المفتوح على مقرأ (للترتيل) حيث يبدو القديس —سان– برتيليمي منكّلا به وهو يحمل جلده كاملاً على ذراعه. "إن أول صفحة متروعة مثل أول نقطة دم مسفوكة. فهذا قرار بالذبح". انتهى "الألبوم" الكبير، بعد ركلة قوية من طفل، إلى قصاصات متناثرة و"استحوذ الإعدام القاسي للكتاب القديم على اهتمامهم لدرجة أن فأرة قد مرّت دون أن ينتبهوا لها". كانت قناعة فكتور هوغو بوضوح هي أنه رغم ضرورة الدفاع دائماً عن "الجزء ضد الكل"، أي في ذلك السياق الدفاع عن منطقة "فاندي" ضد الجمهورية غير الإنسانية، فإنه ينبغي إنهاء النزعة الظلامية. واختار رمزًا لها تلك العبادة المتزمتة الدموية التي تثير الاضطراب لدى البروتستانت أي التنكيل بسان برتيليمي. غدت الصورة عندها سحابة من "الفراشات" التي ألقاها رضيعين في مهب الريح؛ وشكل تدميرها إطالة للإتلاف عبر حريق انتحاري لما بقي من مكتبة "تورغ" فالكتب غدت منذئذ "أي شيء عادي" فالمكان مهجور والفرجات في كوى الجدار فيها تماثيل نصفية لأشخاص منسيين قد يتم تعرّفهم ذات يوم في أبحاث علمية معمّقة حول الكتب المفقودة[269]. "النار خصب؛ والجمرات زاخرة بعلب الجواهر التي تذروها في الريح (...). كانت فرقعات صمّاء تمتزج مع احتدام الجمر. تصدّع زجاج خزائن المكتبة وسقط محدثًا ضجة كبيرة. كان واضحًا أن البناء سيتداعى، ولم يكن بمقدور أية قوة بشرية أن تفعل شيئًا". أطفال يمزقون حياة القديسين والنار

التي أضرمها الثوار الملكيون أنفسهم تهدم معبدًا للمعرفة غير ذي موضوع ومكتبة دون قارئ. وبعد أن قام فكتور هوغو بمباركة العالم الجديد الذي اعتقد أنه يتحمل مسؤوليته ابتعد "وهو مرفوع الرأس".

"كان مرعبا تقييم ذلك عبر منظار ضيق — من ثقب المفتاح -! إذ كانت هناك كتب كبيرة ومتوسطة وصغيرة ومن كل الأحجام والألوان؛ كتب غطت الجدران الأربعة من الأرض حتى السقف وكانت منضّدة على المدخنة والطاولات وأرض الغرف نفسها". كُتب على باب تلك المكتبة بحروف كبيرة: ممنوع الدخول. ذلك أن مكتبة القس يوليوس هي نفسها حامية قدس أقداس مغلقًا بالمفتاح حيث يوجد "الصندوق" وكرسي. ترك يوليوس ثروته عند وفاته للكاهن الأول في الأبرشيه، الذي خلع ثوب الكهنوت وانضم إلى ذلك الذي ورث المكتبة في حرق الصندوق. وبما أنه لم يحصل شيء "خارق للطبيعة"، تحلّق الأهل والأصدقاء حول الحريق. وليس معروفًا إذا كان القس يوليوس قد ارتقب أو لم يرتقب ما حدث آنذاك. صدرت رواية أوكتاف ميرابو عام 1888 ولم تفقد شيئاً من صرامتها، رغم ندرة أصحاب جبّة الخوارنة.

إذا كان بورخيس قد اعترف مؤخرا وبطريقة "مشوشة"[270] أن قراءة كتاب "الحيوانات الخيالية" لمارسيل شواب قد حددت معالم مسيرته كرواية، فإن أندريه جيد لم يعترف أبدًا، من جهته، أنه انتحل بشكل مخجل "كتاب مونيل" كي يستمد منه عمله "الأغذية الأرضية" عسيرة الهضم.

صدر كتاب شواب عام 1894 وطلب من قارئه (قارئته) نسيان المعرفة والواجبات المفروضة، مثل قوله: "عليك أن تشيد منزلك بنفسك وأحرقه بنفسك (...). واترك أوراقك للشهوات تنتزعها (...). وأزل بقدمك اليسرى أثر قدمك اليمنى". بعد ثلاث سنوات تمثل إيعاز أندريه جيد بالقول: "عليك، ناتانايل، أن تحرق الكتب في داخلك" ويضيف في الخاتمة: "والآن، اطرح كتابي

جانباً". بدأ المشترون في الواقع من هذه النقطة – إلقاء الكتاب جانباً– و لم تصل مبيعاته إلى 500 نسخة خلال 10 سنوات باعتباره لم يكن سوى مجرد نزهة شاقة بينما كانت مؤلفات مارسيل شواب تحقق نجاحاً كبيراً، ثم انقلب الوضع، لكنه قد ينقلب أيضاً من جديد.

ألقى جورج برنارد شو عام 1901 الضوء على سر الإسكندرية عندما حصل أخيراً على اعتراف يوليوس قيصر في كتاب "قيصر وكليوباترة"، جاء فيه:

قيصر– أنا أيضاً كاتب، يا تيودوتس. مع ذلك أقول إنه من الأفضل أن يعيش المصريون حياتهم بدلاً من أن يمضوها وهم يحلمون بها بفضل الكتب.

تيودوتس (قائلا لبوتينوس): – عليّ أن أخفّ لإنقاذ المكتبة (خرج مسرعاً).

في عام 1924 كتب السرياليون نصّهم الأول بوصفهم مجموعة تحت عنوان "جثّة" من أجل تكريم لاهب لأناتول فرانس بُعيد وفاته. ما كانوا يعيبونه على الأكاديمي ليس ذلك القدر من التراخي الجمالي في التزامه بوسط اليسار مما هو إضاعة أسلوبه وعلمه في مواضيع ذات مخيلة محدودة. عرف هذا الحائز على جائزة نوبل ولادته في أسرة صاحب مكتبة ولذلك لم يعرف تحقيق وجوده إلا مثل سليل مكتبة؛ وشكلت هذه إحدى شخصياته الحقيقية في العديد من أعماله انطلاقا من "جريمة سلفستر بونار" حتى "تمرّد الملائكة". وتوجد خاصة أيضاً في صلب "مشوى الملكة بيدوك" (1893) حيث جمع الخيميائي أستاراك معروضات لا تمثل تلك "التي جمعها الملك سوى متجر للكتب القديمة" بالقياس معها. ويضيف: "إذا دخلت جميع هذه الخطوط المسطرة في عدد لا يحصى من الأوراق والرق إلى دماغك بشكل منظم فإنك قد تعرف كل شيء أيها السيد، وتستطيع

فعل كل شيء وتصبح سيد الطبيعة وجابل الأشياء؛ وقد تُمسك العالم بين اصبعين في يدك مثلما أمسك هذه الحبيبات من التبغ.

عند هذه الكلمات قدّم علبة تبغه لمعلمي.

فقال القس كوانيار: أنت رجل نزيه".

وفي الصفحة الأخيرة من هذه الحكاية التلقينية، يصفّي أناتول فرانس مصير الأم المرضعة –المكتبة– لمخيلته إذ يكتب: "ارتفع عمود كثيف من الدخان فوق القصر. وسقط رذاذ من الشرارات والرماد حولي ثم لاحظت فيما بعد أن ثيابي ويداي قد اكتست لونًا أسود. فكرت يائساً أن هذا الغبار الذي يملأ الجو كان ما تبقّى من عدد كبير من الكتب والمخطوطات الثمينة التي أدخلت الفرح إلى قلب معلمي الطيّب (...). أحسست أيضاً أن جزءاً منّي قد دُمّر في الوقت نفسه. زاد هبوب الريح من حدّة الحريق (...). تعرّفت عندها بهلع كبير على القامة الطويلة السوداء للسيد أستاراك وهو يجري في المزاريب. وصاح الخيميائي بصوت رنّان:

ها أنا أرتفع على أجنحة اللهب في مثوى الحياة الإلهية.

وقال "انهار فجأة السقف مع جلبة رهيبة وغلّفت ألسنة لهب عالية مثل الجبال صديق المرافئ".

ويغيب عن النظر أنه إذا كانت شهرة رواية "الإعدام حرقاً" قد بدأت حوالي عام 1970 فإنها كُتبت في نهاية سنوات العشرينات من قبل شاب تحت عنوان "العماء" أو "الانبهار" — التاريخ والعنوان يبرزان النور التعبيري الذي يغمرها. ويحكي إلياس كانيتي في هذه الرواية، وهي من بين أكثر الأعمال المكتوبة إثارة للرعب عن الدوّامة المستعصية التي يغوص فيها "كيين"(اسم على قافية "بين" وهذا ما يدعو بعض المعلقين الذاهلين غالبا إلى هفوة ذات دلالة

عندما يكتبون "كلين")، المختص بالشؤون الصينية ويعيش في فيينا محاطاً بكمٍّ كبير من الكتب بينما أغلق نوافذ شقته كي يستفيد من رفوف إضافية؛ وبنفس الوقت الذي كانت تضيق المكتبة عليه ازدادت السلطة البغيضة المقلقة لتيريز، أمينة الصندوق، التي تزوجها دون سبب. وفي نهاية هذا التدهور البطيء إلى الهزء الساخر الكثيف جداً لدرجة أن الدعابة الباردة للمؤلف لا تخلو غالبا من وهم خادع. لا يمكن مصادفة سوى القتل والجنون والحريق. وبما أن العنوان الفرنسي يبدأ بالكشف عن النهاية فلا خير إذن من ذكر الأسطر الثلاثة الأخيرة من الرواية: "نصب السلّم وسط الغرفة حيث كان من قبل. وصعد إلى الدرجة السادسة للسلم وهو يراقب النار وينتظر. عندما وصلت النار إليه قهقه بأعلى صوته، كما لم يقهقه طيلة حياته".

"لا يمكن لكتاب حول المستقبل أن يثير اهتمامنا إلا إذا كانت نبوءاته ترتدي مظهر الأشياء التي يمكن أن تتحقق"؛ هكذا قال ألدوس هوكسلي عام 1946 عن كتابه "أفضل العوالم" الصادر عام 1932 والذي كانت بعض هذياناته حول التوتاليتارية قد وجدت ما يقاربها في الحياة الحقيقية. هناك بعض الحالات في روايته خارجة عن نطاق المعقول مثل عمليات التفريغ الكهربائي المفروضة على الأطفال في الوقت الذي تُعرض عليهم الكتب أو مثل المذبحة الكبرى في بريطانيا وقتل 2.000 من المتحمّسين للثقافة بغاز سلفور كبريت الكوريتين. أو أسوأ من ذلك ما يلي:

- "ولماذا هو ممنوع؟ سأل المتوحش. لقد نسي منفعلاً، بسبب وجوده مع رجل قرأ أعمال شكسبير كلها، أي شيء آخر آنيا.

- هز المدير كتفيه.

- لأنه عجوز، هذا هو السبب الرئيسي. إننا لا نستخدم هنا الأشياء القديمة.

- حتى لو كانت جميلة؟

- خاصة إذا كانت جميلة. الجمال يشد ولا نريد أن تمارس الأشياء القديمة قوة جذبها. نريد أن يحب الناس الأشياء الجديدة".

كان أحد تلامذة هكسلي في إيتون يدعى بلير، وبدلاً من أن يستمر في التدريس أصبح شرطياً في برمانيا ومتشرداً في باريس وحارب في تيرويل ثم انتهى إلى ناقد أدبي في صحيفة يسارية صغيرة. اختار اسمًا جديدًا له هو اسم نهر كان يحبه- أي أورويل- وبدأ بكسب المال عبر هجائه للدولة الشيوعية في روايته "مزرعة الحيوانات" عام 1944. صدر بعد خمس سنوات كتابه: "1984"، ومات أورويل بمرض السل. هذا الكتاب الأخير المستوحى من عمليات الاضطهاد التي مارسها النازيون والستالينيون أثّر كثيراً في قرّائه المتعاقبين إلى درجة أن "الأخ الأكبر" و"الخطاب المضلل" أصبحت كلمات عادية. يعيش البطل في عالم "كانت مطاردة الكتب فيه وتدميرها تجري في الأحياء العمالية — البروليتارية- كما في جميع الأماكن الأخرى. وكان من غير المحتمل أبدا العثور في أي مكان من أوسيانيا على نسخة من كتاب مطبوع قبل عام 1960". تمثلت مهمته في أن يقيم سجل محفوظات تبعاً لـ"مقتضيات اللحظة. فالتاريخ كله كان طرسا ممحوًا ومكتوبا عليه مرّة أخرى كلما اقتضت الضرورة ذلك (...). وسُحبت الكتب أيضاً من التداول وأعيدت كتابتها مرّات عديدة. وقد أُعيدت طباعتها دون أية إشارة للتبديل". من المؤسف أن جورج أورويل لم يبلغ التسعين من العمر ويكتب ملحقاً لرائعته ذات الانتشار الواسع آخذًا في اعتباره السهولات المفرطة التي قدّمتها للعالم الحديث اللغة الرقمية ووضع المعارف على شبكة الإنترنت.

"لا يتم حرق الكتب اليوم"، أنشد بتهور كاتب افتتاحية "فهرنهايت 451". لكن لا يزال حرق الكتب جارياً في العالم وتسمح لنا حدود معارفنا في التفكير

أن إيقاع حرائقنا قد تعاظم من جديد. هذه الرواية البسيطة جعلت "راي برادبوري" شهيراً وغداً مثلاً ثقافياً منذ عام 1953 مثل ثمرة لا مفر منها لمناخ رجعي وطهوري في الولايات المتحدة. ينطلق الكتاب بهذه الجملة: "متعة الحرق! أية متعة استثنائية في رؤية الأشياء تفنى ويكسوها السواد وتتحوّل". فهل يصاب عقل رجل الإطفاء مشعل الحرائق "مونتاج" بالتشوش؟ "لماذا سأقرأ؟ وبأي هدف؟ لا شك أن الكثيرين يحفظون عن ظهر قلب بعض مقاطع هذا الكتاب مثل:

- "أنا جمهورية أفلاطون. فهل تمتعكم قراءة مارك أوريل؟ السيد سيمونس هو مارك أوريل.

- يبهجني ذلك، قال السيد سيمونس".

إن عدم كتابة اسم بورخيس مرّة واحدة وعدم ذكر أي من مؤلفاته عند الحديث عن المكتبات يشكّل تمرينا منحرفا بشكل ما. ثم هل ما زال هناك "مزاحاً" من أجل اختراع نسخة أخرى عن الأرجنتيني والشروع بعملية بهلوانية ساحرة؟ إن ظاهرة مثيرة للاضطراب نتجت مع "مكتبة روبنسون"، هذه المخطوطة غير المنشورة التي بيعت بـ300.000 فرنك عام 2001[271] وهي موجودة اليوم في مكتبة بأمريكا الجنوبية. هذا النص الذي يحمل تقريباً تاريخ 1930 حسب الخبراء هو مزيّف حسب زوجة الكاتب لكنه صحيح تماماً حسب جان بيير بيرنيس. ونقرأ فيه عن القرآن أن "الجحيم الموعود في صفحاته هو أقل فظاعة من جزيرة صغيرة ليس في مكتبتها سوى نسخة واحدة من القرآن". إنه استفزاز جلف من شخص ادّعى أنه من أصل عربي إذا لم يكن يهودياً. وأراد أبناء رودنسون لاحقاً ملاحظة أن أعماله الكاملة المنشورة بشكل ممتاز في مجموعة "بلياد" تشكل مكتبة حقيقية بجزئين قد يلائمان تماماً فرضية الجزيرة المهجورة، هذا لاسيما أن البيع ممنوع على الناشر من قبل صاحب الحق الحالي

وهذا وضع يدعو للتسلية حتماً... ما هو اسمه في الأصل؟ (جميع عشّاق الكتاب ولاسيما الذين بلغوا الشيخوخة منهم سوف يقرؤون بشيء من التسلية والرعب دراسة أناتول دو مونزي القصيرة "الأرامل الفاحشات" **Les Veuves Abusives** المطلوب إعادة نشرها إذ لم تعد متوفرة سوى على ميكروفيلم في المكتبة الوطنية الفرنسية ويمكن الاطلاع على صفحاتها الـ252 على الإنترنت اعتبارًا من عام 2007)[272].

إذا بدت كل جملة من جمل "مكتبة بابل" وكأنها مصاغة لتخدم مثل عبارة توجيهية لأجيال الأدباء اللاحقين فإن المؤلف قد بلغ بالمقابل ما هو أساسي في كتابه "المؤتمر – الكونغرس–" وهو أن منطق عمل لانهائي مثل العالم يكمن في أنه يحضر زواله. هكذا يعطي "دون أليخاندرو" الأمر بإحراق مكتبة كونغرس العالم: "هناك متعة خفية في العمل التدميري، ألسنة اللهب تفرقع متألقة (...). ولا يبقى في الباحة سوى الليل والرماد ورائحة الأشياء المحروقة". هذه الأقصوصة الصادرة عام 1955 ليست من بين أفضل كتابات بورخيس لكنه أكّد في طلب لاحق للنشر أن هذا هو النص الوحيد الذي سيحتفظ به من المجموعة بعد 20 سنة لأنه "الأكثر التصاقاً بسيرته الذاتية" وزاود في مقابلة أجراها بتعليق عبثي مع رقّة الجفن المألوفة لديه بالقول: "إنه وصف لتجربة باطنية لم أعشها وإنما حاولت تصورها"[273].

رأى "بوهوميل هاربال" وعايش الإتلاف السوفييتي للمكتبات ما يكفي عام 1968 في براغ كي يكتب "عزلة صاخبة جداً" المنشور أخيرًا عام 1976. إنه يرسم صورة ذاتية لـــ"هانتا" في سياق الحرب العالمية الثانية. كان هذا العامل مسخّرا لمكبسه المائي المدمّر للأطنان من الكتب الجميلة والأقل جمالاً التي كان زملاء غير مرئيين يلقونها عليه من نافذة القبو يوما بعد يوم منذ خمسٍ وثلاثين سنة. جرت بسرعة في مثل هذه الظروف محادثة مع المسيح ولاوزي (الفيلسوف

الصيني) وكانط وفان كوخ. "لم يتم التخلّي عني حقيقة في أي يوم، إنني فقط وحيد وعلي أن أستطيع العيش وسط عزلة مأهولة بالأفكار، أنا قليلاً دونكيخوته اللانهاية والخلود واللانهاية والخلود يتعاطفان دون شك مع البشر من أمثالي".

وفي عام 1997، عندما كان ملك النقاش التشيكوسلوفاكي الممل يحاول تغذية حمامة، سقط من نافذته في الطابق الخامس من المستشفى الذي كان يُفترض خروجه منه في اليوم التالي؛ وكان يردد طيلة حياته أنه يخاف من السقوط ومن إرادة إلقاء نفسه من نافذة شقته في الطابق الخامس.

"فانتوماس ضد مصاصي الدماء في الشركات متعددة الجنسيات" هو مجموعة رسوم مؤلفة من صور متحرّكة ومن رواية بلغة المتكلم نشرها "خوليو كورتازار" عند خروجه، بالأحرى خائر القوى، من محكمة روسل الثانية المكرّسة للطغاة من جنوب أمريكا (قامت الدورة الأولى بتحفيز من برتران روسل وجان بول سارتر بمحاكمة الولايات المتحدة لما فعلته حيال فيتنام، لكن لا يُرى حقيقة اليوم من قد يطلق محكمة روسل الثالثة). لم يتم نشر مجموعة الرسوم تلك في فرنسا إلا في عام 1991 وكانت قد صدرت أولاً في المكسيك وتحكي كيف أن جميع مكتبات العالم قد فرغت فجأة من مليارات الكتب التي تحتويها بفعل عمل غامض لشركة متعددة الجنسيات ذات قوة عظمى تريد السيطرة على العالم ولذلك طُلب العون من القوة الوحيدة القادرة على النضال (وعلى جذب انتباه القارئ العادي في أمريكا اللاتينية) أي فانتوماس، وليس معروفاً إذا كان هذا الإنسان الخارق سيتوصل إلى تزويد رفوف المكتبات بالكتب ولكن تتم قراءة الحكم الذي أصدرته محكمة روسل على نيكسون وكسنجر عبر التلفاز مثلما تقول الحكاية وقرأه بالوقت نفسه ذلك الذي يقرأ هذا الحكم.

"ليست المكتبة إذن أداة لإشاعة الحقيقة وإنما لتأخير ظهورها؟ تساءلت مدهشا". بالتأكيد يا بني، وتلك هي حالة كل كتاب أصم-أبكم يؤخّر بأبرع ما يكون في العالم الكشف عن مكوناته وينبغي تعلّم المخاتلة صفحة إثر صفحة. وعندما جعل أمبرتو ايكو من روايته "اسم الوردة" (الصادرة عام 1980 في إيطاليا وبعد عامين في فرنسا) المرجعية الأخيرة للمكتبة المحروقة، لم يكن يتخيل أن نجاح هذه الرواية الخارجة عن المألوف سيكون إلى درجة أن اثنين من كل ثلاثة أشخاص جرى طرح السؤال عليهم أطلقوا عليها تسمية "قصة الوردة" (العمل القديم الشهير). قد تكون هذه الشعبية اعتراف عالم مضطرب ثقافياً يحس بتراجع كل المرجعيات وبفقدان لغة لاتينية لا يملكها أصلاً. وسوف يكتب أحدهم فيما بعد أنه حوالي عام 2000 سيطر حرق المكتبات على العقول أكثر من أي وقت مثل أسطورة فرانكنشتاين عندما يتم تبديل الآلهة. بانتظار ذلك، لا يمكن للمتخصصين بتاريخ القرون الوسطى المحبطين بسبب ضخامة عائدات حقوق التأليف، أن يمنعوا أنفسهم من شجب هرطقات رواية أمبرتو ايكو؛ والقول مثلا أن تتبع وصفه يدل على أن 87.000 مجلد كانت موجودة في تلك القلعة القديمة الغريبة بينما كان المعيار في عام 1327 هو تواجد عشرين كتاب هنا و300 مخطوطة هناك في أصقاعنا؛ وكان ينبغي حسب أقل احتمال توفر 8 مليون من جلود العجول وجميع ناسخي العالم المعروف على مدى جيلين للوصول إلى ذلك العدد الكبير من المجلّدات[274]. لكن الحلم والتوهم يسخران من لغة المحاسبين.

سبر جان تييم، أستاذ الأدب المقارن، عام 1995 موضوع الترقيم الشامل وتنبأ بمستقبله. واعتبر أنه في عام 2039 ستكون المكتبة الكونية على شبكة الإنترنت وبعدها بـ20 سنة ترتقي إلى مصاف الأسطورة. إنها "دائرة يوجد مركزها في كل مكان ومحيطها ليس في أي مكان". ويقوم المؤلف بعملية موازاة

مع سجل محفوظات البطالمة أو مع سجل المحفوظات المسمى "بابل" الذي لحقته اللعنة الفذّة المعروفة. ويُلاحظ في حوالي عام 2060 من جهة تحقق "نبوءات طوفان الاتصالات المسهبة وغير المهضومة جيداً والمزيفة والمنتحلة" ومن جهة أخرى ظهور العديد من العقائد والفرق التي ترى في الكيان الإلكتروني إلها جديدا أو ترى فيه على العكس الحيوان المطلوب قتله مثل أنصار عدم التعريف بالنفس والمزيفين والبورخيسيين (من بورخيس) واللوديتيين (مدمّرو الآلات). وجاء في ملحق غير منتظر أن "فيروسا" أطلقه قبل 70 سنة عبّاد الكتاب محا بضربة واحدة وللأبد كل معارف العالم؛ فأحست البشرية عندها ببهجة عابرة.

ويصف بول أوستير، فيما يمكن أن يمثل محاكاة ساخرة للروايات القائلة بنهاية العالم، مدينة للتدمير الذاتي في روايته "في بلاد الأشياء الأخيرة" الصادرة عام 1987 يصل الشح فيها إلى درجة يتحول فيها البشر إلى أشرار. وتلجأ الراوية إلى المكتبة الوطنية صدفةً خلال الشتاء الأكثر برودة "مع الشمس التي رسمت قوساً صغيراً نحيفاً في السماء خلال ساعات قصيرة" حيث خدمت الكتب مثل محروقات للتدفئة. "ربما كان ذلك يحرر غضبا مكبوتاً في داخلي؛ أو ربما كان ببساطة طريقة للاعتراف أن ما حصل لتلك الكتب لم يكن ذا أهمية. لقد ولّى زمنها وقد خدمت حاليا على الأقل في شيء ما. لم تكن أغلبية هذه الكتب من روايات عاطفية ومجموعة خطب سياسية وكتب وجيزة باطلة المفعول تساوي حتى عناء فتحها". مع ذلك كانت تقرأ قليلا، في البداية، لكن دون فائدة كبيرة كما يبدو (وإلا قد تميل هذه الرواية إلى ما هو إيجابي)، "أجزاء من كتابات هيرودوت" و"الكتاب الصغير المدهش" لسيرانو دو برجراك. "لكن الكل ينتهي في المحصلة إلى المدفأة ويذهب هباء منثوراً".

يبدو أن هذه الكتب المجموعة كلها وما يُكنّ من حب لها خديعة حسب تفكير جان رودو (في "أسنان بيرينيس" 1996) الذي يرى أن "المكتبة حجرة

سرية فكل ما يعرّف بنفسه يحجب وكل ما يمكن الإمساك به يغيّر الاتجاه وكل ما يستدعي الانتباه يحث على المتابعة. يلج الإنسان مسحوراً إلى غرفة زاخرة بالكتب؛ وليست معرفة عدم إمكانية قراءة كل الكتب هي التي تدعو للأسف ولكن ما يدعو له هو فهم أن كل مكتبة حاضرة تمنع وجود أخرى غائبة وأن لا شيء يمكن تحصيله إذا لم يترك الرغبة دون مساس".

"شهادات للترضية وأساتذة مقايضون ومسابقات مزوّرة ونازيون جدد ينكرون المذابح- مذابح اليهود".

كتب ديديه داينينكس كعادته من أجل البر بأولئك الذين يدعوهم كسلهم للقراءة بين السطور، تحقيقًا متشعبًا مستوحًى قليلاً من طريقة تحضير الطعام (السلطة) في مدينة ليون وخاصة من حريق مكتبة جامعة ليون الثانية التي كانت في طور البناء (عام 2000). لم يخش خلط جميع التوابل التي في حوزته (كالوير، الجزائر، بنوم بنه...)، لذلك قد لا يتأخر بعض حرّاس الفكر العقلاني في أن يعيبوا عليه تجاوزه للحدود. مع ذلك ما لم يقل حول قضية ليون ليس محض خيال وهناك معطيات جديدة ظهرت عام 2003 قد تصلح تتمة للكتيّب العلمي المسلّي. سواء كان ذلك مجرد أدب أو غيره، فقد حُرقت مكتبة ليون.

ويتفق المهتمّون بالأدب كلهم على أن مجموعة الكتب تجعل من مالكها ضحية للأهواء وإذا تحدثوا عن الفكاك منها فذلك لمعرفتهم أن هذا أمر مستحيل.

كتب جان كلود بيارين عام 2003: "فتح هنري-ماتيو النوافذ المطلّة على الشارع واجتاح دخان لاذع الغرفةَ في كل مرّة أدار فيها المحرك. ويوما بعد يوم أكسبت الغيمة الزرقاء الجدران والسقف والخشب لوناً أصفر مما استوجب إعادة نظر كاملة. مع ذلك لم تكن دعوة ميكانيكي للصعود إلى الطابق الثالث

مطروحة. كان الأكثر إزعاجا هو أن الغاز الخارج من المحرّكات يوسخ الكتب ويلطخ أغلفتها. وسوف يكون عليه عاجلا أو آجلا الاختيار بين المكتبة والشاحنة".

الملحق 2

تاريخ مقتضب لإحصاء الكتب المفقودة، مع أسطورة في الختام

"كانوا يعدّون الرمل في العلبة المربعة ويرسمون فيها خطوطا، وكانوا يحسبون بواسطة تمائمهم من الرق، ويصنعون المرآة السوداء من المياه الممزوجة بالدخان".

مارسيل شواب

أتيني دو نوكراتيس هو، في حدود معارفنا الحالية، أول من تَرَك نفسه عرضة للافتتان بمسألة الآداب المفقودة (لكن لا شيء يمنعنا من تصور أن أول إنسان عمل جردا للكتب المفقودة كان ضحية ظلم مبرح وطواه النسيان ولم يبق أي أثر لعمله). ويروي في كتابه "وليمة السفسطائيين" عن وليمة لأهل الأدب ذُكرت فيها أسماء أكثر من 800 مؤلف و1500 مؤلَّف لا يُعرف عن أكثريتها الساحقة سوى العنوان. ينبغي أن يُشار أيضاً إلى أن كتاب أتيني غير كامل فقد وصلتنا منه عشرة أجزاء كاملة من أصل خمسة عشر جزءًا —يقول البعض 30— قد يتألف منها. و"قاموس سويداس"، هو مدوّنة أخرى عن النصوص والبشر المفقودين ويُزعم أنه من تأليف شخص يوناني في قسطنطينية خلال القرن العاشر، أو والحادي عشر ربما. وتتصدّر رسوم سويداس وأتيني

المكتبة التي غدت غير مفيدة وأضرم فيها فكتور هوغو النار في عمله "ثلاثة وتسعون".

أبدى شارل نودييه، في فترة أقرب منا، رغبة في جمع الأوراق الميتة. و لم يتهور في الانطلاق بالمغامرة، ذلك أنها تتطلب بطالة مفرطة. مع ذلك ألهمت حقبته شبه نوع أدبي ينتمي غالبا إلى التسالي بعيدا عن الناس مما هو إلى الاستقطاب الذهني الجاف. وكان أول من أشهر ذلك الهاوي وليام بلادس الذي أسف على فقدان النصوص المكتوبة على الرق في مكتبة الإسكندرية الأولى. وقد استلهم هو نفسه من دسرايلي.

أثار إسحاق دسرايلي (1766–1848) شجن والده، سليل أسرة من تجار البندقية كان قد جمع ثروة وهو في الثامنة عشرة وانسحب في الحال إلى لندن. وعندما كان إسحاق في نفس العمر كتب قصيدة طويلة ضد التجارة وأصبح مريداً متحمساً لجان جاك روسو. وقرر فيما بعد إثر خلاف مع كنيسه اليهودي تعميد أطفاله كمسيحيين؛ وهذا ما سمح جزئيا لولده بنيامين أن يصبح عضواً في البرلمان ثم يرقى في المناصب كما هو معروف (أصبح رئيساً لوزراء بريطانيا). يحمل مؤلّف إسحاق الأكثر متعة في القراءة رغم الكم الكبير من الأخطاء فيه عنوان "نوادر الأدب" وتأليف من ثلاثة أجزاء تمزج بين الآداب والحكايات الطريفة والنقد والمعلومات الغريبة، وتركز المذكرة الأولى من المئات في المؤلّف على المكتبات. وهناك عشر صفحات في مطلع الجزء الأول حول إتلاف الكتب.

لكن هناك باحثين أكثر احترافاً لم ينفروا من المهمة المملّة للإحصاء العبثي تقريباً سوى المعاندة وترك القارئ يتصور إمكانية أن يجد بين جميع هذه العناوين المرصوفة، التي قد تبدو مجهولة تمامًا، مؤلفًا مبتكرًا من لا شيء.

وتظاهر فرنان دروجون محب المكتبات وجامع الكتب بالصدمة عام 1889 في دراسته "التدمير الإرادي للكتب" عندما كتب: "عجباً، سيقولون، هل يُعقل وجود أناس بهذا القدر من السوء والجنون كي يقترفوا اعتداءات مثل هذه ضد شيء رفيع القيمة والاحترام مثل الكتاب؟ ويعدد، تحت ذلك العنوان "الأكثر علمية مما هو اتساقاً"، مئة وسبعين مؤلفا أتلفت دون قرارات كنسية أو قضائية أو في حوادث طارئة. وقد عبّر ذلك غالبا عن أشكال ندم المؤلفين أو الناشرين لأسباب عديدة فإمّا أن الريح قد تغيّرت (مثل حث الأمراء للانضمام إلى الأسطول الكبير الذي لا يُقهر أو الدفاع المتحمس من أجل إنقاذ رأس لويس السادس عشر... الخ) وإمّا عندما يدفع السن والأمجاد إلى الندم على الوقوع في الخطأ قديما عبر تأليف أشعار خليعة جدا أو ثورية أو ساذجة (الأكثر بينها تتعلق بالإثارة الجنسية)؛ وتوجد أيضاً بعض المطبوعات المزعجة مثل "الحملة على الصين" بقلم الكونت هيريسون اعتمادا على المراسلات السريّة للجنرال كوزان دو مونتوبان حيث اشترت وزارة الدفاع عددًا كبيرًا من الكتب لإخفاء عملية نهب قصر الصيف (حيث يتنفس الصعداء في التعليق التالي: "يقدم تاريخ المكتبات العامة والتجارية المحروقة مادة عمل شاسع"). بعد هذه الدراسة الفهرسية — البيبليوغرافية– حول التدمير الإرادي للكتب في باريس عام 1889 نشر المؤلف عام 1893 إحصاء لمئة عنوان مفقودة عرضا تحت عنوان: "تدمير مئة كتاب"(الموجود على شبكة الإنترنت، موقع النصوص النادرة textesrares.com).

لم يفعل فرنان دروجون سوى تقليد بول لاكروا (محب المكتبات جاكوب) الذي أحصى 115 كتابًا عام 1880 وغوستاف برونيه. تثير اكتشافات هذا النوع من الكتّيبات، النادرة، اهتمام هواة الطرائف أو جامعي الكتب الماكرين بسبب ندرتها ويستدعي البحث عنها ميلاً أكبر نحو المضاربة في البورصة مما هو نحو الأدب المقذع. تجدر الملاحظة أن المصداقية المحدودة لهذه

الدراسات تترافق أحيانا مع ذهنية جاهلة ومتخلفة لدى بعض المتحلين الملتزمين بإصرار في المشروع. هكذا يصنّف برونيه، بين الأدباء المجانين، في عمل آخر من مؤلفاته، كلاً من "سقراط، ووالت ويتمان وميشليه وبالطبع جيرار دونيرفال والمركيز دوساد". كلمة "بالطبع" هذه صدمت "رايمون كينو" في مقدمة دراسته الأكثر عمقا ونفاذاً حول الأدباء المجانين التي لم تجد ناشرا إلا بصعوبة.

ويمكن أن يقال في نهاية المطاف إن عشرات الآلاف هذه من الكتب لو لم تكن مفقودة فربما ما كان هناك من يعلق عليها اليوم. ومهما يكن من أمر ربما سيهتم الفضوليون من جهة أخرى، بهذا الملحق البيبليوغرافي الذي جمعه دروجون وذكر فيه شيلورن في عمله: "مظاهر الأدب في كل مكان" وغابرييل بينيو في "قاموس الكتب الرئيسية المدانة بالحرق" الصادر عام 1806. وغوستاف برونيه في ملحق المؤلّف المشار له أعلاه في "هاوي مكتبات بلجيكي" في عامي 1848 و1850. وغوستاف برونيه أيضاً في "قاموس الفهارس" مجموعة 1087 إلى 1090. وكورنيليوس وولفورد في "تدمير المكتبات بالنار" لندن، 1880، وكتب دروجون عنه: "يؤسفني أن لا أعرف عنه سوى عنوانه". وأوكتاف دولبيير في "بيبليوغرافيا". وموريس تورنو عن "الكتب التي أتلفها مؤلفوها" في "هاوي مكتبات فرنسي" المنشور عام 1873، الجزء السابع، الصفحات 246 إلى 250. و"أويلريش" في "تدمير المكتبات العامة والتجارية، وحرق الكتب أولا" الصادر في بيروليني عام 1756. و "أ. رونوار" في "الفهرس" الجزء الأول، الصفحات 286 إلى 291. وجوزيف ماري كيرار في "كتب مفقودة ونسخ وحيدة" الصادر في بوردو عام 1872. حملت هذه الدراسة الأخيرة في الواقع عنوان: "كتب لا يمكن العثور عليها" في علب كرتون المؤلف؛ ومن المثير أن النسخة طبق الأصل لعام 1984 بدّلت العنوان إلى "كتب مفقودة" في الوقت الذي جعلت فيه عمليات إعادة الطبع الحالية ما كان غير ممكنٍ العثور عليه لم يعد مفقوداً (وبالعكس دون شك).

يضاف إلى هذا، كما يقول الدلاّلون، فهارس ما تمّ إتلافه في باريس بتاريخ 13 مايو 1871، والفهرسان الأولان يمكن قراءتهما مباشرة على موقع Gallica.fr. ولويس باريس في "مخطوطات مكتبة اللوفر المحروقة ليلة 23–24 مايو 1871" الصادر في باريس عام 1872، وهنري بودريار في تقرير حول الخسائر المثبتة للمكتبات العامة في باريس خلال 1870–1871، الصادر في باريس عام 1872. وباتريس سالان في "زاوية من اللوحة" مايو 1871. فهرس مدروس لمجموعة المؤلفات النادرة والمدهشة، القديمة والحديثة، التي أُتلفت في مقر مجلس الدولة في 23 و24 مايو 1871، الصادر في باريس عام 1872.

المكتبة المخفيّة

تمتلك هذه الأسطورة الخارقة أساساً حقيقياً لدرجة أن الكثيرين أضاعوا فيها صحتهم وثروتهم وشهرتهم. رواها بدوره المؤرخ دافيد رانس ولم تعرف طريقها إلى النشر حتى الآن إلا في المجلات العلمية[275].

انطلقت القضية كما يبدو في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر عندما استقدم دوق موسكو الكبير باسيل الثالث (1505–1533) على جناح السرعة علماء يونانيين من أجل تصحيح ترجمات مخطوطات قديمة كان يمتلكها بغية تحديث الحياة الثقافية المحلية وتعزيز سلطته. عبّر ميكائيل تريفوليس، المدعو مكسيم اليوناني والمسمّى أيضاً الفيلسوف، أمام الأمير في عام 1518 عن ذهوله إذ لم يكن قد رأى طيلة حياته مثل هذا الكم الكبير من الكتب القديمة. ووقف الأمر عند ذلك الحد.

وفي نهاية القرن استدعى القيصر إيفان الرابع الرهيب العالمَ والقسَّ البروتستانتي الألماني جوهانس ويترمان لتفحص كتب بقيت أسيرة الأقفال فترة طويلة جداً. وجلب القيصر بحضور العديد من الأخصائيين الآخرين عدة أكداس

من المؤلفات. اكتشف ويترمان أن تلك الكتب كانت معروفة بسبب تردد استخدامها كمراجع في الزمن القديم ولكن لم تعد أية نسخة موجودة منها بسبب الحرائق والحروب؛ بل ويعود بعضها إلى عهد البطالمة. وقال إنه فقير لكنه مستعد لإعطاء أطفاله ثمنا لها. ابتسم العلماء الروس واقترحوا عليه ترجمة واحدة منها فرفض ذلك لأنه لا يريد البقاء طيلة حياته هناك.

مرّ قرنان واكتشف البروفيسور دابيلوف في أراشيف مدينة بيارنو وثيقة تحمل عنوان "المخطوطات التي يمتلكها القيصر". نسخ صفحة منها وحملها إلى البروفيسور كلوسيوس الذي عرف معناها وخفّ حالا إلى بيارنو لرؤية الباقي، لكن اختفى كل شيء. تذكّر دابيلوف فقط أن قسّاً بروتستانتيا كتب تلك الصفحة وقال فيها إن القيصر كان يمتلك حوالي ثمانمئة مخطوطة "اشترى بعضها وقدّم له إمبراطور بيزنطة البعض الآخر".

طوى النسيان القضية من جديد، إلى أن تمّ استئناف الأبحاث بنشاط عام 1890 عندما وجد البروفيسور ترامر في ستراسبورغ قطعة من أعمال هوميروس اعتقد أنها قادمة من موسكو؛ ورأى أن تلك المخطوطة شكّلت جزءاً من مهر الأميرة صوفي باليولوغ عندما تزوجت إيفان الثالث، دوق موسكو الكبير. فذهب إلى روسيا وجرد جميع المكتبات الموسكوفية وانتهى إلى القول بضرورة البحث في أقبية الكرملين. قام بعد عامين الدكتور زابلين بنشر دراسة "غرف أقبية الكرملين" أكد فيها أن المكتبة الأسطورية وُجدت فعلاً لكنها أُتلفت في القرن السابع عشر عندما أحرق الغزو البولندي المدينة وخرّبها. مع ذلك أثبتت وثيقةً أن المدعو كونون أوزيبوف رأى الغرف السرية عام 1723 وأن المخطوطات البيزنطية كانت هناك في صناديق. حدثت عندها مناوشة كبيرة في صفوف الإخصائيين ما بين مؤيد ومعارض وتمّ تبادل كلمات مثل كذّاب ومزوّر وعميل.

حفروا بعدها وسبروا وهدّموا وظهرت حقيقة وجود الغرف السرية لكنها كانت خاوية. وفي عام 1893 صدر كتاب لـــ"أ. بيلوكيروف" عن "المكتبات الموسكوفية المخبوءة" رفض فيه كل ما قيل وأثبت أن وثيقة دابيلوف مزوّرة. لكن برزت دراسة أخرى عارضت أطروحات بيلوكروف. مرّت سنوات العشرينات والثلاثينات والستينات... واستمر نشر المقالات التي تحاول إثبات وجود تلك المخطوطات أو العكس. لكن خفّ البحث في أيامنا إذ تمّ التوصل إلى قناعة أنه إذا كانت تلك المكتبة الهائلة قد وُجدت فعلا فإنه ما كان لها أن تتحمل الانتظار طيلة تلك القرون، وربما في أجواء رطبة؛ وإذا كان المقصود هو مخطوطات تعود، إن لم يكن للإسكندرية، فعلى الأقل لبيزنطة، أي أن عمر بعضها تجاوز أربعة قرون عند رؤيتها المثبتة للمرّة الأخيرة، مع أنه كانت قد اكتُشفت في دونهوانغ في الصين نصوص مكتوبة على الورق وقديمة مثلها على الأقل. إذن...

هكذا تشابه مخطوطات القيصر اليوم غرال "الشيء الخفي" أو كنز رهبان الهياكل، التي سيستمر البحث عنها ولو عُثر عليها.

هوامش الكتاب

1 انظر المرجع التالي للباحث إرنست ريتشاردسون: بدايات المكتبات. برنستون 1914 :Ernest Richardson
The Beginings of Libraries, Princeton, 1914، ولكي يكتشفوا أفكار بير بريسيه انظروا كتاب ريمون كينو: على تخوم الظلمات. الأدباء الفرنسيون المجانين في القرن التاسع عشر، باريس، 2002. وهذه المقارنة أو "الموازاة" التي نقيمها هنا تعود إلى جورج لويس بورخيس. وأما تعبير "الآفاق الممحية" فتعود إلى فيكتور هيغو حيث يجده المرء في مكان ما من "البؤساء".

Raymond Queneau : Aux confins des ténèbres. Les fous littéraires français du XIXe siècle. Paris. 2002

2 فيما يخص أوروك (ورقة) وكذلك فيما يخص ايلة (تل مروخ) ورفوفها المحوّة أنظر المرجع التالي للباحث دانييل ت. بوتس: حضارة بلاد ما بين الرافدين: الأسس المادية لها. لندن. 1997.

Daniel T. Potts : Mesopotamian Civilization : the Material Foundations, Londres, 1997.

3 انظر المرجع التالي للباحث جواشيم مينان: مكتبة قصر نينوى. باريس. 1880 (هذا الكتاب موجود على الإنترنت تحت الاسم التالي:

Joachim Menant : la Bibliothèque du palais de Nivine, Paris, 1880. .(gallica.fr

* ويقال إن بعض ملامح هذا الشخص اللافت للانتباه إن لم يكن العظيم فعلاً قد ألهمت شخصية "إنديانا جونز" السينمائية.

4 وهي ماريت التي استشهد بها الباحث بير مونتي في كتابه: مصر في عهد رمسيس 1300–1100 قبل المسيح. باريس. 1946.

Pierre Montet : L'Egypte au temps des Ramsès, 1300-1100 avant J. C. Paris. 1946.

5 انظر المرجع التالي للباحث تشارلز ل. نيكولس: مكتبة رمسيس الكبير، منشورات بيركلي، 1964.

Charles L. Nichols : The Library of Ramses the Great, Berkeley, 1964.

6 كما تنقل لنا ذلك الباحثة غيميت اندريو: مصر في عهد الإهرامات، باريس، 1994.

Guillemette Andreu : l'Egypte au temps des Pyramides, Paris, 1994.

7 وهو شيء مرئي في المتحف البريطاني.

8 وذلك طبقا للتحريات التي قام بها الباحث ب. و. بيستمان على ورق البردي شيستر بيتي (استشهد بها ريتشارد باركنسون وستيفني كوايرك في كتاب بعنوان: ورق البردي، لندن، 1995).

Richard Parkinson, Stephen Quirke : Pappyrus, Londres, 1995.

9 انظر كتاب الباحث دافيد روكسبورف: الألبوم الفارسي 1400–1600: من التشتت إلى التجميع. منشورات نيوهافين، 2004.

David Roxburgh : The Persian Album 1400-1600 : from dispersal to collection, New Haven, 2004.

10 انظر كتاب الباحث لوتشيانو كانفورا: القصة الحقيقية لمكتبة الإسكندرية. باريس. 1988.
Luciano Canfora : La véritable histoire de la bibliothèque d'Alexandrie, Paris, 1988.
11 انظر كتاب الباحثين غوغليلمو كافالو وروجيه شارتيه: تاريخ القراءة في العالم الغربي، باريس، 1997.
Guglielmo Cavallo et Roger Chartier : Histoire de la lecture dans le monde occidental, Paris, 1997
12 نلاحظ أن مصطفى العبادي يلخص بشكل أكثر حذراً وتعقلاً المعطيات التي تحظى بالإجماع الآن والواردة في الكتاب التالي: حياة مكتبة الإسكندرية القديمة وقدرها، باريس، 1992. Vie et destin de l'ancienne bibliothèque d'Alexandrie. Paris. 1992. هذا في حين أن الباحث ي. أ. بارسونز كان قد فعل كل شيء عام 1952 لكي يبرهن على أن يوليوس قيصر لم يكن مسؤولاً عن تدمير المكتبة. ولكنه فعل ذلك بمهارة أقل بكثير من الباحث كانفورا. بل وفعله بحسب ما كان يشاع آنذاك في أكسفورد بطريقة "ناقصة جدا ورديئة"
13 انظر مصطفى العبادي، مصدر مذكور سابقاً.
14 انظر كتاب الباحث غيسيب بوتي الذي يحتوي أيضاً على العرض النقدي الذي قام به افتونيوس.
Giuseppe Botti : L'Acropole d'Alexandrie et le serapeum d'après Aphtonius et les fouilles, Alexandrie, 1895
15 كما يحلو للباحث ي. م. فورستير أن يقص ذلك في كتابه: الإسكندرية، باريس، 1990.
E. M. Forster : Alexandrie, Paris, 1990
16 وذلك طبقاً لما رواه بول كازانوفا في كتابه: حرق مكتبة الإسكندرية من قبل العرب، باريس، 1923. وقد تابعه على نفس الخط الباحث مصطفى العبادي.
L'incendie de la bibliothèque d'Alexandrie par les Arabes, Paris, 1923.
17 هو الباحث هوف لويد-جونز Hugh Lioyd-Jones العصور الوسطى الأولى تدعى بالانكليزية عصر الظلمات Dark Ages.
18 إنه ديوجين لايريس الذي استشهد به الباحث هـــ ج. دروسار لولونس في بحثه "نيلوس السيسيسي ومصير المكتبة المشائية أو الأرسطوطاليسية". بحث منشورفي كتاب جماعي مخصص لتكريم الأستاذ الأكاديمي الفرنسي فيونان بوسيه، منشورات جامعة لوفان، بلجيكا، عام 1999.
Neleus of scepsis and the fate of the library of the peripatos, in : Tradition et traduction. Les textes philosophiques et scientifiques grecs au Moyen-Âge latin. Louvain. 1999
19 انظر كتاب الباحث كانفورا المذكور سابقاً، أو كتاب إدوارد إدواردز: المكتبات ومؤسسو المكتبات، منشورات امستردام،
Edward Edwards : Libraries and Founders of 1968, Libraries, Amsterdam, 1968
20 وهذا ما يقال أيضاً عن بوليكريت الساموسي ولكن بدون براهين كافية لإثباته. ولذلك فإن الكثيرين من المؤرخين يعتبرون هذه الحالـــة ضعيفـــة المصداقية (من بين هؤلاء المؤرخين إدوارد إدواردز، أ. هيسيل، ر. بفيفر، الخ). ولكن البعض الآخر يعترفون بمصداقيتها (كالمؤرخ بلانمي مثلاً).

21 انظر كتاب أولور جيل: الليالي الاثينية (أي المتعلقة بعادات الاثينيين وأذواقهم). الجزء الثاني، منشورات باريس، 1978.

Aulu-Gelle : Noctium Atticarum VII, XVII, 1-2 Les nuits attiques, 2, Paris, 1978

22 هو القديس أغسطينوس الذي استشهد به الباحث محمد هـــ. فنطر في كتابه: قرطاج. دراسة لحضارة. تونس. 1993.

M. H. Fantar : Carthage, approche d'une civilisation, Tunis, 1993

23 انظر بحث المؤلفة كلارنس فوربيس: "كتب من أجل الحرق"، منشور في مجلة محاضر الرابطة الفيلولوجية الأمريكية، رقم 67 (1936)، منشورات هافرفورد، 1936.

Clarence Forbes, « Books for burning », Transactions of the American philological association, 67 (1936), Haverford, 1936

24 كما تلاحظ ذلك الباحثة كاترين سال (في كتابها: القراءة في روما، منشورات باريس، 1992) وذلك أثناء قراءتها لنصوص ساتيريكلون.

Catherine Salles (Lire à Rome, Paris, 1992)

25 وهذا ما حرص الباحث روبير سابلايوريس على إنجازه في كتابه الضخم والرائع: ليبرتينوس مايلز. كتائب الحراس الليليين، منشورات روما، 1996.

Robert Sablayrolles : Libertinus Miles, les cohortes de vigiles. Rome. 1996

26 كان هنري أيود، مترجم سويتونيس، يستفيد من الكتب الواردة من جهة بيرغام. وهي الوحيدة التي كانت متوافرة آنذاك.

27 وهي العناوين أو الكتب التي يتحدث عنها باحثون عديدون من أمثال ج. هاكار (في كتابه الدليل الروماني القديم، منشورات باريس 1952)، أو ج. كافالو، أو روجيه شارتييه في مرجعه المذكور سابقاً، أو سواهم.

28 انظر الكتاب التالي باللاتينية والذي كان الباحث تانير قد استشهد به: Didascalia Apostolorum. وانظر أيضاً البحث الذي نشره توماس ن. تانير في مجلة تاريخ المكتبات، الجزء الرابع عشر، رقم 4، منشورات أوستين، خريف عام 1979، تحت عنوان، تاريخ المكتبات المسيحية الأولى من عهد يسوع إلى عهد القديس جيروم.

Thomas N. Tanner : A history of early christian libraries from Jesus to Jerome in : The Journal of Library History, vol. 14, n°4, Austin, automne 1979

29 انظر الكتاب التاريخ للمؤرخ الانكليزي الشهير ادوار جيبون: تاريخ انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها. منشورات باريس، 1983.

Edward Gibbon : Histoire du déclin et de la chute de l'Empire romain, Paris, 1983

30 انظر كتاب بروكوبيس القيساري (نسبة إلى مدينة قيسارية بفلسطين): تاريخ سري، باريس، 1990.

Procope de Césarée : Histoire secrète, Paris, 1990

31 انظر كتاب الباحث دارين تريد غولد: طبيعة مكتبة فوتيوس، منشورات واشنطن، 1980.

Warren Treadgold : The Nature of the Bibliotheca of photius, Washington, 1980

32 انظر كتاب الباحثين ل. د. رينولدز ون. ج. ويلسون: من هوميروس إلى إيراسموس: كيفية نقل أعمال الكتاب الكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين، منشورات باريس، 1991.

L.D. Reynolds et N. G. Wilson : d'Homère à Erasme : la transmission des classiques grecs et latins, Paris, 1991

33 انظر الدراسة التي نشرها الباحث جان إيريغوان في إحدى المجلات الألمانية تحت العنوان التالي: انتعاش الأدبيات اليونانية الرومانية في القسطنطينية وتجددها في القرن التاسع الميلادي.

Jean Irigoin : Survie et renouveau de la littérature antique à Constantinople (IXe siècle) in : Griechische Kodikologie und Textüberlieferung, Darmstadt, 1980

وانظر أيضاً كتاب الباحث لونشيانو كانفورا تحت عنوان: مكتبة البطريرك. فوتيوس ممنوعا من قبل الرقابة في عهد مازاران، باريس، 2003.

Luciano Canfora : La Bibliothèque du patriarche Photius censuré dans la France de Mazarin, Paris, 2003

34 انظر كتاب المؤرخ جيبون، مصدر مذكور سابقاً.

35 انظر المرجع التالي باللغة الإسبانية:

Adanças e viajes de pero tafur por diversas partes del mundo avidos (1435-1439), Madrid, 1874

36 انظر كتاب الباحث غوستاف شلومبيرجير: حصار القسطنطينية وفتحها ونهبها على يد الأتراك عام 1453، منشورات باريس، 1914.

Gustave Schlumberger : Le siège, la prise et le sac de Constantinople par les Turcs en 1453, Paris 1914

37 المعرض والفهرس الذي يحمل العنوان التالي: عظمة الأمويين، باريس، 2000 (معهد العالم العربي)، وكذلك معرض قرطبة 2001.

Splendeur des Omeyyades, Paris, (IMA) et Cordoue, 2001.

38 وهذه هي الأطروحة التي دافع عنها الباحث دافيد فاسيرشتاين في دراسته التي تحمل العنوان التالي: "مكتبة الحكم المستنصر وثقافة إسبانيا الإسلامية". دراسة منشورة في مجلة اختصاصية بعنوان: مخطوطات الشرق الأوسط 1990-1991، المجلد الخامس، لايدي، 1993.

David Wasserstein : « The library of al-Hakam al-Mustansir and the culture of islamic Spain » in : Manuscripts of the Middle-East, 1990-1991, vol. 5, 1993

39 يمكن للسائح من الآن فصاعداً أن يزور آثار مدينة الزهراء، وهي تقع على مبعدة ثمان كيلومترات من قرطبة، وتدعى بالإسبانية هكذا: **Medina Azahara**

40 انظر كتاب الباحث محمد سباعي: مكتبات المسجد: دراسة تاريخية، لندن، 1987.

Mohammad Sibai : Mosque Libraries : A Historical Study, Londres, 1987

41 انظر المرجع التالي: **Richard Erdoes : 1000 AD, Berkeley, 1998**

42 هذا المصطلح مأخوذ من الباحث غابرييل مارتينيز غروس صاحب الكتاب التالي: الإيديولوجيا الأموية: كيفية تشكيل مشروعية خلافة قرطبة بين القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد، مدريد، 1992.

Gabriel Martinez Gros : L'Idéologie omeyyade : la construction de la légitimité du Califat de Cordoue : X-XIe siècles, Madrid, 1992.

43 انظر المرجع التالي بالإسبانية للباحث ج. ريبيرا تاراغو:

J. Ribera Tarrago : Bibliofilos y bibliotecas en la Espana musulmana, Sarragosse, 1896

44 وقد اكتشف مخطوطة الكتاب واعترف بصحتها حوالي عام 1934 المؤرخ الكبير للحضارة الإسلامية في إسبانيا: ي. ليفي بروفنصال. **E. Lévi-Provençal**

45 انظر المرجع التالي للباحث بيير غيشار: من الفتح العربي إلى استعادة إسبانيا من قبل الإسبان. عظمة الأندلس وهشاشتها، منشورات غرناطة، 2003.

Pierre Guichard : de la conquête arabe à la reconquête, grandeur et fragilité d'al-Andalus, Grenade, 2003

46 انظر المرجع التالي للباحث ليفي بروفنصال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، باريس، 1950.

Lévi-provençal : histoire de l'Espagne musulmane, Paris, 1950

نلاحظ أن هذا الباحث يقول في مكان آخر بأن فرز المؤلفات وحرقها من قبل المنصور كان عبارة عن عملية طويلة استغرقت حوالي الستة أشهر.

47 انظر المرجع التالي بالإسبانية للباحث ماريبيل فييرو بيلو: الهرطقة في الأندلس أثناء الفترة الأموية، مدريد، 1987.

Maribel Fierro Bello : La Heterodoxia en al-Andalus durante el priodo omeya, Madrid, 1987

48 انظر المرجع التالي لابن سعيد الأندلسي: كتاب طبقات الأمم، طبعة باريس، 1935.

49 تكريتي (1972). استشهدت به ماري جنفييف بالتي غيسدون، ثم م. ج، بالتي غيسدون في بحثهما المنشور في مجلة آرابيكا تحت عنوان: بيت الحكمة في بغداد، رقم العدد 39، ص 131–150، ليدن، 1992.

Marie-Geneviève Balty-Guesdon, puis M. G. Balty-Guesdon : « Le Bayt el-Hikma de Baghdad » Arabica n°39 p. 131-150, Leyde, 1992

50 وذلك في كتابه: اختلاف الفقهاء الذي استشهدت به ماري-جنفييف بالتي غيدسون، مصدر مذكور آنفاً.

51 هو القاضي النعمان الذي استشهد به هاينز هالم في كتابه: الفاطميون وتراثهم في التعليم، لندن، 1997.

Heinz Halm : The Fatimids and their Tradition of Learning, Londres, 1997

52 انظر المقريزي، المتزه في القاهرة، وقد استشهد به ر. ج. خوري في بحثه التالي: "وصف رائع لمحتويات المكتبة الملكية، خزانة الكتب في القاهرة في ظل الخليفة الفاطمي العزيز بالله". وهو بحث منشور في الكتاب التالي: محاضر المؤتمر التاسع للاتحاد الأوروبي للمستعربين والمختصين بالدراسات الإسلامية (منشورات امستردام، 1978)، وليدين، 1981.

R. G. Khoury: «une description fantastique des fonds de la Bibliothèque royale Khizanat al-kutub au Caire, sous le régime du calife fatimide al'Aziz bi-Ilah» in : proceedings of the ninth Congress of the Union européenne des arabisants et islamisants (Amsterdam, 1978), Leyde, 1981

53 على الرغم من أن هذا الخيار يبدو معقولاً وناتجاً عن تأمل عميق إلا أنه يحصل أن يدعو بعض الكتاب والمؤرخين هذه المؤسسة بأسماء أخرى كدار الحكمة مثلاً وذلك طبقاً للمصادفات والظروف

54 انظر المرجع التالي للباحث اندريه ريمون: القاهرة، باريس، 1993.

André Raymond : Le Caire, Paris, 1993.

55 انظر المقريزي كما استشهد به الباحث أحمد فؤاد سيد في بحثه: ما الذي تبقى من مكتبة الفاطميين؟ بحث منشور في كتاب بعنوان: عن المكتبات الثانية للإسكندرية، تحولات القارئ، باريس، 2003.

A. Fu'ad Sayyid : « Que reste-t-il de la bibliothèque des Fatimides ? in : Des Alexandries II. Les métamorphoses du lecteur, Paris, 2003

56 انظر كتاب خطط الشام الذي استشهد به الباحث يوسف حميش في كتابه: المكتبات العربية العامة وشبه العامة في بلاد الرافدين، وسوريا، ومصر إبّان القرون الوسطى، منشورات دمشق، 1967.

Y. Eche : Bibliothèques arabes publiques et semi-publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen-Âge, Damas, 1967

57 المرجع التالي للباحث ب. ك. حتي: العرب، لندن، 1948.

P.K. Hitti : Les Arabes, Londres, 1948

58 هذه الكلمات تمثل بداية الآية التاسعة عشرة من سورة الروم. قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾. ولكن مقصد العبارة ليس واضحا بشكل كامل.

59 انظر كتاب الباحث إيتان كوهلبيرغ: عالم مسلم قروسطي في حالة العمل: ابن طاووس ومكتبته، منشورات ليدين، 1992.

Etan Kohlberg : A Medieval Muslim Scholar at work : Ibn Tâwûs and His Library, Leyde, 1992

60 يقدّم الباحث كوهلبيرغ دراسة مفصلة ودقيقة جداً عن قراءات هذا المفكر الهام والشخصية التي تلفت الانتباه. ولكن بما أن كتبه أورثت إلى ذريته طبقاً للتقاليد البورجوازية المعهودة، فإننا لن نتحدث عنها هنا.

61 على هذا النحو كان يتنهد يوسف عيش في سنوات الستينات من القرن العشرين حسرة وألما دون أن يقول لنا فيما إذا كان البحث العلمي سيعود إلى العالم العربي يوما ما مرة أخرى.

62 انظر الفصل الحادي عشر الذي كتبه الباحث س. ك. بادوفير في الكتاب الجماعي الذي أشرف عليه طومسون تحت عنوان: المكتبة في القرون الوسطى، منشورات نيويورك، 1957.

S. K. Padover, chapitre XI, dans Thompson, The Medieval Library, New York, 1957

63 انظر بهذا الصدد كتاب الباحث هنري شارل ليا: تاريخ محاكم التفتيش في القرون الوسطى، منشورات باريس عام 1901، ومنشورات غرينوبل عام 1990.

Henry-Charles Lea : Histoire de l'Inquisition au Moyen-Âge, Paris 1901, et Grenoble 1990.

وانظر أيضاً كتاب الباحث جيلبير داهان: حرق كتاب التلمود في باريس بين عامي 1242-1244، باريس، 1999.

Gilbert Dahan : Le Brûlement du Talmud à Paris, 1242-1244, Paris, 1999

64 يقدّم لنا الباحث بول غريندلير معلومات دقيقة جدا عن عناوين هذه الكتب وعدد النسخ المطبوعة أو المنسوخة. وقد ورد ذلك في بحثه التالي: "تدمير الكتب العبرانية في البندقية عام 1568". بحث موجود في المجلة التالية: محاضر الأكاديمية الأمريكية للبحوث اليهودية، المجلد رقم 45، منشورات القدس، 1978.

Paul Grendler : « The destruction of Hebrew books in Venice, 1568 » in : proceedings of the American Academy for Jewish Research, vol. 45, Jérusalem, 1978

65 انظر كتاب الباحث إدوارد إدواردز، مصدر مذكور سابقاً.

66 وقد ذكّرنا بذلك الباحث جيرار حداد في النسخة الجديدة لكتابه: الأشكال الجنونية الجديدة والمهووسة لمحاربة المكتبات، باريس، 2002.

Gérard Haddad : Les Folies millénaristes Biblioclastes, Paris, 2002

67 انظر المرجع التالي للباحث أوليفر مور (قراءة الماضي: الصيني، لندن، 2000).

Oliver Moore : (Reading the Past : Chinese, Londres, 2000)

وانظـــر أيضاً المرجع التالي للباحث دافيد كيفتلي (مصادر تاريخ سلالة شانغ الصينية: المنقوشات الصينية الموجـــودة علـــى أجساد الكاهنات والتي تنتمي إلى عصر الفولاذ الصيني، مطبوعـــات لـــوس انجيلوس، 1978.

David Keightley (Sources of Shang History : The Oracle-bone Chinese inscriptions of Bronze Age China, Los Angeles, 1978)

وانظر أيضاً ما كتبه الباحث ادوار شافانيز الذي استعرض أفكار الكتب الأولى لليو زهينيو الصادرة في بكين بعد أقل من سنة من ذلك التاريخ، أي عام 1911. وقد ورد بحثه في "المجلة الآسيوية: التأليه بواسطة قشرة السلحفاة في العصور الصينية القديمة (وذلك اعتماداً على كتاب م. لوتشين ريو)، باريس، 1911.

Edouard Chavannes : La Revue asiatique : La Divination par l'écaille de tortue dans la haute Antiquité chinoise (d'après un livre de M. Lo Tchen-Yu) Paris, 1911

68 انظر الكتاب الذي صدر بإشراف الباحثة جيسيكا راوسون تحت عنوان: أسرار الصين القديمة، لندن، 1996.

Jessica Rawson (ed) : Mysteries of Ancient China, Londres, 1996

69 إنه "بيلي" الذي استشهد به الباحث ادوارد شافانيس في كتابه: الكتب الصينية قبل اختراع الورق، باريس، 1905، في لغة "بينين" كلمة "تساو" تكتب على هيئة "سو".

Edouard Chavannes : Les Livres chinois avant l'invention du papiers, Paris, 1905

70 انظر كتاب الباحث كيان كنكسون: المكتوب على الخيزران والحرير: بدايات الكتب والنقوش الصينية، مطبوعات شيكاغو، 1962.

Qian Cunxun : Written on Bamboo and silk : The Beginnings of Chinese Books and Inscriptions, Chicago, 1962

71 اقرأ بشكل خاص نصوص تويتشيت-فيريانك، وبودي، وواو غينحنك، وبالطبع نصوص سيما كيان.

72 انظر كتاب كيان كنكسون، مصدر مذكور سابقاً.

73 انظر مادتي "كزونزي" و"يانغ زهو" في قاموس الحضارة الصينية، تأليف ك. شيفير، باريس، 1998.

K. Schiffer : Dictionnaire de la civilisation chinoise, Paris, 1998. « xunzi », « yang zhu »

74 هو المفكر الصيني "وي هينغ" (Wei Heng) الذي استشهد به الباحث ادوار شافانيس، مصدر مذكور سابقاً، 1905.

75 انظر الدراسة التي كتبها الباحث "واو غينحنك بعنوان: "المكتبات وجمع الكتب في الصين قبل اختراع الطباعة". وهي دراسة منشورة في مجلة شهرية تصدر بشنغهاي، أكتوبر 1937.

Wu Guangqing : « Libraries and book-collecting in China before the invention of printing » in : T'ien hsia Monthly, vol. v/3, Shanghai, octobre 1937

76 من أجل المزيد من التوسع حول "الطاويّة" انظر مادة "أدب" في قاموس الحضارة الصينية، منشورات باريس، 1998. وهي المادة التي كتبها كل من الباحثين بول ديميفيل وإيف هيرفاوي. والطاوية هي فلسفة دينية مبنية على تعاليم لاوتسو الصيني الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد.

Paul Demieville et Yves Hervonet : « Littérature », in : Dictionnaire de la civilisation chinoise. Paris, 1998

77 كتاب الباحث روبن ييتس: الخمسة الكلاسيكيون السابقون: طاو، هيونانغ-لاو، وين-يانغ في الصين أثناء حكم سلالة الهان. منشورات نيويورك، 1997.

Robin Yates : Five Lost Classics : Tao, Huang-Lao, and Yin-Yang in Han China, New York, 1997

78 لا شيء ميئوس منه أبديا. والدليل على ذلك أن علماء الآثار اكتشفوا عام 2002 عشرين ألف صفيحة من الخيزران في موقع "لبي" بمنطقة هونان بالصين. وهذا هو أول اكتشاف ضخم من هذا النوع. ففي السابق ما كانوا قد اكتشفوا أكثر من ألفي صفيحة. يضاف إلى ذلك أنها تعود إلى عهد سلالة "كين" وتدل على أحداث حصلت بعد التوحيد.

79 يعود هذا الوصف إلى سيما غوانج Sima Guang (1019–1086). وقد ترجمها إلى الفرنسية الباحث جان بيير دريج في كتابه الهام عن المكتبات في الصين حتى القرن العاشر الميلادي: المكتبات في الصين في زمن المخطوطات: أي حتى القرن العاشر. منشورات باريس 1991.

Jean-Pierre Drège : Les Bibliothèques en Chine au temps des manuscrits : jusqu'au Xe siècle, Paris, 1991

80 انظر كتاب الباحث دني تويشيت: الطباعة والنشر في الصين إبان القرون الوسطى، لندن، 1983.

Denis Twichett : printing and publishing in Medieval China, Londres, 1983

81 انظر المقال التالي للباحث جيانغ فوكونغ: "مخطط تاريخي عن المكتبات الصينية". بحث منشور في مجلة فيلو بيبلون، الجزء الثاني، رقم 2، منشورات شانغهاي، مارس 1948.

Jiang Fucong : « A historical sketch of Chinese libraries » in Philobiblon, Vol II, n°2, Shanghai, mars 1948

82 انظر المقال التالي للباحثة نانسي سوات: "سبعة ملاكين لمكتبات خاصة" بحث منشور في مجلة: جريدة هارفارد للدراسات الآسيوية، الجزء الأول، رقم 3-4، ص 363–390، بالتيمور، نوفمبر 1936.

Nancy Swan: «Seven intimate library owners», Harvard Journal of Asiatic Studies, Vol 1, n° 3-4, p. 363-390, Baltimore, novembre 1936

83 وذلك طبقاً لما ينقله الباحث "مامونفشوان" الذي استشهد به الباحث "شين دنغيوان" في كتابه التالي: "تأملات حول جمع الكتب وتدميرها في التاريخ الصيني"، منشورات شانغهاي 1936.

Ma Mongchuan cité par Chen Dengynan dans : (Considérations sur le fait de collectionner .et de détruire des livres dans l'histoire chinoise) Shanghai, 1936

وانظر أيضاً كتاب الباحث س. ايلدرغين: "كانغشو: تراث جمع الكتب في الصين" منشورات بيبليس. منشورات كتاب العام لجورج سفينسون، استوكهولم، 1996.

S. Edgren : « Cangshu : the tradition of collecting books in China », Biblis, the Georg .Svensson Lectures yearbook, Stockholm, 1996

وانظر أيضاً دراسة الباحث "يوكيو" في مجلة الأدب الصيني، خريف 1998: تقلبات تياني بافيليون".

Yu Qinyu : « The vicissitudes of Tianyi pavilion », in Chinese Litterature, automne 1998

84 استشهد بذلك "تان زهويوان" في كتابه: تطور المكتبات الصينية في ظل عهد سلالة "تشينغ دين" بين عامي 1644-1911، منشورات شانغهاي، 1935.

Tan Zhuoyuan : The Development of Chinese Libraries under the Ch'ing Dyn 1644-1911, Shanghai, 1935

85 انظر المرجع السابق للباحث تان زهويوان.

86 المرجع التالي للباحث جان فرانسوا بيليتيه: "لي زهي": الفيلسوف المشؤوم (1527-1602)، منشورات جنيف، 1979.

.Jean-François Billeter : Li Zhi philosophe maudit (1527-1602), Genève, 1979

ولكن للأسف فإن هذا الكتاب لا يعالج إلا القسم الأول من حياة "لي زهي". وبالتالي ففيما يخص حياته اللاحقة حتى موته فيقول لنا المؤلف "بأن كل المواد والترجمات بقيت في الأدراج منذ عشرين سنة. وسوف أعود إليها يوما ما، ولكن متى؟"

87 وهذا ما نقله الباحث ل. س. غورديتش في كتابه: محاكم التفتيش الأدبية لشيين-لونغ، منشورات بالتيمور، 1935.

L. C. Goodrich : The Literary Inquisition of Ch'ien-Lung, Baltimore, 1935

88 الباحث ر. ك. عني بهذا النص (Banli Siku quanshu Tang'an) في كتابه: الكنوز الأربعة للإمبراطور: العلماء والدولة في آخر عهد سلالة شيين لونغ. منشورات كمبردج، 1987.

R. K. Guy : The Emperor's Four Treasuries : Scholars and the State in the Late Ch'ien Lung Era, Cambridge, 1987

89 انظر المرجع التالي للباحث فيرنان دروجون: مقالة مفهرسة خاصة بالتدمير الطوعي للكتب أو المكتبات، باريس، 1889. وسوف نتحدث عن ذلك في الملحق رقم (2).

Fernand Drujon : Essai bibliographique sur la destruction volontaire des livres ou bibliolytie, Paris 1889

90 انظر المرجع التالي للباحث ي. ويلكنسون: التاريخ الصيني. كتاب مدرسي، كمبردج 2000.

E. Wilkinson : Chinese History. A manual, Cambridge, 2000.

هذا من جهة، وأما من جهة أخرى فينبغي العلم أنه تمت طباعة بقية النص الصيني المذكور في الهامش رقم 88 في شانغهاي. وهو يحتوي على 1800 جزء، وكل جزء يحتوي على 700 صفحة في المتوسط!

استطاعوا العثور عليها مؤخراً. كما وتستوعب الكتب التي احتقرها نساخو "كيانلونغ" باعتبار أنها شعبية أكثر من اللزوم (نذكر من بينها النصوص التي تحمل العناوين التالية: على حافة الماء، الحلم في البيت الأحمر، السياحات نحو الشرق، ورواية الممالك الثلاث). كما وأدخلوا أيضاً في هذه الطباعة الضخمة بعض المؤلفين الذين أصبحوا هامين والذين ينتمون إلى الفترة الممتدة منذ سلالة كيانلونغ وحتى عام1911. وأحد رؤساء تحرير هذا المشروع الكبير كان العالم اللغوي الشهير وخازن المكتبات في شانغهاي المدعو: نمو تنغلونغ. وقد شعر بأنه انتهى نهاية سعيدة لأنه مات في الرابعة والتسعين من عمره بعد صدور مشروعه الكبير عن المطبعة مباشرة.

91 على هذا النحو يصرخ بيتر فليمنغ في روايته: حصار بكين، منشورات هونغ كونغ، 1983.

Peter Fleming : The siege at Peking, Hong Kong, 1983

92 شهادة رولاند ألين في كتابه: حصار مفوضيات بكين، منشورات لندن، 1901.

Roland Allen : The siege at tge peking Legations, Londres, 1901

93 انظر المرجع التالي على الإنترنت: http://www.museum-security.org du 29 janvier 2003

94 كما يقول ويلكنسون في كتابه المذكور سابقاً (Wilkinson).

95 استشهد بذلك ويلكنسون في كتابه المذكور سابقاً. فهو يتحدث عن هذه القصة، وكذلك يفعل الباحث تان زهويوان في كتاب مذكور سابقا أيضاً.

96 انظر كتاب الباحث سيمون ليس: المزاج، الشرف، الرعب. مقالات عن الثقافة والسياسة الصينية، باريس، 1991.

Simon Leys : L'Humeur, l'honneur, l'horreur. Essais sur la culture et la politique chinoises, Paris 1991

97 ولكننا نرى ذلك يعود إلى الظهور من جديد وسط الفئات الاجتماعية الأكثر فقراً في البلاد ومن بينهم بالطبع تلك الفئة المدعوة بالمنبوذين.

98 وقد استشهد بذلك الباحث جوزيف كيتاغاوا في كتابه: الأديان في التاريخ الياباني، منشورات نيورورك، 1996.

Joseph Kitagawa : Religions in Japanese History, New York, 1966

99 نجد ذلك في كتاب دونالد كين: المذكرات الخاصة في اليابان، ترجمها إلى الفرنسية جان نويل روبير وظهرت عام 2004 عن معهد الدراسات العليا اليابانية في الكوليج دو فرانس.

Donald Keen : Les Journaux intimes au Japon. Trad. Jean-Noël Robert. Institut des hautes études japonaises du Collège de France, 2004

100 انظر مقالة إيشيكاوا هيروشي الموجودة في قاموس الحضارة اليابانية تحت عنوان: الفكر أو السمات الأساسية للفلسفة اليابانية. منشورات باريس، 1994.

Ichikawa Hiroshi : « pensée, grands traits de la philosophie japonaise » in : dictionnaire de la civilisation japonaise, Paris, 1994

101 انظر من جملة مراجع أخرى عديدة الكتاب التالي للباحث الإسباني جوليان ريبيرا: محبو المكتبات والمكتبات في إسبانيا الإسلامية. مصدر مذكور سابقاً.

.Julian Ribera : Bibliofilos y bibliotecas en la Espana musulmana, op. cit

وانظر أيضاً كتاب الباحث هنري كامين بعنوان: تاريخ محاكم التفتيش في إسبانيا، منشورات باريس، 1966.

.Henry Kamen : Histoire de l'Inquisition espagnole, Paris 1966

102 انظر المرجع التالي للباحث مالون دو شايد: اعتناق الجدلية للمسيحية.

Malon de Chaide : La Conversion de la Magdalena, S.I, 1588

103 انظر كتاب الباحث فرانسيسكو أولموس: سيرفانتيس في عصره، مدريد، 1968.

Francisco Olmos : Cervantes en su epoca, Madrid, 1968

104 كان الباحث جوزيه باردو توما قد درس هذا الجانب من التشذيب والتصفية للمكتبات. كما ودرس كيفية اختفاء الكتب العلمية بشكل منظم أو عشوائي. انظر بهذا الصدد كتابه التالي بالإسبانية.

José Pardo Tomas : Ciencias y Censura. La Inquisicion espanola y los libros cientificos en los siglos XVI y XVII, Madrid, 1991

105 انظر المرجع التالي للباحث بارتولومي بيناسار: محاكم التفتيش الإسبانية بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر، باريس، 1979.

Bartholomé Bennassar : L'Inquisition espagnole, XVe-XIXe siècles, Paris, 1979.

106 انظر كتاب هنري كامين، مصدر مذكور سابقاً.

107 انظر المرجع التالي للباحثة لطيفة بن جلون-العروي: المكتبات في المغرب الأقصى، باريس، 1990.

Latifa Benjelloun-Laroui : Les Bibliothèques au Maroc, Paris, 1990.

108 انظر المرجع التالي للباحث جوليان زاركو كيفاس (بالإسبانية).

Julian Zarcos Cuevas : Catalogo de manuscrutos castellanos de la Real Biblioteca de El Escorial, vol. 3, San Lorenzo de El Escorial, 1929.

109 انظر المرجع التالي للباحث ب. فرانسيسكو دو لوس سانتوس (بالإسبانية).

Descripcion del real monasterio de S. Lorenzo del Escorial, Unica maravilla del mundo, Madrid, 1681

110 انظر كتاب جيمس د. طومسون، مصدر مذكور سابقاً.

111 انظر البحث التالي للمؤلف غيوم دو مونتويش (أومونتوش) تحت عنوان: "رحلة الإمبراطور شارل كانت أو غزوته إلى بلاد تونس عام 1535". بحث منشور في كتاب جماعي أشرف عليه غاشا وبيوت تحت عنوان: "سلسلة رحلات ملوك هولندا"، منشورات بروكسيل، 1881.

Guillaume de Montoiche (ou Montoche) : « Voyage et expédition de Charles Quint au pays de Tunis, de 1535 » in : Gachard et Piot (éd) : Collection des voyages des souvenirs des Pays-Bas, Bruxelles, 1881

112 انظر كتاب الباحث هنري- شارل ليا، مصدر مذكور سابقاً.

113 انظر كتاب الفيلسوف الفرنسي الشهير مونتيني: مقالات، الجزء الثالث، الفصل السادس.

Montaigne : Essais, Livre III, Chap. 6

114 انظر كتاب الباحث لويس بودان: الإمبراطورية الاشتراكية للأنكا، باريس، 1928.

Louis Baudin : L'Empire socialiste des Inka, Paris, 1928

115 انظر المرجع التالي للباحث ف. و. فون هاجين: صناع الورق من الأزتيكين والمايا، نيويورك، 1944.

V.W. Von Hagen : The Aztec and Maya papermakers, New York, 1944

116 انظر المرجع التالي للباحث ويليام بريسكوت: تاريخ فتح مكسيكو، منشورات نيويورك، 1843 (الترجمة الفرنسية صدرت عام 1846 تحت عنوان: تاريخ فتح المكسيك).

William Prescott : History of the Conquest of Mexico, New York, 1843 (Histoire de la Conquête du Mexique, Paris, 1846)

117 انظر المرجع التالي للباحث غونزالو فيرنانديز دو أوفيديو إي فالديس (بالإسبانية). Gonzalo Fernandez de Oviedo y Valdes : Historia general y natural de las Indias, 1529. (أما الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب فقد صدرت تحت عنوان: السمات الفريدة لنيكاراغوا)، باريس، 2002.

Singularités du Nicaragua, Paris, 2002

118 انظر الكتاب التالي للباحث دييغو دولاندا: حكاية الأشياء الخاصة بيوكاتان، باريس، 1928.

Diego de Landa : Relations des choses de Yucatan, Paris, 1928

وانظر أيضاً المرجع التالي بالإسبانية والذي أشرف على نشره الباحث ألفريد م. توزر.

Alfred M. Tozzer (ed) : Landa's Relacion de las Cosas de Yucatan, Cambridge, 1941

119 انظر كتاب الباحث ف. و. فون هاجين، مصدر مذكور سابقا

120 انظر كتاب الباحث فرانز بلوم: فتح يوكاتان، منشورات نيويورك، 1936.

Frans Blon : Conquest of Yucatan, New York, 1936

121 انظر الكتاب التالي للباحث بوبول-فوه: "الآلهة، والأبطال، والبشر في غواتيمالا القديمة طبقا" لكتاب النصيحة. ترجم عن لغة "كيشو" وقدم له من قبل جورج رينو. باريس، 1975 (طبعة أولى عام 1925).

Popol-Vuh : Les Dieux, les héros et les hommes. De l'ancien Guatemala d'après le « Livre du Conseil », traduit et présenté par Georges Raynaud, Paris 1975 (1925 fac-similé)

122 انظر الكتاب التالي لجوزيه دي اكوستا (بالإسبانية). José de Acosta : Historica natural y moral de las Indias (Histoire naturelle et morale des Indes occidentales).

ترجم النص إلى الفرنسية تحت عنوان: التاريخ الطبيعي والأخلاقي لجزر الهند الغربية، الباحث جاك ريمي زيفير، باريس، Jacques Rémy-Zéphir, Paris, 19791979

123 الكاتب سيرافيم لايت هو مؤلف تاريخ الشركة في البرازيل في عشرة مجلدات. وقد استشهد به الباحث م. ل. غروفر في بحثه (الكتاب والفتح: المكتبات اليسوعية والبرازيل الكولونيالية). منشور في مجلة: المكتبات والثقافة، مجلد رقم 28، رقم 3، منشورات أوستين، صيف 1993). ثم استشهد به بشكل مطول أكثر الباحث ر. موراييس في كتابه: الكتب والمكتبات في البرازيل الكولونيالية، منشورات ريودوجانيرو، 1979

Serafim Leite cité par M. L. Grover (« The book and the conquest : Jesuit libraries in

R. Moraes : Livros e Bibliotecas no Brasil colonial, Rio de Janeiro, 1979

124 انظر البحث التالي للكاتب لورنس هالويل: "الكتب النادرة في مكتبات أمريكا اللاتينية". منشور في مجلة IFLA Journal، مجلد 21، رقم 1، 1995.

العنوان الإلكتروني: WWW.ifla.org. Laurence Hallewell « rare books in Latin American Libraries » IFLA Journal, vol. 21, N° 1, 1995.

125 شرح للقواعد التي يلتزم بها إخوان الصليب المقدس، وهي جمعية دينية مسيحية. وقد استشهد به الباحث ألفريد فرانكلين في كتابه: المكتبات القديمة في باريس، منشورات باريس، 1873.

Alfred Franklin : Les Anciennes Bibliothèques de Paris, Paris, 1873

126 انظر المصدر السابق للباحث ألفريد فرانكلين.

127 المصدر السابق.

128 استشهد بذلك الباحث س. ر. جيليت في كتابه: الكتب المحروقة. فصول منسية من التاريخ البريطاني والأدب. مطبوعات نيويورك، 1932.

C. R. Gillett : Burned Books. Neglected Chapters in British History and Litterature, New York, 1932

129 هذا ما نقله الباحث إسحاق دزرائيلي في كتابه: فضول الأدب، طبعة ثالثة، لندن، 1793 (الترجمة الفرنسية عام 1809).

Isaac Disraeli : Curiosities of Litterature, 3e édition, Londres, 1793 (curiosité de la littérature, Paris, 1809)

130 انظر كتاب الباحث كوليير: التاريخ الكهنوتي. وقد استشهد به ف. س. ميري ويزر في كتابه: الوله بالمكتبات في القرون الوسطى، منشورات لندن، 1849.

Collier : Ecclesiastic History F. S. Merryweather, Bibliomania in the Middle Ages, Londres, 1849

131 طبقاً لما قاله ايلمير د. جونسون في كتابه: تاريخ المكتبات في العالم الغربي، منشورات ميتوشن، 1976.

Elmer D. Johnson : History of Libraries in the western world, Metuchen, 1976

132 كان شارل ريلي جيليت قد ألف مدونة عن كل ذلك تصل إلى سبعمائة وخمسين صفحة مكثفة جداً وذلك عام 1937. مصدر مذكور سابقاً.

133 انظر الباحث جونسون، مصدر مذكور سابقاً.

134 انظر أبحاث رينولدز وويلسون، مصدر مذكور سابقاً.

135 انظر كتاب جورج يونغ: سلالة المديتشي الإيطالية، باريس، 1969.

George Young : Les Médicis, Paris, 1969

136 انظر كتاب الباحث والترسكاين: الحياة في مدينة فلورنسا أثناء عصر النهضة، منشورات بالتيمور، 1893.

Walter Scaife : Florentine Life during the Renaissance, Baltimore, 1893

137 انظر كتاب الباحث ي. ب. رودو كاناتشي: تاريخ روما، عهد البابا ليون العاشر، باريس، 1931.

E. P. Rodocanachi : Histoire de Rome, le Pontificat de Léonx, Paris, 1931

138 إنه بارسيكانوس الذي استشهد به الباحث س. كزابودي في ألبوم صور رائع مكرس لبعض المخطوطات التي تم إنقاذها. انظر المرجع التالي باللغة الهنغارية:

Bràssicanus, cité par C. Csapodi dans : Bibliotheca corviniana, Budapest, 1967

(الترجمة الفرنسية، بودابست، 1982)

139 انظر نيكولا أدلاه ثم مارتن بريتر المذكورين كليهما في ألبوم الصور الآنف الذكر والذي أشرف عليه الباحث س. كزابودي.

140 انظر المرجع التالي بالألمانية للباحث سيباستيان شيرتلان.

Sebastian Schertlin : Leben und Thaten des…Herrn Sebastian Schertlin von Burtenbach durch ihn Selbst deutsch beschrieben… herausgegeben von Ottmar F. H. Schönhuth…, Münster, 1858

141 انظر الكتاب التالي للباحثين بيير باري وجان نويل غورغان: ملك الأيام الأخيرة، بروكسيل 1985.

Pierre Barret et Jean-Noël Gurgand : Le Roi des derniers jours, Bruxelles, 1985

142 انظر المرجع التالي للباحث نورمان كوهن: متعصبو يوم القيامة، باريس، 1983.

Norman Cohn : Les Fanatiques de l'apocalypse, Paris, 1983

143 كان الباحث لويس ريو قد شرّح بكل دقة نزعة هدم النفائس الموجودة لدى البعض. وهي نزعة شائعة في فن العمارة والآثار الفنية في فرنسا عبر القرون. لقد فعل ذلك في كتاب فريد من نوعه ومفيد بدون أدنى شك، ولكن ينبغي علينا أن نقرأه ببعض الحيطة والحذر.

Louis Réau : Histoire du vandalisme, Paris, 1994

144 انظر المرجع التالي للباحث جوزيف ريشتير (بالألمانية) بحث منشور في كتاب جماعي.

Joseph Richter : Bildergalerie Klösterliche Misbraüche, in J. Garrett : The Fate of Monastic Libraries in Central Europe, 1780-1810.

العرض والمحاضرة تما في هنغاريا بتاريخ 3 أكتوبر 1997. والعنوان الإلكتروني هو التالي:

http://www.library.northwestern.edu/collections/garrett/kloster

145 انظر المقال الذي كتبه الباحث بول ميش في كتاب جماعي. عنوان المقال: المكتبات اليسوعية. وعنوان الكتاب الذي أشرف عليه الباحث كلود جولي هو التالي: تاريخ المكتبات الفرنسية. المكتبات في ظل العهد القديم: 1530–1789، باريس، 1988.

Paul Mech : « Les bibliothèques jésuites » in : Histoire des bibliothèques françaises. Les bibliothèques sous l'Ancien Régime : 1530-1789, sous la direction de Claude Jolly, Paris, 1988

146 استشهد بذلك الباحث بول ميش في مقاله المذكور آنفاً.

147 انظر الباحث غاريت، مصدر مذكور سابقا (Garrett)

148 انظر المرجع التالي للباحث فرانسوا فيجتو: جوزيف الثاني، باريس، 1953.

François Fejtö : Joseph II, Paris, 1953

149 انظر المقال التالي للباحث دوناسيان أ. ف. دوساد: "أيها الفرنسيون، بعض الجهد أكثر إذا كنتم تريدون أن تصبحوا جمهوريين". بحث منشور في كتاب بعنوان: الفلسفة في الصالون الصغير للسيدات، منشورات لندن، 1795.

Donatien A. F. de Sade : « Français, encore un effort si vous voulez être républicains » in : La Philosophie dans le boudoir, Londres, 1795

150 استشهد بذلك الباحثان ب. ديلوش وج. م. لينيو في المختارات التي جمعاها عن بعض التقارير والخطابات الأكثر جنونا في تلك الفترة. انظر كتابهما: ثقافة الثوار الفرنسيين لعام 1793. باريس، مونبلييه، 1989.

B. Deloche et J. M. Leniaud : La culture des sans-culottes, Paris, Montpellier, 1989

151 انظر الكاتالوج (أو الفهرس الجامع) الذي يحمل العنوان التالي: 1789: الإرث المحرّر، باريس، 1989.

1789, le patrimoine libéré (catalogue), Paris, 1989

152 استشهد بذلك الباحث بير ريبريت: المكتبات الفرنسية أثناء الثورة (1789-1795). بحــوث عــن محــاولات لصنع كاتالوج جماعي، باريس، 1970.

Pierre Riberette : Les Bibliothèques françaises pendant la Révolution (1789-1795), recherches sur un essai de catalogue collectif, Paris, 1970

153 خطاباه عن الموضوع موجودان في المنتخبات التي جمعها الباحثان ديلوش وج. م. لينيو. انظر أولاً: "تقرير عن البيليوغرافيا أو فهرس المراجع، 22 جرمينال، أي الشهر السابع في عهد الثورة الفرنسية، في السنة الثانية للثورة".

وانظر ثانياً: "تقرير عن التدميرات الناتجة عن هدم النفائس، 14 من الشهر الأخير في السنة بحسب تقويم الثورة الفرنسية، وذلك من السنة الثانية لهذه الثورة". مصدر مذكور سابقاً.

« Deloche et Leniaud : « Rapport sur la bibliographie, 22 germinal an II »

« Rapport sur les destructions opérées par le vandalisme, 14 fructidor an II »

154 فيما يخص البحث المحموم عن المواد الأولية من قبل صنّاع الورق (أو الوراقين) في القرن الثامن عشر وبدون شك إلى الأبد انظر الكتاب التالي للباحث ل. اكس بولاسترون: الورق، ألف عام من تاريخ صنعه والخبرة فيه، منشورات باريس، 1999.

L. X. Polastron : Le Papier, 2000 ans d'histoire et de savoir-faire, Paris, 1999

155 استشهد بذلك دومينك فاري في بحثه الذي يحمل العنوان التالي: الكتاب، رهينة الثورة: الانعكاسات البيليوغرافية للمصادرات السياسية". منشور في كتاب جماعي يضم مداخلات المؤتمر الدولي المنعقد في باريس يومي 23-24 مايو من عام 1997، منشورات باريس، 2000، وذلك تحت عنوان:-الكتاب المسافر.

Dominique Varry : « Le livre, otage de la révolution : conséquences bibliographiques des saisies politiques » in : Le livre voyageur, Paris, 2000

156 انظر الكتاب التالي للباحث جان باتيست لابيش: ملاحظات حول المستودعات الأدبية والثورة البيليوغرافية التي حصلت في نهاية القرن الماضي، باريس، 1880.

Jean-Baptiste Labiche : Notices sur les dépôts littéraires et la révolution bibliographique de la fin du siècle dernier, Paris, 1880.

157 وهي الأرقام التي ذكرها الباحث ألفريد هيسيل في مصدر مذكور سابقاً. ولكنه يقول أيضاً بأنه تم إنقاذ عشرة آلاف مخطوطة من مياه الضخ وإعادتها إلى المكتبة الوطنية.

158 انظر دومينيك فيري، مصدر مذكور سابقاً.

159 وهي الفرضية التي طرحها من بين آخرين عديدين الباحثان برنار ديلوش وجان ميشيل لينيو، مصدر مذكور سابقاً.

160 وذلك طبقاً لكلام حفيده الأصغر وكاتب سيرته أرفين فون أريتين الذي استشهد به الباحث جيفري غاريت في مصدر مذكور سابقاً. أنظر أيضاً إلى البحث الذي قدمه ي. هــ. دومير بعنوان: "جوهان كريستوف فون أريتين: إعادة تقييم". بحث منشور في مجلة تدعى فصلية المكتبات، الجزء السادس عشر، رقم 2، ص 108-121، منشورات شيكاغو، أبريل، 1946.

Erwein von Aretin, cité par Jeffrey Garrett. E. H. Dummer : « Johan Christoph von Aretin : A re-evaluation », in : Library Quarterly, vol. 16, n°2, p. 108-121, Chicago, avril 1946

161 كان جول كوزان، أمين مكتبة بلدية باريس، قد ذكر اسمه في كاتالوج المعرض الذي نظم في قصر لاموانيون بباريس بين 12 يونيو-31 يوليو عام 1980 تحت عنوان: تشكيل الإرث الباريسي: المكتبة التاريخية منذ حريق عام 1871.

Jules Cousin : Constitution d'un patrimoine parisien : La Bibliothèque historique depuis l'incendie de 1871, Catalogue de l'exposition, Hôtel de Lamoignon, Paris, 12 juin- 31 juillet 1980.

162. انظر المرجع التالي للباحث ب. و. ليساغاري: تاريخ كومونة باريس لعام 1871، منشورات باريس، 1896.

P. O. Lissagaray : Histoire de la Commune de 1871, Paris, 1896.

163 هو جورج بيل الذي يقول إنه قارئ نهم لهذا الأرشيف. انظر المرجع التالي: باريس المحترقة. تاريخ كومونة باريس لعام 1871، منشورات باريس، 1872.

Georges Bell : Paris incendié. Histoire de la Commune de 1871, Paris, 1872.

164 انظر مراسلات جول كوزان المستشهد به في كتاب تشكيل الإرث الباريسي، مصدر مذكور سابقاً.

165 استشهد بذلك جورج بيل في كتابه المذكور آنفا.

166 إنه الناقد الأدبي الشهير "تين" الذي استشهد به الباحث بول ليدسكي في دراسته الممتعة جداً والتي استفدنا منها كثيراً هنا. انظر كتابه: الكتّاب ضد كومونة باريس، منشورات باريس، 1999.

Taine cité par Paul Lidsky : les écrivains contre la commune, Paris, 1999.

167 انظر المرجع التالي للباحث تومي أنغيرير: الحرب هي الحرب. رسوم وذكريات من الطفولة، باريس، 2002.

Tomi Ungerer : à la guerre comme à la guerre. Dessins et Souvenirs d'enfance, Paris, 2002.

168 تقرير صحفي أذاعه بول رنيكون على موجات الــ بي.بي.سي. نيوز بتاريخ سبعة يوليو من عام 2003. **Paul Rincon : BBC News, 7 juillet 2003** والعنوان الإلكتروني هو التالي:

http://news.bbc.co.uk/i/hi/sci/tech/3038368.stm

169 انظر المرجع التالي للباحث هـ. يو. ستوتبنغز: الحرب الخاطفة والكتب. المكتبات البريطانية والأوروبية والخسائر التي تعرضت لها أثناء الحرب العالمية الثانية، منشورات بلومينغتون، 1993.

H.U. Stubbingd : Blitzkreig as Casualties of world war II, Bloomington, 1993.

هذا من جهة، وأما من جهة أخرى فإن الجرد المنطقي والمنتظم لهذه الكتب كان قد حصل على يد الباحث هانز فان دير هوفين بطلب من اليونيسكو. وقد نشر تقريره على هيئة كتاب يحمل العنوان التالي: ذاكرة العالم: ذاكرة ضائعة. المكتبات والمخطوطات المدمرة أثناء القرن العشرين. منشورات باريس (اليونيسكو)، 1996.

Hans Van Der Hoeven : Mémoire du monde : Mémoire perdue. Bibliothèques et archives détruites au XXe siècle, Paris (Unesco), 1996.

170 المعلومات المتضمنة في هذه الفقرة استعرناها من الباحث و. ج. سيبالد. انظر كتابه بالألمانية:

W. G. Sebald : Luftkrieg und Literatur : Mit einem Essay zu Alfred Andersch, Munich, 1999.

171 انظر المرجع التالي للباحث والتر ميهرنيغ (بالألمانية): Walter Mehring : Die verlorene Bibliothek : Autobiographie einer Kultur, Hambourg, 1952 (الترجمة الفرنسية بعنوان: المكتبة الضائعة. باريس 1958). (La bibliothèque perdue, Paris, 1958)

172 انظر المرجع التالي للباحث ارنست جونجير: الجريدة الباريسية الثانية، الجريدة رقم ثلاثة، 1943–1945، منشورات باريس، 1980.

Ernst Jünger : Second journal parisien, Journal III, 1943-1945, Paris, 1980.

173 انظر الكتاب التالي للباحث تيودور ويلش: المكتبات وأمانة المكتبات في اليابان، منشورات ويست بورت، 1997.

Theodore Welch : Libraries and Librarianship in Japan, Westfort, 1997.

174 مُعاد ذكره في كتاب "ذاكرة العالم"، مصدر مذكور سابقاً.

175 كما يذكرنا بذلك ليونيل ريشار في دراسته الغنية والممتعة حول الموضوع: النازية والثقافة، منشورات بروكسيل، 1988.

Lionel Richard : Le Nazisme et la culture, Bruxelles, 1988.

176 انظر أيضاً ليونيل ريشار، مصدر مذكور سابقاً.

177 وهذه المهمة كلف بها الدكتور غرايسون ن. كيفوفير الذي ذكرها في مقالة نشرتها النيويورك تايمز بتاريخ 14 أبريل 1945، ص 12، سلسلة 1 تحت عنوان: "نهب المكتبات من قبل المراقبة النازية".

Dr Grayson N. Kefauver : « Library pillaging by Nazis Surveyed » in : The New York Times, 4 avril 1945, p. 12, col. 1.

178 اقرأ بهذا الصدد كتاب مرغريت ستايغ: المكتبات العامة في ألمانيا النازية، منشورات توسكالوسا، 1992.

Margaret Stieg : Public Libraries in Nazi Germany, Tuscaloosa, 1992.

179 انظر بهذا الصدد المرجع التالي للباحث ليولونيتال:

Leo Löwenthal : « Calibans Erbe », Schriften, Band 4, Francfort, 1984.

180 انظر المرجع التالي:

Einsatystab Reichsleiter Rosenberg für die besetzten Gebiete, ou ERR : Commission (comme traduisait Vichy) Rosenberg pour les terrtoires occupés.

181 رسالة أبريل عام 1941 التي استشهد بها المستشار راجينسكي (Raginsky). وأما فيما يخص الـERR فانظر من جملة أشياء أخرى تقريره إلى محكمة نورمبرغ، مار 21 فبراير من عام 1946. المحكمة العسكرية الدولية. محاكمة مجرمي الحرب الكبار أمام المحكمة العسكرية الدولية، الجزء الثامن، نورمبرغ، 1947-1949.

Procès des grands criminels de guerre devant le tribunal militaire international, tome VIII, Nuremberg, 1974-1949

182 انظر كتاب الباحثة بربارة بيانكوفسكا: الكتب في بولندا: الماضي والحاضر، فايسبادين، 1990.

.Barbara Bienkowska : Books in Poland : past and present, Wiesbaden, 1990

وانظر أيضاً المرجع التالي: "تقرير عن خسائر المكتبات البولندية أثناء الحرب العالمية الثانية". بحث منشور في مجلة: المكتبات البولندية اليوم، الجزء الثالث، ص 25-33، فارصوفيا، 1995.

Report on the losses of polish libraries in the second world war » polish libraries today, 3, p. 25-33, Varsovie, 1995

183 شهادة الدكتورفورستر في محكمة نورمبرغ، المحكمة العسكرية الدولية، محاكمة كبار مجرمي الحرب أمام المحكمة العسكرية الدولية، الجزء الثامن، نورمبرغ، 1947-1949.

Dr Forster : procès des grands criminels de guerre devant le tribunal militaire international, tome VIII Nuremberg, 1947-1949.

184 انظر دراسة الباحثة باتريسيا غريمستيد: "ملحمة مكتبة بيتليورا ومحاضر الجمهورية الوطنية الأوكرانية أثناء الحرب العالمية الثانية"، بحث منشور في مجلة الدراسات الأوكرانية لجامعة هارفارد، الجزء 22، 1999.

Patricia Grimsted : « the odyssey of the petliura library and the records of the Ukrainian National Republic during World War II », Harvard Ukrainian Studies, 22, 1999.

185 انظر بحث ليونيدلس ي. هيل المنشور في كتاب: المحرقة والكتاب. منشورات أمهيرست، 2001.

Leonidas E. Hill : The Holocaust and the Book ; Amherst, 2001.

186 استشهد بذلك ستانيسلاو ج. بوغليز في بحثه: "التعذيب غير الدموي" المنشور في كتاب: المحرقة والكتاب، مصدر مذكور سابقاً.

187 وهي مقالة ظهرت في جريدة "فرانكفورت زيتونغ" يوم 28 مارس من عام 1941. وقد استشهدت بها الباحثة جاكلين بورين في مقالها الذي يحمل العنوان التالي: "جذوات الروح: تدمير الكتب والمكتبات اليهودية في بولندا أثناء الحرب العالمية الثانية". بحث منشور في مجلة: المكتبات والثقافة، المجلد الثامن والعشرون، رقم 4، منشورات أوستين، خريف عام 1993.

Jacqueline Borin : « Embers of the soul : the destruction of jewish books and libraries in Poland during world war II ». in : Libraries and Culture, Vol. 28, n° 4, Austin, automne 1993.

هذا وقد كتبوا "قائمة تجريبية" عن محتويات سبعمئة وأربعة أراشيف يهودية كانت قد سلبت في أوروبا أو أتلفت. وقد كتبوا هذه القائمة فور انتهاء الحرب مباشرة في نيويورك عام 1946.

188 انظر كتاب بوغليس، مصدر مذكور سابقاً.

189 انظر المرجع التالي للباحث جياكومو دينيديتي: 16 أكتوبر 1943، باريس، 2001.

Giacomo Debenedetti : 16 octobre 1943, Paris, 2001.

190 انظر ملاحظة الفرز التي كتبها "بوهل" في شهر يوليو من عام 1943 بخصوص "التركيبة الحالية" لمكتبة البحوث عن المسألة اليهودية. وقد كتبها استناداً على "المعلومات أو المجلدات التي جمعها له جهاز مدعو بالـ l'Einstazstab". فقد اكتفى بها تقريبا للقيام بعملية الفرز هذه. للمزيد من الاطلاع حول هذه النقطة انظر الكتاب التالي للباحث جان كاسو: نهب الألمان للأعمال الفنية والمكتبات الخاصة باليهود في فرنسا، باريس 1947.

Jean Cassou : Le Pillage par les Allemands des œuvres d'art et des bibliothèques appartenant à des juifs en France, Paris, 1947.

وانظر أيضاً المقال التالي للباحث نيكولا ريميس "الكتب في حالة محنة، نهب المكتبات الخاصة باليهود أثناء فترة الاحتلال". بحث منشور في "مجلة تاريخ المحرقة– العالم اليهودي"، رقم 168، ص 31، منشورات باريس، عدد يناير–أبريل 2000.

Nicolas Reymes : « Les livres dans la tourmente. Le pillage des bibliothèques appartenant à des juifs pendant l'occupation » in Revue d'histoire de la Shoah- Le Monde Juif, n° 168, p 31, Paris, janvier-avril 2000.

191 عرض لمبادئ الـREE بتاريخ 23 نوفمبر 1941. وقد كتبه الباحث أوتيكال كرد على وفد فيشي بتاريخ 5 يوليو. انظر المصدر السابق لجان كاسو.

192 انظر مارسيل تيبو وقد استشهد به الباحث ريميس في مصدر مذكور سابقاً.

193 OMGUS: هو مقر الحكومة العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية. إنه اختصار للكلمات التالية بالانكليزية: Office of Military Governement of the US.

وقد تحدث عن هذه القصة الباحث روبيرت ج. ويت في دراسته التالية: "استعادة اليهود لأملاكهم الثقافية: القبض على الكتب التي كان النازيون قد سطوا عليها بالقوة في مناطق الاحتلال الألماني بين عامي 1945-1952". بحث منشور في مجلة المكتبات والثقافة، المجلد رقم 37، رقم 3، منشورات أوستين، تكساس، صيف 2002.

Robert G. Waite : « Returning Jewish Cultural property : the handling of books looted bu the Nazis in the American zone of occupation, 1945 to 1952 », Libraries and Culture, vol. 37, n°3, Austin, Texas, été 2002.

194 هذه شهادة جاكلين جاكوب- ديلماس المرفقة خطأً بصورة توضيحية تظهر المستودعات المبرّدة المجاورة. وهي بناية لا تزال موجودة حتى الآن. انظر المقالة التالية المنشـــورة في مجلة "العالم اليهودي"، رقم 146، ص 34، باريس، الأول من مارس عام 1993.

Jacqueline Jacob-Delmas : « Austerlitz-Lévitan-Bassano. Trois camps annexes de Drancy. Trois camps oubliés », in Le monde juif, n° 146, p. 34, Paris, 1er mars 1993.

195 وذلك طبقاً لأقوال جنيفير ألين في مقدمته لكتاب: "أفرّغ مكتبتي"، من و. بنيامين.

Jennifer Allen dans sa préface au « je déballe ma bibliothèque » de W. Benjamin.

196 رسائل غير منشورة سابقاً كان الكاتبان روبير مانويل ومارسيل لوب قد أرسلاها إلى مدام ج. ديلسوكس، عضوة مفوضية لجنة الكتب، المحفوظات القومية، صندوق رقم AJ/38/5937.

197 انظر أعمال الباحث ريميس، مصدر مذكور سابقاً.

198 وذلك بحسب تعبير الفنانة ماري غواستالا التي كانت تمتلك محترفاً للرسم في البرادات المجاورة Marie Guastalla.

199 انظر مقالة الباحث تيموتي و. ريباك: "مكتبة هتلر المنسيّة". بحث منشور في مجلة تدعى "بالشهرية الأطلسية"، منشورات بوسطون، 2003. أما عنوانها الإلكتروني فهو التالي:

http://www.theatlantic.com/issues/2003/05/ryback.htm

200 انظر المرجع التالي للباحثة فرانسين-دومينيك لايشتنهان: النهب الكبير: من غنائم النازيين إلى غنائم السوفييت، منشورات رين، 1998.

Francine- Dominique Liechtenhan : le Grand Pillage : du butin des nazis aux trophées des soviétiques, Rennes, 1998.

201 هذه الفترة الضبابية الغائمة وغير المعروفة ظلت مجهولة حتى أمد قريب: أي حتى ظهر بحث آرلين بليوم الذي وضحها عن طريق دراسة تاريخية لأول مرة عام 1996 تحت عنوان: "المسألة اليهودية والرقابة في الاتحاد السوفييتي"، بحث منشور في المرجع التالي: "المحرقة والكتاب"، منشورات امهيرست، 2001.

Arlen Blium : « The Jewish question and censorship in the URSS », in : the Holocaust and the Book, Amherst, 2001.

202 انظر البحث التالي المنشور في مجلة "فيلو بيبلون"، المجلد الأول، رقم 2، شانغهاي، سبتمبر 1946.

Jiang Fucong : « Habent sna fata libelli », philobiblon, vol. 1, n°2, Shanghai, septembre 1946.

203 انظر المرجع السابق. وانظر أيضاً كتاب الباحث روجيه بيلسييه: المكتبات في الصين طيلة النصف الأول من القرن العشرين، منشورات باريس، 1971.

Roger Pélissier : les Bibliothèques en Chine pendant la première moitié du XXe siècle, Paris, 1971.

204 فتحت في شهر سبتمبر عام 1936، هذا في حين أن المكتبة الوطنية لبكين كانت لا تزال شغالة ومفتوحة للجمهور. وهي تقدم لقرائها نصف مليون كتاب باللغة الصينية، ومائة وسبعة عشر ألف كتابا باللغات الأجنبية المختلفة.

205 انظر بحث الأكاديمي الصيني "زهو يوان" بالنسبة لأرقام الكتب الضائعة. عنوان البحث: "من شعب الولايات المتحدة الأمريكية: كتب البرامج الصينية أثناء الحرب العالمية الثانية". منشور في مجلة "المكتبات والثقافة"، مجلد رقم 32، العدد 2، منشورات أوستين، ربيع 1997.

Zhou Yuan : « From the people of the United States of America : the books for China programs during world war II » in : Libraries and Culture, vol. 32, n°2, Austin, printemps 1997.

206 انظر المرجع التالي للباحث جون باركلي: سبعون سنة من الجزر والمد للمكتبة الصينية والخدمات المعلوماتية. بدءً من الرابع من شهر مايو 1919 وحتى نهاية 1980. منشورات نيتوشين، 1995.

John Barclay : The Seventy-year Ebb and Flow of Chinese Library and Information Services. May 4, 1919 to the late 1980s, Netuchen, 1995.

207 انظر البحث التالي للأكاديمي "دينغ ليكسيا كسو": "خدمات المكتبات لدى شعب الجمهورية الصينية: لمحة تاريخية". بحث منشور في فصلية المكتبات، مجلد رقم 53، جزء رقم 2، 1983.

Ding Lixia Xu : « Libraries Services in the people's Republic of China : a historical overview » in : Library Quarterly, vol. 53, n°2, 1983.

208 انظر كتاب جون باركلي، مصدر مذكور سابقاً.

209 انظر المرجع التالي المجهول المؤلف والتاريخ والناشر: تاريخ المكتبات في الصين، منشورات بكين.
Zhongguo Tushuguan Shiye Jishi (chronologie des bibliothèques de Chine p. 103), Pékin, s.d

210 انظر المرجع التالي للباحث "كين لينغ": انتقام السماء: شاب صيني في خضم الثورة الثقافية، منشورات باريس، 1981.

Ken Ling : La vengeance du ciel : un jeune Chinois dans la révolution culturelle, Paris, 1981.

211 انظر المرجع التالي للباحث "لي زهينشينغ": الكتاب الأحمر الصغير لمصور صيني، منشورات باريس، 2003
Li Zhensheng : le petit livre rouge d'un photographe chinois, Paris, 2003.

212 انظر المرجع التالي للباحث "غايل كنغ": مكتبة شانغهاي. Gail King : The Xujiahui (Zikawei) Library of Shanghai. العنوان الإلكتروني هو التالي:

http://www.gslis.utexas.edu/landc/fulltext/landC-32-4-Fking.pdf

تشكّل هذه المكتبة منذ 2001 بمخازنها ذات الترميم الرائع وقاعة القراءة الرحبة المبنية في مكان شقق الرئيس، فرعاً من مكتبة شنغهاي التي أخذت 20.000 عمل من مجموعة الكتب الصينية – من بينها الملف – الكاتالوغ- الذي كان موجوداً في سنوات الثلاثينات والذي اختفى في الوقت المناسب- لكنها تركت تحت تصرف الجميع 80.000 مؤلّفاً باللغات الأجنبية الأصلية وأضيفت لها مؤلفات الجمعية الملكية الآسيوية، أي نظيرتها البريطانية (والتي ينبغي أن يعاد فتح مبناها التاريخي بدوره كمرصد للمخطوطات الصينية الكبرى). وعبر التنقيب في رفوف مكتبة "زيكاواي" اكتُشف القاموس الصيني الفرنسي اللاتيني المنشور بناء على أوامر صاحب الجلالة الإمبراطور والملك نابليون الكبير بباريس في المطبعة الإمبراطورية عام 1813، والضخم إلى درجة أن طبعة دون اللغة الفرنسية رأت النور في هونغ كونغ، لكنها احترقت كليا تقريبا عام 1863، أو أيضاً كتاب بيير مارتيال–سيبو "رسالة من بكين حول عبقرية اللغة الصينية" المنشور في بروكسيل 1773 الذي رمى إلى إيجاد القرابة بين رموز الأفكار بواسطة الرسوم وبين الحروف الهيروغليفية. وبرزت من بين كيلومترات من المواعظ والعناوين الأخرى المفيدة ثقافيا بمقدار ما هي غير قابلة للاستخدام إحدى المجموعات الأولى لبنجامان رابيه، وعدد كبير من العناوين – الكتب- الشهيرة من أجل منعها وكذلك جدار كامل من كتب الدليل حول الصين في النصف الأول من القرن العشرين، أي مصدر لا يقدّر بثمن بالنسبة للمؤرّخ. المفارقة هي أنه تعود للصين الشيوعية مكرمة أنها حافظت وأعادت للبحث المكتبة اليسوعية الوحيدة في العالم التي لم يتم المساس بها بشكل عام في جدرانها نفسها

213 استشهد بذلك الباحث جون باركلي، مصدر مذكور سابقاً.

214 انظر تاريخ مكتبات الصين، مصدر مذكور سابقاً.

215 انظر جريدة أخبار الصين اليومية بتاريخ 17 ديسمبر 1979، استشهد بذلك الباحث دينغ، مصدر مذكور سابقاً.

China Daily News, 17 décembre 1979.

216 انظر المرجع التالي للباحث برنار هاميل: دماء ودموع. التهجير الكبير في كمبوديا، منشورات باريس، 1977.

Bernard Hamel : De sang et de larmes. La grande déportation du Cambodge, Paris, 1977.

217 استشهد بذلك الباحث "موهان لال كول" في كتابه: كشمير، نحيب الوادي، منشورات دلهي، 1999.

Mohan Lal Koul : Kashmir, wail of a valley, Delhi, 1999.

218 انظر كتابات الباحث الملتزم جداً "موهان لال كول"، مصدر مذكور سابقاً. فيما يخص المعلومات من يوم ليوم نلاحظ أن الصحفي فرانسوا غوتييه انضم كليا إلى معسكر الهندوسيين. اقرأ مقالاته في جريدة "نذير كشمير". وأما في المعسكر الآخر فنجد مجلة الملّة.

.François Gautier : Kashmir Herald ; The Milli Gazette

219 انظر مقالة جريدة "لوجين أنديبندان"، بتاريخ 7 يونيو 2003، وقد استعيدت على صفحات الإنترنت:

Jeune Independant, 7 juin 2003

http://www.gecos.dz/modules.asp?page=afactualiteandarticle=3119.

220 انظر مقالة الصحفية كاترين كانازي على الإنترنت: "أورانج المكتبة التي أفسدت".

Catherine Canazzi : «Orange, la bibliothèque pervertie » ; http ://www.eussib.fr/bbf/bbf-97-4/04-canazzi.pdf

221 انظر مقالة جول لاكروا: "المراقبة والمكتبات" منشورة في كتاب بعنوان: فتوى من أجل شهرزاد وحكايات أخرى من المراقبة العادية، منشورات سان جوليان– مولان — موليت، 1997.

Gilles Lacroix : « Censure et bibliothèques », in : Fatwa pour Schéhérazade et autres récits de la censure ordinaire, Saint-Julien-Molin-Molette, 1997.

222 انظر مقال عبدالودود العمراني على صحيفة الوطن القطرية حول الكاتب: الوطن، 2008/6/02 الصفحات الثقافية. [المُراجع]

223 انظر تقرير الكاتب جيل إيبولي إلى منظمة FAIFE في شهر يوليو 2002.

Gilles Eboli : rapport au FAIFE, juillet 2002.

انظر أيضاً مقالة الصحفية لورنس سانتا نتونيوس: "المكتبات: سبع سنوات برفقة اليمين المتطرف". منشورات "ليفر هيبدو"، رقم 483، بتاريخ 27 سبتمبر 2002.

Laurence Sanantonios : « Bibliothèques:7 ans avec l'extrême droite», Livres Hebdo,n° 483, 27 septembre 2002.

224 انظر مقالة الكاتب آزو فوغوي وديديه ديبري: "معبد المعرفة في حالة سيئة"، منشورة في مجلة "نوترفوا" رقم العدد 718، بتاريخ 5 أكتوبر 2000. العنوان الإلكتروني هو التالي: www.africaonline.co.ci.
Azo Vanguy et Didier Depry : « Le temple du savoir en souffrance », notre voix n° 718, 5 octobre 2000.

225 انظر على الإنترنت مقالة الباحث كمال باكاريش: "مكتبات ساريفو والكتاب الذي أنقذ حياتنا".
Kemal Bakarsic : The Libraries of Sarajevo and the Book that saved our Lives. En Ligne.

226 نحن مدينون للباحثة فيزنا بلازينا من جامعة مونتريال بكندا. انظر مقالتها تحت عنوان: قتل الذاكرة أو التطهير الثقافي: الحرب ضد مكتبات كرواتيا والبوسنة والهرسك. بحث منشور على الإنترنت.
Vesna Blazina : « Mémoricide ou la purification culturelle : la guerre contre les bibliothèques de Croatie et de Bosnie-Herzégovine »;
http://www.kaka-rigi.net/manu/blazina.htm

227 انظر بهذا الصدد مقالة "أندراس ريدليماير "على الإنترنت: "المكتبات والمخطوطات في الكوسوفو. تقرير ما بعد الحرب". **Andras Riedlmayer : Libraries and Archives in Kosova : a postwar report.**
En ligne: http://www.bosnia.org.uk/bosrep/decfeboo/libraries.htm

228 مقابلة مع لطيف بيدرام. نذكر لهذا المؤلف كتاباً بعنوان: أفغانستان. الذاكرة القتيلة أو المقتولة. منشورات باريس، 2001.

Latif Pedram : Afghanistan. La mémoire assassinée, Paris, 2001.

ونذكر أيضاً البحث التالي: "أفغانستان، المكتبة تحترق"، بحث منشور في مجلة "أوتوداني"، العدد الأول، باريس، 2001.

Afghanistan : La Bibliothèque est en feu » in : Autodafé, n°1, Paris, 2001.

229 انظر الكتاب التالي للباحث أوليفيه فيبر: الصقر الأفغاني، رحلة في بلاد الطالبان، منشورات باريس، 2001.

Olivier Weber : le Faucon afghan, un voyage au pays des talibans, Paris, 2001.

230 اقرأ بهذا الصدد التحري الذي قام به فيليب فلاندران في كتابه التالي: الكنز الضائع لملوك أفغانستان، باريس، 2001.

Philippe Flandrin : Le Trésor perdu des rois d'Afghanistan, Paris, 2001.

231 انظر المقالة التالية للكاتب باتريك هيلي: "مجلدات المكتبة التي تمت تخبئتها فأنقذت". منشورة في مجلة: بوسطون غلوب، بتاريخ 13 مايو 2003. وقد أكد على صحة هذا التقرير الصحفي فريق المؤرخين الذي قدم من دمشق بعد خمسة أسابيع من ذلك التاريخ، ثم من قبل الباحث ج. م. أرنولت (J. M. Arnoult).

Patrick Healy : « Library's volumes safely hidden », the Boston Globe, 13 mai 2003.

232 انظر مقالة الصحفي روبيرت فيسك: "المكتبة الإسلامية التي حرقت حتى الأرض"، منشورة في جريدة الاندبندنت، بتاريخ 15 أبريل 2003.

Robert Fisk : « Islamic library burned to the ground » The Independent, 15 april 2003.

233 انظر مقالة الباحثة زينب بحراني: "إنقاذ وادي الرافدين: الجغرافيا الإبداعية والعالم الذي مضى". منشورة في كتاب جماعي تحت عنوان: علم الآثار تحت النار، منشورات لين ميسكيل، لندن، 1998.

Zainab Bahrani : « Conjuring Mesopotamia : imaginative geography and a world past », archeology under fire, Lynn Meskell, éd. Londres, 1998.

234 انظر تصريح وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد في جريدة لوموند الفرنسية بتاريخ 2 يوليو 2003، الصفحة الرابعة. وأما فيما يخص القانون الوطني الصادر في أكتوبر 2001 ومادته المتعلقة بموضوعنا هنا فقد أثارت تقديم شكاوى ضده من قبل النقابة القوية ALA ضد الحكومة.

Donald Ramsfeld : Le Monde, 2 juillet 2003, p 4.

235 انظر العنوان التالي على الإنترنت: www.amnistia.net. هذه المنظمة كانت ناشطة جدا ضد التحريفيين الذين ينكرون محرقة اليهود على يد النازيين. ويمكن أن نقول الشيء ذاته عن الصحافة القومية والمحلية فيما يخص الحدث وعواقبه أو عدم وجود عواقب له.

236 انظر جريدة لوموند الفرنسية، بتاريخ 22 يوليو 1999.

Le Monde, 22 juillet 1999.

237 انظر جريدة التقدم، بتاريخ 2 أغسطس 2000. Le Progrès, 2 août 2000.

238 كلود بورجولان هو أستاذ متقاعد في جامعة ليون الثانية. انظر مجلة "ليون كابيتال"، قسم "منبر حر" بتاريخ 12 ديسمبر 2001.

Claude Burgelin : Lyon Capitale, tribune libre, 12 décembre 2001.

239 إن مثل هذا التأكيد يدلّ على نشاط اللوبي اليهودي في أوروبا حتى فيما يتعلق بالعلم والمعرفة، وخشية الدوائر الرسمية من التحقيق المحايد بهذا الشأن، وذلك على الرغم من أنّ معظم الحرائق السابقة أخضعت للتحقيق [المُراجع].

240 يُعدّ الكاتب الفرنسي جول فيرن من أعظم مؤسسي قصص الخيال العلمي [المُراجع].

241 انظر المرجع التالي للباحث هاري سكاليروب: كتب عائمة أو على الشاطئ، منشورات هامدين، 1974.

Harry Skallerup : Books afloat and ashore, Hamden, 1974.

242 انظر المقال التالي للكاتب هارولد اوتينس: "مكتبات المسافر على ظهر السفينة"، منشور في "مجلة تاريخ المكتبة"، مجلد رقم 14، العدد الرابع، خريف 1979.

Harold Otness : « Passenger ship libraries », the journal of Library History, vol. 14, n° 4, automne 1979.

243 حصلنا على معلومات هذا الفصل من النشرات الحديثة العهد للجرائد والمجلات التالية: جريدة لوموند الفرنسية، جريدة أخبار ديترويت (وبالأخص مقالة جنيفير بروكس بعنوان "لصوص يسرقون المكتبات من أجل الفائدة"، مقال صادر بتاريخ 21 يناير 2001).

Detroit News : Jennifer Brooks « Thieves plunder libraries for profit, 21 janvier 2001.

وكذلك استفدنا من جريدة الغارديان، وجريدة أساهي شيمبون (Asahi Shimbun)، بالإضافة إلى جريدة آخر أخبار منطقة الألزاس (Dernières Nouvelles d'Alsace).

كما استفدنا في كتابة هذا الفصل من مقالة الكاتب رالف مون: "مشكلة السرقة والبتر" منشورة في "جريدة المكتبات"، العدد ستون، بتاريخ شهر أغسطس 1935.

Ralph Munn : « The problems of theft and mutilation », Library Journal, 60, août 1935.

وانظر أيضاً المرجع التالي للكاتب جون بورروس: "السرقة والضياع في مكتبات المملكة المتحدة: نظرة عامة على الوضع القومي"، منشورات مجموعة البحوث الخاصة بالبوليس، سلسلة وحدة مكافحة الجريمة: الوثيقة رقم 37، لندن، 1992.

John Burrows : Theft and loss from UK Libraries : A national survey, police research group, crime prevention unit series : paper n° 37, Londres, 1992.

244 انظر المرجع التالي للباحث نيكولاس أ. بسبانيس: "جنون لطيف" منشورات نيويورك، 1995.

Nicholas A. Basbanes : A Gentle Madness, New York, 1995.

245 جريدة الأمة التي لحقت بها جريدة إيكسليبريس بتاريخ 3/7/7. La Nacion, Exlibris, le 7/7/3.

246 انظر المرجع التالي للباحث مايلز هارفي: جزيرة الخرائط الضائعة: قصة حقيقية عن جريمة بخرائطية. منشورات نيويورك 2000. وبالنسبة لمن لا يعرف الإنكليزية يمكنه الاطلاع على هذا الكتاب في اللغات الأخرى التي ترجم إليها وهي: الألمانية، والهولندية، والإسبانية، والإيطالية.

Miles Harvey : The island of lost maps : a true story of cartographic crime, New York, 2000.

247 انظر غاستون باشلار في مقدمته للكتاب: شاعرية الأحلام، باريس، 1960.

Gaston Bachelard : La poétique de la rêverie, Paris, 1960.

248 انظر مقالة باشكيم شيهو عن أنفير حجة: "مكتبة الديكتاتور"، مجلة "أوتودافي"، العدد رقم 2 خريف 2001.

Bashkim Shehu pour Enver Hodja : « La bibliothèque du dictateur » Autodafé, n° 2, automne 2001.

249 إنه الباحث فريتز ساكسل الذي استشهد به سلفاتور سيتيس في مقالته: "استمرارية مكتبة داربورغ، وصف لمكتبة"، فصل منشور في كتاب جماعي بعنوان: سلطة المكتبات، منشورات باريس، 1996.

Fritz Saxl, cité par Salvatore Settis : « Warburg Continuatus. Description d'une bibliothèque », in : Le pouvoir des bibliothèques, Paris, 1996.

ويمكن للقارئ أن يجد كل تاريخ مكتبة داربورغ (بالإنكليزية) مع الصور والمعلومات على الإنترنت الخاص بمركز البحوث اللندنية. http://www.sas.ac.uk/warburg/defautt.htm

250 انظر كتاب الباحث مارك بيرجي: من أجل نزعة إنسانية معاشة أو حقيقية، مثال: أبو حيان التوحيدي، منشورات دمشق، 1979.

Marc Bergé : pour un humanisme vécu. Abu Hayyan al-Tawhidi, Damas, 1979.

251 انظر المرجع التالي للباحث جان مارك ماندوزيو: انهيار المكتبة الوطنية الكبرى لفرنسا. أسبابها، نتائجها وانعكاساتها، باريس، 1999.

Jean-Marc Mandosio : l'effondrement de la très grande bibliothèque nationale de France. Ses causes, ses conséquences. Paris, 1999.

وانظر أيضاً الكتاب التالي للباحث فرانسوا ستاس: القصة الحقيقية للمكتبة الكبرى، باريس، 2002.

François Stasse : la véritable histoire de la grande bibliothèque, Paris, 2002.

252 اقرأ الكتاب التالي للباحث نيكولاس باسبانيس: صبر وجَلَد، منشورات نيويورك، 2001.

Nicholas Basbanes : Patience and fortitude, New York, 2001.

وانظر أيضاً المرجع التالي للباحث نيكولسون بيكر: حظيرة مزدوجة: المكتبات والانقضاض على الورق. منشورات نيويورك، 2001.

Nicholson Baker : Double Fold : Libraries and the assault on Paper, New York, 2001.

253 انظر كتاب الباحث باسبانيس، مصدر مذكور آنفا.

254 انظر المرجع التالي (باللغة الصينية): Shui Xiedule Ba Jin ? Nanfang Ribao, 19 décembre 2002، أي من الذي دنّس مكتبة باجين؟

255 هذا التقرير موجود على الإنترنت:http://www.education.gouv.fr/syst/igb/dochtm/rapport2000.htm.
هذا وقد قدمت لنا السيدة كاترين بويه بكل لطف تفاصيل هذا المبيع في غرونوبل.

256 انظر المرجع التالي للباحث لويس كوزير:"الكتب: ثقافة الطباعة والمتاجرة بها، منشورات نيويورك، 1982.

Lewis Coser et al : books : the culture and commerce of publishing, New York, 1982

257 حوالي الاثنتي عشرة مقالة في جريدة الغارديان البريطانية بين 14 أغسطس 2000 و18 مارس 2003. ويمكن للقارئ أن يستشيرها على الإنترنت.

258 رسالة موقعة من قبل جيسي راندال ومنشورة على لائحة المناقشات في مجلة ايكسليبريس بتاريخ 19 أغسطس 2002.

Jessey Randall : Ex Libris, 19 août 2002.

259 انظر البحث التالي للكاتب دانييل رينولت: "المكتبات الرقمية أو الكمية"، منشور في كتاب الاسكندريات (ج اسكندرية) رقم واحد، من الكتاب إلى النص، منشورات باريس، 2001.

Daniel Renoult : « Les bibliothèques numériques », des alexandries1 du livre au texte, Paris 2001.

260 المقصود هنا الصفحة 12.

261 استشهد بذلك الباحث جينو بلاتي في كتابه: مصادر عن المكتبات الإغريقية الأولى، مرفقة بالبراهين والبينات، منشورات أمستردام، 1968.

Jenö Platty : Sources on the earliest Greek Libraries, with the testimonia, Amsterdam, 1968.

262 انظر المرجع التالي للباحث أوتو باشت: الزخرفة القروسطية (أو الزخرفة في القرون الوسطى)، منشورات باريس، 1997.

Otto Pächt : l'enluminure médiévale, Paris, 1997.

263 كان الكاتب أليكسندر بوسيانتي قد تحدث عن القضية على صفحات جريدة *"لوموند"* الفرنسية بتاريخ 14 يونيو 2002 تحت عنوان: "سياسة وجادلات حول تشييد مبنى ما". ومن المعاصرين للحدث يمكن أن نذكر كارول برجيه التي كتبت كقالة تحت عنوان: "التاريخ القديم تم جرفه بعيدا". مقالة منشورة في جريدة الديلي تلغراف، الاثنين، بتاريخ 14 يونيو 1993. ويمكن أن نذكر أيضاً مقالة سوزانا بومون في مجلة الأهرام الأسبوعي تحت عنوان: "مكتبة الإسكندرية الجديدة تدفن القديمة"، بتاريخ 10-16 يونيو 1993.

Alexandre Buccianti: «Politique et polémiques autour d'une construction», 14 juin 2002.
Caroll Berger:«ancient history is bulldozed away », the daily telegraph, lundi 14 juin 1993
Susanna Beaumont : « new Alexandria library to entomb the ancient ». Al-Ahram weekly, 10-16 juin 1993.

264 الباحث ج. ي. امبيرير قال أثناء مقابلة أجريت معه بأن رسالة الرفض كانت موقعة من قبل الدكتور زهران، ولكن هذا الأخير ينفي ذلك.

265 كتاب جماعي بإشراف مصطفى الأحنف، منشورات مركز بحوث فرنسي مقيم في مصر/العالم العربي. عنوان الكتاب: الرقابة وكيف يمكن أن نتحايل عليها، منشورات بروكسيل، 2001.

Mustapha Al-Ahnaf : la censure ou comment la contourner, Bruxelles, 2001, cedej Egypte/Monde Arabe.

266 هذا ما قاله الدكتور سراج الدين أثناء افتتاحه لمؤتمر عن حرية التعبير عقد في مكتبة الإسكندرية يوم 19 مايو من عام 2003. انظر من جهة أخرى قاعدة المعطيات النرويجية على موقع الإنترنت التالي: **http ://www.beaconforfreedom.org**

267 هي مجلة أخبار الأدب ويصل عدد نسخها إلى عشرين ألف نسخة. وهي صادرة عن أخبار اليوم، المجلة الأسبوعية التابعة للدولة.

268 المدير الحالي لمكتبة جورج بومبيدو في باريس هو السيد جيرالد غرونبيرغ، وهو أول من نظّم المكتبة المصرية. Gérald Grunberg، انظر بهذا الصدد المرجع التالي للباحث فابريس باتو: المكتبة الجديدة للاسكندرية، باريس 2003.

Fabrice Pataut : La nouvelle bibliothèque d'Alexandrie, Paris, 2003.

269 انظر شروحات الباحث برنار ليليو على هامش كتاب فيكتور هيغو: "ثلاثة وتسعون"، منشورات الجيب، باريس، 2001.

Bernard Leuilliot : Quatre-vingt-treize, livre de poche, Paris, 2001.

وانظر أيضاً مقالة الباحث بيير نيسك: "سجن الباستيل والمكتبة أو الزواج المستحيل". منشور على الإنترنت في كتاب جماعي بعنوان: الفرنسي في كل حالاته:

www.ac-montpellier.fr/ressources/frdtse/f044009a.html

270 في عام 1970 فقط كما يوضح الباحث جان بيير بيرنيس في تعليقه على مؤلفات الكاتب الأرجنتيني الشهير بورخيس، الأعمال الكاملة، الجزء الأول، ص 1483، باريس، 1993.

Jean-Pierre Bernès : Borges, œuvres complètes, tome 1, p. 1483, Paris, 1993.

271 انظر المرجع التالي: دراسة للباحث بوسان–لوفيفر، باريس، قسمة رقم 8، فترة 3 ديسمبر 2001.

Etude Beaussant-lefèvre à Paris, lot n°8, vacation du 3 décembre 2001.

272 بل 2017، وقد اتصلت بالمكتبة الوطنية الفرنسية التي ردّت بأنّ حقوق النشر تمتد 70 سنة بعد وفاة المؤلف Monzie, Anatole de (1876-1947). [المُراجع]

273 انظر الشروحات على الأعمال الكاملة لبورخيس، الجزء الثاني، ص 492.

Borges : œuvres complètes, tome II, p. 492.

274 انظر دراسة الباحث ج. و. ورد: "الإسكندرية وميراثها القروسطي: الكتاب، والناسك، والوردة". منشور في كتاب جماعي بعنوان: مكتبة الإسكندرية، منشورات لندن، 2000.

J. O. Ward : « Alexandria an dits medieval legacy : the book, the monk and the rose » in : « the library of Alexandria » Londres, 2000.

275 انظر مقالة الباحث دافيد أرانز: "تعليق على المكتبة الضائعة لموسكو في عهد القياصرة". بحث منشور في "مجلة تاريخ المكتبة"، مجلد رقم 18 جزء رقم 3، ص 304، منشورات أوستين، صيف 1983.

David Arans : « A note on the lost library of the Moscow tsars » in : the journal of library history, vol. 18, n°3, p. 304, Austin, été 1983.



إصدارات قسم الترجمة، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة

	العنوان	المترجم/المراجع	الزوج اللغوي	الطباعة والسنة
1	سمك القرش والنورس البحري دومينيك دو فيلبان	هاشم صالح ومحمد مخلوف مراجعة د. حسام الخطيب	فرنسي – عربي	شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت 2005
2	مسلمو الغرب ومستقبل الإسلام طارق رمضان	د. إبراهيم الشهابي مراجعة د. حسام الخطيب	إنكليزي – عربي	شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت 2005
3	تاريخ اللغات ومستقبلها، عالم بابلي هارالد هارمان	سامي شمعون، مراجعة محمد قرززات	ألماني– عربي	شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت 2006
4	فلسطين في الشعر الإسباني المعاصر محمد الجعدي	محمد الجعدي، مراجعة د. حسام الخطيب	إسباني – عربي	شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت 2006
5	شجرة الغاف مجموعة باحثين، جامعة قطر	مجموعة باحثين، جامعة قطر	عربي	مطابع الدوحة الحديثة، 2007
6	شجرة الغاف مجموعة باحثين، جامعة قطر	مجموعة باحثين، جامعة قطر	إنكليزي	مطابع الدوحة الحديثة، 2007
7	هل كنّا مثل أيّ عاشقين؟ نفتاج سارنا	د. منذر محمد	إنكليزي – عربي	شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت 2006
8	القضية المشتركة فيليب آغران	عبدالودود العمراني مراجعة د. حسام الخطيب	فرنسي – عربي	دار المدى للنشر والتوزيع، دمشق، 2007
9	عصر النفط ليوناردو ماوجري	د. إبراهيم الشهابي	إنكليزي – عربي	مطابع الدوحة الحديثة، 2008
10	حكايات من الأدب الشعبي الفارسي مقتطفات من شهنامه الفردوسي	د. مصطفى باكور	فارسي – عربي	دار المدى للنشر والتوزيع، دمشق، 2008
11	بنت عرب إفلين شاكر	أمل منصور، مراجعة د. فائقة صديقي	إنكليزي – عربي	دار المدى للنشر والتوزيع، دمشق، 2008
12	عناق الأسرة نوبو كوجيما	د. منذر محمد	إنكليزي – عربي	دار المدى للنشر والتوزيع، دمشق، 2009
13	عروق القدس النازفة مجموعة باحثين	د. منير العكش	إنكليزي – عربي	الشركة الحديثة للطباعة، الدوحة، 2010
14	اللغة والثقافة كلير كرامش	د. أحمد الشيمي مراجعة عبدالودود العمراني	إنكليزي – عربي	الدوحة، 2010
15	مستقبل الدراسات الأدبية هـانس غومبرخت، والتر موزر	د. ربى محمود ود. منذر محمد	فرنسي – إنكليزي– عربي	الدوحة، 2010
16	الترجمة والعولمة مايكل كرونين	محمود الهاشمي وعبدالودود العمراني مراجعة د. حسام الخطيب	إنكليزي – عربي	بيروت، 2010

كُتُب تحتَرق

تاريخ تدمير المكتبات

إنّ هدمَ المكتبة فعلٌ يعود إلى أقدم العصور. ظهر مدمّرو المكتبات بالتزامن مع ظهور الكتب نفسها، وظلّوا يتوالدون مع تكاثر الكتب: بقدر ما تزداد كميتها، يزداد السعي إلى تدميرها. وسواء اعتُبرت المكتبة مخلّة بالنظام أو على العكس: رمز النظام، فهي دائمًا تتوسّط الأزمات والمواجهات؛ لكنها في غالب الأحيان، لا تعيش بعدها.

يسطّر هذا الكتاب تاريخ العمليات الكبرى لتدمير المكتبات منذ الصين في عهد سلالة كينغ وصولاً إلى الكوارث المعاصرة. من حريق الإسكندرية إلى التهاب سراييفو سنة 1992، مرورًا بروما، وكتيزيفون، وبغداد (جنكيز خان)، ثمّ شرور محاكم التفتيش، ثم الثورة الفرنسية أو الكومون.

يُظهر المؤلّف إلمامًا معرفيًّا متميزًا بهذا المجال الذي لم يُدرس حتى الساعة بما فيه الكفاية. ويتابع التحريات المتعلقة بأسباب الكارثة بحيث يعيد تركيب الكنوز المفقودة، ويقتفي أثر المؤلفات الناجية.

وسوف يجد القارئ الكريم إضافة مهمة للترجمة العربية لهذا المؤلّف المرجعي، وردت على شكل ردّ علمي موثّق أتحفنا به العلاّمة التونسي د. حمادي بن جاء بالله، يدحض فيها نهائيًّا «الخرافة» المتداولة القائلة بتدمير مكتبة الإسكندرية على يدي [illegible] بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطّ[illegible]



لوسيان بولاسترون / [illegible] Polastron

كاتب فرنسي من مواليد 1944. م[illegible]: «الورق» (تاريخ ألفين سنة...) و[illegible] حول «الحروفية» وفنّ الخطّ.



إدارة البحوث والدراسات الثقافية

17



